عبد الرزاق بن عمر

المثلث الأحمر

رواية مبنيّة على أحداث واقعيّة

أكتوبر ٢٠٢٥

- عنوان الرّواية؛ المثلّث الأحمر، مبنيّة على أحداث واقعيّة **(النّسخة الرّقميّة الحقيقيّة True PDF)**
- تأليف؛ عبد الرزاق بن عمر (عبد الرزاق أنفو)
- الإصدار الأوّل؛ 7 أكتوبر 2025
- ردمك : 9798232356071 ■
- الكتلة الإفتراضيّة الحقيقيّة؛ 51 ميغا | عدد الصّفحات؛ 260 | عدد الكلمات؛ 72055
- نسبة الخطأ في التّحويل الآلي للخطوط الأساسيّة، (Traditional Arabic)؛ لا تتجاوز 03 %
  (Calibri)؛ 00 %
  (Times New Roman)؛ 00 %
- تصميم الغلاف والضّبط الفيزيولوجيّ للمستند؛ عبد الرزاق بن عمر (عبد الرزاق أنفو)

16 +

هذه النّسخة مهيّأة للطّباعة المكتبيّة، ويُستحسن استخدام آلة تجليد حراري للحصول على أفضل نتيجة

© 2025 عبد الرزاق بن عمر | جميع الحقوق محفوظة

ISBN : 979-8-2323-5607-1

نسخة رقميّة أصليّة التّحويل وعالية الجودة، موجّهة للإستغلال الشّخصيّ والتّعليميّ، وصالحة للطّباعة المكتبيّة.
يمنع إعادة الإنتاج التّجاريّ لأيّ جزء من هذه الرّواية، أو ترجمتها، أو توزيعها، دون إذن خطّي من المؤلف.

© 2025 Abderezak BENAMAR | All rights reserved

This is an original high-quality digital edition, intended solely for personal use and permitted for desktop printing.

No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording, or otherwise, without the prior written permission of the author.

9 798232 356071

الجزائر في : ____ | ____ | ____

مساحة خاصّة للتّوقيع أو الإهداء

الرّواية التي رفضتها ....38.... دار نشر

المثلّث الأحمر

عبد الرزاق بن عمر

رواية مبنية على أحداث واقعيّة

بسم الله الرحمن الرحيم

لقد أخجلنا أصحاب المثلّث الأحمر،
فصرنا لا نعرف، هل ندعو لهم بالعافية والسّلامة، أم نسأل الله لهم الشّهادة والفردوس؟

هذه الرّواية مبنيّة على أحداث واقعيّة
تمّ إنشاء بعض الشّخصيّات والتّصرّف فيها بما تقتضيه الحبكة العامّة للقصّة

ستشكّل لك هذه الرّواية الجريئة استثناء من نوع خاصّ، لأنّها ليست ككلّ الأعمال الأدبيّة المطروحة في السّاحة الثّقافيّة، المتحدّثة عن معاناة الشّعب الفلسطينيّ.

لنصارح بعضنا بعضا من البداية، لأنّه يجب أن أوضّح لك موقفي، فتفهّم.

ما عهدته يا سيّدي هو حديث الضّحيّة عن ألمها، عن عذابها، عن الجحيم الذي تعيشه باستمرار، ما ألفته هو أنين المستضعفين، لكن أن يتحدّث الجلاّد عن ألمه ثمّ ألم ضحيّته، ثمّ يتساءل بدوره عن سبب معاناته؛ فذلك شيء لم تنتظره من قبل، وربما لم تفكّر فيه إطلاقا، بل ربما لن تتماهى مع سرد صاحبه.

تذكّر؛ لا أطلب منك أن تتعاطف مع الجلاّد الغاصب، فأنا ضدّ التّطبيع، ويجب أن تكون مثلي ضدّ التّطبيع، فأرض «فلسطين» خطّ أحمر، لكنّي أحببت لك أن ترى بشكل مغاير، بمنظار المعسكر الآخر، بنظرة العدوّ، أو بالأحرى من أراد أن يكون عدوّا، لا لشيء سوى لتدرك أنّ هناك فرقا شاسعا بين الدّين والنزعة، بين الأصل والبدعة، فتلطّف.

ألا يجب أن تؤمن بنور الشّمس المنتشر على وجهك بدفئه الظّاهر؟، إنّه الواقع والحقيقة، أو بالأحرى جزء من الحقيقة، التي يريد الجلاّد كتمانها وإخفائها عن العالم، ثمّ لعب دور الوليّ الصّالح أو القدّيس، مع إلصاق التّهمة بالطّرف الآخر لصقاً أشبه ما يكون بغسيل دماغ، كي نتقبّل ما يفعله هذا الجلاّد ونرضى به كلّ الرّضى.

أسألك شيئا فهلاّ تكرّمت؟.

منذ متى كان ذنب صاحب الأرض هو كونه صاحب الأرض؟!.

وإذا كان الغاصب يصمّ أذنيه عن سماع صوت الحقّ، فهل نلوم صاحب الأرض على ردّ فعله؟.

من الضّروريّ هنا أن أشرح بعض الأشياء.

بدأت إرهاصات هذه الرّواية تراودني بعد شهر على أحداث «طوفان الأقصى»، التي باغتت العالم فجر السّابع من أكتوبر من سنة 2023، أكبر ردّ فعل مسجّل، قرّرت حينها أن أفعل شيئا كما فعل الذين تحرّكوا فجأة في ذلك اليوم، كان عليّ أن أشارك في هذا الذي أضحى في ساعات هو الفعل، بشكل مختلف عمّا قام به هؤلاء الأبطال.

لقد كانوا يوثّقون وكنت أوثّق على طريقتي، مستندا على مادّة إعلاميّة خصبة، ببيانات صحيحة مأخوذة من عدّة مصادر، من أبرزها قناتي «الجزيرة» و«العربي» القطريّتين، وقناة «الميادين» اللّبنانيّة، إضافة إلى التّحليلات العسكريّة للّواء «فايز الدّويري»، والعميد «إلياس حنّا»، والعقيد الرّكن «حاتم كريم الفلاحي»، ومع المحاولة الحثيثة لبناء شيء له من التّماسك والمصداقيّة، ما يمكن أن يُروى للأجيال القادمة برأس شامخ، بآيات الفخر، دون إهمال ما يدور في أهمّ قنوات الطّرف الآخر، ومواقعه الإلكترونيّة المختلفة، الرّسميّة وشبه الرّسميّة.

غير أنّ ما يُروى في الرّواية يجب أن يكون نسيجاً متكاملاً من الأحداث المنطقيّة، فكانت عمليّة إيجاد حبكة دراميّة مبنيّة على الأحداث الواقعيّة؛ شيئا صعباً يتطلّب بحثا، وصبراً أخذ منّي ما قارب السّنة، بما في ذلك الخطّ الرّئيس للرّواية، والخطوط الفرعيّة المساعدة، وتعزيز الشّخصيّات في أبعادها السّلوكيّة والنّفسيّة والإجتماعيّة، سواء الحقيقيّة أم نصف الحقيقيّة، واتخاذ حيّز مكانيّ ملائم تماما لكلّ ما سبق، مع الحرص على معالجة البيانات الجديدة المتسارعة بانتظام، دون المساس بعبارة «المثلّث الأحمر»، اللّغز، والمفتاح، والجوهر.

مثلّث ميّز كلّ فيديوهات المقاومة التي أحسنت توثيق عمليّاتها العسكريّة، فكان إشارة واضحة جليّة لا ينبغي التّغاضي عنها ولا يجدر، وعليه فقد اخترته عنواناً لهذا السّرد، ثمّ ليأخذ بعداً آخر في نهايتها، كرمز للقضاء على كلّ شيء فاسد، لا يجب أن يعيش مطلقا، وبأيّ حال من الأحوال.

ما بين لديك، رواية بيانيّة بالدّرجة الأولى، واقعيّة، نفسيّة، إجتماعيّة، رومنسيّة، حربيّة، تقوم على مبدأ تغذية الفضول، سعيت بكلّ جهدي أن تكون أيقونة من أدب المقاومة، عسى أن يزيل الله بها إثم الخذلان.

أمّا عن الدّور التي رفضت نشر هذا العمل، فلكلّ واحدة أسبابها الخاصّة، ولي كلّ الحقّ في التّحفّظ عليها تكرّما وتستّرا، لكن يجدر بي ويليق في النّهاية؛ أن أحيّي كلّ مخلص ومخلصة للقضيّة الجوهريّة، رغم كافّة الإغراءات، والمضايقات والضّغوط.

عبد الرزاق بن عمر ▼ الجزائر في 06 / 12 / 2024

لقد كانوا يوثّقون، وكنت أوثّق على طريقتي

الباب الأوّل

(1)

«شيزافون»، مدرسة تدريب سلاح المدرّعات؛ صحراء «النّقب»؛ سبعون كيلومترا شمال «إيلات».

حدث كلّ شيء ببطء، وبسرعة في آن واحد؛ أمسية السّبت الثّلاثين من ديسمبر، أي بعد شهرين فقط من هجوم السّابع من أكتوبر، وفي أقلّ من ساعتين، إبتداء من الحادية عشرة ليلا.

كنّا نائمين استعداداً لتدريبات يوم الغد الشّاقّة، حين دخل فجأة ضابط لغرفتنا يطلبني فوراً لمركز القيادة؛ بدا الأمر مريبا لي بعض الشّيء؛ لكن ما عرفته فيما بعد؛ لا يمثّل سوى النّزر اليسير واليسير جدّا أمام هذه الرّيبة؛ وأنا الذي ما زلت طالباً في سلاح المدرّعات، لم أكمل دوراتي التّدريبيّة بعد، هنا في قاعدة «شيزافون»، يرتفع سقف توقّعاتي عاليا باستمرار، كلّما تخيّلت القبّعة السّوداء على رأسي، وراودني حلمي الوحيد الذي عشت وجئت من أجله، فأبتهج غاية الابتهاج، إنّه عنفوان الشّباب الذي يدفعني دفعاً حثيثاً لأرفع رأسي شامخاً بهذه القبّعة، وبعزّة جبل «صهيون».

نعم سأكون ضابطاً مسؤولاً، ذو شأنٍ رفيعٍ يفتخر به أبي، أينما ذهب، سأكون قائد دبّابة «ميركافا 5»؛ آخر إنتاجاتنا العسكريّة، وفخر دولة إسرائيل.

– تحرّك بسرعة.

قالها لي بنبرة آمرة غليظة، وبصوت مكتوم في آنٍ واحد، ناظراً بحنق تجاه صديقي «عزرا غولدشتاين»، الذي أدّى له التّحيّة العسكريّة بنشاط، بعدما أخفى هاتفه النّقال تحت الوسادة، في حركة سريعة، كثيراً ما تدرّب عليها كي يتقنها لمثل هذه المواقف، وأظنّ أنّه انزعج حين وجده مستيقظا في هذه السّاعة المتأخرة من اللّيل.

طار النّعاس من عينيّ وحقّ له أن يطير، بمجرّد هذا الدّخول الفضّ.

إنّها المرّة الثّانية التي أواجه فيها عجرفة أحد الضّبّاط، منذ التحاقي بهذه القاعدة العسكريّة، بعد الشّيطانة التي خرجت للتوّ من الجحيم، الشّيطانة التي استقبلتني أوّل ما وطئت قدماي هذا المكان.

أنا الآن شبيه آلة، أنفّذ حرفيًا ما يأمرني به دون تردّد، كلمة منه؛ معناها زرّ ضُغط عليه، كلمة منه أو حتّى إشارة؛ معناها فعل سيحدث.

كلّ شيء الآن متوقّف على أفعال هذا الضّابط الذي سقط علينا من السّماء.

غريبة هي الحياة العسكريّة، تعلّمك الإنضباط الذي لا تتخيّله مطلقا حين تكون في مترل والديك، كما تلقّنك استشعار الأخطاء التي تتوقّع انكشافها أمام رؤسائك.

تبعته صامتا وأنا أنظّف عدستي نظّارتي الطّبيّة، بينما تركت صديقاي يغطّان في نوم عميق، تمنّيت لو استيقظا، أو على الأقلّ لو فتحا أعينهما فقط، ليريا وجه الضّابط الذي لم أرتح لسحنته حين رأيته للوهلة الأولى، كما أخافتني نظراته الخفيّة المريبة لي في الطّريق، فراحت الوساوس والشكّوك تتلاعب بي تلاعب أمواج المحيط بزورق صيد صغير.

كيف عرفوا أنّي غادرت القاعدة رغم أنّي أخذت كافّة احتياطاتي؟.

هل من المعقول أن يكون أحدهم قد رآني فوشى بي؟.

لقد احترست، فرتّبت كلّ شيء لأمنع وقوع أيّ صنف من الأخطاء، وأيّ نوع من المفاجآت.

فجأة قطع الضّابط حبل أفكاري، لمّا شدّني بقوّة من ذراعي منحرفاً إلى أحد المكاتب، كان هناك رائد مع ضابط آخر لم أتبيّن رتبته، رفقة طبيب سرعان ما تذكّرته، نعم إنّه هو الطّبيب الذي التقيته في مكتب التّجنيد والفرز في «بير شيفا»، وسأل عن حالة أبي الصّحيّة.

أدّينا التّحيّة العسكريّة وقلت بصوت جهوريّ:

– الطّالب «دافيد عوفر»؛ اللّواء المدرّع 460 تدريب إلى اللّواء القتالي 401، تحت أمرك سيّدي.

– ستذهب إلى «غزّة»؛ نحن في حاجة لمقاتلين أشدّاء من نوعيّتك؛ جنود أقوياء أوفياء لدولة إسرائيل، يتّسمون بالشّجاعة والصّرامة والإنضباط.

هكذا ببساطة شديدة، دون مقدّمات كالتي اعتدنا عليها حين نقف أمام الضّبّاط، ولهول المفاجأة لم أعرف حتّى هذه اللّحظة من قالها، هل هو الرّائد أم الضّابط الآخر الذي لم أتبيّن رتبته؟، أم الطّبيب؟، أم الضّابط الذي أحضرني إليهم وبقي واقفا بجانبي؟.

تشويش تامّ أصاب دماغي قضى على تركيزي للحظات، فتركني أقف مشدوها، لا أملك سوى أن أنظر وأنظر، كلّما نظرت ازداد توهاني بين هؤلاء، واشتدّ معه خفقان قلبي.

ثمّ أردف بصوت أعلى من السّابق متعمّدا إيقاظي من شرودي:

– غدا على السّاعة السّادسة صباحا ستجد شاحنة متّجهة إلى «سديروت»، ستأخذك معها.

ودفع بورقة على الطّاولة، كأنّه يدفعني إلى قدري الذي ينتظرني هناك:

- إنصراف.

أدّيت التّحيّة العسكريّة وخرجت، ودقّات قلبي المتسارعة أصوات متتالية تأبى الإنخفاض.

لماذا أنا بالذّات دون سواي؟!، «غزّة»؟... سأذهب إلى «غزّة»؟!، للحرب؟!، كيف؟!، هل سأكون قائدا لإحدى الدّبّابات؟، ثمّ هل أنا جاهز للقتال؟.

عشرات الأسئلة بدأت تتهاطل على رأسي دون أن أجد لها إجابات واضحة، ولو بصفة مؤقّتة تطمئنني، بدل هذا الرّعب الذي أعيشه الآن.

(2)

رجعت للغرفة، فوجدت الجميع مستيقظين، بعدما تركت «عزرا» وحده مستيقظا يتحدّث مع خطيبته بهاتف مهرّب، كانت مآقيهم تسألني دون كلمات، نظرت في عيون كلّ واحد منهم، نظرت في عيون أصدقائي؛ الواحد تلو الآخر، هؤلاء الذين ما عرفت سواهم هنا، وأنا الغريب البعيد عن «أوفاكيم» مسقط رأسي، وعن أمّي التي أردت الإتّصال بها لأخبرها، لكنّي خشيت أن أزيد من قلقها، وربما ارتفع ضغطها هذه اللّيلة، فتزداد حالتها سوءا باتّصالي الأحمق، وهي التي ظلّت تعاني مع أبي، الذي لا زال يرقد لغاية اللّحظة في مستشفى «سوروكا»، في «بير شيفا»، متأثرا بإصابته البليغة في العمود الفقري، بعد هجوم صباح السّبت السّابع من أكتوبر، ولم يفعلوا له شيئا حتّى السّاعة.

– ما الذي حدث؟، ماذا كانوا يريدون منك في القيادة؟.

قالها «شلومو زوسمان»، الرّسّام النّمساويّ وهو يحاول بحرص شديد استشعار مشاعري، ثمّ أردف «رفائيل»:

– نعم نحن نسمع.

وحرّك «عزرا» رأسه صعودا وهبوطا في تذبذب سريع تشجيعاً لي على الكلام.

نظرت إليه قائلا في بطء مشدّدا على الأحرف:

– سأذهب للحرب في «غزّة»؛ يجب أن أكون هناك، في «سديروت» غدا صباحا، قبل السّاعة العاشرة حسبما كُتب في الأمر.

وأريته الورقة، فخطفها «رفائيل» في حركة سريعة من حركاته القتاليّة.

وجم الجميع ومرّت دقائق دون أن ينطق أحد، أخرس هول المفاجأة ألسنتنا، فاكتفينا بما تقوله العيون.

بعد دقائق قال «عزرا» وهو يسترق النّظر للورقة التي خطفها منّي «رفائيل»:

– أنت؟... أنت لم تكمل تدريبك بعد، هناك خطأ بالتّأكيد، من يقول ذلك؟، قل كلاما آخر «دافيد» ونحن سنصدّقك، ثمّ... هل تحاول إقناعي أنّ هذا الوغد أيقظنا قرب منتصف اللّيل ليخبرك أنّك ستذهب

للحرب في «غزّة»؟، لماذا يخبرك الآن تحديدا؟، لماذا لا ينتظر للصّباح؟، «غزّة» بعيدة، إنّها... إنّها على بعد مائتي كيلومتر من هنا؟.

وسرعان ما سانده الكلّ في موقفه.

لم نستطع جميعا إيجاد تفسير مناسب رغم كلّ ما تناولناه من تحاليل وقراءات، أمامنا معادلة رياضيّة لا تحلّ، ثمّ اقترح «شلومو» في النّهاية أن نخلد للنّوم، كي ينهضوا باكرا دون إرهاق، لمواصلة التّدريبات.

بدأ الزّمن يمرّ عليّ وأنا في سريري في سرعة السّلحفاة، نظرت إلى «عزرا» فوجدته ما زال يتكلّم مع خطيبته، كعادته دائما كلّ ليلة، كأنّه ما زال مدنيّا يسهر للصّباح كيفما شاء، في حين أراه يتثائب في كلّ ساعات النّهار تقريبا، وأحيانا يغفو بعد وجبة الغداء حين يغلبه النّعاس، إذ كثيرا ما عاقبه الضّابط المدرّب «ديميتري» الذي فكّرت أن أطلب تدخّله؛ لأنّي أثق فيه وفي خبرته، وأرتاح لنصائحه رغم قسوته، ثمّ قلت في نفسي:

– ما عساه يفعل لي؟، هذا أمر من القيادة العليا، يا لي من غبيّ!.

ثمّ تذكّرت أنّ الضابط الذي أتى ليطلبني قال إنّ القيادة تريدك، لكنّه انحرف في الطّريق إلى أحد المكاتب، ومقرّ القيادة العليا معروف لكلّ عسكريّ في القاعدة.

ماذا يحدث هنا بالضّبط؟.

بدأت أقلق، فأشرت إلى «عزرا» في الظّلام الخفيف، ففهم أنّي أطلب الهاتف، ولا يمكن أن يفهم غير ذلك، فالوضع مربك للجميع، تحت وطأة الحرب يمكن أن يأخذوا أيّ واحد للقتال، ولو رفض لأحالوه على المحكمة العسكريّة، ولأدخلوه السّجن بسهولة تامّة ودون أيّة شائبة.

هل نعاني من نقص في الجنود لهذه الدّرجة؟.

راودتني فكرة الإتّصال بأمّي للمرّة الثّانية، أدخلت رقم هاتفها الخلويّ ثمّ عدلت عن الفكرة في اللّحظة الأخيرة.

قلت في نفسي:

– سأتّصل بأختي «ياعيل»، أفضل، لأنّه يجب في النّهاية أن أتّصل بإحداهنّ.

غير أنّي تذكّرت أنّها لا تعرف إخفاء أيّ شيء عن أمّي، بعد ثلاث ثوانٍ بالضّبط من النّظر المباشر في عينيها، لذلك قرّرت الإتّصال بخطيبتي «أتارا».

كانت السّاعة تقترب حثيثا من منتصف اللّيل، رنّ الهاتف مرّتين، ثمّ سمعت الذي كنت له متعطّشا.

– نعم من المتّصل؟.

قالتها بعياء وفتور.

– أنا «دافيد».

كأنّ صاعقة أصابتها:

– «دافيد»؟، لم أنتظر أن تكلّمني من القاعدة، هل سمحوا لكم باستخدام الهواتف؟!.

– آسف «أتارا» لأنّي أتّصل بك في وقت متأخّر، لكن يجب أن أقول شيئا، إسمعيني أرجوك، دون مقاطعة... أرجوك.

سادت فترة من الصّمت قبل أن أنطق بدموع تخنقني وتخنق صوتي معها:

– أحبّك «أتارا»، تذكّري دائما أنّي أحبّك.

أوّل مرّة أصارحها بمشاعري المكتظّة منذ أشهر، حبيبتي السّمراء ذات السّتة عشر ربيعا، أوّل مرّة أمتلك شجاعة الكلام الذي كثيرا ما لامني صديقي «غابي» على افتقادي لها، منذ أن عرفتها في الثّانويّة؛ بعينيها اللّوزيّتين، منذ أن تحدّثت أمّي مع أمّها واتّفقنا جميعا، مبدئيّا على الخطوبة، سمعت بكائها، وأنا الذي أحاول جاهدا، وبكلّ ما استطعت من قوّة، ألاّ أجعلها تبكي، منذ حادثة شجارها مع «بلانكا مالكامو»، هذا الملاك لم يُخلق ليبكي، هذا الملاك خلقه الرّبّ «أدوناي» ليعيش سعيدا، فلا يجب مطلقاً أن تفارق البسمة شفتيها.

أغلقت الخطّ راميا الهاتف لصديقي على فراشه، هنا بدأت الدّموع تخنقني أكثر، كلّما قاومتها، زادت هي من خنقي، تمنّيت أنّي لو لم أتّصل بها، ما جدوى ما قمت به الآن؟، لا شيء، ربما ضاعفت قلقها، ربما طردت النّوم من جفونها بعباراتي الغبيّة الحمقاء، آهٍ لو طلبت رأي «عزرا»، ربما كان الوضع أحسن بكثير، فهو خبير في هكذا أشياء، حتّى أنّ الجميع هنا يسمّيه «المستشار».

أمّا هو، فالتقط الهاتف وأكمل حديثه بشكل عادي تماما، كأنّي غير موجود، فحين يتحدّث مع خطيبته يلغي من عقله كلّ الأشياء التي تشوّش عليه، حتّى أنّي طلبت منه دواء منوّما، بصعوبة وسط دهشته، كوني أطلب ذلك منه للمرّة الأولى، كانت السّاعة تقترب من الواحدة وأنا في كامل وعيي، ويجب أن أنام لأستيقظ صباحا، فقدّم لي نصف قرص من دواء «كلونوبين»، من أجل مفعول مناسب للفترة التي ما زالت من اللّيل.

«عزرا» هذا؟، غريب وبارع في هذه المسائل، فهو يحسب بدقّة متناهية الوقت الذي يجب أن يستغرقه للنّوم، بعد أن كان يستعمل الدّواء عشوائيّا، ممّا تسبّب له في بقائه نائما حتّى في ساعات النّهار، وحين يصحو يقول لمن يجده أمامه إنّ هناك مطرقة ضخمة في رأسه، تشرع في العمل، بمجرّد أن يفتح عينيه.

(3)

هنا في إسرائيل، كلّ شيء مختلف عن باقي دول العالم، نحن شعب ولسنا كأيّ شعب، نحن مجتمع عسكريّ بالدّرجة الأولى، نعم نحن كذلك، هكذا يلقّنوننا في المدارس إنطلاقاً من الإبتدائيّة، بل حتّى في الرّوضة التي كانت فيها أختي «ياعيل»، يحاولون غرس هذه الفكرة بعمق، شعب وحيد مضطهد في كلّ أنحاء المعمورة، جئنا من الشّتات من كلّ أصقاع العالم، لنستقرّ في أرض اللّبن والعسل، أرض الأجداد، شعب يواجه تحدّيات كبيرة وصعبة من دول الطّوق كما تسمّى، أي من جيراننا العرب، لذلك تعتمد الدّولة على الأمن والإستخبارات، أكثر من اعتمادها على أيّ شيء آخر، ويتمّ إنفاق حوالي خمسة بالمائة من النّاتج المحلّي على الشّؤون الدّفاعيّة.

من أجل حماية هذه الدّولة من كافة التّهديدات، لدينا ثلاثة أنواع من الخدمة العسكريّة؛ الإلزاميّة والتّعاقديّة والإحتياطيّة، إضافة إلى بعض البرامج الأخرى لمزدوجي الجنسيّة، والمرتزقة الباحثين عن المجد، أو الذين اضطرّهم الظّروف المزرية لبيع خدماتهم القتاليّة لمن يدفع أكثر، مثل برنامج «الجنديّ الوحيد».

أوّلا، الإلزاميّة التي تؤرّقنا جميعا، بحيث تتلقّى استدعاء آليّا من وزارة الدّفاع ابتداء من السّنة الحادية عشرة من الدّراسة، أي في سنّ السّابعة عشرة أو الثّامنة عشرة عموما، ذكرا كنت أم أنثى، طبقا لقانون خدمة الأمن، لتتوجّه إلى أحد مراكز التّجنيد والفرز القريبة من مقرّ سكنك، وتسجّل وفق بروتوكول واضح شامل، يحدّد بدقّة قدراتك الجسميّة والنّفسيّة والعقليّة، ثمّ تلتحق بوحدتك المناسبة التي حدّدوها لك، بناء على مؤهّلاتك في سنّ الثّامنة عشرة، وتقضي مدّة اثنين وثلاثين شهرا في الجيش إذا كنت ذكرا، أو أربع وعشرين شهرا إذا كنت أنثى، لكن نتخوّف نحن الشّباب من أيّ تمديد، من أيّ نوع، وتحت أيّ ظرف.

ثانيا التّعاقديّة؛ فهي الخدمة النّظاميّة في جيش الدّفاع، إذ تلتحق به بموجب عقد بينك وبينه، فينتقل المواطن الإسرائيليّ من صفته المدنيّة إلى صفة عسكريّة نظاميّة احترافيّة لا وظيفة له ولا عمل سوى الجيش، وما يتلقاه منه من راتب، تماما مثل أبي.

ثالثا الإحتياطيّة؛ وفيها يُستدعى كلّ من أتمّ فترته التّدريبيّة الإلزاميّة في الجيش، لفترة تدريبيّة أخرى، مدّتها شهر فقط في السّنة، تكون بمثابة إعادة رسكلة، ثمّ يعود لحياته المدنيّة، وعمله بشكل آليّ.

ويشمل جيش الدّفاع الإسرائيليّ القوّات البريّة والجويّة والبحريّة، في تعقيدات متشعّبة جدّا، قليل من يفهمها، لكن نعتمد كثيرا على القوّات البريّة على اختلاف ألويتها، وسلاح الإستخبارات الدّاخلي «أمان»، وهو الإستخبارات العسكريّة، وجهاز الأمن العامّ «الشّاباك»، والإستخبارات الخارجيّة المعروفة باسم «الموساد».

في مدينتي «أوفاكيم» التي تبعد عشرين كيلومترا إلى الغرب من مدينة «بير شيفا»؛ لم يستفق الجميع من هول الصّدمة، هجوم هو الأوّل من نوعه على إسرائيل، أدّى لمقتل ألف ومائتي شخص، وأسر أكثر من مئتين آخرين، في تسونامي مباغت للجميع، ومفاجئ حتّى للأجهزة الإستخباراتيّة، حيث انطلق زهاء خمسة آلاف صاروخ دفعة واحدة من قطاع «غزّة»، نحو مدننا الكبيرة، «تل أبيب» و«لود» و«أشدود» و«أشكلون» و«أورشليم»، ثمّ اكتسح ألفان وخمسمائة مخرّب من «حماس»، وباقي الفصائل الفلسطينيّة الأخرى، عبر البرّ والبحر والجوّ؛ خمسون موقعاً لنا من كيبوتسات ومدن إسرائيليّة، مثل «سديروت» و«كيسوفيم» و«منيفوت» و«نحال عوز»، وغيرها من المناطق المتاخمة لقطاع «غزّة»، وحتّى قواعد عسكريّة، كنّا نراها رموزاً لدولة إسرائيل، محصّنة لا يمكن اختراقها مطلقاً، مثل «رعيم»، مقرّ قيادة «فرقة غزّة»، والقاعدة الإستخباراتيّة «يركون 8200»، في نطاق يمتدّ خمس وستّين كيلومترا من السّياج الفاصل، أو الذي اعتقدنا أنّه يفصلنا عن هؤلاء الإرهابيّين.

زخم من الأفعال العنيفة حوّل كلّ شيء إلى منطقة أشباح مرعبة، آثار الرّصاص واضحة على السّيّارات والمنازل، لا أحد الآن يجرؤ على الخروج من منزله، مخافة أن يصادف مخرّباً يرديه قتيلاً، هو ومن معه.

هنا في «أوفاكيم»، مشهد سينمائيّ هوليووديّ، أو لنقل -دون مبالغات- أنّه مشهد من مشاهد يوم القيامة.

فقدت المدينة الهادئة ثمانٍ وأربعين مواطناً من أبنائها الأوفياء، في بضع ساعات، مثل «تاتيانا شنايتمان» و«آفي بوزاغلو» و«فلادمير بوبوف»، وغيرهم الكثير، أصاب أحد المخرّبين «فيكتور راشميلوف» إصابة مؤلمة في الفخذ، وعقيلته «ناتالي» الآن في صدمة كبيرة، لا أعتقد أنّها ستزول عنها، وذلك لمّا إلتقى به صباحاً حين كان مارّا بالسيّارة، فأطلق عليه النّار دون رحمة، واختطفوا «ماتان تسينجوكر»، من أقارب صديقي «غابي»، كما اختطفوا «إيليا توليدانو»، من الحفل الموسيقيّ الذي أقيم قرب كيبوتس «رعيم»، وقتلوا أربعة من الأصدقاء والصّديقات هناك بدم بارد، الحفل الذي كنت أنوي دعوة «أتارا» إليه، لولا اعتراض أمّها، بحجّة أنّها ما زالت صغيرة السّنّ، وقد تُمنع من الدّخول.

لقد أنقذنا جارنا الطيّب، السيّد «ريكاردو مزراحي» من المصير المظلم الذي كان ينتظرنا، بأعجوبة أكاد لا أصدّقها حتّى الآن، شعرة رفيعة كانت الفيصل بيننا وبين الموت، إذ من عادته أن ينهض باكراً لممارسة رياضة الرّكض في الهواء الطلق، فسمع صفارات إنذار بعيدة ثمّ صوت إطلاق النّار؛ بعدها وبينما كان يحاول معرفة مصدرها، أطلّت أمّي من الباب، لتتحقّق هي بدورها ممّا يحدث، فأشار إليها أن أخرجوا بسرعة جميعاً من المنزل نحو الملجأ، فدخلت أمّي لتوقظنا، بينما كان أبي غائبا في عمله في حراسة إحدى المستوطنات.

(4)

كنّا نحن الثّلاثة بملابس النّوم، أمّي وأنا، وأختي «ياعيل»، تبكي المسكينة في شجن، حين ركبنا مع السّيّد «ريكاردو» الذي كان يشهر سلاحه استعداداً لأيّ طارئ، حيث انطلقت صفّارات الإنذار من جديد لتوقظ في السّكّان هذه المرّة جدّيّة الأمر، وانطلق هو مسرعاً بسيّارته، لكنّه انتبه إلى أنّ الوضع أكثر خطورة ممّا كان يعتقد، وأنّ المهاجمين ليسوا مسلّحاً واحداً أو اثنين، بل يمكن أن يكونوا بالعشرات، أو بالمئات، لأنّ أصوات الرّصاص متشابكة، وصرنا لا نعرف في ظلّ هذه الفوضى من هو الذي يطلق النار، هل هي شرطتنا، أم المخرّبون الذين قدموا من وراء السّياج.

وعليه، فقد كان أخذ الطّريق إلى الملجأ فكرة غير جيّدة، لذلك اضطررنا للإختباء في إحدى الزّوايا المموّهة بالشّجيرات الصّغيرة، بعد أن ترك معي سلاحه، رشّاش من نوع «كاراباين M 4»، وخمسة مخازن من الذّخيرة، وذهب بشجاعة لإحضار أسرته، يحمل مسدّسه الرّشّاش «عوزي» فقط، مخاطرة كبيرة وجدنا أنفسنا أمامها، ثمّ فضّلت أمّي أن نعود للمنزل، لأنّه آمن أكثر من الخارج، وحين فتحنا باب منزلنا بحذر، نادانا السّيّد «ريكاردو» من نافذته، يعلمنا أنّ الصّواريخ التي كنا نخشاها كانت موجّهة لمدن بعيدة.

دخلت «كتائب القسّام» الجناح العسكريّ لحركة «حماس» الحاكمة في «غزّة» حي «ميشور هاغفن»، أوّلا مسلّحين بالكلاشنكوف وقذائف RPG، وهم على متن سيّارات رباعيّة الدّفع، متسبّبين في خسائر فادحة في الأرواح والممتلكات، كنت قلقا جدّا على «أتارا»؛ لأنّهنّ لا يملكن أيّ سلاح، إتّصلت بها محذّرا، فقالت أنّهنّ أحكمن غلق كلّ شيء، واختبأن في القبو المصفّح، الذي هو في الأصل مجهّز للحماية من القصف.

ثمّ توغّلوا في شوارع أخرى، وهم يطلقون النّار على كلّ ما يرونه يتحرّك.

عائلة «غابي» مثلا، كانوا نياما فانتبهوا مفزوعين، لأنّ المهاجمين كانوا أمام منزلهم تماما، وقد يفجّرون الباب في أيّة لحظة، غير أنّهم غادروا المكان بسرعة، لمّا تلقوا أمراً عبر اللاّسلكيّ، فتنفّست العائلة الصّعداء.

أخبرني «غابي» أنّه كاد يفقد وعيه بسبب الإنفعال الشّديد والتوتّر الذي تعرّض له.

نظر من النّافذة وجلا، فرأى أحدهم بلباس عسكريّ، وعلى رأسه عصابة كتب عليها بالعربيّة «كتائب القسّام».

منظر كلّفه يومين في المستشفى يعاني من آثار الصّدمة التي كادت أن تسبّب له ذبحة صدريّة.

ثمّ سرعان ما وصلت قوّات كبيرة من الجيش، واشتبكت معهم اشتباكا ضاريا قضى على كلّ المخرّبين.

كانت «أوفاكيم» مدينة هادئة هدوء البحر والصّحراء، حتّى أنه تمّت الموافقة على بناء أكثر من خمسة آلاف شقة سكنيّة في حيّ «أفيكي»، وقبلها؛ كان مشروع إنشاء مركز طبّيّ ضخم، يمكن ربطه أو توأمته مع مركز «سوروكا» في «بير شيفا»، تقدّر تكلفته بأكثر من ستين مليون شيكل، وفي أوت 2023 تمّ تنظيم مهرجان استعراضيّ مثير، جذب إليه المئات من الأطفال والشّباب، وافتُتحت أكبر قاعة لتقوية العضلات، تحت مسمّى «الفرع 24»، لسلسلة «سبايس» المشهورة، وفيها يتدرّب كذّاب ثانويّتنا، كما زارنا في التّاسع عشر من أكتوبر 2022 «بنيامين نتنياهو»، في إطار حملته الإنتخابيّة، ليصبح رئيس وزراء، مستقبلا من عمدة مدينتنا «يتسحاق دانينو»، الذي ارتقت «أوفاكيم» في كنفه، وفُتحت المئات من مناصب العمل.

أفسد علينا المخرّبون «عيد العرش»، ذكرى تحرّرنا من «فرعون» على يد النّبيّ «موشيه»، وخروجنا إلى الأرض الموعودة عبر صحراء «سيناء»، وأصبحت الخيمة التي أقمناها يوما من قبل كئيبة، يلفّها الغمّ ويكسوها الحزن، ومن أين تأتينا السّعادة والفرح؟.

بعد أربعة أيّام علمت بمقتل صديقي «ليدور مكايز» الذي حضرنا جنازته في مقبرة «أوفاكيم»، الجنديّ الذي تمّت ترقيته إلى عريف حين قُتل في عمر تسعة عشر ربيعا فقط، وسط ذهول الجميع من هذا الموت الذي أخذ منّا خيرة زهور المدينة، بين عشيّة وضحاها، أصبح الكلّ مهدّدين، إمّا بالموت أو بالإختطاف.

ثمّ حضر وفد من يهود «أمريكا» لزيارتنا مع الممثّلة «شيران صندل»، عزّوا الثّكالى وتجوّلوا في مسرح الأحداث، أيّاما فقط بعد زيارة وزير الدّفاع «يوآف غالانت»، لتفقّد أحوال المدن والبلدات التي هاجمتها قوى الشرّ المنطلقة من هناك من «غزّة».

(5)

كنت أريد لقاءه، لأسأله سؤالا بسيطا، هو سؤال المئات مثلي من شباب إسرائيل، ويجب أن يجيبنا عليه:

– لماذا يكرهنا العرب؟، ماذا فعلنا لهم كي يطلقوا علينا الرّصاص والقذائف الصّاروخيّة بهذه الشّراسة والقسوة والهمجيّة؟، أهي اعتداءات منعزلة؟، أم حقد تراكم عبر السّنين؟.

السّؤال الذي لم يستطع أن يجيبني عليه عمدة مدينتنا، ذو الأصول المغربيّة «يتسحاق دانينو».

عجبا!، هل عشنا إحساساً زائفاً بالقوّة، حتّى أفقنا فجأة على هول الكارثة؟.

ذكروا في التّلفزيون الرّسميّ أنّنا نعيش حالة حرب معلنة، ويجب التّعامل مع الأوضاع الجديدة بكلّ حزم وجديّة، وأنّه ينبغي على كلّ مواطن إسرائيليّ من جنود الإحتياط، وصله أمر الإلتحاق بوحدته، أن ينصاع للأمر فوراً دون تأخير، ثمّ صبّت قوّاتنا الجويّة جام غضبها على «حماس»، المتمركزة وراء السّياج الفاصل، في عمليّة ستتوسّع مستقبلاً وتشتدّ، أسموها «السّيوف الحديديّة».

لقد تلقّى أصدقائي وجيراني مباشرة أوامر الإلتحاق بوحداتهم، في تواريخ قريبة تمهيداً للإجتياح الكبير، الذي وبناء عليه، تمّت محاصرة القطاع، لا أغذية، لا أدوية، لا كهرباء، لا وقود، رباعيّة القحط والمجاعة القادمة إلى مساحة لا تتجاوز ثلاثمائة وستّين كيلومترا مربّعا، لسكّان تجاوزوا المليوني نسمة، المحاصرين منذ 2006.

«غزّة»، أضحت عدوّنا اللّدود الذي يجب القضاء عليه اليوم قبل الغد، بكلّ شراسة وجبروت، «غزّة» هي في الواقع جذور كلّ مشاكلنا الأمنيّة، آلاف الصّواريخ تنطلق منها نحو مستوطناتنا الآمنة منذ سنوات ماضية، نحو أراضينا التي ورثناها عن الأجداد، آلاف الصّواريخ تبثّ الرّعب فينا، وتفزع أطفالنا الصّغار.

أمذنب أنا لو نشأت صهيونيّا على تربية والدي الذي سقاني روح هذه النّزعة، وحبّ هذه الأرض التي عرفتني في الثّامن من ماي من سنة 2005 في «أوفاكيم»؟، هل أكون مذنباً إذا نشأت في بيئة مقاتلة تعانق التّوراة والسّلاح؟، أبي «يوسف»، ملازم أوّل في لواء «بيسلماخ»، مهاجر قديم من «المغرب»، من أصول برتغاليّة، وأمّي «إيليانا»، مناضلة في حزب «العمل»، يساريّة التّوجّه علمانيّة التّفكير، ولديّ أخت اسمها «ياعيل»، وُلدت بعدي بثلاثة أعوام، كما لديّ أخت أخرى غير شقيقة، إسمها «إنجي»، متزوّجة من ضابط في «الموساد» لا أحد رآه حتّى الآن، يُدعى «غارسيّا».

هذه هي أسرتي الصّغيرة التي تهدّدها الصّواريخ.

حلمي أن أصبح ضابطاً في سلاح المدرّعات وأن أتقلّد القبّعة السّوداء؛ حلمي أن أكون ضابطاً في دبّابة قتال رئيسة، مثل عمدة مدينتنا «يتسحاق دانينو»، الذي تعتبره أمّي مثلها الأعلى في السّياسة، رغم أنّهما من حزبين مختلفين، فمنذ التحاقي بالثّانويّة ودبّابة «الميركافا» تسيطر على مساحة واسعة من عقلي، لم يخبرني أحد أنّها أحلام مراهقة، وأنّها يمكن أن تكون نواة فكرة لتأسيس مستقبل واعد، غير أنّ جارنا الطّيّب السيّد «ريكاردو»، الرّياضيّ الهيئة والمزاج؛ قال إنّه يجب أن أتمسّك بالأمل، بكلتي يدي بكلّ غطرسة وجبروت، مثل «شمشون»، المذكور في التّوراة.

أمّا أمّي التي أصبحت الآن تخشى عليّ من الموت أكثر من أيّ وقت مضى؛ لأنّها تعتبرني كلّ شيء لديها في هذه الدّنيا؛ أو بالأحرى ما بقي لها من الدّنيا، كثيراً ما كانت تخوض مع أبي في شجارات حادّة، لأنّه يرفض التّدليل، ويحذّرها ممّا يعتبره مفسدة الأخلاق، وعدوّ التّنشئة الجادّة الصّارمة.

كانت تصرّ منذ سنتين أن أطلب تأجيل ذهابي للجيش على الأقلّ، حتّى أحصل على شهادة جامعيّة تؤهّلني لأفق واعد، تنفيذاً لأمنية أبي الذي لم يسعفه الحظّ لإكمال تعليمه، بعدما تسرّب من المدرسة باكراً في صغره، فكنت أعدها دائماً بالبقاء في المنطقة الآمنة.

لا أحد هنا كان يتوقّع ما سيحدث، وما سيتغيّر ابتداء من تاريخ السّابع أكتوبر 2023.

(6)

فجأة... وصل ما كانت تخشاه، أمر التّجنيد الذي ظنّت أنّه لن يصل أبدا؛ وصل إلى المترل عبر البريد العادي، وتفاجأ بعض أصدقائي بالشّرطة أمام منازلهم، تسلّمها لهم يدا بيد.

أصبحت الدّولة الآن حريصة كلّ الحرص على تبليغنا بوجوب وأهمّية الخدمة العسكريّة، في ظلّ الأوضاع المتأزّمة الرّاهنة.

ألحّت عليّ أمّي أن أطلب إعفاء لأنّي أعاني من نقص في قوّة البصر، ولا يمكنني الرّؤية إلاّ بنظّارات طبيّة، تتزايد درجاتها عاما بعد عام، ثمّ تراجعت، وأرادت مجدّدا أن أطلب تأجيلا والدّموع تترقرق في عينيها، فقط بالهاتف دون إبداء أسباب، لأنّه أمر التّجنيد الأوّل، ويمكنني أن أطلب التّأجيل مرّتين متواليتين دون حساسيّات، لكنّي شكّكت في هذا بسبب الحرب، وأمام توقيف الدّراسة، والتّأجيل المستمرّ للدّخول الأكاديميّ؛ والغموض الذي ميّز تلك الفترة، والفوضى التي سادت.

آثرت الإنضمام لجيش الدّفاع كي لا أضيّع وقتا ثمينا أحتاجه في ضمان مستقبلي، لقد خشيت عليّ من الحرب، شأنها شأن أيّ أمّ تحاول حماية أولادها، خاصّة وهي ترى إصابة والدي التي كادت تودي بحياته، كما أصبح لا حديث للنّاس هنا في إسرائيل سوى اجتياح «غزّة»، محو «غزّة»، إبادة «غزّة»، حرق «غزّة»، مهما كلّفنا ذلك من تضحيات، عبارات تبدو بسيطة، هيّنة، غير أنّ أبعادها ستكون وخيمة جدّا على الصّعيد النّفسيّ، والإجتماعيّ، والإقتصاديّ.

كان الجميع مصدومين، وغاضبين، ممّا خلّفته هجمات السّابع من أكتوبر، من قتلى وجرحى ودمار.

لأوّل مرّة تعلن حالة الحرب، بعد إعلانها في 1973م، وتمّ استدعاء أكثر من ثلاثمائة ألف جنديّ وضابط، سيموت الآلاف منهم فيما بعد، وستبكي أمّهاتهم كثيرا، بشكل أكثر فظاعة ومأساويّة... سنبكي دماً أحمر قانٍ، بدل الدّموع الحارّة الشّفّافة.

هنا إسرائيل، هنا الحرب المفروضة علينا، فجر السّابع من أكتوبر، لأوّل مرّة بعد خمسين سنة.

لم أكن وحدي من وصله أمر التّجنيد، لقد صُدم زملائي وزميلاتي في الثّانويّة من الخلط الرّهيب في مواعيد متابعة التّسجيل، في مكتب التّجنيد المحلّي في «بير شيفا»، وهناك من طُلب منه الإتّصال بالمكتب في

ظرف أقلّ من ثمانٍ وأربعين ساعة، أو سيدخل السّجن لعقوبة تصل إلى خمس سنوات، بتهمة التّهرّب من خدمة الأمن، مثل «دانيال أدموني» كذّاب الثّانويّة، لأنّه أجّل الإلتحاق بالجيش ثلاث مرّات متتالية.

وحتّى لو شوّهت جسمك للإضرار بقدراتك الصّحيّة لتحصل على إعفاء؛ فإنّ هذا يعدّ جريمة، تعاقب عليها أيضا.

لقد فعلت الحرب فعلتها.

لن تنجو في إسرائيل من هذا الكابوس الرّهيب للبعض إلاّ إذا كنت من «الحريديم»، لا يشغلك شيء في حياتك، سوى دراسة التّوراة.

أطلعت جارنا الطّيّب السيّد «ريكاردو» على الأمر، ورجوته أن يتدخّل لصالحي، فيوجّهوني لمدرسة المدرّعات في «شيزافون» في صحراء «النّقب»، وبذلك أضمن تحقيق حلمي في أن أصبح قائداً لدبّابة «الميركافا»، دبّابتنا الأسطوريّة أوّلا، وأبتعد عن ويلات الحرب لفترة طويلة ثانيا، وأصون وعدي لأمّي، بأن أبقى حيّا أرزق ثالثا، فطمأنني وهو يبتسم ملء شدقيه قائلا:

– لا تقلق «دافيد» حبيبي، مطلقا... دع كلّ شيء لي واذهب للموعد الذي حدّدوه لك.

وطمأنني كلامه غاية الإطمئنان.

(7)

في موقع «ميتاف» على الإنترنت؛ دخلت إلى المنطقة الشّخصيّة، بواسطة رقم بطاقة الهويّة مع كلمة السرّ التي دُوّنت في الإستدعاء، عبّأت الإستبيان الشّخصيّ الذي يحوي كلّ معلوماتي الخاصّة، مع الإستبيان الطّبيّ بتركيز شديد، وحمّلت كلّ الوثائق التي رأيت أنّها ضروريّة.

كنت خائفا من أيّ خطأ قد أُرفض بسببه في سلاح المدرّعات، أو أسجن لمدّة تصل إلى عامين، بتهمة تقديم معلومات كاذبة

شمل الإستبيان الأوّل التّفاصيل الشّخصيّة والعائليّة والمستوى التّعليميّ وطرق الإتّصال بي، مع بعض الأسئلة التي وجدتها غريبة بعض الشّيء، لكن صديقي «غابي» أخبرني ألاّ أقلق منها، مصمّمة شكليّا للتعرّف على شخصيّتي وطريقة تفكيري، وأنّ الأساس هو التّقرير النّهائيّ الذي سيكون قاعدة للتّوجيه الرّسميّ في مكتب التّجنيد، الذي يقع في شارع «يدوشيم»، غير بعيد عن جامعة «بن غوريون»، ومستشفى «سوروكا».

كما شمل الإستبيان الطّبيّ نقاطا مثيرة، مثل الوزن والطّول والأمراض التي قد يعاني منها المجنّد، مع اختبار البول الذي يُشترط أن يكون حديثا، ومعدّل ضغط الدّمّ، وسرعة ضربات القلب، إلى غير ذلك من التّفاصيل الصّحيّة الصّغيرة، التي توحي لك أنّك شخص مهمّ، وفي الأخير يوقّعه طبيب الأسرة.

في الواقع يمكن لأيّ طبيب أن يوقّعه.

كنت أخشى أن أُرفض بسبب نقص في درجة الإبصار؛ لذلك فكّرت في التّلاعب قليلا، غير أنّ جارنا الطّيّب السيّد «ريكاردو»؛ حذّرني من ذلك قائلا بصوته الأجشّ المحبوب:

– إيّاك حبيبي، سيكتشفون تزويرك وستفقد كلّ حقوقك، إيّاك أن تتلاعب بأيّة معلومة، ستواجه السّجن، دع الأمر لي، حين تذهب لا تنس أن تأخذ معك الإستدعاء وبطاقة الهويّة وسجلّ التّطعيمات وبطاقتك المصرفيّة، خذ معك كلّ ما تراه ضروريّا حبيبي.

عدلت عمّا كنت سأفعله قائلا في نفسي:

– معه حقّ سيكتشفون تلاعبي في لمح البصر، ومغامرتي هذه؛ ستؤدّي بي إلى كارثة لا أستطيع احتوائها، هل يمكن التّزوير الآن في إسرائيل؟.

«ميتاف» وحدة عسكريّة غير قتاليّة أنشئت في 2006 من أجل الإهتمام الجيّد بمرشّحي الخدمة الأمنيّة، الذين سيصبحون جنوداً في جيش الدّفاع الإسرائيليّ في كافّة فروعه، وهي نتيجة لدمج وحدة «قاعدة الإستقبال والفرز»، ووحدة «إدارة التّوظيف»، إذ يقوم طاقم العمل في مكتب التّجنيد بمرافقة الشّباب من الجنسين، من مرحلة الفحص الأوّليّ، حتّى حصولهم على الزيّ الرّسميّ.

حين وصلت إلى مركز التّجنيد؛ إستقبلتني إحدى المجنّدات التي يقارب طولها طولي، بلباسها الأخضر الزّيتونيّ، وبوجهها المربّع المبتسم البشوش، وشعرها الأسود المنسدل بربطة خفيفة على الكتفين، وعينيها اللّوزيّتين، ذكّرتني بحبيبتي «أتارا» التي كنت قد مررت على منزلهم العائليّ هذا الصّباح، لتصرّ أمّها على تقديم القهوة لي بيديها قائلة:

– جهزّتها «أتارا» لك، ستحتاجها في التّركيز، اليوم لديك عمل كثير.

أمّا «أتارا» فاكتفت بشرب حليب الماعز فقط القادم من إحدى الكيبوتسات، ثمّ قالت ضاحكة:

– أمّي تحبّك كثيرا، ولذلك أصرّت على تقديم القهوة لك بيديها، رغم أنّي أنا من حضّرتها.

وابتسمت ابتسامة طالما اعتبرتها جائزتي الفوريّة.

أخذت المجنّدة منّي هاتفي وساعتي، ثمّ أدخلتني إلى أحد المكاتب، رغم كثرة المنتظرين، أجريت عدّة فحوصات ولقاءات مع عدّة أطبّاء وعسكريّين، تمّ تصويري دون نظّارات للحصول على بطاقة هويّتي العسكريّة لأوّل مرّة، وأخذت مجنّدة أخرى بصمات أصابعي إلكترونيّا بواسطة آلة خاصّة، وأخذت مجنّدة أخرى عيّنة من دمي، ثمّ عيّنة من اللّعاب، وصوّروا تجويف فمي كاملا، كان كلّ شيء واضحاً وبسيطا، ثمّ عرفت أنّ رمزي التّعريفيّ الطبيّ هو 82، ولم أفهم ما يعنيه هذا إلاّ فيما بعد، حين تكفّلت إحدى المجنّدات من أصول عربيّة بشرح ما تعنيه هذه الأرقام.

هناك ثمانية رموز تعريفيّة طبيّة، الرّمز التّعريفي 97، معناه جنديّ مؤهّل للخدمة في مختلف الوحدات القتاليّة العاديّة ووحدات النّخبة، الرّمز التّعريفيّ 82، معناه جنديّ مؤهّل للخدمة في مختلف الوحدات القتاليّة وفقا لإعاقته، الرّمز التعريفيّ 72، معناه جنديّ مؤهّل للخدمة في الوحدات القتاليّة إلاّ المشاة والدّوريّات، الرّمز التّعريفيّ 64، معناه جنديّ مؤهّل للخدمة في تشكيلات الدّعم القتاليّ فقط، الرّمز التّعريفيّ 45، معناه جنديّ لا يجب أن يتواجد في مركز قتاليّ أو في مركز للصّيانة، الرّمز التّعريفيّ 25، معناه جنديّ غير مؤهّل للخدمة، لكنّه أراد التطوّع في الجيش، الرّمز التّعريفيّ 24، معناه جنديّ غير مؤهّل للخدمة مؤقتا فقط وربما زال عنه المانع، الرّمز التّعريفيّ 21، معناه جنديّ غير مؤهّل للخدمة تماما بصفة نهائيّة.

كلّ هذه التّعريفات من أجل أن تجد نفسك في تشكيل قتاليّ أو تشكيل دعم قتاليّ أو تشكيل خلفيّ.

حين أتممت كلّ شيء أتت إليّ المجنّدة التي استقبلتني أوّل مرّة طالبة منّي الإنتظار قليلا، ثمّ أدخلتني إلى مكتب أحد الأطبّاء، الذي استفسر عن حالة أبي الآن، وهل هو محتاج لعمليّة جراحيّة عاجلة في العمود الفقريّ.

لم أجرؤ على سؤاله عن اسمه كي أخبر والدي أنّ هناك من سأل عنه في مكتب التّجنيد، كما لم يشأ هو أن يسهب كثيرا في الحديث، وفي الأخير قال:

– مرحبا بك في اللّواء 460.

وابتسم مسلّما لي بطاقتي العسكريّة، وقلادتي الشّخصيّة التي كانتا في درج مكتبه ثمّ أردف في حنان:

– إذهب مع «غولدا» ستسلّمك الزّيّ العسكريّ، وباقي المعدّات، إلتحق بالقاعدة في أقلّ من ثلاثة أيّام، لا يوجد وقت، نحن في حالة حرب ولا أحد يتحكّم في المتغيّرات.

لم أصدّق عيناي؛ وأخيرا...

غمرتني نشوة نصر فريدة من نوعها، لقد تأكّدت الآن أنّ السيّد «ريكاردو»، جارنا الطّيّب، قد قام بما وعدني به، على أكمل وجه.

(8)

عدت للمنزل حوالي السّاعة الخامسة مساء بمعنويّات في السّماء السّابعة، مرتديا الزّيّ العسكريّ، إرتديته في المركز كي أرى مدى ملائمته لي، فكان مناسبا تماما كأنّه فُصّل لي خصّيصا، ممّا شجعني على الإحتفاظ به على بدني، ولم يعترض أحد على ذلك، بل رأيت الإعجاب في أعين بعض الضبّاط الذين رأوني أغادر المركز متبخترا به في الشّارع، كيف لا وقد قدّرت أنّي أرضيت الجميع، خاصّة أمّي، التي كانت في المطبخ تجهّز العشاء، محاولة إخفاء دموعها دون جدوى بذريعة تقطيع البصل.

طوّقتها بذراعي، لتستدير وتعانقني وتسترسل في بكاء صامت، ثمّ جاءت «ياعيل»، وضمّتنا بذراعيها، حينها تشجّعت:

– يجب أن ألتحق بالقاعدة في أقلّ من ثلاثة أيّام، هكذا هي الأوامر أمّي، ويجب الإذعان لها.

وزاد بكاؤها وتشبّثت بي، بل كلّما تعالى صوتها، زاد إمساكها بي، حتّى خشيت أن يصيبها مكروه.

– يجب أن تزور أبي، لا تكن جاحدا، يجب أن تراه قبل أن تغادر، لا أعرف ما المشكلة التي بينكما، و«أتارا» هاتفتني قبل قليل تسأل عنك.

قالتها أختي «ياعيل» بهمس كأنّها تخبرني سرّا من أسرار الأسرة.

– أخذوا منّا كلّ شيء، لا هواتف أو ساعات، وإذا شكّوا في أيّ شيء صادروه فورا، لقد فتّشوا نظّارة أحد المجنّدين جيّدا، فقط لأنّها تبدو سميكة أكثر من اللاّزم.

كان كلامنا مقتضبا، كأنّ الكلمات والجمل والعبارات نفذت منّا، أتى كلّ شيء مفاجئاً للجميع، لدرجة أنّه أنسانا كيف نتكلّم مع بعضنا بعضا.

لقد فعلت الحرب فعلتها.

تركت أمّي وأختي تكملان تجهيز العشاء، وذهبت بالزّيّ العسكريّ لمنزل جارنا الطّيّب السيّد «ريكاردو»، كنت أريد أن أشكره بنفسي وجها لوجه، وألمس شعوره وأنا أقف أمامه مرتديا بصفة رسميّة ما يمثّل الخطوات الأولى لتحقيق أحلامي، لكن للأسف، لم أجده هناك، فأكّدت على زوجته السيّدة «براخا»، أن

توصل له شكري الخالص، وامتناني لكلّ ما فعله من أجلي، وألححت عليها، ثمّ مررت لمترل «أتارا» التي كانت مع أمّها هي كذلك تجهزان عشائهما، وأخبرتهما بكلّ شيء، فشجّعتني أمّها بصوت حنون قائلة:

- جيّد... موقع ممتاز، ضابط في المدرّعات، ألف مبروك، السّيّد «ريكاردو» عند وعده دائماً... حبيبي.

وأرسلت ضحكة عالية وهي تقلّده في كلمته التي اشتهر بها، وصوته الأجشّ، ثمّ رأيت «أتارا» قادمة نحوي، ويديها وراء ظهرها، كأنّها تتعمّد إخفاء مفاجأة لي:

- هذه أحبّ صورة لي، خذها معك كي تتذكّرني دائما، ضعها في الدّبابة، أمامك مباشرة.

قالتها وهي تضحك.

يا لحظّك أيّها الجواد الأسود وأنت تحمل ملاكي الطّاهر في كامل أناقته على ظهرك.

كان التّضادّ اللّونيّ أبرز ما يميّز الصّورة التي وضعتها بحرص في جيب سترتي، قرب قلبي مباشرة، وهي الحركة التي جعلت عينيها تلمع، تتلألأ، كخاتم الماس الذي أنوي وضعه في إصبعها.

في تلك اللّيلة ملأت استبيان الهوايات عبر نفس الموقع، دون أن أغيّر ملابسي، كان هرمون «الكورتيزول» لديّ في أوجّه، ذكرت كلّ ما أحبّ فعله، أخبرتهم أنّني أهوى الكتابة والرّوايات، أخبرتهم أنّي أعشق لوحات «رنوار» و«فان غوغ»، وممارسة الرّياضة بشكل عامّ، لكنّني لا أمارسها إلاّ نادرا جدا، أطفأت الكمبيوتر ثمّ أدّيت صلاتي، ودعوت الرّبّ أن يحفظ جارنا الطّيّب السيّد «ريكاردو»، وابنه بالتّبنّي «أنطونيو»، وزوجته الإيطاليّة «براخا»، مع بناته الثّلاث، «مارتينا» و«روزاليا» و«بلانكا»، الأميرة ذات العشرة أعوام.

إستلقيت على السّرير، فسمعت طرقات خفيفة على الباب، وصوت أمّي المرتجف خلفه:

- «دافيد» هل نمت؟، هل أدخل؟.

- نعم تفضّلي أمّي، كنت على وشك النّوم.

واعتدلت في فراشي.

(9)

كانت «ياعيل» معها، فجلست أمّي بجانبي على حافة السّرير، ويديها الإثنتين تمسكان بيدي، وانفجرت «ياعيل»:

– هل ستنام بالزّيّ العسكريّ؟، مغرور، هل تظنّ نفسك وزير الدّفاع؟، مغرور.

وأعادها للمرّة الثّانية.

– أتركي أخيك بسلام.

والتفتت لي:

– سنزورك جميعا في «شيزافون»، سأحضر والدك معي، إنّه متشوّق لرؤيتك وأنت على ظهر الدّبّابة.

– سأنتظركم جميعا بشوق كبير.

قلتها وأنا أعلم أنّه ما زالت أمامي أشواط كثيرة أقطعها من أجل الحصول على القبّعة السّوداء.

– أرجوك «دافيد» عدني أن تعتني بنفسك، عدني ألاّ يحدث لك مكروه.

– لن يحدث لي شيء أمّي، لا أعرف سبب قلقك غير المبرّر، «شيزافون» بعيدة عن «غزّة»، إنّها هناك في الصّحراء، لا تصلها الصّواريخ ولا كتائب «حماس»، لا يوجد أيّ سبب يدعوك للقلق.

وأشرت بيدي تجاه الجنوب.

– لماذا قلبي منقبض؟.

– إحساس سلبيّ فقط وتهيّؤات، لا أكثر من ذلك، أرجوك أمّي لست صغيرا، من المفروض الآن أنّ لديّ مسكني الخاصّ مع «أتارا»، سنتزوّج بمشيئة الرّبّ حين أتخرّج ضابطا، مثل أبي، وسندعو العمدة «دانينو» وزوجته وأولاده، بل سندعو كلّ سكّان «أوفاكيم» للعرس الكبير الذي سنقيمه في القلعة.

وأخيرا رأيت الإبتسامة على وجه أمّي حين ذكرت لها الزّواج، تتغيّر فجأة وتنفرج أساريرها حين أقول لها إنّني و«أتارا» سنتزوّج.

مسكينة أمّي، تنتظر أن تطلق الزّغرودة التي تعلّمتها من صديقتها، بالتّركيبة النّفسيّة للأنثى تريد أن تفرح، ولا شيء غير الفرح.

ونمت بالزيّ العسكريّ، غير مصدّق أنّي سأصبح قائد دبّابة في غضون عام.

في الغد توجّهت للتّحدّث مع «غابي»، جاري الذي وجدته يستعدّ للخروج للعمل، وهو كئيب كعادته.

– صباح الخير «غابي».

قلتها متعمّدا السّير أمامه رويداً رويدا، حاملا عبوة مشروب الطّاقة.

– صباح الخير «دافيد»، الزّيّ العسكريّ مناسب لك تماما، أخبرتني أمّي ما حدث البارحة، هنيئا لك، سنفتخر بك، المجد لإسرائيل.

ورفع قبضته عاليا في السّماء.

– شكرا، وأخيرا «غابي» سيتحقّق حلمي، هل توصلني بسيّارتك للقاعدة؟، في «شيزافون»، لا أريد المخاطرة في وسائل النّقل.

تهلّل وجهه مرحّبا بالفكرة قائلا:

– متى؟.

– في أقلّ من ثلاثة أيّام، لا يوجد وقت، ويقولون أنّهم أوقفوا حافلات الخطوط الطّويلة كي لا يحدث تسلّل أو اختطافات.

– لا يمكن أن يكون ذلك صحيحا.

– لا أريد التّأخّر، من الأفضل الإعتماد على شيء آخر، حالة الحرب التي أُعلنت ستعطّل الكثير.

– بالنّسبة لي ستفيدني كثيرا، سيركع صاحب العمل طويلا أمامي، لأنّهم استدعوا كلّ العمّال وبقيت وحدي، وهو الآن مجبر على زيادة راتبي، البائس المتغطرس النّرجسيّ الكلب القذر.

وانهمر لسانه بعشرات الشّتائم، من كافّة الأنواع والمقاييس، ثمّ تذكّر أنّ صوته بدأ يعلو، وبدأ بعض الجيران يلقون نظرات خاطفة علينا من النّوافذ:

– لا يهمّ «دافيد»، حدّد التّاريخ الذي يلائمك وأنا جاهز، وإذا أردت اليوم لا مشكلة إطلاقا، هي فرصة لي لأخذ جولة بعيداً عن العمل.

– يوم الثّلاثاء، غدا، ما رأيك؟.

– رائع، أكره يوم الثّلاثاء، لأنّه يوم عمل شاقّ لي، وهي فرصة لأتغيّب عن الدّراسة، وصاحب العمل في المساء، القذر، لم أعد أتحمّل رؤية وجهه، هل تصدّق أنّه شيطان؟.

ثمّ أتبع وهو يبتسم بمكر:

– إذا أردت أن أوصلك يوميّا فأنا جاهز، المهمّ أن أجد سبباً مقنعاً للتغيّب.

لم أستطع زيارة والدي في مستشفى «سوروكا»، خانتني شجاعتي وأنا أراه دائما على سريره يعاني صامتا، والأطبّاء لا يعرفون سوى طمأنتنا أنّ كلّ شيء سيكون على ما يرام، إحساس غريب يستولي عليّ لم أستطع التّخلّص منه، سيبقى يعاني من إعاقة دائمة، شلل في رجليه.

إصابته في العمود الفقريّ أخطر ممّا يحاول الأطبّاء تقزيمها.

(10)

كانت أمتعتي جاهزة كلّها حين إستيقظت يوم الثّلاثاء، الخامسة فجراً، وأنا ممزّق بين شعور الشّوق للمغامرة والتّحدّي واكتشاف المجهول، وشعور الألم والفقد والإحباط لفراق الأسرة.

كنت قد اتّفقت مع «غابي» ليوصلني للقاعدة العسكريّة بسيّارته المعدّلة.

قال لي البارحة:

– هاتفني مباشرة لّما تستيقظ، لن أردّ عليك، لكن ستوقظني نغمات الهاتف.

وفعلت ما طلبه منّي حتّى قطع الإتّصال بنفسه، فعرفت أنّه استيقظ للتوّ.

أحبّ أن أصلّي الصّبح دائما قبل أن أمسّ أيّ طعام، بل كثيرا ما أتناقش مع أمّي حول الصّلاة، فهي يساريّة متهاونة في الدّين، كثيرا، شأن كلّ اليساريّين هنا في إسرائيل، تقول أنّها لا تملك الوقت الكافي، فأعمالها في الحزب تشغل كلّ وقتها، وفي البيت هي بين طبخ وغسيل وتنظيف، إلاّ في يوم السّبت طبعا، اليوم المقدّس لدينا نحن اليهود، وأبي لا يأبه بها أصلّت أم نامت، حتّى هو يتكاسل أحياناً عن عبادة الرّبّ.

قالت لي مرّة:

– ما يفعل الرّبّ بصلاتي؟، المهمّ أنّه إلهي، قلبي مثل كوب الحليب الأبيض الذي تشربه «ياعيل».

فأقول لها ضاحكا:

– ما يقول المسلمون إذن؟، لديهم خمس صلوات يوميّا وتراهم جميعا في المساجد، أمّي، ما بك؟... لدينا ثلاث فقط، أين أنتِ منهم؟.

بالنّسبة لي، لا أنتقل لأيّ مكان إلاّ إذا أدّيت ما عليّ من صلاة، هي صلة بيننا وبين الرّبّ الواحد، وأقرأ التّوراة من حين لآخر حسبما تسمح به الأحوال، أبي يوصينا دائما أنا وأختي بالمحافظة على علاقتنا سليمة مع الرّبّ، أمّا الباقي فهو إلى زوال، ربما يرجع هذا لتأثّره بالمسلمين، حين كان يعيش بينهم في «المغرب»، قبل أن يهاجر إلى إسرائيل تاركا عمّته «راحيل» هناك، في رعاية الجيران.

ودنت ساعة المغادرة، ملقية بوقعها كمارد يقترب.

عانقت أمّي طويلا لعلّي أشحن عواطفي برائحتها العطرة الزكيّة، تلك الرّائحة التي تتسلّل الآن إلى أنفي، ومنه إلى كلّ ذرّة عرفت شذا حقول البرتقال.

- خذ هذا، ستحتاجه كثيرا هناك، صحراء «النّقب» ستكون باردة في الأشهر القادمة.

ولفّته حول رقبتي بيدين مرتجفتين.

كان وشاحاً أبيضاً مطرّزاً بأشكال ذهبيّة، كان شيئاً أنيقا بهيّا ساحرا بشكل لا يوصف، عمل يدويّ متقن من نسج يديها، ينمّ عن إحساس فنيٍّ، ومهارة المرأة التي تؤدّي دورها على أكمل وجه.

نزلت «ياعيل» من غرفتها، وهي تمسح عينيها من أثر النّوم غير مصدّقة لما تراه، فقد كنت مرتدياً اللّباس العسكريّ، وزاده وشاح أمّي جمالا.

- تفقّد كلّ حاجياتك جيّدا.

وابتسمت الماكرة، كانت هذه عبارتي، التي أذكّرها بها دائما حين كانت صغيرة، حديثة العهد بالدّراسة، تغالب النّوم صباحا، ثمّ تتعثّر وهي في طريقها لغرفة المعيشة، وأحيانا تصطدم بشيء ما تتفاجأ به في الرّواق، ونضحك كلّنا على سقوطها.

- أرافقك؟.

أخرجت الأحرف بصعوبة، وتردّد جليّ في الصّوت والنّظرات، وهي تمسك يديّ الإثنتين.

- لا يا أمّي لا تضغطي على أعصابك، سينقلني «غابي» للقاعدة، سيّارته سريعة جدّا ومريحة، ولقد حصل على رخصة القيادة العام الماضي، لَمِ القلق بشأني؟، أبي يحتاجك في المستشفى أكثر منّي هنا.

- سيحزن كثيرا حين يعلم أنّك غادرت للقاعدة، ولم تزره في المستشفى؛ كيف سأجيبه؟، هل هناك شيء بينكما؟.

أحسست أنّها تعمّدت تكرار كلمة «المستشفى» لتذكّرني بحالته الصّعبة التي تزيد سوءا، ثمّ استرسلت في بكائها الصّامت.

أظنّ أنّي فتحت جرحاً كانت تحاول نسيانه أو تناسيه:

- كن رجلا «دافيد»... كن رجلا فقط.

حملت حقيبة الظّهر التي تحوي كلّ متعلّقاتي وأشيائي الخاصّة، وانسللت من المكان بسرعة، موقف مثل هذا لا يشجّع مطلقا على الثّبات، فمن المستحسن إذن؛ الإنسحاب من الميدان بعيون جافّة.

وخرجت من المنزل أسابق الرّيح، قبل أن يتحوّل المشهد إلى دراما سنيمائيّة، فأمّي تقزّم ما يجب أن يبقى كبيرا لتتغلّب عليه، وتضخّم ما يجب أن يبقى صغيرا تحت تأثير عاطفتها الجيّاشة.

وجدت «غابي» أمام البيت ينتظرني في سيّارته من نوع «فولس فاغن غولف»، إنتاج 2016، التي ما فتئ يدخل عليها تعديلات غريبة، في المحرّك ونظام التّعليق والمكابح ونظام نقل الحركة، سيحوّلها إلى سفينة فضائيّة.

نزل بنشاط حين رآني قادما نحوه، وأمّي تساعدني في حمل الأغراض بوصايا النبيّ «موشيه».

من المفروض أن أستقلّ الحافلة على الخطّ رقم 392، إنطلاقا من «بير شيفا»، مع الحجز مسبقا، ولا أظنّها فكرة جيّدة، على ضوء إشاعات تُتداول حول توقيف خطوط النّقل الطّويلة بسبب الحرب؛ وخوف السّائقين الذي أدّى بهم إلى شبه إضراب غير معلن، حسبما أخبرتني به والدة «أتارا» باعتبارها تشتغل في «هآريتس».

وانطلقنا عند السّاعة السّادسة والنّصف صباحا.

(11)

تبعد قاعدة «شيزافون» للمدرّعات حوالي مائة وتسعين كيلومترا عن «أوفاكيم»، عميقا في صحراء «النّقب»، التي تعتبر امتدادا جغرافيّا لصحراء «سيناء»، مناخ قاسٍ أكثر من «أوفاكيم»، كلّما توغّلنا جنوبا؛ كلّما زاد المناخ تطرّفا، إذ يمكن أن تصل الحرارة إلى خمسين درجة في الصّيف، وتنخفض إلى سبع درجات فقط شتاء، ومدى حراريّ واسع بين اللّيل والنهار، مع تساقط نادر جدّا للأمطار، وبيئة طبيعيّة تمزج بين الصّخر والجبل والسّهل والمنحدر.

صحراء «النّقب» هي موطن كافّة المشاريع الأمنيّة الإستراتيجيّة للدّولة، هي الحديقة الخلفيّة لإسرائيل، هنا تمّ إنشاء أوّل مفاعل نوويّ، مفاعل «ديمونا» الذي سرّب أسراره للعالم «مردخاي فعنونو»، وقضى ثماني عشرة سنة في السّجن، عقاباً له عمّا اقترفه، بعدما اختطفه «الموساد»، في عمليّة جريئة في عرض المتوسّط في «روما» سنة 1986.

بعد حوالي ستّين كيلومترا وساعة من السّير الحذر؛ ولجنا الطّريق السّريع رقم 40.

– سأريك الآن ما الذي تستطيع هذه الآلة فعله.

قالها «غابي» وهو ينظر إليّ مزهوّا، واعتقدت لوهلة أنّه كان ينتظر هذه اللّحظة بفارغ صبر، ليجرّب المحرّك الجديد الذي ركّبه في سفينته الفضائيّة، ضغط على دوّاسة البنزين لينطلق في سرعة الرّيح، في تسارع جنونيّ كمتسابقي السيّارات تماما، لدرجة أنّي خشيت أن ينحرف عن الطّريق.

– ممتاز «غابي» خفّض السّرعة الآن... أرجوك، «غابي».

– هل تخشى الموت؟.

واقتحمت ذهني كلماته القديمة؛ «ستموت في غزّة، لديّ إحساس بهذا».

– أنظر إليّ مثلا؛ أمّي تحذّرني دائما من خطر ارتفاع نسبة السّكّر في الدّمّ، وأنا لا آبه مطلقا، سنموت كلّنا «دافيد» في الوقت المناسب، كلّنا سنموت دون استثناء، هذا هو قضاء الرّبّ على عباده، مشكلتنا في التّوقيت، لا أكثر ولا أقلّ، دون فلسفات زائدة، وجدال عقيم لا يُغني ولا يُسمن.

قالها ونظر إليّ:

– ذكّرتني بالأكل، ناولني الكيس الورقيّ الذي في الخلف.

لم أصدّق عيناي، كان كيساً كبيراً يحوي عدّة شطائر من اللّحم المفروم والجبن.

– كيف جهّزت كلّ هذا؟.

– لست أنا، كل ودعك من الكلام، سنموت كلّنا في الوقت المناسب.

قالها ضاحكاً وهو يخرج حقنة الأنسولين من جيب سترته التي خلت من الأكمام، ثمّ يضعها بتمهّل أمامه، تمهيداً لحقنها بعد أن يكمل أكله، أمّا أنا، فأخرجت قنّينتين من علامة «INDIGO»، مشروب الطّاقة الأوّل عندي، فتحت واحدة وأشرت له بالأخرى، فهزّ رأسه شاكرا، وهو منشغل بنقر خفيف خفّة عصفور على شاشة كمبيوتر صغيرة، تتوسّط المساحة بيني وبينه، لينبعث صوت فنّاني المفضّل، في الأرجاء، «إيريك آنتشتاين»، في أغانٍ جميلة من ألبومه «الشّمس الرّطبة»، الصّادر في 2002.

هذا هو «غابي»، صديقي وزميلي في الثّانويّة وجاري العزيز، إسمه الكامل «غابرييل بوتون»، يكبرني بعام واحد فقط، وحيد والده السيّد «فريديريك بوتون»، مهندس معماريّ، ووالدته السيّدة «هانا هرتزوني»، متطوّعة في «نجمة داوود»، أعتبره أخي وأقرب النّاس إليّ بعد أمّي، ذكرياتي معه لا تُنسى، فكم سهرنا في حديقة منزلنا الخلفيّة على نار الفحم والنّقانق المشويّة؟.

«غابي»، مساعد حسابات في أحد المتاجر، فقط من أجل بعض الشّيكلات الإضافيّة لتمويل هوايته الغريبة «تعديل السيّارات»، التي لا يحتمل والده الحديث عنها على الإطلاق، إذ يقول أنّها إهدار وقت من الأفيد والأجدى لو كان مبذولاً في الدّراسة، بل كاد في العام الماضي أن يُسقط السّماء عليه حين فشل في الحصول على شهادة «البغروت»، واضطرّ للتدخّل بنفوذه الواسع ليعيد السّنة، بعدما أحرز معدّلا لا داعي لذكره، وأوشِك على الطّرد من كلّ مدارس إسرائيل.

بوزن تجاوز المائة كيلوغرام حاليًّا، وملفٍّ مرضيّ مقنع في كلّ دول العالم؛ حصل «غابي» بسهولة تامّة على إعفاء من الجيش، أي الرّمز التّعريفيّ 21، تقول والدته حين ألتقيها أو تأتي في زيارة وديّة لمنزلنا:

– ماذا سيفعلون ببرميل يتحرّك بصعوبة؟، لا يستطيع حتّى ركوب درّاجة هوائيّة، لو عرضناه على أكلة لحوم البشر لرفضوه.

وتضحك عاليا ملء شدقيها وهي تنظر للسّماء، ونضحك كلّنا.

بعد اجتيازنا لعدّة حواجز للجيش في الطّريق؛ ومرورنا بكلّ يسر لمّا تأكّدوا من هويّاتنا وسبب المرور، ظهرت لنا القاعدة أخيرا، حيث تقع بالقرب من كيبوتس «نيوت سمادار»، على بعد أقلّ من عشرة كيلومترات جنوب «شيطيم»، قاعدة مترامية الأطراف، واسعة على مرمى البصر، كم تمنّيت زيارتها من قبل، والآن أتت الفرصة المناسبة.

أنزلني «غابي» واستدار بالسّيارة بعدما عانقني طويلا قائلا:

- إعتنِ بنفسك.

(12)

قدّمت هويّتي عند مكتب الحراسة، ففتّشوا أمتعتي يدويّا بسرعة، ودخلت مباشرة لإحدى القاعات، حيث استكملت باقي الإجراءات، ثمّ جاء رقيب ذو بشرة سمراء قاتمة، يبدو أنّه من إفريقيا، نظر في أوراقي جيّدا، قائلا بصوت جهوريّ دون أن يرفع بصره نحوي:

– إتبعني.

سرنا في رواق ضيّق ذي سقف إسمنتيّ منخفض قليلا:

– ربما ستشعر ببعض الإضطراب بسبب الإستعدادات الحثيثة للإجتياح البرّي المرتقب، لا تقلق، أنت مختلف عن البقيّة، أنت شيء آخر.

ثمّ سأل:

– كيف تعرف الرّائد «أنطونيو مزراحي»؟.

– جارنا في «أوفاكيم»، إبن السّيّد «ريكاردو مزراحي».

هزّ رأسه معجبا بإجابتي، كأنّه اختبار اجتزته دون أن أدري.

طرق باب مكتب بلطف، وأدخلني بعدما أشار لي بترك حقيبة الظّهر في الرّواق، أدّينا التّحيّة العسكريّة معاً، بينما انصرف هو.

كانت ضابطة لم أتبيّن رتبتها جيّدا، تنظر في أوراقي وتبتسم من حين لآخر، ساعدتني ابتسامتها على التّحرّر من الضّغوط المكتسبة من رهبة المكان الجديد، فكلّ شيء مختلف هنا عن مترلنا.

– بديع... «دافيد عوفر».

– نعم سيّدتي.

قلتها بحزم وقد هالني صوتها الجافّ الذي تضارب مع ابتسامتها الدّافئة.

نهضت من مكانها خلف المكتب واتجهت نحوي تتأمّلني، بينما أنا متسمّر في مكاني كالتّمثال، أنظر أمامي مباشرة.

– يجب أن تدرك من الآن أنّك في الجيش، لا وجود للدّيمقراطيّة هنا ولا للمعارضة... إنّما هو أمر القائد الذي يجب أن يطبّق حرفيّا، والعصيان عقابه السّجن، وفترة السّجن لا تحسب ضمن فترة التّجنيد، مفهوم؟.

– نعم سيّدتي.

– بديع.

ثمّ دارت حولي:

– إحذر أن تنشر أيّة صورة أو معلومة مهما كانت نوعيّتها من داخل القاعدة العسكريّة، يمكن أن يستغلّها العدوّ، نحن في حالة حرب، أنتم في الأساس قادمون من مجتمع مدنيّ وإن كان الجميع يحمل الأسلحة، تصرّفاتكم وسلوككم غير المنضبط، مؤشّرات على كونكم مدنيّين، وهذا ما يجب أن يتغيّر الآن... في هذا المكان، يجب أن تبذلوا جهداً حقيقيّا في التّحوّل إلى عسكريّين يتمتّعون بحسّ أمنيّ، ويطبّقون الأوامر بحذافيرها دون نقاش، مفهوم؟.

– نعم سيّدتي.

ثمّ واجهتني تتأمّل كلّ ذرّة في وجهي:

– ممنوع استعمال الهواتف الذكيّة، ولا تثرثر في الإجازات خاصّة مع الغرباء، إحذر استقبال رسائل قصيرة أو مكالمات من أطراف لا تعرفهم ولا سيما من البنات، حتّى ولو كانوا من «أوروبّا» أو«أمريكا»، مفهوم؟.

– نعم سيّدتي.

– عند تحيّة العلم في طابور الصّباح أو المساء، قف بانضباط تامّ فقط، ولا ترفع الكفّ ملامسا للرّأس، أنت هنا مجرّد غرّ.

ثمّ أضافت بتذمّر جليّ:

– تبدو ساذجا ضعيفا، جيش الدّفاع الإسرائيليّ ليس مكانا للنّوم يا فتى، جيش الدّفاع الإسرائيليّ للتّضحية من أجل الدّولة التي أنشأها «بن غوريون».

إستقبال سيّء، أوّل مرّة يُقال لي في الجيش أنّي ضعيف، إهانة؟، هذا الذي يحدث لي الآن.

– لماذا ترتدي هذه النّظّارات؟، تبدو أحمقا بها.

قالتها وهي تتفحّص قلادتي ثمّ استدارت لمكتبها:

– ستكون في اللّواء 401، لا بأس... فالجيش الآن أصبح مزبلة، كلّ من يمشي على رجلين يحضرونه لي، هذه الحرب... عليها اللّعنة.

وشدّدت على كلمة «مزبلة»، ثمّ نظرت نحو الباب منادية بصوت عال:

– «سالوغلو».

دخل المجنّد الذي أحضرني مسرعاً مقدّما التّحيّة في انضباط وصرامة.

– خذه للمكتب الثّاني.

– حاضر سيّدتي.

وخرجنا، ومن هول ما وجّهته لي من إهانات نسيت أن أقدّم التّحيّة، ويبدو أنّها لم تنتبه أصلا، فقد كانت منشغلة ببعض الأوراق التي كانت أمامها.

في المكتب الثّاني أعطاني زيّا عسكريّا آخر شبيها بالأوّل، قال إنّه ميدانيّ وأساسيّ هنا في «شيزافون»، أمّا الزّيّ الأوّل، فيُلبس في الإجازات فقط:

– يجب أن نبقى مميّزين عن بقيّة النّاس.

ثمّ وجّهني لغرفة إقامتي.

فعلا، الحرب تغيّر كلّ شيء.

(13)

– لا توجد بيننا أسرار، يجب أن نكون مكشوفين على بعضنا البعض.

بهذه العبارة يفتتح «ديميتري» ضابط التّدريب المسؤول عنّا كلامه أمامنا في كلّ مرّة، بل يشجّعنا أن نكون اجتماعيّين لأقصى حدّ، فكلّنا نمرّ بنفس التّجربة، فلماذا لا نجعلها ممتعة؟.

كنت على وشك أن أفتح باب الغرفة التي سأقضي فيها مدّة تجنيدي في «شيزافون»، حين انتبهت أنّه مفتوح، فدفعته، لأجد مجنّدين آخرين يلعبان الشّطرنج، أحدهما أصلع.

– أنت المجنّد الثّالث إذن.

قالها صاحب الشّعر الطّويل، فأردف الأصلع على الفور:

– أدخل، مرحبا بك.

ونهض من مكانه يساعدني في حمل أمتعتي، وتبعه الأوّل.

– أنا «دافيد عوفر» من «أوفاكيم».

– وأنا «شلومو زوسمان» من «حيفا».

– وأنا «رفائيل أشكينازي» من «كريات شمونة».

وتصافحنا جميعا، بحبّ بدا جليّا على الوجوه، وأنا في داخلي ما زلت متأثرا بإهانات التي بدت لي كشيطانة خرجت للتوّ من الجحيم.

إستغرق ترتيب أغراضي في الخزانة الحديديّة نصف ساعة، بمساعدة زميلاي الجديدان، اللّذان بديا دمثين جدّا، ومهذّبين واجتماعيّين.

عرفت فيما بعد أنّ وحدة «ميتاف» هي من وضعتني معهما، إستناداً لاستبيان الهوايات الذي عبّأته ليلا، حين رجعت من مكتب التّجنيد.

كانت السّاعة تقترب من منتصف النّهار، قال «شلومو» وهو يتلمّس بطنه مداعبا:

– وقت الإطعام، هيّا بنا، وسنكمل حديثنا هناك، كلام كثير سنقوله لبعضنا البعض.

في المطعم بدا المكان هادئا جدّا عكس ما كنت أتوقّع.

قال «رفائيل»:

– لا تقلق، سيبدأ الهجوم بعد قليل.

وضحك هو و«شلومو»، بينما أنا أنظر لهما ببلاهة.

– ما بك؟.

– ستعتاد على مصطلحاتنا.

واستمرّا في الضّحك.

أخذنا صفائح فارغة ملأناها بأصناف من الطّعام الذي كان متوفّرا بكثرة، يمكن لأيّ شخص أن يأخذ منها ما يريد، وأن يخدم نفسه بنفسه، أخذت قطعة لحم وقليل من البطاطا المقليّة، وشيئا من الخسّ والطّماطم، بينما أخذ «شلومو» فاصولياء حمراء مع قطعة لحم، وأخذ «رفائيل» لحماً كثيرا مع الخسّ وقارورة ماء، وجلسنا إلى إحدى الطّاولات نتعرّف أكثر على بعضنا البعض.

«شلومو زوسمان» رسّام من أصل نمساويّ، يبلغ من العمر تسع عشرة سنة، طويل القامة، أبيض البشرة، نحيل الجسم، ذو شعر أشقر مسترسل، وأنف دقيق مستقيم، من سكّان «حيفا» في الشّمال، أخبرني أنّه يحبّ أن يترك شعره طويلا، ممّا يتنافى مع القواعد الدّاخليّة للجيش، أتفهّم هذه النّوعيّة من النّاس، هم يعيشون في عالمهم الخاصّ، وعادة ما يكونون من غريبي الأطوار، ونادراً ما يجدون من يفهمهم.

«رفائيل أشكينازي» ملاكم من أصل بولنديّ، ثماني عشرة سنة، من سكّان مستوطنة «كريات شمونة»، ذو عينين زرقاوين، وأنف يحتلّ مساحة جيّدة من وجهه العضليّ، يتمتّع بهيئة رياضيّة بديعة التّكوين، مثل «جون كلود فوندام»، وخاصّة لمّا يرتدي السّروال العسكريّ فقط دون أيّ شيء في أعلى الجسم، ممّا يثير فضول المجنّدين الآخرين ويذكي غيرتهم؛ حيث يبدو مصارعاً جبّاراً لا يرحم منافسه، فكيف بعدوّه؟، يحلق شعره دون أن يترك ولو نصف مليمتر، فيبدو أصلع الرّأس تماما، كأنّه عضو قديم من أعضاء المافيا الرّوسيّة.

في نبرات حديثه، بدا قلقاً على مصير عائلته التي تمّ إجلاؤهم من المستوطنة مؤخّرا، خشية هجوم «حزب الله»، حيث نقلوا إلى فندق «نوف إينوسار»، على ضفاف بحيرة «طبريّا»، رغم أنّهم استُقبلوا جيّدا هناك، مع سكّان مستوطنة «يفتاح»، لدرجة أنّ كلّ الغرف مشغولة ولا مكان للسّيّاح؛ والدّولة تتكفّل بتكاليفهم كاملة، إلاّ أنّ المسألة تبدو مقلقة على غير عهدها؛ لأنّ هناك مستوطنات أخليت لأوّل مرّة منذ 1948.

بعد حوالي عشرين دقيقة كان المكان يعجّ بالجنود، ومنهم مجنّدات، قال عنهنّ «شلومو» أنّهنّ من الكتيبة «كاراكال 33» الخاصّة بالدّبّابات، رأيت مجنّدين ومجنّدات يرتدين مآزر بيضاء، يقدّمون الأكل للجنود، بعدما كانوا يخدمون أنفسهم بأنفسهم، فرجّحت بسبب كثرتهم.

أرجعنا أطباق الطّعام وخرجنا مسرعين، كي لا نعلق في الزّحام الذي بدأ يشتدّ مع منتصف النّهار.

أخبرني «شلومو» أنّ القائمين على خدمة المجنّدين يتهرّبون من العمل إذا كان التّوافد قليلا، فلا يتشكّل زحام يكشف تهرّبهم من مهامّهم، لكن في زيارات التّفتيش تجدهم مثل خليّة نحل.

في الطّريق رأيت الأعلام في كلّ مكان، شأنها شأن كلّ المدن والبلدات الإسرائيليّة؛ دعانا «رفائيل» لتناول شيء بارد في النّادي، فلبّينا الدّعوة، وأكملنا تبادل الحديث ولقاء التّعارف.

حدّثتهم عن نفسي وعن هواياتي، تكلّمت كثيرا عن «غابي» و«أتارا» وأمّي التي أهدتني الوشاح الأبيض، كنت أمامهم كالكتاب المفتوح تماما، بسيطاً، صريحا، كنور الشّمس السّاطعة هنا في الصّحراء.

وأكمل كلّ واحد حديثه عن نفسه.

أراد «شلومو» أن يكون مصوّراً عسكريّا، لأنّه يعشق الصّورة والظّلال، لكنّه وجد نفسه هنا في سلاح المدرّعات، فرضخ للأمر الواقع، وأحضر معه عُدّة الرّسم الخاصّة به؛ أوراق وأقلام حبر، الجنّيّ يستطيع رسم أيّ شيء أمامه، كآلة تصوير؛ مناظر من الطّبيعة؛ جنود؛ أسلحة؛ كلّ شيء... كلّ شيء.

أخرج أمامي من جيبه ورقة بيضاء ومن جيبه الآخر قلم حبر، وراح ينظر في وجهي ويرسم، ثمّ قال:

- والآن، ما رأيك؟.

وهزّني ما رأيت، فعلا إنّه أنا على الورقة، وفي أقلّ من دقيقة، خربشات أنتجت وجهاً يشبهني.

بعد ساعة اقترح «رفائيل» الخروج للهواء الطّلق، فخرجنا، كان بعض المجنّدين يلعبون «الرّيقبي» غير بعيد عنّا، فراح يشجّع أحد الفريقين بتصفيق حارّ، بينما نحن نمشي بين الدّبّابات المتوقّفة، وعيناي متعلّقة بها، كالصّبيّ المتعلّق بوجه أمّه، كأنّي أرى أمامي مارداً خرج لتوّه من القمقم، وانتبه «شلومو» لنظراتي:

- لا تقلق، ستملّ منها ومن زيت تشحيمها القذر، نحن ننتظر استكمال عدد المجنّدين، وربما سيلتحقون بنا في أقلّ من ثمانٍ وأربعين ساعة، غرفتنا فقط ينقصها سبعة أفراد، أكتوبر وفيفري شهران للتّجنيد المركّز، هل تعلم أنّك وصلت متأخّرا؟.

ثمّ أضاف وهو يتلفّت حذرا:

- خذ هذا واتّصل بعائلتك، إحذر أن يروك، هنا يقولون كلاماً ويفعلون نقيضه.

كان هاتفا بسيطاً صغيراً دون إنترنيت، إنزويت بسرعة وراء إحدى الدّبّابات مكلّما أمّي و«ياعيل»، ثمّ «أتارا»، وهو يحثّني على الإسراع مخافة أن ينتبه لنا أحد الضّبّاط المارّين، أو تُلتقط الإشارة اللاّسلكيّة.

- لماذا يمنعون الهواتف البسيطة، فهي ليست مزوّدة بالإنترنت؟.

- إفهم، لا يمنعونها، لكن يضعونك في قائمة المشبوهين بنقل أخبار القاعدة للعدوّ، وتخضع للمراقبة دون علمك، وربما سيدفعون بك للمقصلة إن كان ولا بدّ أن تتمّ التّضحية بأحدهم، لقد اتّهموا كثيراً من المجنّدين

بالتّخلّي عن الإحساس بالمسؤوليّة الأمنيّة، وآخرين بالتّجسّس لصالح أطراف أجنبيّة، لا تنسَ، نحن في حالة حرب، وفيها يكون الحسّ الأمنيّ في أعلى مستوياته.

– هل هناك إعدام في إسرائيل؟.

– لا تكن أحمقا، ما يمنع ذلك؟، إذا وجدوك تمثّل تهديداً مباشراً فلماذا يتركوك حيّا؟، سيقولون انتحار، أو قتل لمشاجرة حول فتاة، أو «قتلوك بدو العرب»، لأنّك لاحقت إحدى بناتهم الجميلات، والجميع سيصدّق، لا شيء أسهل من إيجاد عذر في حالة حرب.

ثمّ أشار برأسه في لفتة سريعة إلى إحدى المجنّدات الفاتنات التي كانت تقترب منّا متبخترة:

– أنظر أنظر... هذه هي «باولا ليفي رودريقاز»، ملكة جمال كتيبة الدّروع، رقيب احتياط من الكتيبة النّسويّة للدّبابات «كاراكال 33»، من أصل أرجنتينيّ، تعمل في فندق «ليوناردو» في «بير شيفا»، كلّ الضّباط هنا يلهثون خلفها، عطرها فقط يمثّل راتب شهر.

ثمّ التفت إليّ قائلا وهو مندهش:

– لقد صدّت الرّائد «يتسهار هوفمان» رغم أنّه في وحدة «شالداغ»، هل تعرف «شالداغ»؟، وما الذي تعنيه؟، مكانة مرموقة وراتب محترم جدًا وهيبة...كلّ شيء... كلّ شيء.

وراح يحرّك يديه في الهواء مكملا بقيّة الشّرح:

– «شالداغ» هي من نفّذت عمليّة استرجاع يهود «الفلاشا» من «إثيوبيا» عبر «السّودان»، سنة 1991، بمساعدة «الموساد».

أدركت أنّه يعرف الكثير هنا، معلوماته جيّدة عمّا يحدث، وما يجب أن يحدث في المكان.

مثلا، يجب أن نحافظ على كلّ الأشياء التي أعطوها لنا، وإلاّ سندفع غرامات، ومن لا يدفع يبقى هنا، يجب أن نحلق وجوهنا دائما، كلّ صباح بعناية فائقة، كما يُمنع التّدرّج في حلاقة الرّأس أو صباغة الشّعر، وأنّه منذ نوفمبر الماضي، تمّ العمل بتوجيه جديد من وزارة الدّفاع، بحيث يعرف كلّ مجنّد في الدّروع اللّواء الذي سيخدم فيه عند انتهاء دورات التّدريب، هذا من شأنه خلق ديناميكيّة قتاليّة صلبة، وتعزيز روح الوحدة والفخر، كما أنّنا سنكون تحت إمرة الملازم «ديميتري»، ضابط صارم، يكره الكسالى، ويعاقب بشدّة على أدنى خطأ، لا يوجد مصطلح «الرّحمة» في قاموسه.

يقولون هنا في القاعدة أنّ لديه وشما غريباً على ظهره، لكن لا أحد رآه ليتأكّد، وهو من كتيبة «ديكل» المسؤولة عن تدريب الضّباط، بينما اعتبره «شلومو» من كتيبة «ريشيف» المدرّعة، وأنّه هنا خصّيصا لتدريبنا على النّسخة الخامسة الجديدة من «الميركافا»، التي تستعمل الذّكاء الإصطناعيّ في القتال، التي سيزوّدون بها كلّ أفواج اللّواء 401، إنّها معقّدة أكثر من النّسخة السّابقة.

زيادة على معرفته الواسعة بكلّ ما يدور في القاعدة، إكتشفت مع الأيّام أنّنا نشترك في ولعنا بالمغنّي «إيريك آنشتاين»، إذ وجدت أغانيه معه في جهاز MP3، يحمله دائما أينما ذهب، لأنّه جهاز عمليّ، صغير الحجم، يمكن أن يضعه في أصغر جيب له، أو بالمصطلح العسكريّ المألوف... يخفيه في أضيق مكان.

هاتفه المهرّب هو نافذتي الوحيدة على العالم.

حاولت أمّي أن تعرف تاريخ منحي إجازة، فهي متشوّقة جدّا لترابي، لكنّ ما عساي أقول وظروف الحرب تجبر القيادات على تأجيل كلّ شيء.

بعد الزّوال كنّا في الغرفة نصلّي، وهناك أراني «شلومو» عدّة الرّسم خاصّته، أقلام حبر من نوع H وB وHB، كما أراني بورتريهات لبعض الشّخصيّات التي رسمها، بقلم الحبر دون ألوان، مثل «بنيامين نتانياهو» وعقيلته «سارة»، وأيقونات إسرائيل، «دافيد بن غوريون»، «غولدا مائير»، الجنرال «أرييل شارون»، ورمز الصّهيونيّة «تيودور هرتزل».

(14)

أمّا «رفائيل»، فملاكم من الطّراز الرّفيع، حاصل على عدّة ألقاب، يتجنّب الحديث عنها، يقول «شلومو» أنّه رآه مرّة يقاتل قتال شوارع، سريع الضّربات لدرجة لا تصدّق، يمكن أن يوجّه لك خمس لكمات في ثانية واحدة، بيد أنّي اعتبرت هذا مبالغة من طرفه.

يقول «رفائيل» عن الخمر أنّه يهدم الجسم، ولا فائدة فيه مطلقا، ولا يعرف لماذا يباع بأثمان باهظة، لكنه مدمن قمار، وتجده يتذمّر ليل نهار من الرّاتب الذي يدفعونه لنا نحن المتسوّلون بالزّيّ العسكري.

طبعا لو تقدّم للمقامر نهراً من ذهب، لطلب النّهر الثاني لطمأنة اللاّعبين.

في تلك الأمسية، قرب الغروب، حضر مجنّد آخر.

بدأ الزّملاء يلتحقون بنا، تماما كما تنبّأ «شلومو»، دخل مباشرة حيّانا بترفّع، متّجها نحو الخزانة لترتيب أشيائه، دون أن ينبس ببنت شفة أخرى، ثمّ شرع في ترتيب سريره، حاولنا كلّنا استدراجه للحديث، للفظفظة ولو قليلا، فنحن جميعاً نتقاسم المصير ذاته، غير أنّه يجيب دائماً إجابات محدّدة، منهيا الموضوع بسرعة، كأنّه يعرف ما بداخلك، وما الجواب الذي يرضيك.

شخص منعزل؛ لا يحبّ إنشاء مساحة مشتركة مع الآخر، سيتسبّب في مشاكل لا تخطر له على بال، فبانعزاله يغلق باب التّواصل ونوافذه مع الذين من المفروض أن يلقي لهم بكلّ شيء.

حين بدأ في ترتيب سريره؛ كان صديقي الرّسّام خلفه، فأشار لنا بعلامة من يده على شكل المسدّس، علامة انتمائه للإستخبارات العسكريّة «أمان»، لا أعرف كيف أقنع نفسه بذلك وأراد إقناعنا به؛ ربما لشكل الجسم المعبّر عن القوّة، أو للهيبة التي يزخر بها شكله، فهو ضخم الجسم متناسق الأبعاد بطول يقارب المترين، وبذراعين قويّتين مثل أسس الإسمنت المسلّح، وزاده لونه الأسمر الضّارب للسّواد، وعيناه النّاريّتان هيبة وجبروتا، فتجلّى كفهد شرس، لا يرحم فريسة وقعت بين أنيابه.

حين ذهب ليأخذ حمّاماً، حاول «شلومو» التخلّص من بطارية هاتف ذكيّ كانت معه، لكنّ «رفائيل» أشار عليه بالإحتفاظ بها، معتبراً أنّه لو كان من «أمان» لكان اجتماعيّا، ليسهل عليه التّعرّف على أسرارنا، أمّا

أنّه منعزل، فهذه إشارة توتّر، وأنّ ما فعله لا يعدو أن يكون حركة دفاعيّة، واعتبرت المسألة منطقيّة بنسبة تجاوزت التّسعين بالمائة.

يؤكّد أطبّاء العيادة النّفسيّة لجيش الدّفاع الإسرائيليّ باستمرار على وجوب الإندماج في الجماعة، ففي الجيش تجد نفسك مجبراً على عقد صداقات من جميع أصناف البشر، فأنت تعيش للغير والغير يعيشون لك، تتشاركون الخير والشرّ، كما تتقاسمون الماء والطّعام والهواء، الصّداقة في الحياة العسكريّة تختلف تماماً عن الصّداقة في الحياة المدنيّة، لأنّ إحتماليّة موت الجنديّ أكبر من احتماليّة موت المدنيّ، فالذي لا يتعامل مع أدوات القتل حظوظه في النّجاة أكثر، أمّا بالنّسبة للعدوّ فهو لا يفرّق بين جنديّ وآخر؛ ولا بين القادم من الشّمال والقادم من الجنوب، ولا بين المولودين في الخارج و«الصّابرا»، فالرّصاصة تبقى في النّهاية رصاصة، جسم معدنيّ ينطلق بسرعة كبيرة نحو الإنسان، وسيلة قتل مثل الشّظيّة، لا هويّة محدّدة لهدفها، كلّ جنديّ أمام أربع احتمالات أساسيّة؛ إمّا النّجاة أو الإصابة أو الموت أو الأسر، وإحتماليّة أسر الجنديّ أكبر من أسر المدنيّ، لأنّه ثمين أكثر من الثّاني، هكذا كان يقول أبي دائما، وهو العسكريّ القادم من «المغرب»، الذي أفنى حياته في خدمة إسرائيل.

كنّا جميعا في طابور الصّباح يقف أمامنا «ديميتري» بهيئته الرّهيبة، وشاربه الخفيف، طويل في حدود متر وتسعين سنتيمترا، ضخم الجثة عريض المنكبين، أبيض بشرة بدأت تتّجه للسّمرة من أثر شمس الجنوب، تضاريس وجهه القاسية وشعره الأشقر المحلوق بعناية إلى ما فوق الجلد بحوالي ميلّيمتر واحد، يعطيك انطباعاً مفاده أنّي عسكريّ صارم بكلّ معنى الكلمة، فلا تعبث معي، وطاقيّته السّوداء ذات النّجمة السّداسيّة، تشي بتدينه، سحنته سحنة اليهود «السّفرديم»، تشي بأصوله الرّوسيّة، أو الجورجيّة، أو ما جاورهما.

وقف كالطّود الشّامخ:

– تستطيعون تسميتي «ديميتري»، أنتم هنا من أجل التّدريب فقط، وما زلتم غير معنيّين بالحرب، أريد أن أصنع منكم رجالاً أقوياء، كلّ الوقت اللاّزم لذلك متوفّر، لا توجد بيننا أسرار، تذكّروا دائما، لا توجد بيننا أسرار، يجب أن نكون مكشوفين على بعضنا البعض، ومن كانت له مشكلة فليأت إليّ، يساعدني في تدريبكم الرّقيب «فاليري»، سيعلّمكم أساسيّات الحياة العسكريّة، سيعلّمكم كيفيّة الإنتقال من مدنيّ إلى عسكريّ، أريد تفاعلكم الإيجابيّ معنا، كي تكون لإنجازاتكم نتائج واقعيّة فعّالة، أتيتم في الأساس من مجتمع مدني، وإن كان الجميع يحمل الأسلحة هناك، إحذروا...

ورفع سبّابته لأعلى مكملا:

– أيّ عصيان نتيجته المنطقيّة السّجن، وفترة السّجن لا تحسب ضمن فترة الخدمة، تذكّروا أنّنا هنا لا نمزح، ولا يجب أن نمزح، بأيّة صورة، ستتعبون كثيرا معي، لكن يجب أن تبقوا مفعمين بالطّاقة مهما يحدث لكم، هنا شيئان اثنان، إمّا النّصر أو الموت، إمّا ترفع علم إسرائيل... أو يرفع عليك.

عبارات مختزلة، لكنّها قويّة المعنى والدّلالات، نفس الكلام تقريبا مع الشّيطانة التي استقبلتني أوّل مرّة، كلّهم يقولون نفس الأفكار، لكن في سياقات مختلفة.

وبدأنا أوّل التّدريبات العسكريّة، في إطار دورة أولى مدّتها ثمانية أسابيع، تركّز على اللّياقة البدنيّة، وتشمل اجتياز الحواجز والرّكض الجماعيّ والتّنقّل منبطحا.

أخبرني «شلومو» أنّها تسمّى «دورة البندقيّة» المستوى رقم 5، والمقصود بها إعداد المحارب بتعليمه أساسيّات القتال، ولا يمكن الذّهاب لتعلّم القتال بالدّبّابة دون المرور على هذه الدّورة، وسيتكّفل بذلك الرّقيب «فاليري».

في الصّباح الباكر قبيل الشّروق نبدأ الرّكض في مجموعة تصل إلى ثلاثين مجنّدا، لا نتوقّف ولا يجب أن نتوقّف ولو تعبنا، هذه الممارسة تحفّز الجسم على التّجاوب مع الظّروف الخارجيّة الطّارئة، وتقوّيه.

كنت أركض بصعوبة وأنا الذي اعتدت الجلوس أمام الكمبيوتر، وأتناول كلّ ما أرغب به اقتداء بصديقي «غابي».

أين أنت الآن أيّها البدين؟، لا شكّ أنّك جالس على أريكة وثيرة في مكان مكيّف، نظيف وأنا أشوى هنا حيّا كالنّقانق.

إرتفعت حرارة جسمي بسرعة وصرت أغلي كقدر أمّي، ورغم كلّ ذلك لا يجب أن تتوقّف، حتّى تأبى رجلاك أن تحملك، فتنهار على الأرض الملتهبة، ولا يتوقّف لأجلك أحد، ستأتي مجنّدات مهمّتهنّ إسعافك أينما سقطت، وإذا تطلّب الأمر، سينقلونك للعيادة.

قاوم «رفائيل»، لكنّ صديقنا الإفريقيّ الذي لا نعرف اسمه ضرب المثل في المقاومة، حتّى أنّي شككت أنّه لا يركض، كنّا نركّز كما أمرنا الرّقيب «فاليري» على التّنفّس السّليم، الإستنشاق بالأنف والزّفير من الفم، ونبقى كذلك حتّى يأمرنا بالتوقّف.

مرّت الآن حوالي نصف ساعة ونحن نركض، كان البعض يتساقطون خلفنا الواحد تلو الآخر، ومنهم «شلومو»، كنت أركض بلا نظّارات وبالكاد أرى أمامي، نكزني «رفائيل» قائلا في همس في حركة خفيفة برأسه إلى اليمين:

– «ديميتري».

أدركت ساعتها أنّنا سنتعب كثيراً كما قال في كلمته الأولى لنا، وما يحدث لي ولرفاقي الآن ما هو سوى بداية المأساة.

– أععع.

كان هذا أحد المجنّدين الذي انحنى يتقيّأ بجانبي بوجه شاحب، فيما أكمل الآخرون مسلكهم، وراحت الهواجس تتلاعب بي، وأنا أشعر أنّي أسير دون رجلين، وطنين غريب في أذني، ثمّ فجأة وجدت نفسي على

الأرض، وسط شعاع من الشّمس حارق، أتت مجنّدتان تحملان مستلزمات الإسعاف، وألقت واحدة منهما الماء على وجهي ورأسي، وهي تصفعني صفعاً خفيفا، وحين استوعبت ما يجري حولي طلبت منّي إن كنت أستطيع المواصلة، فحرّكت رأسي إيجاباً ونهضت، أتبع المجموعة التي كانت قد اختفت وراء منطقة ضبابيّة تراها عيناي.

ركضت أحاول اقتفاء الآثار على الرّمل والتّراب، وبعد حوالي خمس دقائق رأيتهم أمامي يعودون، أشار لي الرّقيب أن أرجع معهم، ففعلت حتّى وصلنا للخطّ الذي انطلقنا منه، حينها بدأنا نسير ببطء، وهو يحذّرنا من الوقوف المفاجئ، أو الجلوس على الأرض.

إستمرّت المعاناة حتّى منتصف النّهار، كدنا نموت كلّنا من الإرهاق الشّديد، كانت مجنّدات الإسعاف تتبعنا بإحدى السّيّارات العسكريّة الصّغيرة، وهنّ يوزّعن علينا قارورات الماء البارد، الذي سرعان ما تزول برودته في أقلّ من نصف دقيقة، بسبب الحرارة الشّديدة التي لم أر لها مثيلاً في حياتي، ملابسنا العسكريّة ملتصقة بأجسامنا من كثرة التّعرّق.

يا له من يوم!، هل هذا كلّه من أجل القبّعة السّوداء؟.

أخبرنا الرّقيب «فاليري» أنّنا ركضنا حوالي خمسة أميال كاملة، ثمّ وجّهنا للمطعم قائلا:

– كونوا هنا السّاعة الثّانية تماماً دون أيّ تأخير، تنتظرنا تدريبات أخرى.

(15)

توجّهنا للمطعم، الذي تراءى لنا على بعد عشرين كيلومترا من فرط ما بنا من إرهاق، ولحسن الحظّ كان المكان فارغا، أخذت شلّتنا ما رغب به كلّ واحد، وأكثرنا من اقتناء عبوات الماء، ثمّ ارتمينا على إحدى الطّاولات نتأوّه من شدّة الألم.

كاد «شلومو» أن يبكي، فيما كان «رفائيل» يسبّ بينه وبين نفسه، ثمّ سمعته يقول:

– نحن رجال مدرّعات ولسنا قوّاتاً خاصّة، تبّا لهم، سيقتلوننا قبل نهاية الشّهر.

في المساء، كانت تنتظرنا معاناة من شكل آخر.

أمرنا الرّقيب بالزّحف على بطوننا، وباستعمال المرفق كي تعطي لنفسك زخما حركيّا في مسار تعلوه الأسلاك الشّائكة، ويا ويلتاه!، كانت الدّماء تسيل من مرافقنا، ويجب رغم ذلك ألاّ تتوقّف، وزادنا الجهد الذي بذلناه صباحاً إيلاما لها من الفظاعة ما يفوق الوصف، حتّى خُيّل لي أنّهم سيجدوننا موتى في صباح الغد، ثمّ في نهاية المسار نقفز على حاجز إسمنتيّ يرتفع قرابة المترين، لنلقي بأنفسنا من فوقه في عزّ شمس الظّهيرة، وتتوالى باقي العقبات، التي بدت لي من تأثير الحرارة الشّديدة حلقة مفرغة.

في تحيّة العلم عند السّاعة الخامسة مساء، لم أستطع الوقوف، رغم أنّي كنت قد تناولت من قبل مشروب الطّاقة الذي لا يفارقني، كانت رجلاي بالكاد تستطيعان حملي، فلا أشعر بهما من كثرة ما بذلت من جهد لم أتعوّد عليه، وجسدي كلّه مبلّل مثل باقي المجنّدين، يومها حمدت الرّبّ على أنّ السّلام الوطنيّ الإسرائيليّ قصير.

بعد غروب الشّمس بقليل؛ كنّا مستلقين على أسرّتنا بعدما أخذنا حمّاما نزيل به العرق الممزوج بالغبار؛ حين حضر «عزرا غولدشتاين»، آخر المجنّدين الملتحقين بغرفتنا، الشّابّ الوسيم الذي يبدو كنجم سينمائيّ أنهى للتوّ تصوير فيلمه الأخير، أكمل عقده الثّاني قبل أسبوع، يوزّع ابتساماته وعبارات المجاملة على كلّ من يلتقيه، مثل السّياسيّين.

يقول عنه «شلومو» أنّه لم يرَ شخصاً في بلاهته، لدرجة يبدو معها كالذي يتسوّل الصّداقات:

– هل يُعقل أن يوجد أشخاص مثله في العالم؟.

تناقض تامّ بينه وبين المجنّد الذي حضر قبله، ولا يُعرف اسمه حتّى الآن.

– إنّه يتحدّث مع كلّ من يراه، فظيع هذا النّموذج من البشر، إذا استمرّ معه هذا الجنون سنراه ذات يوم يتحدّث مع القطط والكلاب.

يضحكني والدي حين يقول مازحاً عن هذه النّوعيّة من البشر أنّهم ولدوا في أشهر الرّبيع، يعتمد الصّراحة نهجاً أصيلاً في حياته، كلّ ما في قلبه على لسانه، مثلي لا يشرب، لا يدخّن، لا يلعب القمار، لكنّه مولع بالسّهر تحت النّجوم، وبالغناء على أوتار قيثارة لا أعرف من أين اقتناها، ولا من سمح له بإدخالها للقاعدة، التي تعتبر مغلقة يغادرها المجنّدون في نهاية الأسبوع، ويعودون إليها في بدايته، عكس القواعد الأخرى والثّكنات، كما لا أعرف إن كان أحدهم قد تشجّع وأخبره أنّ صوته مزعج لدرجة لا تُحتمل.

الغريب أنّه يجبرنا على الإستماع إليه.

أمّا هو، فيظلّ يكرّر على مسامعنا أنّ هرمونات السّعادة لديه تفيض عن حاجته ومضطرّ لتصديرها.

بعد أيّام عرفنا مصدر هرموناته، لديه فتاة يحبّها كثيرا، ويريد الزّواج منها حين ينهي فترة خدمته الإلزاميّة، كان يتحدّث إليها سرّا في البداية، ثمّ أصبح لا يتحرّج في مهاتفتها أمامنا، وفي الغرفة هو في احتمالين لا ثالث لهما؛ إمّا يغنّي أو يتحدّث إليها، إمّا مع قيثارته أو مع حبيبته.

إستمرّت تدريباتنا الشّاقة المتنوّعة، بين الرّكض واجتياز الحواجز، واستمرّ معها تورّم أرجلنا.

صوّبنا بالبندقيّة والرّشّاش والمسدّس، في وضعيّة الوقوف والإرتكاز على الرّكبة والإنبطاح، بشكل احترافيّ، وإلقاء القنابل اليدويّة، وفكّكنا السّلاح وأعدنا تركيبه، وقدّمنا الإسعافات الأوّليّة لبعضنا البعض حين نصاب بعيار ناريّ أو بشظيّة قنبلة، ثمّ انتقلنا لمرحلة أصعب، الرّكض واجتياز الحواجز وأنت في كامل عدّتك القتاليّة، من سلاح وذخيرة وعبوة الماء وحقيبة الظّهر، وهذه كلّها أوزان زائدة، ستؤثر على أدائك، وستزيد من تورّم رجليك.

يقولون لنا في الجيش أنّه ينبغي الإهتمام بصحّتك، فالجنديّ قويّ بجسمه وعقله، بل كلّ تأثير عليه هو في الأساس تأثير على كلّ الجنود، وإنهاك للشّباب الإسرائيليّ المقاتل ذكراً كان أو أنثى، ولذلك يجب المحافظة على روتين تدريبيّ مستمرّ لا يتوقّف، كي لا تنهار قدراتك، ويرتفع مع الوقت.

كي تزيد من فرص تجهيز جسمك لتحدّيات صعبة.

كنت أذهب مع «غابي» للتّدريب على الرّماية خارج «أوفاكيم»، وأعرف استخدام السّلاح، علّمني أبي منذ أن نعومة أظفاري باعتباره عسكريّا؛ الرّمي بالمسدّس وبالبندقيّة، وجلب لي بعلاقاته الواسعة مع عدّة قيادات حتّى «الكلاشينكوف».

أطلقت النّار باستمتاع من «ميني تابور»، أروع بندقيّة هجوم رأيتها في حياتي، إضافة إلى فخرنا، مسدّسنا الرّشاش «عوزي»، ولم أجد مشكلة في التّصويب بأيّ سلاح؛ فحين يرتفع مستوى «الأدرينالين» في جسمك؛ ستبحث لا إراديًا عن الضّغط على الزّناد لتخفّضه، كلّ الإسرائيليّين يفعلون ذلك.

نحن هنا نتدرّب على الأسلحة، مثلما يحدث في «أمريكا»، منذ الصّغر في ميادين التّصويب المغلقة أو حتّى في الطّبيعة، وعادة ما يطلب منك المسؤول عن قاعة الرّماية هويّتك، لكن إذا تدخّل أحد الأقوياء في الدّولة، فلا تفكّر كثيرا، سيرحّبون بك في أيّة ساعة من النّهار أو من اللّيل.

يقول أبي لنا دائما في المترل:

– لا شيء أفضل للمقاتل من الطّبيعة، فهي أمّه التي ولدته، أمّا ميدان التّصويب، فهو زوجة الأب، التي تأوي إليها اضطراراً، حين تذهب أمّك للعالم الآخر.

ثمّ تعرّفنا على ما يسمّى «اللّياقة القتاليّة»، «الكراف ماغا»، القائم أساساً على مبدأ قتال الشّوارع، ونستعمله حين لا يتوفّر مكان واسع لاستخدام السّلاح، إذ يقوم على تحويل الحركات الدّفاعيّة الغريزيّة للإنسان إلى حركات مدروسة، من أجل أن تصبح أكثر فتكا، إعتماداً على سرعة ردّ الفعل، والقوّة الذّاتيّة المتفجّرة للجنديّ، والقتال العنيف الحاسم الذي لا يدع فرصة للعدوّ كي يهرب أو يطلب المساعدة، وينقسم لثلاثة أنواع، رياضة قتاليّة؛ طريقة دفاع للمدنيّين؛ طريقة قتال للجنود، وهو قائم من زمن «الهاغانا»، طوّره «موشيه فلدينكرايس»، و«إيمي شادور ليشتنفيلد»، و«غيرشون كوفلر»، كلّ ذلك بالأيدي العارية تماما؛ ثمّ القتال بسلاح معلّق على الكتف؛ ثمّ القتال بسكّين التّدريب، جنديّ مقابل جنديّ؛ أو جنديّ مقابل اثنين؛ أو جنديّ مقابل ثلاثة مقاتلين.

كان «ديميتري» يرقبنا عن كثب.

(16)

هنا في «شيزافون» يتجمّع المجنّدون أمام تلفزيون النّادي، حين تُعرض مباراة مصيريّة، خاصّة إذا كان «ميكابي تل أبيب» طرفا فيها، كلّ واحد يتعصّب لفريق ما، أمّا شلّتنا؛ فلا أحد فيها يشجّع فريقا كرويّا إسرائيليّا بعينه، ولا غرو في ذلك.

«عزرا» مثلا، يشجّع «ميسي»، غير مقتنع باللاّعبين الإسرائيليّين، ويكره «رونالدو»، لأنّه باع حذائه الذّهبيّ بمبلغ مليون ونصف المليون من الدّولارات متبرّعاً به لشعب «غزّة»، بعد هجومنا عليها في 2012، الشّيء الذي أزعجه كثيراً، لدرجة أنّه مزّق كلّ صوره، معتبراً إيّاه من داعمي الإرهاب، بينما يجزم «زوسمان» أن لا أحد سيخلف «مارادونا»، وأنّ أرحام النّساء عاجزة على ولادة طفل يشبهه، ثمّ إنّه توقّف عن الإعجاب بأيّ لاعب بعده، لأنّه لاعب لن يكرّره الزّمن، ولو بعد مليون سنة، أمّا أنا، فكنت نادراً ما أمارس أيّة رياضة، جلّ وقت فراغي أكون مع «غابي»، إمّا في المكتبة، أو نتجوّل بسيّارته، نأكل ما لذّ وطاب، في أيّة كافتيريا تجذبنا إعلاناتها، حتّى أنّ أمّي أو أمّه إذا قلقتا علينا أو احتاجتا شيئا، فإنّه يكفي إحداهما أن تطلب أحدنا عبر الهاتف ليكون الآخر برفقته، وإذا عدنا للمنزل، يعزل هو نفسه في المستودع مع سيّارته التي عادة ما يخرج كلّ أمعائها، ثمّ يعيدها وقد غيّر هذه القطعة وأضاف تلك؛ وأتسمّر أنا أمام شاشة الكمبيوتر أراجع الدّروس، وأنجز البحوث التي يكلّفوننا بها في الثّانوية، ولا سيما في سنتي الأخيرة، وفي اللّيل لمّا يصيبني الأرق، أكتب مذكّراتي الشّخصيّة، أنفّس فيها عن شتّى شجوني، فتريحني من الإنفجار.

غير أنّ الرّوتين اليوميّ هنا في «شيزافون» مختلف عمّا عهدته في الماضي، ففي وقت فراغي الذي أريد أن أختلي فيه مع نفسي أخطّ بعض الأوراق؛ ويرسم «شلومو»؛ ويسترجع «رفائيل»؛ يجرّنا «عزرا» جرّا لإجراء مقابلة وديّة، بدعوى أنّ الرّياضات الجماعيّة تزيد من أواصر التّرابط في الفريق القتاليّ، أضطرّ لنزع نظّاراتي أثنائها مدّة طويلة، في مخالفة صريحة لأوامر الطّبيب، كي لا يكسرها أحدهم دون قصد، مقابلة رتّبها مع مجنّدين آخرين في غفلة منّا، وهذا طبعاً حين يتشاجر مع خطيبته، أو تخاصمه أيّاما.

حركة دفاعيّة منه كي لا يؤنّبه ضميره.

يعيرني حذائه الرّياضيّ الأسود الذي تخالطه صفرة، لأنّه يتشاءم منه، فلا أستطيع معرفة سبب ابتياعه، ثمّ يصرّ على اللّعب بكرته التي اشتراها بأكثر من مائة وخمسين شيكلا من محلّ كبير في «تل أبيب»، نرجسيّ، يريد أن يوصل لنا فكرة أنّه هو الشّمس، مصدر الطّاقة والنّور، التي يجب أن تدور حولها الكواكب.

وتارّة حين يجدني وحدي في الغرفة، يجرّني جرّا لقاعة تقوية العضلات، لأساعده خصّيصا في تمرين «القرفصاء»، المعروف بين المجنّدين باسم «سكوات».

– المجنون سيكسر ظهره ذات يوم.

هذا ما وصل إليه «رفائيل» من استنتاج، لمّا يراه يحاول جاهداً ولا تسعفه رجلاه أن يرفع كلّ تلك الأوزان المهولة، التي تصل إلى مائة وخمسين كيلوغراما، يريد منافسة صديقنا الإفريقيّ الجديد الذي لا نعرف اسمه، الذي يستطيع بجسمه القويّ ولوحده، رفع مائة وثمانين كيلوغراما، كأنّه يرفع ريشة في الهواء، عكسي تماما، حيث لا أستطيع رفع عشرة كيلوغرامات، إلاّ بمساعدة صديق.

يقول له «رفائيل»:

– دعك من التّهوّر، زوجتك المستقبليّة لا تريدك مُقعداً على كرسيّ متحرّك، تتجوّل به أمامها في المتزل، أو تأخذ حمّاما شمسيّا في الحديقة الخلفيّة.

لكن حين تُستنفر هرمونات السّعادة لدى صديقنا المغرور بوسامته... فأنت تخاطب حجرا.

وتذكّرت أبي وما يعانيه في المستشفى، سيكون قعيداً بقيّة حياته.

كنت أنتظر بفارغ صبر أن أنتهي من هذا العذاب الذي أنا فيه، هذه الدّورة اللّعينة التي يقولون أنّها إجباريّة على كلّ مقاتل في جيش الدّفاع الإسرائيليّ، ثمّ نتفرّغ للدّورة الثّانية الخاصّة بالدّبّابات، آه... «الميركافا» حبيبتي الثّانية التي أسعى إليها بعد «أتارا»، هذه التّحفة الفنّية التي تُعتبر آخر ما توصّل إليه الإنسان في صناعة المدرّعات، ثمنها يصل إلى ستّة ملايين دولار أمريكيّ، نعم ستّة ملايين من دولارات «العمّ سام»، على يد أب عقيدة التّدريع اللّواء «يسرائيل تال»، مؤسّس مديريّة العربات والدّبّابات في وزارة الدّفاع، والمهندس «يسرائيل تيلان».

تسمح لي بالقتال وأنا في أمان تامّ، لا يمكن أن يصيبني شيء، أنا مثل اللّؤلؤة، تحميني قوقعة حديديّة مصفّحة، بناها مهندسونا الممتازون من ذوي العقول النيّرة، كلمّا أراها تجري تنثر حولها الرّمال والغبار، يهتزّ بدني كلّه معها، ويقفز قلبي فرحا، ويرسخ في ذهني شعار حلمي الذي أتواجد هنا من أجله، ستكون لي بعد أقلّ من سنة من الآن.

قرب منتصف اللّيل؛ سمعنا صراخاً وجلبة غير بعيد عنّا، ثمّ صوت إطلاق نار، تبيّن فيما بعد أنّه انتحار لمجنّد رفضوا منحه إجازة، ليحضر جنازة أمّه التي ماتت منذ يوم، بسبب الحاجّة الماسّة للجنود، ولأنّه جُنّد مؤخّرا فقط، في لحظة يأس وغضب وإحباط ممّا حوله، وضع حدّا لحياته بسلاحه الشّخصيّ، لم يتفهّم عذره

أحد من الضبّاط المباشرين أو من القيادة، لأنّه -كما أخبرني «شلومو»- من يهود «الفلاشا»، الطّبقة المنبوذة هنا، ولو كان من «الأشكيناز» لاختلف الوضع جذريّا.

هل يُعقل أن يكون هذا التّمييز الإجتماعيّ حتّى في جيش الدّفاع الذي يتغنّى دائماً بالمساواة والعدالة الإجتماعيّة؟.

حين يؤكّدون لنا بضرورة التّواصل مع بعضنا بعضا، فلتخفيف الضّغوط النّفسيّة التي سرعان ما تتعاظم، ويجب إيجاد متنفّس لها، بالرّياضة، أو بالصّلاة، أو بممارسة الهوايات، أو بتبادل أطراف الحديث، تبادل الكلمات ليس لتبادل الأفكار فحسب، بل لتقاسم المشاعر، وللمجنّد حريّة الإختيار بين تصدير مشاكله، أو التآكل النّفسيّ.

من كان يدري أنّ مسلسل الإنتحار مسلسل طويل، وأنّ هذه فقط... الحلقة الأولى منه؟.

(17)

كنّا نشكّل حلقة كبيرة وهو في وسطها كالنّحلة، يغيّر مكانه باستمرار مثل القنّاص والشّمس الحارقة فوق رؤوسنا، وعلى حين غرّة أشار لي بسبّابته اليمنى:

– أنت... عرّف نفسك.

– الطّالب «دافيد عوفر» من اللّواء المدرّع 460 تدريب إلى اللّواء القتالي 401 سيّدي.

– لماذا هناك حرب في «غزّة»؟.

كان سؤالاً مفاجئا، فلقد توقّعنا أسئلة عن قواعد القتال، أو في الأسلحة، أو حتّى في الإسعافات الأوّليّة، لكن أن يأخذك مباشرة دون مقدّمات، لمكان يبعد عنّا مائتي كيلومتر، فهذه هي لفائف التّوراة.

وهذا هو «ديميتري»، صنيعة الرّبّ في خلقه، الذي يؤكّد في كلّ مناسبة أنّ عقيدتنا العسكريّة هي الأفضل في العالم، فنحن نحافظ على حياة جنودنا مثلما تحافظ الأمّ على رضيعها، وديدنه تصفيح «الميركافا»، عدد لا يقبل القسمة على إثنين.

كابوس إسرائيل الحرب الطّويلة، هاجس إسرائيل المجنّدون والمجنّدات، الذين هم في الأصل موظّفون وعمّال في قطاعات شتّى، إستدعاؤهم للجيش معناه توجيه كلّ الميزانيّة للجهد الحربيّ، ممّا يرهق كواهل المواطنين، ويؤزّمهم نفسيّا، ولا سيما إذا كانت هناك خسائر في الأرواح.

هل تساءل أحدكم عمّن يعوّض اليد العاملة المؤهّلة، والأدمغة الفذّة التي تُقتل في المعارك والحروب؟.

تأمل قيادات جيش الدّفاع الإسرائيليّ الخوض في حروب خاطفة، مع الحفاظ على حياة المقاتل، لأنّها تعني الكثير، تعني الإبن والأب والأخ والزّوج والخطيب للأسرة؛ وتعني العامل والموظّف والمستخدم والأجير والخبير للدّولة؛ وتعني الصّديق والرّفيق والأليف والأنيس للشلّة، فمن يعيد هؤلاء إذا اختطفهم الموت؟، من يعيد الأحبّاء إذا ساروا في هذا المسلك ذي الاتّجاه الوحيد؟.

ثمّ هل من المنطقيّ أن تنتظر ضربات عدوّك؟، هل من الرّجاحة والتّفكير السّليم أن تكون على علم بما يجهّز لك، وتغمض عينيك، أو تدفن رأسك في التّراب كنعامة؟.

– للقضاء على مخرّبي «حماس».

تفرّس في وجهي بعينيه النّاريّتين، حتّى اعتقدت أنّي أخطأت في الإجابة، أو أنّي لم أرفع صوتي كفاية، أو أنّها ليست العبارة المناسبة التي ينتظرها منّي.

– لأنّ أرض إسرائيل لا تُجزّأ أيّها المجنّد.

ثمّ بدأ يسير وسطنا في صرامة وصوته يعلو:

– حتّى ولو لم تكن «حماس» أو «كتائب القسّام»، فإنّنا يجب أن نهيمن على كلّ شيء، ننقل المعارك لأرض العدوّ، كي نقلّل الخسائر، ونكسب باستمرار أرضاً جديدة، أرضنا واسعة، واسعة جدّا، تمتدّ من «النّيل» في «مصر» إلى «الفرات» في «العراق»، أمّا التّحصيل فعائق وقت فقط، صكّ الأرض في أيادينا، وسنحرص على المطالبة بها في الوقت المناسب.

ثمّ أضاف في حقد:

– كلّكم هنا عانيتم في السّابع من أكتوبر، كلّ واحد هنا تضرّر من الذين جاؤوا من خلف السّياج، كلّ واحد منكم فقد عزيزاً عليه، مقتولا أو أسيراً في الأنفاق، يجب أن ننقل معاركنا لأرض العدوّ، نحن نقاتل قتال وجود وليس قتال حدود، أريدكم أن تتذكّروا هذا جيّدا، يجب أن ننتقم وبشدّة هذه المرّة، أكثر من المرّات الماضية... الإنتقام، الإنتقام، ورفع قبضة يده يعتصر الهواء بقسوة.

لا أعرف كيف بدأت نيران الحقد تأكلني لمّا صاح الجميع بصوت واحد وهم يرفعون قبضاتهم في الهواء:

– الإنتقام... الإنتقام... الإنتقام.

كانت عيونهم تقدح شررا مثل الشّيوعيّين.

رأيت بعض المجنّدين يبكون وهم يعانقون بعضهم بعضا، وسمعت أحدهم يقول أنّ عائلته كلّها قد تمّ قتلهم بدم بارد، حتّى أنّهم قتلوا أشقّائه الصّغار، وبدأ يردّد عاليا:

– أين أنتَ الآن يا «هارون»؟، أين أنتَ الآن يا «تومر»؟، أين أنتِ يا «ميتال»؟، أين أنتِ يا أمّي؟.

وخرّ على الأرض في نوبة صرع، تذكّرت «غابي» المريض بالسّكّريّ الذي كاد يموت من نوبة هلع، وأبي الذي أصابته رصاصة مخرّب من «القسّام»، وما زال يعاني ألما نفسيّا من أثر صدمة الإهمال على سرير، سينهض منه في النّهاية إلى كرسيّ متحرّك، يقضي فيه بقيّة حياته، والسّبب إرهابيّ جبان أتمنّى قتله الآن بيدي آلاف المرّات، هؤلاء الذين أكرههم، لأنّهم يحاولون أخذ أرضنا المقدّسة التي وعدنا الرّبّ بها في التّوراة، ثمّ تخيّلت أختي «ياعيل» وهي مصابة بعيار ناريّ في الرّأس، ترقد على جثّة أمّي في المنزل.

صهيونيّ حتّى النّخاع أنا، وأيقونة القادمين من الشّتات هو، رسميّا بعد الخامس عشر من ماي 1948، تاريخ إعلان الدّولة التي تأسّست على ألوية «الهاغانا» و«البالماح»، وعليها تأسّس جيش الدّفاع الإسرائيليّ، في ظرف خمسة عشر يوما بعد ذلك، ثمّ بدأت الإحترافيّة في الخمسينيّات في عمليّة «قادش» ضدّ «مصر»، في

1956، قيمه من قيم الأجيال اليهوديّة المتعاقبة، والقيم الأخلاقيّة والإنسانيّة التي تعتمد على كرامة الإنسان وقيمته، من قيم دولة إسرائيل بمبادئها الدّيمقراطيّة، وقوانينها ومؤسّساتها.

هذا هو جيشنا المجيد الذي يحاولون تشويهه، نحن ندافع عن أنفسنا ضدّ الهمجيّين القادمين من خلف السّياج الفاصل.

وهذا الذي استطاع أن يخلق الغضب فينا، «ديميتري» المعروف والمجهول لنا في وقت واحد، المتكتّم عن حياته الشّخصيّة حسب «شلومو»، غامض مثل المحيط، لا أحد يستطيع سبر أغواره، يغرس فينا بكلامه وبشخصيّته الإعتزاز بالإنتماء لجيش الدّفاع الإسرائيليّ، الذي يدافع عن أرض اللّبن والعسل، ويؤكّد دائما أنّه لا يوجد جنديّ يقاتل وحده، لأنّه سيُقتل يوما ما، نحن نقاتل في مجموعة، والمجموعة لا تُهزم.

يقسو علينا لحدّ نمقته فيه، ثمّ يظهر في حنان الأمّ في أحيان أخرى، حتّى نقول عنه أخانا الأكبر الحريص دوما على مصلحتنا.

إنّه يلعب دورين متناقضين في الوقت نفسه، دور مأمور الشّرطة ودور الأمّ.

هذا التّناقض في شخصيّته، هو ما يجذبك إليه مرغما.

مرّة؛ صفع «رفائيل» ناعتا إيّاه بالمستهتر الغبيّ، لأنّه ترك سلاحه بعيداً عنه، وأنّه سيضعنا في ورطة، وربما في أزمة ديبلوماسيّة إذا خطفوه:

– هل تعتقد أنّ «القسّام» سيرسلون لك ملاكما يصارعك ندّا لند؟.

وعاقبني بتمارين الضّغط مكرّرة مائة وخمسين مرّة، حتى أصبحت لا أشعر بوجود شيء إسمه صدر، لمجرّد خطأ بسيط في الشّريط المطاطيّ للحذاء، ثمّ قال:

– لا تهمل التّفاصيل الصّغيرة أيّها الضّابط، لو أُصبت... ماذا سيحدث لرفاقك؟.

أوّل مرّة يخاطبني أحد الضّبّاط على أنّي ضابط مثله، رغم أنّي ما زلت لم أكمل دورتي الأولى، كنّا في تمرين ميدانيّ لرمي القنبلة اليدويّة، وبسبب تأخّري في الإستيقاظ، أهملت ربط شريط حذائي، كان مفهوم التّمرين قائما على كيفيّة استخدام القنابل اليدويّة في حال نفاذ الذّخيرة، فحين أخذت القنبلة لرميها وأنا أركض تعثّرت، فسقطت والقنبلة في يدي، لم أره إلاّ حين هجم عليّ وألقى بها بعيداً لتنفجر مثيرة بعض الغبار.

لقد أنقذني من الموت في اللّحظات الأخيرة، وسط دهشة «فاليري»، الذي كان يتساءل بينه وبين نفسه مثلي، عن كيفيّة ظهور «ديميتري» في هذا التّوقيت، وعن المكان الذي كان يراقبنا منه.

أتممت تمرين الضّغط وأنا أحمل جبلا على ظهري، حتّى أنّي التصقت بالأرض الحارّة من شدّة ما نالني من التّعب، أمسكني من ذراعي في عنف، يجرّني صعودا إلى إحدى الدّبّابات التي كانت على مقربة منّا، صارخا في حزم:

- أنت ضابط هذه الدّبّابة... أنت ضابط هذه الدّبّابة، ضع هذا في رأسك، أنظر أمامك، هذه هي «الميركافا»، وأنت مسؤول عليها وعلى حياة زملائك، أنت المسؤول... أنت المسؤول.

تيبّس جسمي كالسّابح في ماء متجمّد رغم حرارة الطّقس والشّمس اللاّفحة من أعلى.

لم أستطع النّوم في تلك اللّيلة، كان كلامه يتردّد في سمعي كأنّه ما يزال أمامي الآن، واقفاً على «الميركافا»، وأنا أرتعش أمامه، كشجيرة عصفت بها الرّياح من أثر كلماته التي تتسرّب لأعماق النّفس، كالماء المتسرّب لأعماق التّربة، إنّه يحبّنا، إنّه يريد أن يصنع منّا أيقونات عسكريّة، مثله تماما، هذا الذي لا يتجاوز سنّه الثّلاثين سنة، حسبما تشي به ملامح وجهه.

في الصّباح كنت متوتّرا للغاية في طابور التّفتيش، كان «ديميتري» ينظر إليّ نظرات غريبة، بعد حوالي ساعة، وقبل بدأ برنامج اليوم التّدريبيّ، حين كنّا نتلقّى توجيهات الرّقيب «فاليري»؛ أتى أحد المجنّدين ليأخذني معه، أدخلني إلى مكتب قيادة القاعدة، فوجدت «غارسيّا» زوج أختي غير الشّقيقة «إنجي»، ضابط «الموساد» الذي لم يزرنا قطّ، ولا أحد في العائلة يعرفه، واقفا وحده قبالة النّافذة:

- مرحبا «دافيد»... أنا «غارسيّا»، زوج أختك من والدك، «إنجي».

ومدّ يده مصافحا ومستفهما، فمددت يدي بدوري، ثمّ طلب منّي الجلوس.

بدا الموقف غامضاً يلفّه التباس شامل، وعشرات الأسئلة بدأت تتزاحم في ذهني، تنتظر من هذا الجالس أمامي أن يبدّد الضّباب.

(18)

إنتهت الدّورة الأولى بسلام دون حوادث تُذكر، سوى بعض الإصابات الخفيفة، كالجروح والكسور التي أصيب بها بعض الزّملاء، وضربات شمس الجنوب، وحصلت على شهادة تثبت اجتيازي بنجاح، في حفل أقيم لنا خصّيصا في القاعدة، ولو أنّي غير مهتمّ بها في المجمل، حيث أضع دائما في ذهني، أنّي موجود هنا لأجل الدّورة الثّانية، «دورة المهن»، التي يُمزج فيها بين الجانب النّظريّ والتّطبيقيّ، والتي يجب أن أوجّه فيها إلى اختصاص معيّن، «مدفعيّ» أو «محمّل قذائف» أو «سائق دبّابة»، ثمّ في نفس الوقت يتمّ اختيار من بين هؤلاء الإختصاصات من يجدونه مناسبا للقيادة، فيوجّه في دورة أخرى، يؤهّل فيها ليكون قائداً على دبّابة «الميركافا»، يتعلّم فيها باقي التّخصّصين الذين لم يدرسهما، وبعدها يكون التّخرّج، وأداء اليمين أمام القيادات، والإعلام، وأفراد العائلة المدعوّين، مشوار طويل ينتظرني من أجل نيل القبّعة السّوداء، ثمّ يكمل التّأهيل في دورة متقدّمة، يُتعلّم فيها كيفيّة القتال، كجزء من فصيلة، أو سريّة دبّابات.

تشجّعت وتفائلت بعد نهاية الدّورة بإمكانية منحنا إجازة ولو لأسبوع، لتزور فيها أسرنا وعائلاتنا، غير أنّهم بدعوى الحرب؛ منحوا لجزء صغير فقط تراخيص العودة للدّيار، ممّا جعل الإحباط يتسلّل لكياني كلّه، أنا والشلّة التي بدأت تشعر بالظّلم، كنت مشتاقاً جدّا لرؤية أمّي وأبي و«ياعيل» و«أتارا»، والسيّد «ريكاردو» الطّيّب، و«غابي»، وعمدة المدينة، بل كلّ من أعرفهم هناك ويعرفونني في «أوفاكيم»، مدينتي الرّائعة، وتدافعت عليّ الذّكريات بكلّ شراسة، تدافع القطط على تاجر السّمك، وأنا على سريري، أحاول دفن رأسي في المخدّة تارة، وأتقلّب كأنّ بي وجعاً أو أرقاً تارة أخرى، وعلى كره منّي، رحت أسترجع ما علق في ذهني من صور ومواقف، وحتّى العبارات وبعض الكلمات، ثمّ بدأت الدّموع تتجمّع في العينين، شيئاً فشيئاً، كلّما استبدّ بي الحنين للماضي، أسترجعه ببطء، كالذي يسترجع ماله من مدين مماطل، وما أحصد سوى الآلام.

– ما رأيك لو تكون معنا في «هيئة الإستخبارات والمهمّات الخاصّة»؟، هذه التي تعرفونها باسم «الموساد»، أنت الآن قريبي على كلّ حال، ويهمّني أن أضمن لك مستقبلاً زاهرا لم تحلم به أبدا، أحسن ممّا أنت فيه الآن، ما رأيك «دافيد»؟.

قبل أن أعي ما يدور أمامي من ألغاز قريبي، بادرني:

– هل تتحكّم في العربيّة جيّدا مثل والدك؟.

ثمّ نهض فجأة مسرعاً حين تلقّى رسالة على هاتفه الجوّال:

– فكّر جيّدا «دافيد»، «المكتب» بحاجة لأمثالك، سنلتقي في أقرب فرصة.

وخرج وهو على وشك الرّكض وتركني جالسا وحدي حائرا.

يبدو أنّ كلّ شيء سيتغيّر من الآن فصاعدا.

«مدفعيّ»، هذا هو اختصاصي الذي وجّهوني إليه، قالوا حسبما حصدته من نتائج، مع احتساب كلّ ما من شأنه توجيه المجنّد لمكانه المناسب، بينما وجّهوا «رفائيل» و«بابلو» -وهو صديقنا الإفريقيّ- لتحميل القذائف، ووجّهوا «شلومو» للسّياقة.

كنت راضياً تماماً على نتيجتي، بل اعتبرت أنّها ستعزّز الوصول لحلمي، أفضل بكثير من الإختصاصين الباقيين، في حين اعتبر «شلومو» أنّه تعرّض للظّلم، وأنّ مستواه أكبر بكثير، غير أنّ مستواه التّعليميّ هو من لعب دور الفيصل في توجيهه، فقد غادر مقاعد الدّراسة في سنته التّاسعة، أمّا «رفائيل» فلم يحصل على شهادة «البغروت»، وغادر الثّانويّة هو أيضا، لكنّ اللّغز هو الوافد الإفريقيّ «بابلو»، الذي بالكاد يستطيع كتابة اسمه، فكيف تمّ تصنيفه كمحمّل قذائف، بل كيف وجّهوه لسلاح المدرّعات أصلا.

تعلّمت ألاّ أحشر أنفي في قضيّة لا تهمّني، ما دامت الأمور تسير على الشّكل الذي يرضيني وأفضل.

كان هاجس «رفائيل» الذي يسرده كلّما تكلّم، هو انحشار قذيفة في المدفع، فكان يرتعد خوفا كلّما فكّر في ذلك، ثمّ يقول وهو يرتجف:

– ستنفجر في الدّاخل وتمزّقنا إرباً إربا.

أمّا هاجسنا الذي اعتبرناه جميعاً التّهديد الحقيقيّ لنا، هو توجيهنا لمشاة المدرّعات في حالة ارتكاب أخطاء جسيمة، عقاب يمكن أن يقضي على مستقبل أيّ مجنّد هنا، وعلى حلم القبّعة السّوداء، ويسحقك كدودة، وفي النّهاية لن يحترمك أحد، وستفقد كلّ فرصة أمامك للعودة لمسارك الأصليّ.

الإختصاصات الثّلاثة للدّبّابة هي التي تسمّى في مصطلح الجيش «المهن»، ويخضع المجنّدون أثنائها لتكوينات قاعديّة نظريّة وتطبيقيّة ميدانية، وباستعمال جهاز المحاكاة، تستمرّ ثمانية أسابيع، وربما أكثر بأسبوع أو اثنين على قدر الحاجة، ثمّ يتمّ فرز المؤهّلين لقيادة الدّبّابات بشكل سريّ، ليتمّوا دورة أخرى، تصل إلى ستة عشر أسبوعا، يتعلّمون فيها باقي المهن الموازية، ويكوّنون فريقا قتاليّا حقيقيّا، يجمع بينهم التّنسيق والإنضباط، وتقصير زمن ردّ الفعل، ثمّ في النهاية تكون دورة أخرى لم أفهم كنهها، مدّتها ستة عشر أسبوعا.

ما يجب أن أركّز عليه الآن هو السّير على المسار الصّحيح، وربما يغيّرون البرامج التّدريبيّة مستقبلا بسبب الحرب، أو ما سيرونه ضروريّا للمقاتلين، فلماذا أشغل تفكيري بما سيقع بعد أشهر من الآن؟.

في تلك الأمسية التي صادفت يوم الأحد، قرّرنا الإحتفال، أنا و«بابلو» و«رفائيل» و«شلومو» و«عزرا»، الذي تأخّر توجيهه ثلاثة أيّام بلياليها، ثمّ أخبرنا بحسرة أنّه «سائق»، في حين كان يطمع أن يكون مدفعيّا مثلي.

توجّهنا كلّنا لنادي الإستراحة، وما إن دخلنا حتّى كنّا شهوداً على شجار كاد يتطوّر إلى محاولات قتل، بسبب أحد «الأشكيناز»، الذي أمر أحد «الفلاشا» أن يشعل له سيجارة وضعها في فيه، ثمّ عنّفه على تأخيره، الأمر الذي أثار عليه بعض المجنّدين الآخرين من «السّفرديم»، الذين اتّهموه بالعنصريّة، واحتقار الغير بسبب لون البشرة، وهو ما أجّج غضبه، وراح يسرد على الجميع أنّ «الأشكيناز» هم أسياد الدّولة رغم أنف الجميع.

أراد «رفائيل» التدخّل، لكن «عزرا» أوقفه حين لمح عناصر من «أمان» تدخل النّادي، آخذة جميع المتورّطين للتّحقيق.

جلسنا إلى إحدى الطّاولات، بعدما اقتنينا ما نحتاجه من عصائر وقهوة ومحلّيات.

– تبّا لهذه العنصريّة الغاشمة، وتبّا لهم، أفسدوا احتفالنا.

قالها «رفائيل» حاكّا قبضتيه، كأنّه يستعدّ لمنازلة، بينما بدا على «بابلو» التأثّر الشّديد، كونه من يهود «الفلاشا» القادمين من «إثيوبيا» و«السّودان»، الذين يعانون من الإستغلال، بل كثيراً ما يؤمرون بتنظيف المراحيض، ناهيك عن إستغلال الجنود القدامى للجنود الجدد، وخاصّة أصحاب الطّباع الخجولة، مثل أحد اليهود القادمين من «الصّين»، أو كما يطلق عليهم اسم يهود «الكايفنج»؛ وهو ذو طبع هادئ وعقل متّزن، سنّه لا يتجاوز الخمس والعشرين سنة، إسمه «لي جاكوب»، وأناديه حين ألقاه «لاو خي».

كان بعض اللّئام يقترضون المال منه ولا يعيدون له شيئا، وهو يخجل أن يطلب منهم ماله، كنت مع «رفائيل» حين سمعنا أحدهم يقول له أنّ أمّه ماتت، وأنّه يحتاج الآن للمال، كي يحضر الجنازة.

قال «رفائيل» والشّرر في عينيه:

– هل رأيت هذا الأفّاق اللّئيم؟، قال له أمامي نفس الكلام الشّهر الماضي، إنّه استغلال الطّيّبين وأصحاب القلوب البيضاء النّاصعة، يكذبون عليهم، ولا يعيدون لهم شيئاً، ما داموا لم يطالبوا به، ولن يطالبوا به، لأنّ صفاتهم النّفسيّة تأبى عليهم ذلك.

ثمّ هبّ واقفاً قائلا بتململ:

– هل تعرف أنّ لواء «ناحال» يسمّونه هنا في جيش الدّفاع الإسرائيليّ «لواء الجهلة»؟، لا لشيء سوى لأنّه أنشئ من أجل دمج الفلاّحين والمزارعين في الجيش، في عام 1948.

هالني ما سمعت، ثمّ تذكّرت أحد «الأشكيناز» الذي أرسل أحد الجنود من «الفلاشا»، ليشتري له السّجائر الأسبوع الماضي فقط، كان المسكين يركض مسرعاً ليلبّي الطّلب، مثل عبد من عبيد «أمريكا» في القرن التّاسع عشر.

أخبرني أبي أنّ الرّبّ «إلوهيم» خلقنا كما ورد في التّوراة متساوين أبناء آدم، وحتّى المشكل العويص الذي بيننا وبين العرب، سببه أرض «كنعان» التي هي في الأصل أرضنا التي وُعدنا بها.

أمّا ما حدث منذ أسبوعين، فقد كان على درجة عالية من الخطورة.

كنت مع «عزرا» حين رأينا أحد الضّبّاط القادمين للتّوّ من «فرنسا»، يبصق على أحد «الفلاشا»، أمام زملائه المجنّدين والمجنّدات، حين تكلّم باللّغة الأمهريّة، قائلا في تكبّر ونرجسيّة واضحتين:

– منذ تركناكم وأنتم على حالكم، لقطاء، عرايا، حثالى وستموتون حثالى، هل ما زلتم تتحدّثون لغة البرابرة؟.

ثمّ صفعه وسط ذهول الجميع:

– أغرب عنّي أيّها القذر، نعل حذائي الأسود أطهر من وجهك الكريه.

وبصق عليه ثمّ بصق على الأرض، وانصرف يسبّ حتّى اختفى صوته.

بعد ثلاثة أيّام سمعنا أنّه انتحر كمدا، بعدما رفع شكوى ضدّ الضّابط الذي أهانه دون أن يجد له منصفا، ولا أحد تدخّل، كأنّ المسألة ليست بالأولويّة القصوى أو بالشّأن الهامّ، وغيره بالعشرات، لكن تختلف ردود أفعالهم من مجنّد لآخر، كما تختلف درجات التّحسّس تجاه كلّ مكوّن من مكوّنات المجتمع اليهوديّ.

يحتلّ «الفلاشا» أدنى سلّم الرّفض والنّبذ الإجتماعيّ من طرف «الأشكيناز»، الذين يعتبرون أنفسهم مؤسّسي الدّولة الأقوياء المتزّهون عن الخطأ، ولهم مطلق الإنفراد بحقّ اعتلاء هرم المجتمع، دون غيرهم، من باقي التّقسيمات العرقيّة في شغل أيّ منصب، بل حتّى جنودنا من البدو؛ يعتبرونهم حيوانات، ويحتقرونهم سرّا.

هنا جيش الدّفاع الإسرائيليّ، هنا هيبة إسرائيل، وهنا عارها الذي تحاول عبثاً إخفائه بشتّى الطّرق.

(19)

نناديه «بابلو»، كما أراد هو ويرغب، محتفظا باسمه الحقيقيّ «إدواردو تسيحاي» للرّسميّات.

متواضع جدّا عكس ما يظهر عليه، لمن يلمس فيه الحبّ والصّدق، لكن ما يحدث في جيش الدّفاع الإسرائيليّ من عنصريّة وتعصّب؛ هو ما دفعه لاتّخاذ موقف دفاعيّ، ضدّ كلّ من يقترب منه أو يحاول.

عرفت هذا وتأكّدت منه بعد مدّة من الزّمن، كانت كفيلة بتبنّي نظرة جديدة، تختلف عن نظرتي الأولى حين وضع قدمه لأوّل مرّة في الغرفة.

بدأ صديقنا «بابلو» يتخلّى عن تحفّظه شيئاً فشيئا، كلّما اقتربنا منه أكثر، وكلّما عاملناه بودّ ولطف واحترام، كأنّه يكتشفنا مثلما يكتشف المغامرون أراضٍ جديدة.

بدأنا نأخذه معنا إلى المطعم حين استأنس بنا تماما، بعدما كان يأكل مع أبناء جلدته فقط، ويجالسهم دون غيرهم من المجنّدين الآخرين.

بارد هو اليوم الذي دخلنا فيه لنادي الإستراحة، كأيّ يوم من أيّام شهر ديسمبر الباردة، بعد غروب الشّمس، بغيتنا الدّفء المفتقد منذ الصّيف، كعادتنا دائماً التي اكتسبناها قبل شهر فقط؛ نتوجّه لإحدى طاولات «البلياردو»، رياضة النّبلاء كما يسمّونها هنا، للتّرفيه، ولخفض مستوى التوتّر والإرهاق الجسديّ، الذي أخذ منا كلّ مأخذ.

كانت الطّاولة مشغولة فانتظرنا حتّى تفرغ، وجلسنا في إحدى الزّوايا نتجاذب أطراف الحديث، بينما شدّت اللّعبة «بابلو»، فبقي متسمّراً ينظر إلى أحدهم وهو يتجهّز لضرب الكرة البيضاء على مجموعة من الكرات وضعت على شكل مثلّث، وحين أخطأ، بصق على الأرض في غطرسة وتكبّر وهو ينظر مباشرة إلى صديقنا «بابلو» في حقد، ممّا أثار أعصاب هذا الأخير، ولّما أراد العودة لمكاننا في الزّاوية متجنّباً الشّجار، إعتقد المجنّد الآخر أنّه خائف منه، فتسلّل خلفه يريد ضربه بعصا «البيلياردو» أمام أصدقائه، الذين سرعان ما استفزّتني نظراتهم، وجدت نفسي لا شعوريّا أتدخّل دفاعاً عن شرف صديقنا الذي يهان أمامنا، فطلبت من المجنّد الهدوء والإبتعاد عن المشاكل، لكنّه دفعني لأسقط أرضاً وتسقط معي نظّارتي.

ليس لي في المشاجرات، لكن غلى الدّم في عروقي فجأة لّما احتُقر صديقي أمامي، لسواد بشرته، وأراد المعتدي ضربي في تحد صارخٍ ومفضوحٍ لكلّ القوانين الدّاخليّة، ولجميع المجنّدين دون استثناء، فنهضت ولكمته في حركة لم يكن يتوقّعها، ولا أعرف ما الذي أتى لخلده حين رآني بنظّارات طبيّة وجسم ضعيف نسبيّا!.

تدخّل «رفائيل» في الثّانية المناسبة بضربات سريعة ودقيقة موجّهة للوجه والكبد، خرّ على إثرها فاقد الوعي، ولّما هجم صديقه بإحدى الزّجاجات؛ بادره بسلسلة لكمات أدّت لنزيف حادّ في الأنف، وتورّم تلوّن بالأزرق في العين اليسرى، الشّيء الذي أجبر الآخرين على التّراجع، والإرتباك بادٍ عليهم، ثمّ خرجنا وتركناهم يحاولون إسعافه بقطع من الجليد.

في تلك اللّيلة، حكى لنا قصّته، ويا ليته ما حكى، رأيت الألم مجسّداً في تعبيرات وجهه ونبرات صوته، ألم تراكم وتعاظم عبر أعوام من الأسى والتّعاسة والمعاناة.

أتى هارباً مع عائلته من الحرب الأهليّة السّودانيّة، التي قامت في الخامس عشر أفريل 2023، أسرته المكوّنة من أمّه «عزيزة»، وأخته «سارة»، ذات الإثنتي عشرة ربيعا، وأخوه الصّغير «زيخيريا» ذو السّبع سنوات.

«بابلو» لم يسعفه الحظّ لإكمال تعليمه، فقد تسرّب باكراً من المدرسة في السّنة الرّابعة من التّعليم الإبتدائي، وعمل في الأسواق بائعاً لكلّ شيء، كي يعيل أسرته، التي بدأت أنياب الجوع تنهشها، بعدما ذهب أبوه ضحيّة حادث مميت في العمل، ورفض صاحب الشّغل تحمّل مسؤوليّته، بل بلغت به الجرأة والنّذالة أن يتنصّل من كلّ صلة تربطه به، حتّى أنّه ادّعى عدم معرفته به أصلا، وأنّه لم يتبنّى عمّالا منذ أكثر من أربع سنوات، وزادت الحرب التي اندلعت دون سابق إنذار الطّين بلّة، فقد اضطرّوا للنّزوح رفقة جيرانهم من أحياء في العاصمة «الخرطوم»، ثمّ زاد الوضع اشتعالاً وتأجّجا، حتّى بات الجميع يفكّر في مغادرة البلاد، فقرّرت أمّه الإنتقال لمدن أخرى لا تصلها المعارك مبدئيّا، لكن حين احتدم الصّراع في المناطق الآمنة، وتدخّلت الطّائرات الحربيّة؛ حاولوا الوصول لمدينة «الفاشر»، التي تبعد عن العاصمة بما يقارب ثمانمائة كيلومتر، لإيجاد بيئة ملائمة تماماً للعيش، وبعيدة جدّا عن أتون الحرب، ثمّ فكّروا في اللّجوء إلى «تشاد»، غير أنّه نفد كلّ ما كان معهم من مال، فقد اضطرّوا لتقديم رشوات للمرور في حواجز على الطّرقات، رشوات زهيدة من أوراق ماليّة كانوا يدّخرونها ليوم الشّدّة، وهم الفقراء البائسون الذين إن وجدوا طعاماً للغداء، باتوا يتضوّرون جوعاً إلى مساء اليوم الموالي، وليس هذا فحسب، بل كادت أخته أن تُختطف أمام عينيه، في أحد الحواجز المزيّفة، لولا لطف الرّبّ، ثمّ بدأ تفشّي الأوبئة، بسبب غياب البنية التحتيّة الضّروريّة لمعيشة النّاس، إضافة إلى المجاعة، بسبب توجيه كلّ شيء للمجهود الحربي، وترك المدنيّين يواجهون مصيرهم المحتوم.

كانوا لا ينامون لأيّام متوالية خشية وقوع هجوم عليهم، حتّى مرضت أمّه بارتفاع الضّغط، ووصلت أخته لاضطرابات عصبيّة، فكانت تبدو مجنونة للنّاظرين.

هذا هو «بابلو»، الذي صنع منه الفقر والحرب رجلا، وليس ككلّ الرّجال، أوّل صديق حميمٍ لي من «الفلاشا»، عرفته أخاً في 2023، بعدما عرفته «الخرطوم» مولوداً في 2001، وعرفته «السّودان» يتيماً في 2011، وعرفه جنوب «تل أبيب» لاجئاً في ذات السّنة التي استوطن فيها فؤادي.

عند شروق شمس اليوم الموالي؛ كنّا أمام محكمة عسكريّة، أو هكذا أوهمونا، نواجه تهما لم يستطع عقلي تقبّلها أو استيعابها، أبرزها نشر الذّعر بين الجنود، واستعمال العنف ضد المجنّدين في القاعدة، وتدمير ممتلكات جيش الدّفاع الإسرائيليّ، أي بين ليلة وضحاها غدونا نشكّل خطراً مميتاً على الآخرين، وصرنا نتساوى مع دواعش «حماس»، وصاحب الشّكوى هو «آيزنكوف»، المجنّد الذي أسقطني أرضاً، حين دفعني بكلّ قوّته، مع صديقه صاحب الزّجاجة.

كان يوشوش للضّابط في حقد عجيب، ذكّرني بكذّاب الثانويّة «دانيال أدموني»، ثمّ ابتسم الضّابط ابتسامة تنمّ عن خبث شديد، لتكون عقوبتنا في الأخير جميعاً هي العمل في مطابخ القاعدة، مدّة عشرة أيام، بعدما سحبوا منّا أسلحتنا، وجمّدوا «بطاقة النّجوم»، وهي بطاقة ائتمان افتراضيّة عملتها النّجوم فقط، التي تمنح بعدد معيّن، وبها يمكن للمجنّدين الجدد، أو الجنود الذين يخدمون بالفعل في الجيش، شراء معدّات شخصيّة لأنفسهم، من أجل تحسين ظروف حياتهم أثناء الخدمة هنا.

همس لي «رفائيل»:

– هل رأيت؟، الضّابط إبن خالته، «نيتاي»، أقذر من جرذ، لولا الحرب لكنّا في السّجن الآن، نقضي فترة تصل إلى خمس أو سبع سنوات، لقد كيّفوا لنا تهماً ثقيلة، كفيلة بتدمير مستقبل أيّ مجنّد شاب، ومع ذلك، فإنّهم في حاجة ماسّة لجميع المجنّدين، وربما سيفرغون السّجون، إذا تدهور الوضع على الجبهة.

أثار «آيزنكوف» اشمئزازي حين أخذنا مزهوّا بانتصاره إلى المطعم، كأنّه يسوق أسرى حرب أمامه، أحسست أنّ هذا الشيطان يستطيع أن يفعل أيّ شيء، دون أدنى اهتمام للأخلاق أو للدّين، كان يوشوش كامرأة عجوز شمطاء لرئيس الطّهاة، الذي ابتسم ابتسامة خبيثة بدوره، لم أفهم بادئاً سرّ هذه الإبتسامة، التي تكون مباشرة بعد الوشوشة، غير أنّي فهمت كلّ شيء لّما وضعوا أمامي صناديق البطاطا لتقشيرها، عمل متعب للأعصاب، وشاقّ، لأنّ المطعم يشتغل طول النّهار لتحضير مئات الوجبات، وعمّاله لا يرتاحون أبدا، وإذا احتاجونا من مطاعم أخرى ذهبنا إليهم، المهمّ ألاّ نرتاح بأيّ شكل من الأشكال.

أمّا «بابلو»، فكان عقابه تقديم الوجبات للجنود، وأرغموا «رفائيل» على التّنقّل طوال الوقت من مقلاة لأخرى، ومن قدر لآخر، في القلي، وتقطيع الطّماطم والخسّ، وغسل الفواكه، وأنّه كان مجبراً على تجرّع ريقه، كي لا يقتل رئيس الطّهاة، الذي كان حريصاً كلّ الحرص على جعله يعاني، بكلّ ما في الكلمة من معنى وأبعاد.

لم أرَ الشّيطان «آيزنكوف» بعد ذلك في أيّ مكان في «شيزافون»، تمنّيت أن ألقي عليه قنبلة نوويّة فيتبخّر، لكنّ «شلومو» اعتبر المسألة أخطر بكثير ممّا حدث، وأنّه سيكون غريمي اللّدود، الذي يجب أن أحسب له ألف حساب.

حين انتهت فترة العقوبة التي بدت غريبة لنا، تمّ الإحتفاظ بصديقنا «بابلو» كمساعد لرئيس الطّهاة، وأوقفوه نهائيّا من مسار التّدريب السّابق، وبقي معنا في الغرفة، حينئذ وبالدّليل القاطع، إقتنعت فعلاً أنّ هناك أشياء تجري في الخفاء في إسرائيل، وأنّ «شلومو» يعرف الكثير والكثير.

تغيّر شعوري مائة وثمانين درجة، وغدت المغادرة من هنا على الأقلّ ليومين أو ثلاث، شغلي الشّاغل، بعدما أصابني اكتئاب وإحباط شديدين.

إنّها المرّة الأولى التي أعاقب فيها في الجيش منذ انضمامي إليه في الرّابع والعشرين من أكتوبر الماضي، تاريخ تجنيدي رسميّا في سلاح المدرّعات.

لقد رأيت الظّلم بعينه في جيش الدّفاع الإسرائيليّ.

(20)

«من يتواجد داخل الدّبّابة سينتصر»، هذا هو شعارنا الدّائم في قاعدة «شيزافون» للمدرّعات، وخاصّة الذين يستعدّون بعد أقلّ من عام من الآن، ليكونوا قادة الكوبرا السّوداء.

كان الحظّ حليفي حين تمكّنت من التّدريب على النّسخة الرّابعة من «الميركافا»، لأنّه بسبب الحرب؛ علمت أنّ مجموعات أخرى تدرّبت على النّسخة الثّانية منها، وآخرون على النّسخة الثّالثة، وأنّ الجيش يعرف نقصاً فظيعاً في مخزون النّسخة الرّابعة، بسبب الإصابات التي لحقت قوّاتنا في «غزّة».

بدأت الأخبار تصلنا تباعا، ونحن على بعد مائتي كيلومتر من بؤرة الموت الواقعة خلف السّياج الفاصل.

لقد دمّرت «كتائب القسّام» أغلبها، كلّيّا، أو أعطبتها بشكل يجعلها لا تصلح للقتال.

أنا الآن مدفعيّ، أنا الآن المسؤول الأوّل مؤقّتاً بعد القائد عن شيء جهنّميّ في العمود الفقريّ لجيش الدّفاع الإسرائيليّ؛ يسمّى المدفع الرّئيس، من عيار مائة وعشرين ميلّيمترا؛ بمقدوره إطلاق من ستّ إلى عشر قذائف في الدّقيقة الواحدة، على بعد خمسة كيلومترات، فظيع ما بيدي كلّ الفظاعة وجبّار كلّ الجبروت، هو مدفع أملس أي مصقول من الدّاخل، يرتكز على آلية «الجيروسكوب»، التي تمنحه القدرة على الحفاظ على الهدف أثناء التّنقّل، ولو على أرض وعرة، وتضاريس صعبة، ليس بمقدور أيّة مركبة أخرى السّير عليها، ويسمح له بتحقيق إصابة عالية جدّا مباشرة من القذيفة الأولى، هذه الدّقّة تصنّف كعامل استراتيجيّ، فهي الفاصل في القضاء على العدوّ في الثّواني الأولى، قبل أن يتّخذ احتياطاته، بالهرب أو بالإحتماء أو بالرّدّ النّاريّ.

و«الجيروسكوب» هو عجلة صغيرة دوّارة على الجذع، موجودة في كلّ دبّابات العالم، تقاوم بصورة عجيبة كلّ تغيير لاتّجاهها، نظراً للقوّة التي يولّدها هذا الدّوران.

كما أستطيع التحكّم في كامل حركة برج الدّبّابة، فأحرّكه ثلاثمائة وستّين درجة، ومدفع رشّاش من عيار 7.62 مم، لإبادة مشاة العدوّ، لأنّنا نحن من نحمي مشاتنا، ومحميّون نحن بدورنا بالدّاخل، نستطيع ضرب العدوّ بسمّ فتّاك، دون أن تكون له القدرة على النّيل منّا.

فظيع ما بيدي كلّ الفظاعة، لأنّي أستطيع إطلاق كافة أنواع القذائف الفتّاكة المعروفة، أبرزها المضادّة للدّبّابات خارقة الدّروع «هاتزاف»، والمتعدّدة الأغراض المعروفة باسم «شقائق النّعمان»، والقذائف

الفوسفوريّة، وحتّى القذائف المستخدمة في دول «النّاتو»، في نظام تلقيم آليّ مذهل، يحوي عشر قذائف في مخزن خاصّ، ينقل إليه «المحمّل» -على غرار «رفائيل»- ما يأمر به القائد، من مخزن عامّ مغلّف بحاويات مقاومة للحريق، يستطيع حمل من ثمان وأربعين إلى أربع وستّين قذيفة.

وهناك مدفع هاون ثانويّ خلفيّ عيار 60 مم؛ يصل مداه إلى أكثر من كيلومترين ونصف، ومدفع رشاش ثقيل يتحكّم به القائد، يتواجد على السّطح من عيار 12.7 مم؛ يستطيع تحييد مروحيّة قتاليّة معادية بسهولة تامّة.

تعدّ «الميركافا» دبّابة قتال رئيسة، إسرائيليّة الفكرة والتّصنيع، بعدما تعاون جيش الدّفاع مع الجيش البريطانيّ في السّتينيّات من القرن المنصرم لصناعة دبّابة «تشيفتن»، لكن خاب أملنا حين تعرّضت «بريطانيا» لضغوط من الدّول العربيّة، من أجل حرماننا من حقّنا في التّسليح، فاعتمدنا على أنفسنا لإنتاج أوّل دبّابة إسرائيليّة خالصة مائة بالمائة، في السّبعينيّات من القرن الماضي، ليعرف النّور أوّل نموذج منها في 1979، ثمّ توالت النّماذج، إلى أن بدأ العمل في منتصف التّسعينيّات على النّموذج الرّابع، ليولد رسميّا في 2003، ووجّهت الأجيال القديمة على غرار «ميركافا 1» و«ميركافا 2» و«ميركافا 3» للتّدريب في القواعد العسكريّة.

تتميّز «الميركافا 4» بانخفاضها النّسبيّ، كي لا تلفت الأنظار من بعيد، وشكلها نصف البيضويّ، حيث يتجلّى شكل البيضة من الأمام عند المدفع، يمكنها حمل ستّة جنود وثلاث نقّالات لجنود مصابين، أي وسيلة إجلاء آمنة، بباب وضع في الخلف، كميزة تكتيكيّة لضمان سلامة الدّخول والخروج، تمّ التّركيز فيها أساساً على التّكامل المتناغم، بين القوّة النّاريّة وحماية الأفراد، والتّنقّل السّلس على التّضاريس المختلفة، هذه المعادلة الصّعبة يبلغ وزنها خمس وستّون طنّا، يدفعها محرّك توربينيّ نفّاث، بمخزن يتّسع لألف وأربعمائة لتر من وقود «الدّيزل»، بقوّة هائلة تبلغ ألفا وخمسمائة حصان بخاريّ؛ لتحصل على سرعة تتراوح من خمس وخمسين إلى خمس وستّين كيلومترا في السّاعة؛ حسب نوعيّة المسار الذي تسلكه، ويقع المحرّك في الأمام لضمان حماية ذات بعد آخر للجنود، فيحول بينهم وبين قذائف العدوّ وصواريخه، محقّقا تسارعاً يبلغ اثنين وثلاثين كيلومترا في السّاعة، في ثماني ثوانٍ فقط؛ ضامنا لمدى عمليّات يصل إلى خمسمائة كيلومتر، مع محرّك إضافيّ لتشغيل النّظم والأجهزة الأخرى أثناء التوقّف، ممّا يسمح بزيادة التّخفّي، لأنّ المحرّك المشتغل سيصدر صوتاً يمكن أن يسمعه العدوّ، فيسلب منّا عنصر المفاجأة.

يبلغ طول النّسخة الرّابعة من «الميركافا» تسعة أمتار إذا حسبنا ماسورة المدفع؛ وسبع فاصل ست أمتار كطول حقيقيّ، وعرض يصل إلى ثلاث فاصل اثنين وسبعين مترا، وارتفاع اثنين فاصل ستة أمتار، تنتقل على جنزير بطول أربع فاصل ثمان وسبعين مترا؛ ممّا يسمح باجتياز خنادق عرضها أقلّ من ثلاثة أمتار ونصف، وعوائق دون ارتفاع المتر الواحد، معلّق على ستّ عجلات حديديّة على الأرض، إضافة إلى عجلتين مساندتين لها، واحدة في الأمام والأخرى في الخلف، مهمّتهما رفع الجنزير، ليسهل تجاوز العوائق.

كلّ عجلة داخل الجنزير هي في الأصل معلّقة فيه، وليست موضوعة داخله فقط كما تبدو، أو كما في دبابة «رينو» القديمة التي صُنعت في 1917؛ الشّيء الذي يسمح بالتّخلّص من الإهتزازات المتولّدة أثناء السّير،

مثل كلّ دبّابات العالم، فكلّما تزيد السّرعة يزيد الإهتزاز النّاتج عنها، ممّا يرهق الطّاقم، ويستنزف قواهم العصبيّة، وبالتّالي تنقص فاعليتهم في القتال.

محميّة جيّدا ضدّ الأسلحة النّوويّة والبيولوجيّة والكيماويّة، ومن الحريق، إذ يُكتشف بمستشعرات، ويُخمد تلقائيّا، منتجة من طرف شركة «باراك زوهار»، مع نظام تهوية وتدفئة رفيع المستوى، يسمح بتوزيع الأكسجين، وسحب غاز ثاني أكسيد الكربون في سلاسة، وهناك مستشعرات أخرى تحدّد ما إذا كانت الدّبّابة مستهدفة ليزريّا، فتطلق نافثات الدّخان للتّعمية عليها، إضافة إلى كونها محصّنة ضدّ الألغام الأرضيّة، باختلاف أنواعها، وضدّ القذائف والرّصاص المضادّ للدّروع، بدرع خاصّ، خلطة سريّة من البلاستيك والمعدن والسّيراميك، ذي طبقات تفصل بينهم فراغات، يمكن استبداله أو ترقيته، وظيفة الطّبقة الأولى التّفاعليّة تشتيت قوّة المقذوف أو عرقلة رأسه، ممّا يؤثر على إمكانيّة اختراقه للهيكل، كما يمكن استبدال قطعه المتضرّرة بسهولة تامّة، إضافة إلى ما يسمّى «معطف الرّيح» أو «تروفي»، وهو منظومة دفاع ثوريّة ضدّ الصّواريخ المضادّة للدّبابات، تقوم على رادار أفقي، يكشف كلّ الأجسام ذات السّرعات العالية، مثل الصّواريخ المنطلقة نحو الدّبّابة من مسافة بعيدة، بزاوية مفتوحة كاملة، مع كمبيوتر يحسب إتّجاه الجسم وسرعته ومساره، وإذا اعتبره تهديدا تعامل معه فورا، إذ يعطي الأمر وحده، دون تدخّل بشريّ، لمنصّة من منصّتي الإعتراض المتواجدة على جانبي الدّبّابة، لإطلاق شحنة كرات معدنيّة، تتسبّب في انفجاره قبل وصوله إلى بدن الدّبّابة.

كانت «أمان» تصرّ على بثّ أخبار تفوّقنا كي لا تتزعزع الرّوح المعنويّة للمجنّدين، لكنّ صديقي «شلومو» يؤكّد أنّ دواعش «حماس» أصبحوا خطرين جدّا علينا أكثر من أيّ وقت سابق، لقد أصبح باستطاعتهم الآن بسهولة تامّة تدمير أيّة دبّابة، بقذيفة بسيطة، تطلق من على الكتف تسمّى «ياسين 105»، هذه القذيفة الشيطانيّة تؤجّج نيرانا هائلة بانفجارها، تأكل حتّى طلاء الحديد.

– شعارنا الذي نتغنّى به لم تعد له أيّة صلاحيّة.

وللأسف أصدّقه، لأنّه يعرف الكثير والكثير.

كان باقي الأصدقاء مفزوعين بين واثق ومكذّب.

هل يُمكن أن تدمّر «الميركافا» التي تكلّف ستّة ملايين دولار بسلاح بسيط؟، هل تخطّى العدوّ مستويات تحصيناتنا المختلفة بهذه السّهولة؟، «معطف الرّيح»؟، أم أنّ الطّاقم لا يمكنه رؤية المهاجمين، رغم كلّ ما لديهم من أجهزة؟، لديهم رشّاش يتحكّم فيه المدفعيّ من الدّاخل، يكفي أن يضغط على الزّناد ليطلق الموت من فوهته، أم هي المفاجأة التي تشلّ التّفكير؟.

من غير المنطقيّ أن أرى تهديداً أمامي ولا أفعل شيئا، أأتركه حتّى يقضي علينا؟.

إنّ أكثر ما أخشاه هو أن أموت محترقاً داخل ما أعتبره قوقعة محصّنة من الفولاذ المقوّى، لا أقوى على تحمّل تلك الدّقائق التي تأكل النّار الجسم وروحي داخله، وإذا خيّروني بين الموت حرقاً والموت ممزّقا، لاخترت الثّاني، على الأقلّ يكون الإنتقال إلى ما بعد الموت سريعاً جدّا، في أجزاء من الثّانية الواحدة.

تحوي الدّبّابة على جهاز متابعة تلفزيونيّ نهاريّ وحراريّ ليليّ، مع باحث ليزريّ عن الأهداف، وحاسب للمسافات، مع جهاز بانوراميّ متطوّر، وتمّ إدخال الذّكاء الإصطناعيّ كذراع مساعدة، فيتعامل مع الأهداف المكتشفة بسرعة استراتيجيّة، بل يبحث في إمكانيّة تبادل الأهداف للتّعامل الأفضل، وييسّر الإتّصال بالوحدات القتاليّة الأخرى، لتوفير مزيد من الدّعم النّاريّ، أو طلب مساعدة فرق الإسعاف، أو تلقّي أوامر من قيادات عليا.

يثني «عزرا» حين ألقاه على الذّكاء الإصطناعيّ، ويتمنّ لو يتحكّم في كلّ الدّبّابة، وحين أسأله عن عمله، ساعتها يقول أنّه من المفروض أن يكون مدفعيًّا، أمّا «رفائيل» فيعتبر القناعة كنز لا يفنى.

ورغم كوني مدفعيًّا أتحكّم في مصير أعدائي بكبسة زرّ؛ فإنّي أنظر لكلّ اختصاصات الدّبّابة شيئا واحدا، هو عمل كلّ الطّاقم، مجموعة كاملة في أدوار محدّدة، وتنسيق مضبوط وانضباط صارم، هذه هي معادلة الحياة في «الميركافا»، التي يجب أن نصون كلّ قطعها لتصون هي حياتنا، نحن نشكّل فريقاً، يكفي أن يخطئ أحدنا خطأً بسيطاً، وبسيطا جدًّا ليموت الجميع دون استثناء، العدوّ لا يفرّق بين اختصاصاتنا، ولا يهمّه أصلاً ما عملنا هنا، ولا من أين جئنا، نحن بالنّسبة إليه نمثّل فريسة يجب اصطيادها بقذيفته التّرادفيّة، ليغذّي تعطّشه للدّماء.

هذه هي أبرز النّقاط التي أكّد عليها الملازم «ديميتري»، في حديثه المطوّل لنا في أوّل يوم في الدّورة الثّانية، التي كنت أنتظرها بفارغ صبر.

تغيّر «عزرا» ولا أعرف لماذا تغيّر، فقد أصبح يتحسّس منّي ويتهرّب، شككت أنّي ربما أخطأت في حقّه دون قصد، غير أنّ «شلومو» أوصاني ألاّ أعير للموضوع اهتماما، فهذه هي طبيعة «عزرا»، يغار كونه وُجّه للسّياقة، وهو الذي بذل كلّ ما في وسعه ليكون مدفعيًّا مثلي.

في اعتقاد «عزرا» أنّي لم أحصل على مهنة «المدفعيّ» بجهدي الخاصّ، بل طلبت تدخّل الملازم «ديميتري»، الذي توسّط لي مع جارنا السّيّد «ريكاردو»، وحذفوا إسمه واضعين إسمي مكانه.

أيّ عاقل يصدّق هذه التّرّهات؟، لقد تأخّر توجيهه ثلاثة أيّام كاملة بعدي، فكيف أكون قد حللت مكانه؟.

لم أشأ الدّفاع عن نفسي، ولم يهن عليّ أن أواجهه، فأرى الأسف في عينيه لمّا يتيقّن الحقيقة، بل تركت الزّمن يعالج كلّ شيء.

لقد سلب منّي -دون أن يشعر- قوّة الرّدّ على صديق.

(21)

كان الوقت عصراً حين بدأت تتردّد شائعات عن وجود مجنّدين مقتولين غير بعيد عن قاعدتنا العسكريّة، وبدت المسألة دقيقة حين اتُّهمت «كتائب القسّام» بتصفيتهم، على اعتبار أنّهم رفضوا التّجسّس لصالح هؤلاء المخرّبين، ولا سيما وأنّ «شيزافون» قاعدة مركزيّة للمدرّعات، يتمّ فيها تجريب آخر النّسخ من الدّبّابات وحاملات الجند، ثمّ قفز إلى ذهني أنّ المكان المحيط بنا خطر جدّا، وأنّ من نعم الرّبّ عليّ أن منعوني من الخروج، لكن تذكّرت «بابلو» الذي كان يتسلّل من هنا كثيرا، معتمداً على أصدقائه في الحراسة، فلو كان الأمر يشكّل تهديداً حقيقيّا لنا لقتلوه هو أيضا.

– العدوّ أعمى، لا يفرّق بين هذا وذاك.

هذا ما يقوله الملازم «ديميتري».

كنت في سريري على وشك النّوم، لّما راودني سؤال غريب في إلحاح أغرب، أين يذهب «بابلو» حين يتسلّل من القاعدة؟.

في الغد كانت الشّائعات تترسّب أكثر عند المجنّدين والمجنّدات الخائفين من مغادرة «شيزافون» في نهاية الأسبوع، خاصّة ونحن الآن في شهر ديسمبر، والقاعدة بدأت تستقبل مجنّدين ومجنّدات يلتحقون بالجيش لأوّل مرّة في حياتهم، ومنهم من لا يعرف شيئا في الحياة خارج المترل، أمّا في المطعم، فنشأ جدال حادّ بين إحدى المجنّدات، التي قالت أنّ الجنّ هم من يقتلون جنودنا ليلاً، وبين أحد «الأشكيناز»، الذي راح يتّهمها بممارسات سفليّة، خاصّة وأنّها من «السّفرديم»، بل وضعها في موقف لا تُحسد عليه حين خاطبها بالحرف الواحد أمام الجميع:

– كيف عرفتِ بأمر الجنّ إذا كنت لا تمارسين السّحر؟، يبدو أنّكِ كنتِ من ذوي الشّأن في «بولندا».

لينفجر الجميع ضاحكين وتنهار هي بالبكاء.

ثمّ اتّهم أحدهم البدو العرب، لترتفع أصواتهم بين باحث عن الحقيقة، وبين باحث عن تلفيق الإتّهامات، وبين هذا وذاك؛ لا موقف رسميّ يُتّخذ، كأنّ الذين قُتلوا مجرّد كلاب مشرّدة.

بعد يومين، أرانا أحد المجنّدين فيديو بثّته «كتائب القسّام»، يُظهر تدمير دبّابة «ميركافا 4» بواسطة قذيفة «ياسين 105»، وقبل لحظة الإطلاق؛ أوقفوا الفيديو واضعين مثلّثا أحمر فوقها، كعلامة تؤشّر أنّها هي المعنيّة بالتّدمير، ثمّ في أقلّ من ثانية... كان كلّ شيء كتلة من اللّهب.

لقد خرج العدوّ من مبنى على بعد أقلّ من مائة متر، وأطلق القذيفة من نافذة الطّابق الأوّل، في دقّة واحترافيّة، كأنّه ينتمي للقوّات الخاصّة.

أوّل مرّة أرى هذه النّوعية من الفيديوهات، وأوّل مرّة أرى هؤلاء المقاتلين، «دواعش حماس» كما يردّد النّاطق الرّسميّ باسم جيش الدّفاع الإسرائيليّ «أفيخاي أدرعي».

كانت «الميركافا» متوقّفة أمام سيّارتين إحداهما بيضاء، ثمّ انفجرت، دون أن يفيدها شيء من التّحصينات والتّدريعات التي حشوا أدمغتنا بها، وأقنعونا أنّها آمنة تماما أكثر من حضن أمّي.

في نفس الفيديو خرج مقاتل آخر من زاوية الشّارع، فيفجّر دبّابة ثانية على بعد أقلّ من مائة وخمسين مترا، كانت متوقّفة مع دبّابة أخرى، وقبل لحظة الإطلاق، أوقفوا الفيديو، واضعين مثلّثا أحمر كذلك كعلامة للتّدمير، وتصبح «الميركافا» كتلة من اللّهب، كالتي سبقتها، ثم ظهر مقاتل آخر، أطلق القذيفة على دبّابة ثالثة متحرّكة، بعد وضع مثلّث أحمر عليها.

إذن ما يقال كإشاعات صحيح كلّ الصّحّة، فخر الصّناعات الإسرائيليّة التي تكلّف ستة ملايين دولار أمريكيّ أصبحت ولا شيء، أمام هؤلاء المقاتلين الذين يستطيعون إرسال أربعة جنود منّا على الأقلّ، دفعة واحدة إلى الدّار الآخرة، بكبسة زرّ من على الكتف، ثمّ يظهرون في توثيق مصوّر وعليهم إشارة مثلّث أحمر، في آخر صورة تذكاريّة تجمعهم في هذا العالم.

لقد بدا الأمر مفزعاً وفظيعاً لدرجة لم يستطع عقلي تقبّلها، ذكّرنا «شلومو» بما سمعه كإشاعات حول إقحام المرأة في القتال، لتعويض النّقص في الرّجال، لم أستسغ ذلك؛ إذ كيف يُعقل أن تقود امرأة دبّابة قتاليّة، هناك دبّابات إسعاف، ودبّابات إمداد، ودبّابات جسور متحرّكة، إذا أرادوا فعلاً إقحام المرأة، فيكفي أن يكون لديها ملف طبيّ رقم 97 أو 82 لتكون بيننا، أمّا أن تزاحم الرّجال، وربما نتلقى الأمر منها، فذلك غير مقبول بتاتا، وحتّى حاخاماتنا ترفضه رفضاً قاطعاً دون نقاش، يجيزون لها القتال وحدها ويحميها الرّجل، أمّا هو فيعتبر المطبخ مكانها الأصليّ، بينما يلاقي «رفائيل» مشكلة حقيقيّة -كما يزعم- في إيصال فكرة ما لأخته التي تدرس في الجامعة، فكيف يوصل فكرة إطلاق النّار على الهدف لامرأة غريبة تجلس أمامه؟.

لكنّ «عزرا» تعجبه الفكرة وديدنه الكتيبة النّسويّة «كاراكال 33»، التي يضرب بها المثل في نجاح المرأة العسكريّ، التي تأسّست في 2004، وأثبتت جدارتها في حماية الحدود في 2012، عندما تمّ استدعاء قوّة من الكتيبة إلى مكان الهجوم، الذي نفّذه مخرّبون ضدّ قوّة من سلاح المدفعيّة، كانت تقوم بتأمين الأعمال على الحدود المصريّة، في منطقة جبل «حاريف».

وفي 2014، ضد مهرّبين حاولوا نقل مليونا وخمسمائة ألف شيكل إلى خارج إسرائيل، وهي الوحيدة التي لها سريّة دبّابات خاصّة بها، فلماذا لا نجعلهنّ يختلطن مع المجنّدين؟.

ما يمنع أن تكون المرأة مدفعيّة أو محمّلة قذائف أو سائقة أو حتّى قائدة علينا؟، ما دامت تنسجم مع الطاّقم، وتطبّق الأوامر دون تردّد أو مماطلة، والقتال قتال، وما دامت تحمل سلاحاً؛ فلماذا لا تقاتل في دبّابة؟، على الأقلّ ستكون محميّة داخلها.

وهنا ثار «رفائيل»:

– هراء، عن أيّة حماية تتحدّثون؟، ألا تلاحظون أنّنا رجعنا لنقطة الصّفر؟، ألم تروا الفيديو؟، إنّها تشتعل مثل الفرن يا أغبياء، أنظروا جيّدا، كتلة لهب يُشوى كلّ شيء داخلها ولا أدنى فرصة للهرب.

ثمّ راح يشرح باستهزاء وهو يتمايل أمامنا:

– وزن الدّبّابة وطولها وارتفاعها وطول الجنزير والمحرّك ذو الألف والخمسمائة حصان... كلّ هذا كلام فارغ، قذيفة واحدة تهدم الأسطورة التي حشوا أدمغتنا بها، وأقنعونا أنّ لا شيء يستطيع تدميرها.

وغادرنا وهو يحكّ قبضتيه كعادته حين يغضب، يعكّر مزاجه ألف عفريت، تاركا الجميع واجمين، يتبادلون النّظرات، وفي أعين كلّ واحد منّا مائة سؤال، وأحسست بعرق بارد يغمرني لأوّل مرّة، نحن ندور في حلقة مفرغة، هذه الدبّابة التي أقنعونا أنها حصن رومانيّ حصين، لن تحمي أحداً منّا من الآن فصاعداً، مجنّداً كان أم مجنّدة.

من الآن فصاعدا... «من يتواجد داخل الدّبّابة سيحترق».

عادة ما نجد «بابلو» في المطعم كلّما ذهبنا هناك لتناول الفطور أو الغداء أو العشاء، أصبحت المنطقة منطقته وأضحى الآن هو المتحكّم في الأمور، وخاصّة بعد السّاعة التّاسعة والنّصف مساء حين يغادر الباقون، وكثيراً ما تلتقي الشّلة حول إحدى الطّاولات، نتجاذب أطراف الحديث حول آخر التطوّرات.

كنّا في نهاية الأسبوع، وبدا المطعم قليل الحركة، بسبب مغادرة أغلب المجنّدين للقاعدة لزيارة عائلاتهم، جلسنا نتناول عشائنا، ثمّ انضمّ إلينا «بابلو»، حاملاً طبقه المليء بالأرز ودجاجة كاملة، جلس وهو يضحك في خبث متصنّع، فعرفنا أنّه أخذها دون أن يتفطّن له أحد، قسمها نصفين في حركة سريعة، تدلّ على أنّه اكتسب خبرة كبيرة في شؤون المطبخ والإطعام، ثمّ ألقى نصفها لي في الطّبق، لأنّي كنت الوحيد الذي لم أطلب لحما، طلبت طبق سلطة بسيط مع قارورة كبيرة من الماء، كنت متوعّكا قليلا بسبب سوء هضم، بيد أنّي لم أشأ أن أردّ عرضه.

وما إن بدأت في مضغ قطعة من الفخذ؛ حتّى كانت «باولا» أمامي، وسط ذهولنا الذي عزّزته هي بصوتها الرّخيم:

– لماذا تتهرّب منّي «بابلو»؟، لو كنت رجلاً لما تهرّبت منّي بهذه الطّريقة؟.

ثمّ راحت تصرخ في هياج وهستيريا:

– الرّجال لا يهربون «بابلو»، الرّجال يواجهون، كن رجلا وواجهني.

وراحت تستنفر دموعها، مثيرة جلبة يسيرة في البداية، ثمّ تطوّرت لضوضاء النّساء، فنهض بسرعة وصفعها صفعة ردّد المكان كلّه صداها، فخرجت باكية منكسرة.

أمسكه «رفائيل» و«شلومو» ليهدّئاه، بينما كان «عزرا» يرتّب ما سقط عن الطّاولة من أطباق وقارورات الماء والعصائر، وهو يبتسم ابتسامة، فضحت معرفته بشيء لا نعرفه نحن.

في تلك اللّيلة كانت السّاعة قد تجاوزت الحادية عشرة ليلا حين سمعت بكائه الصّامت، بكاء يشبه أنين طفل صغير.

أوّل مرّة أسمع فيها «بابلو» يبكي؛ «بابلو» الذي يشبه فهداً إفريقيّاً، يبكي مثل طفل صغير، من يصدّق هذا؟، ووجدت دموعي تنهمر في صمت لبكائه؛ نحن جميعاً عسكريّون، نحن جميعا نقدّس الشّرف ونرفض الإذلال، ونعرف جيّدا ما الذي تعنيه الدّموع، وما معنى أن يبكي رجل يحمل سلاحاً لا يفارقه.

– هوّن عليك «بابلو»، لست المُلام مطلقا، أنت رجل وستبقى رجلا؛ وهل يحتاج الفهد كي يثبت فحولته؟.

نظر إليّ نظرة لم أفهم مغزاها، ثمّ عانقني بقوّة كادت تحطّم ضلوعي.

لم أكن أعرف أنّي دغدغت فيه الحنين إلى ذكريات يحاول الحفاظ على لونها الأبيض، «بابلو» هذا الجنديّ، ذو الأصول الإفريقيّة، المفعم بالأسرار.

كنّا وحدنا في الغرفة، فقد كانت بقيّة الشّلّة ساهرة في النّادي الرّياضيّ، وحين أتوا متعبين كانت السّاعة تقترب من منتصف اللّيل، كان الوقت كافيا جدّا ليسرد كلّ شيء، أو على الأقلّ؛ هكذا تخيّلت.

إنّها تحبّه، نعم تحبّه، هذه المغرورة بجمالها «باولا ليفي رودريقاز»، ومع صدّه المستمرّ لها، شعرت بالإهانة، لم تعتد أن يصدّها أحد، بل هي من تصدّ الآخرين، شامخة الرّأس شموخ جبال الأنديز، ذات عينين عسليّتين، وشعر بنّيّ يتّجه للسّواد يتجاوز الكتفين، ووجه مكتنز، مع وجنتين مرتفعتين، وفم ممتلىء وأنف دقيق، هذا النّوع من الجمال لا يردّ، غير أنّ «بابلو» صدّها عنه في كبرياء وأنفة وعزّة، ممّا أثار دهشتها ودهشة جميع المجنّدين والمجنّدات.

هل هو مجنون ليرفض حبّ «باولا»، الأميرة القادمة من وراء المحيط؟، من أمريكا الجنوبيّة؟، ملكة جمال قاعدة «شيزافون»؟.

تشجّعت وسألته عن سبب رفضه لها، ما دامت تحبّه، فلماذا لا يتزوّجان؟، لماذا يضيّع فرصة مثل هذه؟، خاصّة وأنّها تعمل في فندق كبير، يمكنهما بناء أسرة متماسكة، وإنجاب أطفال.

سيعيشون سعادة حقيقيّة بكلّ ما للكلمة من معنى.

تنهّد أمامي بصوت مسموع، كالذي يحمل فوق عاتقه طودا:

- إنّها تحبّني بصدق، هذا ما أكّده لي «عزرا»، لكن ليس كلّ ما يلمع ذهبا أخي «دافيد».

ثمّ ربّت على كتفي، تاركاً الحيرة تنهشني نهشا، وذهب لينام.

وهل تنام حيرتي؟.

يا لقوّة عزيمتك يا «بابلو»!، يا لصبرك!، يا لقلبك الكبير يا «بابلو»!... يا لقلبك الكبير وما تخفيه!.

(22)

إختفى «بابلو» ثلاثة أيّام كاملة لم نسمع فيها عنه شيئا، وحتّى حين يحاول «عزرا» مكالمته عبر جوّاله؛ يجد الخطّ مشغولا، وحين عاد قال إنّه أُرسل في مهمّة سريّة، لا يجب التّطرّق إليها بأيّ شكل من الأشكال، ولاحظنا أنّه عاد فرحاً جدّا، برائحة عطر زكيّة يعبق بها كلّ مكان يتواجد فيه، لدرجة أنّه تكفّل بكلّ تكاليف إحدى جلساتنا في النّادي العسكريّ من أكل وشرب، خارج خدمة النّجوم التي يوفّرها الجيش.

قامر «رفائيل» سرّا و لم يربح شيئا، أمّا أنا فأكلت كثيرا، وأحضرت العديد من قنّينات مشروبات الطّاقة لأتناولها صباحا.

إقتنعت الشلّة بالموضوع، لأنّ هذه هي طبيعة الجيش، إلاّ أنا حاولت أن أقنع نفسي، فلم أستطع.

من أين أحضر «بابلو» كلّ هذا المال الكثير؟، لقد رأيت معه مبلغ خمسة آلاف شيكل نقدا، مبلغ كبير دون بطاقة ائتمان.

كان الأسبوع الثّاني من الدّورة الثّانية لم يشرف بعد على نهايته، والأمور تزداد صعوبة مع الوقت.

أصابنا إحباط شديد من الفيديو الذي شاهدناه، قال «رفائيل» أنّ «كتائب القسّام» بثّته على شاشة «الجزيرة»، وهي تبثّ كلّ فيديوهاتها المصوّرة عنّا في هذه القناة، بل كلّ دبّابة يفجّرونها، عليها إشارة مثلّث أحمر، فتتناثر قطعها في الهواء، مخلّفة كرة من النّار داخلها، ورأيت الإنزعاج في عيني «عزرا»، الذي اعتبر كلّ الجهود التي وُجّهت لصناعة «الميركافا» عبث مجموعة من الأطفال، لم تجد أين تصرف الأموال التي مُنحت لها.

في حين اعتبر «رفائيل» أنّ عقاب «بابلو» يصبّ في صالحه، فهو يخدمه بنسبة مليون بالمائة، سيظلّ في المطبخ حتّى تسريحه، ولن يرى الموت الذي ينتظرنا، إنّه محميّ بين أربعة جدران، أكثر منّا نحن في قالب الزّبدة هذا الذي يسمّونه «الميركافا»، فخر الصّناعات الإسرائيليّة، وراح يضحك في استهتار، غير آبه بعناصر الشّرطة العسكريّة التي تحوم في الأجواء، تتصيّد كلّ شعور مناوئ، أو تصرّف يثير الشّبهات.

في السّاعة الخامسة فجرا، فاجأني دوار كاد أن يسقطني أرضا، وتكرّر معي أربع مرّات في ظرف ثلاث ساعات، فأدركت أنّ ثمّة خطب ما، ويجب أن يفسّر ذلك علميّا في العيادة.

إستلقيت على سرير الفحص، فراحت الممرّضة تأخذ قياس الضّغط أوّلا، ثمّ جاءت الطّبيبة مسرعة، مباشرة وعينها على المقياس، ودون مقدّمات اعتبرت أن لا شيء خطير، مجرّد إرهاق بسيط، غير أنّها حذّرتني من تناول مشروبات الطّاقة لّما أعلمتها أنّي من المدمنين عليها، وأعطتني مقويّاً مع ثلاثة أيّام للرّاحة التّامّة، الأكل والنّوم، ولا غير ذلك.

– تخلّص ممّا لديك أيّها المجنّد، هذه المشروبات لن تنفعك من الآن فصاعدا، جسمك لم يعد يتحمّل الكميّة المهولة التي تستهلكها من الكافيين.

إعتبرت المسألة منتهية، فالطّبيبة تعرف أكثر من «شلومو».

توجّهت للمطعم كي أدردش مع «بابلو»، فقد أضحى الآن هنا على ما يظهر مثل رائد أو عقيد.

كان قد أتمّ عمله، ويجلس مرتاحا يتناول وجبته المفضّلة، الدّجاج مع الأرز، أخبرته ممّا أعاني، فطلب منّي الإنتظار قليلا وذهب، ليأتي لي بعد دقائق قليلة، بطبق فيه دجاجة كاملة، مع بعض الفاصولياء والمرق، مع كثير من الخسّ بزيت الزّيتون، وشرعنا نأكل.

– تبّا لها، هل هذا وقتها الآن؟، لديهنّ مطعم خاص.

إلتفتّ خلفي لأرى «باولا» تنظر إلينا والشّوق في عينيها، ثمّ أخذت عصير برتقال وانصرفت.

تشجّعت مستعطفاً «بابلو» ليخبرني بما يخفيه، أخبرته أنّ امرأة مثل «باولا رودريقاز» لا تُرفض هكذا دون أسباب، ومن المؤكّد أنّ أسبابه منطقيّة جدّا.

منذ أن دافعت عن صديقي وأنا أحاول التقرّب منه، لكنّ كلّما اقتربت أكثر، بدا لي أنّه متحفّظ أكثر، لا يفتح صدره إلاّ للذي يثق فيه، وإذا وثق فيك «بابلو» أطعمك كلّ شيء، واقتسم معك حتّى عطره الفاخر «أرماف كلوب».

عندما فرّ من «السّودان»؛ لم يستطع تهريب «مارغاريتا»، إبنة الجيران اليتيمة، ذات الخمسة عشر ربيعاً التي تعيش مع جدّتها، حيث نشأت بينهما علاقة حبّ عذريّ وثيق، وأتى كلّ شيء مفاجئاً دون سابق إنذار، فقد تعرّف على أحد المهرّبين العاملين مع الوكالة اليهوديّة، الذي أخرجهم من «السّودان» في شاحنة، ثمّ –عبر البحر– تولّت «الموساد» الباقي حتّى أوصلتهم إلى «إيلات»، وتكفّلت الدّولة بمستلزماتهم، فأسكنتهم في «ديمونا»، لكنّه فقد الإتّصال بحبيبته، التي سمع من أحدهم أنّها تعيش عند عائلة «عثمان» المسلمة، مع كفيلها «إدريس» وعقيلته «عائشة»، وسط أولادهما السّبع، بعد وفاة جدّتها بأزمة قلبيّة حادّة مرّت بها، كما تأكّد من عدّة مصادر أنّها معزّزة مكرّمة هناك، في انسجام عائليّ تامّ كواحدة من الأسرة؛ ممّا أثلج صدره، وجعله يستبشر أملاً كلّما افتقدها إلى جانبه.

لم تترك له الحرب حتّى صورة لها، سوى الصّورة التي ما زال يحتفظ بها في مخيّلته.

هذا ما كان يخفيه عنّا «بابلو»، أو بالأحرى جزء بسيط فقط ممّا يخفيه في قلبه.

(23)

بعد الزّوال بحثت عن الملازم «ديميتري»، كي أضعه في صورة ما ألمّ بي من توعّك، مطلعا إيّاه على كشف الفحص، ممضيّاً ومختوماً من طبيبة العيادة:

– ماذا كان يريد منك «غارسيّا»؟.

– الإنضمام للإستخبارات سيّدي.

– آه... حسنا، إنصراف.

توجّهت للغرفة أروم الرّاحة التّامّة امتثالا لأمر الطّبيبة، لكن ما إن استقرّ رأسي على الوسادة حتّى هاجمتني ذكريات «أتارا».

يبدو أنّ «بابلو» حين فتح ملفّه العاطفيّ أمامي، بعثر أوراق ذكرياتي دون قصد منه.

كانت سنتي الأخيرة في الثّانويّة العامّة الواقعة في شارع «هاتياسيم» حين عرفت هذا الملاك الطّاهر، وفي قسم الرّياضيّات، القسم الذي يخشاه أغلب الطّلاب والطّالبات.

حصلت على شهادة «البغروت» بمعدّل جيّد أتاح لي فرصة الإقتراب من حلمي، لكن ليس بسهولة، فقد كنت أقضي أغلب وقتي في مكتبة «أوفاكيم»، لأجد فيها كلّ ما أحتاجه من كتب، كما كنت ومازلت أعشق هندسة البرمجيّات.

صناعة برنامج معيّن، هو بمثابة انتصار على الآلة ذاتها، التي نطوّرها بهذا البرنامج، ويعكس قدرة الإنسان المذهلة على التّفكير والإبداع، التي أعطاها له الرّبّ حين خلقه.

إهتمامي بالبرمجة مكّنني من إقامة علاقات وثيقة مع بعض الشّغوفين بها في إسرائيل، و«بريطانيا» وخاصّة في «الولايات المتّحدة الأمريكيّة»، مثل صديقي «هارون بوشنل»، طيّار في القوّات الجويّة الأمريكيّة، له من غرابة الأطوار ما يثير فضولك، ذو إرادة فولاذيّة، خجول يحبّ القطط كثيرا، مثل أختي «ياعيل»، كما يشجّعني على التعلّم والصّبر.

يثيرني ذكاؤه بقدر ما تثيرني غرابة تصرّفاته، إذ له قدرة عجيبة على حلّ المعادلات الرّياضيّة، وحلّ مشاكل البرمجة العويصة التي تعترضني، في تميّز وتفوّق غريب.

له، يرجع الفضل في حصولي على شهادة «البغروت»، التي تُعتبر مكسباً استراتيجيّاً بيد أيّ شاب هنا، لو أراد الإلتحاق بالجيش.

وبسبب حرصي الشّديد على نيل هذه الشّهادة مهما كلّفني الأمر؛ كنت أدرس ليل نهار، إمّا في المكتبة بين المراجع، أو في المترل قبالة جهاز الكمبيوتر، حتّى أصبحت مدمناً على مشروبات الطّاقة، أحملها معي أينما ذهبت، في يدي أو في حقيبة الظّهر، من علامتي «INDIGO» و«XL»، ولم أكن على دراية وافية بخطرها القادم على الصّحة.

دون انتظام ومتى ما سنحت لها الفرصة، تتردّد على مكتبة «أوفاكيم»، فتشدّني كالمغناطيس، كلّما رأيتها هناك، أضاء لي المكان، وأنا وحدي من كان يشاهد هذا الضّوء.

لم أعرف في البداية ما يحدث لي، ولماذا أشعر بحرارة تعلو وجهي كلّما رأيت هذه الفتاة، ذات النّمش الخفيف.

لماذا تطرق أبواب تفكيري وأنا الذي كرّست حياتي للدّراسة فقط، حتّى كاد ظهري يتقوّس كعجوز؟.

لا علاقة لي بأيّة أنثى، حتّى زميلاتي في القسم، لا أتجاوز معهنّ تحيّة الصّباح أو المساء.

لماذا أفكّر فيها دائما؟.

خانتني شجاعتي فلم أجرؤ على الإستفسار من أيّ أحد، حتّى من أمّي، التي تشجّعني على التّواصل معها، للخروج من القوقعة التي تقول أنّي أعيش فيها، وعالمي المثاليّ الخاصّ

يجب طرح جميع مشاكلي أمامها، دون تحفّظ، من أيّ نوع، لنجد حلولاً مُرضية.

أمّي يا أمّي، كم أعدها وأخلف وعدي، حتّى أحسّ بي «غابي» ذات يوم، لّما كنّا في المكتبة بصدد إجراء بحث، دخلت هي مع ثلاثة من صديقاتها، أصابتني يومها رجفة غريبة، وبدأ قلبي يخفق بشدّة، وخشيت أن ينكشف أمري للجميع، فأصبح بين عشيّة وضحاها مركز اهتمام لكلّ سكّان «أوفاكيم»، وضعت مشروب الطّاقة جانبا، لأعطي انطباعاً للجميع أنّه هو سبب رجفتي واضطرابي، متناولا جرعات كبيرة من عبوة ماء معدنيّ، أحضرها «غابي» معه ليزيل عطشه الذي لا يتوقّف، بسبب مرضه، ثمّ تبعتها لّما خرجت، من بعيد دون أن أجعلها تشعر أنّ أحداً ما يراقبها، لأعرف عنوانها على الأقلّ.

– لو سألت أيّة واحدة من صديقاتها لرفعت عنك مشقّة السّير.

هذا ما قاله صديقي البدين وهو مندسّ تحت سفينته الفضائيّة.

تيقّنت أنّها تسكن في حيّ «ميشور هاغفن»، على بعد خمسمائة متر من المترّه العامّ، حيّ يوصف برقيّه وجماله الأخّاذ، تماما كساكنيه.

وحين سألته عن علامات الحبّ، قال مازحاً فرحاً بتأكيدي لاكتشافه:

– وأخيرا عرفت سبب عدم مقدرتك على الإبتسام لها؛ إنّه تشنّج في عضلات الوجه، أليس كذلك؟، أيّها الماكر، كنت متأكّداً أنّك ستتبعها، حين تركتني في المكتبة وانسللت خلفها كاللّصوص، أتذكر؟.

وهل يخفى شيء عن «غابي»؟.

– هل يُعقل أن تنظر لشخص بنظّارات طبيّة مثلي؟.

– وما ينقصك؟، الوسامة؟، أنت أوسم منّي «دافيد»، أنت تشبه «هاري بوتر».

وضحك وهو يشرب الماء من عبوته البلاستيكيّة، وضحكت معه، أمنّي نفسي بما أراه حلماً مستحيل النّوال.

كأيّ عاشق شابّ، بدأت أجمع المعلومات عنها، كلّما عرفت شيئاً زادت فرحتي، ثمّ سألت إحدى صديقاتها –التي أقسمت لي على التّوراة ألاّ تفشي شيئاً ولو تلميحا–، إن كانت تعرف شابّا ما، فأكّدت لي أنها لا تتكلّم مع الشّباب كثيرا، وأنّ أمّها السّيّدة «ليزا» التي تعمل في صحيفة «هآريتس»، توصيها دائماً بدراستها أوّلاً وآخرا، ستجعل منها إعلاميّة مثلها، وهي الآن في السّنة الأولى آداب في الثّانويّة التي أدرس فيها.

عجباً كيف تدرس معي في ثانويّة واحدة و لم أنتبه لها هناك!.

ثمّ عرفت منها أنّ مطربتها المفضّلة هي «شيري ميمون»، اليونانيّة الأصل، وتعشق كثيراً أغنيتها «أنت»، وصرت أحبّ هذه الأغنية كحبّي لمن تحبّها.

تغيّبت ذلك اليوم بسبب إنفلوانزا حادّة أصابتني، حين أخبرني «غابي» أنّها صرخت بكلّ قوّتها في وجه كذّاب الثّانويّة «دانيال أدموني»، الذي يعاكسها من فترة لأخرى، آملا في نظرة منها نحوه، رغم أنّها تصدّه دوماً عنها، وترفضه بسبب كذبه المتواصل على سكّان المدينة.

قال لنا مرّة أنّ لديه أخاً اسمه الحركيّ «تشاتشا»، ضابط رفيع في «الشّاباك»، ولا يستطيع ذكر اسمه الحقيقيّ أمامنا، كي لا تتأثر مسيرته المهنيّة، ثمّ قال لنا مرّة أخرى أنّ «ناحوم أدموني»، رئيس «الموساد» السّابق، هو والده الحقيقيّ، وأنّه اتّصل به مراراً وتكراراً ليعيش معه في «أورشليم»، ثمّ قال إنّ له علاقة قرابة مع «يتسحاق دانينو»، عمدة مدينتنا «أوفاكيم»، الذي في الأصل –حسب زعمه– ابن عمّه، ثمّ أخبر أعضاء نادي «الفرع 24» بوقاحة الحمار؛ أنّه كان يتدرّب في قاعة تقوية العضلات مع «آرنولد شوورتزنيجر» شخصيّا، حين كان في «أمريكا»؛ في حين يعرف الجميع أنّه لا يملك جواز سفر.

دون التّطرّق طبعاً لشهاداته المتعدّدة في «الكاراتي» و«الكونغ فو» و«الجيدو» و«الملاكمة»، وحتّى في ممارسة «اليوغا» المأخوذة من «الهند».

وبّخه «غابي» مرّة بقسوة أمام بعض الأساتذة بعد أن نفد صبره حين بدأ يروي مسلسله التّخيّليّ، رافعاً صوته كعادته، حين يشرع في سرد مغامراته، التي لا أحد يعلم حلقتها الأخيرة:

– ماذا تحسبنا يا غبيّ؟، هل تظنّنا لا نعرفك؟، أم جئنا من القمر؟، الكلّ اكتشف كذبك الذي لا ينتهي حتّى قطط الشّوارع، هل تعرف ما معنى هذا؟، لا أعرف لماذا ترتدي طاقية «الكيبا» وأنت تكذب ليل نهار؟، مثل الهواء الذي تتنفّسه؛ على الأقلّ احترم ما ترتديه.

«تشاتشا» الذي قال عنه أنّه ضابط رفيع في «الشّاباك»؛ هو أخوه من أب آخر، يعمل في مصنع للنّسيج، عرفت هذا لمّا أقلني ذات يوم بسيّارته إلى «بير شيفا»، ودردشنا قليلاً في الطّريق حول الدّراسة والعمل والمستقبل، هذا الذي يغار أكثر من النّساء؛ بسبب كذبه وأنانيّته وغطرسته، أضحى الكلّ يكرهه في العائلة، ويبتعدون عنه، لكن «دانيال» المسكين، الذي يعاني من عقدة النّقص، لا يعرف ذلك، لأنّه ببساطة لم يلتقيه أبدا.

إذا قال لك «دانيال أدموني» أنّ الشّمس مشرقة، فيجب عليك النّظر من النّافذة، لتتأكّد بنفسك.

لقد حاول مرّة كسر نظّارتي، حين قالت له «أتارا» في موقف غضب أنّ «هاري بوتر» أفضل منك، جاءني مسرعاً يسبّ ويشتم، بعينين برّاقتين تقدح شررا، ودفعني بكلّ قوّته لأسقط أرضاً في عنف:

– إذا كلّمت موزتي المنقّطة مجدّدا؛ سأقتلك «دافيد».

ثمّ أراد أن يأخذ نظّارتي ليكسرها أمام الجميع، لولا تدخّل إحدى الأستاذات، التي هدّدته باستدعاء الشّرطة حالاً، وتوجيهه للجيش في ذات اللّحظة، بعد فصله مباشرة من الثّانويّة.

قالتها له هكذا بصريح العبارة، أمام كلّ طلاّب وطالبات الثّانويّة، ممّا أدّى لتحوّله إلى بركان ثائر، منذ ذلك الحين، أصبحت معروفاً باسم «هاري بوتر»، وأصبح الجميع يعرف قصّتنا، أو على نحو أدقّ... قصّة قلبينا.

إعتبر «غابي» هذا دليلاً دامغاً على ميلها نحوي، وأنّها تنتظر خطوة إيجابيّة منّي، في أقرب وقت، كي يبدو الأمر أكثر جديّة ووضوحا، وحين غابت أستاذة الرّياضيّات، صاح بي:

– يا مغفّل ماذا تنتظر؟، فرصتك الآن ويجب أن تستغلّها، أترك خجلك وادعها لتناول بيتزا ملكيّة، أطلب لها ما ترغب به، كي لا تنعتك بالبخيل، يجب أن تملك شجاعة الكلام وروح المبادرة، الفتاة تريدك، تقدّم منها وانتبه لكلامك، لا تصمت ولا تتحدّث كثيراً ولا تسرع في الكلام، تحدّث بكلّ عفويّة، متأمّلا عينيها مباشرة، المرأة تحب من يتكلّم ويتأمّل عينيها، ستعطيها إحساسا عميقا بالطّمأنينة.

طبعاً لو كان مكاني لاختلف الأمر، هذا الذي يتقمّص اللّحظة دور «أنشتاين» الحبّ ببراعة.

تناولت قنّينتين من مشروب الطّاقة دفعة واحدة، وذهبت إليها أواجه مصيري المحتوم، كانت تقف أمام إحدى النّوافذ، رفقة صديقتها التي أقسمت لي على التّوراة وبيدها كتابين، وإحمرّ وجهينا بمجرّد إلقاء التّحيّة، وهذا الإحمرار، كان اختزالاً لآلاف الكلمات.

ثمّ تعارفت الأسرتان، إذ أخبرتني بعد يومين أنّ أمّها تنتظرنا على الغداء، لتردّ الزّيارة، وتتعرّف علي زوج ابنتها.

كاد «غابي» أن يخرج من جلده.

قال وعيونه تتلألا فرحاً وفمه ممتلئ بقطعة بيتزا:

– ما دامت قد أخبرت أمّها عنك فهي تحبّك، وليس شرطاً أن تخبرك صراحة، هذا النّوع من الحبّ نادر جدّا في إسرائيل؛ نادر، هذه الفتاة تحبّك بصدق يا «دافيد»، لقد منحتك قلبها، إحذر أن تخونها مع أيّة فتاة أخرى، لأنّها ستتحوّل إلى أداة انتقام فظيعة من كلّ رجل يحاول التقرّب منها.

إندهشت كيف استطاع قول كلّ هذا و لم تحدث له غصّة في حلقه، ثم جلس وأكمل بهدوء شديد:

– هذا ما يسمّيه العرب «الحبّ العذريّ»، أرقى أنواع الحبّ في الوجود...

و لم أركّز في بقيّة ما قاله، فحين يشرع في الشّرح لن يوقفه أحد، ولا يسمح لأيّ كان بمقاطعته.

يحيّرني هذا السّمين، لم يرتبط في حياته بأيّة فتاة، ويعرف في العلاقات العاطفيّة أكثر من أيّ شابّ آخر:

– لم أرك مع أيّة صديقة، فكيف تعرف كلّ هذا يا «غابي»؟.

– من هذه التي ترضى أن ترتبط ببرميل مثلي؟؛ يكفي أن تكون السّيارة حبيبتي الوحيدة.

وأدخل رأسه كعادته تحت سفينته الفضائيّة.

– ثمّ ماذا بعد؟، هل ستبقى على هذه الحالة إلى الأبد؟، ألا تتزوّج مستقبلا؟، لديك إعفاء من الجيش «غابي»، هل تعي ما معنى ذلك؟، معناه توفير ثلاث سنوات من عمرك، هناك من يدفع رشوة من أجل الإعفاء.

نهض ثمّ أدخل رأسه كلّه داخل أحشاء سيّارته غير مبالٍ بي، كأنّه لا يراني، أو لست موجودا أمامه.

في ذلك المساء الذي تحدّثت معها لأوّل مرّة؛ كان أبي في المترل لّما أخبرتهم جميعا في حياء بكلّ ما جرى لي، فاقترحت أمّي عليّ دعوتها، لتتعرّف عليها عن قرب، واقترح أبي دعوة أبيها وأمّها للغداء لدينا على انفراد، ثمّ راحت أمّي تطمئنني أنّ كلّ شيء سيكون على ما يرام؛ ستفاتح أمّها وستخطبها لي، وهنا قفزت «ياعيل»:

– يبدو أنّك ستتزوّج باكراً جداً كقبائل البدو، رائع... سأكون خالة وأنا لم أكمل الثّامنة عشرة بعد.

وراحت أمّي تقبّلني في حرارة:

– حين تكون علاقتكما واضحة ستتعلّم المسؤوليّة، ستكون رجلاً حقيقيّا، بدل العبث مع كلّ واحدة كما يفعل شباب المدينة؛ يضيّعون وقتاً ثميناً هم في أمسّ الحاجة إليه، آه يا «دافيد»؛ سأرى أولادكما الصّغار يلعبون حولي.

تلفّظت بجملتها الأخيرة بنبرة أمل عريض وهي تضمّني لصدرها.

وساندها أبي بكلّ اهتمام، حيث أبدى رغبة جادّة في التّعرّف على والدها، و لم تتمالك أمّي نفسها بغتة، وانخرطت في بكاء صامت، وعانقتها «ياعيل» متأثّرة، وسرعان ما أتت قطّتها البيضاء الصّغيرة «كوين»، لينقلب المشهد إلى دراما رومانسيّة، كالتي نراها في الأفلام.

(24)

إنتشر الخبر في الثّانويّة انتشار النّار في الهشيم، إنتشر ليزيد من معاناتي مع كذّاب ثانويّتنا، الذي أصبح يترصّدني صباحاً ومساء، كلّما رآني، يتفرّس في وجهي، يستفزّني كالذي يبحث عن المشاكل، مع سبق الإصرار والترصّد، ثمّ ينصرف إذا لم أعره اهتمامي.

يؤكّد لي «غابي» أنّه أصبح يشاهده باستمرار، رفقة إحدى الطّالبات، يتجادلان في حرص وجدّ، بصوت يحتاطان على إبقائه منخفضا قدر الإمكان.

وصدق «غابي»، كان سلاحه هذه المرّة فتّاكاً من نوع خاصّ، إسمه «بلانكا مالكامو».

لعوب من أصول إفريقيّة، ذات شعر أسود مجعّد، ترسله ضفائر إلى ما تحت كتفيها، وشفتين ملتهبتين نفختهما عمليّات التّجميل أكثر من اللاّزم، فتبدو مثيرة بعيون سوداء واسعة، وبشرة تميل للبنيّ القاتم، تلمع دائماً تحت الشّمس، التي تضفي عليها بريقاً أخّاذا، وزادهما مساحيق الزّينة فتنة.

كلّما تراها «ياعيل»؛ أو تتذكّرها، تنعتها بعنوان الغرور، لا سيما حين تتبختر في سراويل الجينز الزّرقاء المرتفعة الضيّقة، بينما أراها شخصيّا تعشق المال إلى حدّ إعلائه فوق كلّ المبادئ والقيم.

ورغم كلّ ما تلقّته من إنذارات من إدارة الثّانويّة بسبب ألبستها المثيرة؛ وتواجدها المشبوه مع غرباء عن المؤسّسة التربويّة، إلاّ أنّها ما زالت تعتقد أنّ لها مطلق الحريّة في ارتداء ما تراه ملائماً لجمالها، واستقبال–على حدّ قولها– من ترغب فيه.

كنت ساهراً أمام شاشة الكمبيوتر، منشغلا بأحد البحوث في اللّغة العبريّة، أسابق الزّمن لأنهيه في أقرب وقت، كي لا أنشغل به حين تقترب الإختبارات، حين اتّصلت بي «أتارا» قرابة السّاعة الحادية عشرة والنّصف ليلا، قائلة أنّ أباها يهدّد بإطلاق النّار على أمّها، بعد نشوب شجار عائليّ حادّ حول أحقيّة أحدهما في حضانتها، وأنّهم الآن في منزل قريبة لهم في إحدى الشّقق السّكنيّة الواقعة في شارع «حاييم حوري»، وهي تنتظرني هناك للتّدخّل.

جاء الحدث مفاجئاً، لدرجة أنّي لم أعرف ما الكلام المناسب هنا، ولا كيفيّة التّصرّف المثلى، ثمّ أعطتني العنوان بسرعة وأغلقت الخطّ، بعد أن تهيّأ لي أنّي سمعت حشرجة، وأصوات تحطّم أواني منزليّة، إرتديت

ملابسي بسرعة، وذهبت إلى غرفة أبي وأمّي أوقظهما، وخرجت بعدها في سرعة البرق، لأجد الشّرطة هناك مع سيّارة إسعاف، وهدوء غريب يعمّ المكان.

دخلت العمارة متلهّفا، لأجد «بلانكا مالكامو» في ثياب النّوم، تتشاجر مع ضابط شرطة، وما إن رأتني حتّى أشارت لي بإصبعها، كأنّها تتّهمني بشيء لا أعرفه، لم أستوعب ما يحدث، ماذا تفعل هذه اللّعوب هنا؟، ولماذا تريني للضّابط بالبنان؟، ثمّ أين «أتارا»؟.

كان أبي هو من استدعى الشّرطة إلى مكان الواقعة، فمن المنطقيّ أن يتدخّل القانون لفضّ أيّ نزاع، غير أنّ القضيّة كلّها في الأصل مكيدة، من تدبير «دانيال»، بخطّة تتلخّص في استدراجي ليلاً لمنزلها، متصنّعة شجاراً بين والدي «أتارا»، ومقلّدة صوتها حتّى تضمن حضوري بسرعة البرق، لكنّ استدعاء الشّرطة أفسد عليها لعبتها، وفي التّحقيق المعمّق انكشفت كلّ ألاعيبها، فقد جهّزت كاميرا لتصوير لقائنا، ومن ثمّة ابتزازي لأبتعد عن «أتارا» نهائيّا، فيخلو الجوّ لكذّاب الثّانويّة.

خطّة جهنّميّة محبوكة بدقّة شديدة، وبلمسات خبير في ضربات ما تحت الحزام.

وجدت أبي في مركز الشّرطة في تلك الليلة حين ذهبنا جميعاً للتّحقيق، كان يتحدّث مع صديقه هناك حول الحادثة، في حين لم تعلم «أتارا» بالأمر إلاّ في صباح اليوم التّالي، حيث انتشر بين الطّلبة والأساتذة، وأنكر «دانيال أدموني» كلّ ما قالته «بلانكا»، جملة وتفصيلا، حيث أدلت باعترافات خطيرة ضدّه.

لقد عرض عليها مبلغ خمسمائة شيكل نقداً كي توقع بي.

ومن خسّته، زعم أنّه لا يعرفها، بل لم يرها مطلقاً في حياته، والقضيّة كلّها لا تعدو كونها أكاذيب تنسج حوله، بدافع الغيرة والحسد، وهو الطّالب الخلوق، المتديّن الذي لا يترع «الكيبا» مطلقاً، العاكف على قراءة التّوراة ليل نهار، المترشّح لمجالس الطّلبة إنطلاقا من حرصه الدّؤوب على مصالحهم.

يعرف كلّ من في الثّانويّة أنّ والدا «أتارا» مطلّقين، وأنّ الحضانة من نصيب أمّها السيّدة «ليزا»، حكماً نهائيّا من المحكمة، منذ أن كانت رضيعة، لكنّ «أدموني» الميكيافيلّي استغلّ ذلك استغلالاً قذراً للإيقاع بي.

بكت «أتارا» بكاء استمرّ لساعات طوال حتّى انتفخت عيناها، لقد أحسّت بالإهانة، وأحسست مقابلها بالعجز عن فعل أيّ شيء، ثمّ قالت في لحظة غضب أنّ «بلانكا» تبحث عمّن يجرّها من شعرها المجعّد على طول الشّارع، كي تحترم أملاك الآخرين.

أوّل مرّة أراها غاضبة، وأوّل مرّة أعرف أنّي أصبحت من أملاكها، في حين رفعت أمّها قضيّة لاستعادة كرامة ابنتها المهدورة، ونالت حكماً فيما بعد، بتعويض ماديّ كبير، فيما خرج «أدموني» بريئاً، لأنّه لم يترك خلفه ولو دليلاً واحداً يدينه قانونيّا.

أمّا «ياعيل» فاعتبرتني سعيد الحظّ، فكلّ فتيات الثّانويّة سيركضن خلفي من الآن فصاعدا.

يبدو أنّ المسألة التي سبّبت لي إزعاجا حقيقيّا كانت في صالحي دون أن أشعر، فقد أصبحت أمّ «أتارا» تحبّني كثيرا، حتّى أنّها أصبحت تعتبرني ابنها الذي لم تلده.

غادرت «بلانكا» «أوفاكيم» نهائيّا بعد هذه الفضيحة، فقد اكتشفت متأخّرة أنّها كانت خرقاء بشكل لا يُصدّق، استُغلّت بذكاء شديد وببراعة نادرة من كذّاب الثّانويّة، الذي ازداد غيظه لمّا رأى قصر حبل كذبه، فقال بعنجهيّة على مسمع من زملائه وزميلاته:

– من يظنّ نفسه التّعس؟، «شارلوك هولمز»؟؛ يذهب ليلاً لمسرح الجريمة ليحقّق بنفسه؟، أيّ استهتار بالقانون هذا الذي وصلنا إليه في هذا القرن؟، يجب أن يعلم أخي «تشاتشا» بكلّ شيء، كي يضع حدّا نهائيّا لهذه المهزلة، وأنا متأكّد من أنّه –بغريزته– لن يدّخر جهدا في بذل كلّ ما من شأنه توطيد جسور ثقة عالية المتانة، لإحلال الهدوء والطّمأنينة في مدينتنا، بل يجب أن يعلم الجميع ويتأكّد، أنّ أمن المواطنين في إسرائيل كافّة، أصبح الآن بالذات؛ مسألة أخلاقيّة، أكثر منها استراتيجيّة؛ تستلزم تدخّل «الشّاباك».

(25)

تعلّمت الرّماية بصفة أساسيّة في وادي «أوفاكيم»، حيث تتواجد طبيعة ساحرة، بعد عشر دقائق فقط بالسّيّارة؛ وحيث يلتقي الماء الجاري بشقائق النّعمان، على بعد حوالي سبعة كيلومترات شرقاً من المدينة.

كنت صغيراً لا أتجاوز عشر سنوات من العمر، إلاّ أنّه أصرّ أمام أمّي على أن يعلّمني استعمال المسدّس، فكنت أطلق النّار، وهو سندي، عندما يهتز السّلاح في يدي كلّ اهتزاز.

ومرّت السّنوات، واستمرّ أبي في تعليمي، وواظبت على الذّهاب هناك مع «غابي» بسيّارته، التي يسابق بها الرّيح، يقول أنّ ذلك يساعده على حرق السّكر الموجود في دمه، فلا يحتاج للأنسولين كثيرا.

لم أجد المسألة منطقيّة، لكنّه يقول أنّها تساعده، وهو أعلم بمصلحته منّي.

كان الجوّ ربيعيّا حين نظر «غابي» نحو «غزّة» مطيلا النّظر، ولّما سألته تهرّب من الإجابة، شهر كامل وهو على هذه الحالة، ثمّ حين ألححت عليه قال إنّ لديه إحساساً فظيعاً من جهتي، وأشار إلي أن أركب في السّيّارة كي نعود، ثمّ لمحت ما يشبه الدّموع الخفيفة في عينيه.

على غير عادته كان صامتاً في السّيّارة، و لم يأكل شيئا، رغم وجود ما حضّرته له أمّه ممّا لذّ وطاب، ثمّ رنّ هاتفه الموضوع أمامه فوق لوحة القيادة، كانت أمّي تسألني إن كنت سأعود للمترل للغداء، أم سنتناول أكلاً خفيفاً في الخارج، فقلت إنّي سأعود وسأحضر معي «غابي»، فردّت على الفور أنّ الأكل يكفي الجميع، وضحكت، فنظرت إليه أقيس ردّ فعله، إلاّ أنه بقي صامتاً محافظاً على تركيزه في السّياقة.

– «دافيد» ما رأيك في وضعنا الحالي؟، هل أنت مرتاح هنا في إسرائيل؟.

– طبعا، الوضع هادئ منذ فترة طويلة، إلاّ من بعض الصّواريخ التي تعكّر مزاجنا من حين لآخر.

– لا أعتقد أن يستمرّ هذا الهدوء طويلا، هذا السّياج لن يحمينا، رغم ما صُرف عليه من أموال باهظة، هل تصدّق؟، أكثر من أربعمائة مليار شيكل حسب تصريح وزير الدّفاع العام الماضي فقط.

– جدار فاصل بيننا سيمنع تسلّلهم.

– ما هذه الأفكار الغريبة؟، هل نعيش في العصور الوسطى؟، جدار يردع العدوّ عن مهاجمتنا؟، أتعلم؟، «حماس» تطوّر قدراتها القتالية يوما بعد يوم، والحكومة لا تريد أن تواجه ما يهدّدنا؛ إذن أفضل حلّ في منطقتها هو سياسة إغماض الأعين، ويساعدهم الجدار، لأنّه عالٍ جدّا يحجب ما خلفه.

وراح يضرب المقود بيديه، بدأ غضبه يتصاعد، وشرع يحلّل الوضع في «غزّة»، مستعرضاً ما هم فيه من فقر وبؤس، ومؤكّداً على أنّ الوضع سينفجر في يوم من الأيّام، وأنّهم يجهّزون لنا شيئاً، لكن لا أحد يعرف ما هو بالتّحديد:

– هذا الجدار الذي يبلغ طوله خمس وستّين كيلومترا، وارتفاعه ستّة أمتار، المجهّز بكاميرات دقيقة وأجهزة استشعار، هو في الحقيقة لعبة أطفال، وسحابة صيف، لا يجب أن ننتظر منها أيّ مطر.

– هل تعني أنّه لو لم يكن أصلا؟.

– هل تعرف لماذا أقاموا الجدار؟، سأخبرك «دافيد»، المسألة كلّها تتلخّص في أنّهم لديهم مشاكلهم ولدينا مشاكلنا، معاناتنا تكفي، لا نريد سماع أيّ شيء عنهم، إذن نبني جدارا يفصل بيننا وبينهم وانتهى الأمر، هذا هو ما أسمّيه «تفكير نعامة».

ثمّ ذكر أنّ إحدى قريباته التي تعمل في حراسة السّياج، بدأت تلاحظ منذ فترة قاربت الشّهر، تدريبات غريبة تجري على قدم وساق في القطاع، وحين أبلغت عن ذلك في تقاريرها التي رفعتها للضّابط المسؤول، تمّ توبيخها، بل اعتبروها تهذي وتهلوس، بل تزعج القيادة بشيء لن يحصل مطلقا، وأنّ كتائب «حماس» ليست لها القدرة، ولا حتّى الفكرة في مهاجمتنا، إنّه سلوك روتينيّ لأيّ فصيل مسلّح في العالم، هل جنّوا ليهاجموا إسرائيل؟، سنمحوهم من على الخارطة بممحاة أطفال.

ومنذ ذلك اليوم، ونحن نعيش في وهم ينمو مثلما تنمو القطط.

– «روني آشل» تقول إنّها قلقة جدّا من هجوم وشيك، ولا أحد يصدّقها، يلقّبونها بالببّغاء، يقولون عنها أنّها تردّد كلاماً لا تعي معناه، لكنّي أصدّقها «دافيد»، أصدّقها لأنّها تعرف أشياء لا نعرفها نحن، لا نعرفها أنا وأنت وأولئك الحثالة، الزّمرة الجالسة في «تلّ أبيب».

وأخرج الأنسولين ليحقن نفسه.

في منزلنا أمام أمّي نسي كلّ شيء، وراح يأكل بنهم، كأنّه لم يأكل منذ أشهر، هذا هو «غابي» الذي ينفعل، مثيرا بركاناً من العواطف، ثمّ لمّا يهدأ، ينسى كلّ ما سبق، فطن وصريح ولوذعيّ، أبيض قلبه مثل أرض اللّبن والعسل أرض الميعاد، يحبّ أمّه أكثر من أبيه، يقول عنها أنّها تتفهّمه، بينما والده منشغل دائما في بناء المستوطنات، وفي النّهاية كاد يفقد صوابه حين توقّف كلّ شيء بسبب فيروس «كورونا»، ورفضت الحكومة منحه تعويضاً مناسباً، رغم شبكة علاقاته الواسعة، وحتّى الذين ساعدوه في الحصول على عقود من الحكومة لشركته الخاصّة، لبناء مستوطنات في «يهودا» و«السّامرة»؛ أصبحوا يغلقون هواتفهم تهرّبا منه.

كونه ليس من الطّبقة التي تحتاج دعم الدّولة، أوشك على الإفلاس، وأصبح لا يتحمّل أيّ شخص يكون قربه، لقد فقد الثّقة في أقرب الناس إليه، بل وصل به الأمر إلى ضرب زوجته السّيّدة «هانا»، لأنّها رفضت الإنسحاب من العمل الصّحّيّ أثناء فترة الحجر، الذي عانينا منه ابتداء من 2020، وهدّد بتطليقها في هياج عصبيّ، لّما راحت تتّهمه بالإهمال والتّبذير في رحلاته التّافهة، ومغامراته الإقتصاديّة.

أيّام عصيبة مرّت على الجميع، حيث أُغلقت المدارس وسُرّح العمّال، وتوقّفت كافّة الأنشطة الإقتصاديّة والثّقافيّة والفنّيّة.

لم نقلق، فأبي كان معنا في تلك الأيّام، وراتبه سيبقى سارياً مهما حدث، أمّا السيّد «فريديريك» والد «غابي»، فقد ضاعفت همّه خشيته على زوجته من الفيروس الذي لا يرحم، باعتبارها متطوّعة في «نجمة داوود»، منظّمة الإنقاذ الوطنيّة لدولة إسرائيل للخدمات الطّبّيّة، تواجه الخطر من مسافة الصّفر، ربّة البيت المثاليّة، التي كلّ همّها الطّبخ وأشغال المترل، والإعتناء الجيّد بأسرتها.

في العشرين من مارس فقط، كانت الإصابات المؤكّدة في إسرائيل تقارب مائتي حالة، رقم مخيف إذا كان في متتالية هندسيّة، واعتبر أنّ مطلق الحقّ معه، ولن يسمح لأحد بمجادلته.

لقد إتّهمته بالأنانيّة، بينما يقول هو أنّه يفكّر فيما لو ماتت بهذا الوباء اللّعين، وحتّى الكمّامة التي تمّ فرضها على النّاس؛ تشبه السّترة المضادة للرّصاص، لا أحد يضمن فعاليّتها في كلّ الأحوال.

كنّا خائفين جدّا من هذا الفيروس الذي فتح على العالم أبواب جهنّم، لم نعرف له شبيها، فالإصابات بدأت ترتفع بالآلاف، والحكومة تتكتّم عن الحقائق، وحين تحكي أمّ «غابي» عمّا تراه في المستشفيات من مآسٍ ودموع؛ يتعاظم إحساسنا بنهاية العالم، من هول المفاجأة التي لم يكن أحد ينتظرها، لقد مات جدّا «غابي» لأبيه في موجة «أوميكرون»، في الثّامن عشر من جانفي 2022، رغم أخذهما اللّقاح الذي كادت أن تنشب حروب بين الدّول بسببه، هذا اللّقاح الذي أصبح يمنح تحت الطّاولة، وفي خضمّ مصالح سياسيّة بحتة، بعيداً كلّ البعد عن الهدف الأساسيّ الذي أُنتج من أجله.

لقد مات جدّاه معا كما عاشا معا، ودفنا في «ألمانيا»، دون أن يحضر جنازتهما أيّ شخص.

حتّى الموتى لا نستطيع عناقهم العناق الأخير، أو أخذ كلّ وقتنا في البكاء على فراشهم.

(26)

مرّت عطلتي المرضيّة، إستعدت خلالها عافيتي وعدت للتّدريبات، في الدّورة الثّانية، بعدما كنت قد أنهيت الدّورة الأولى «دورة البندقيّة» فيما مضى، ويُفترض بي بذل جهد إضافيّ، للّحاق بما كسبه الزّملاء من معارف ميدانيّة.

إختار الملازم «ديميتري» أن يخصّص هذا اليوم كلّه للصّيانة العامّة للدّبّابة، لكلّ الإختصاصات، من تفكيك الجنزير وإعادته لما كان عليه، وتفكيك الأسلحة وتنظيفها، من مدفع الهاون إلى الرّشّاشات، عناء كبير عشناه جميعا، بل ألغى فترة الغداء، معتبرا أنّنا في مهمّة قتاليّة يجب التّفرّغ لها، عندما استفزّه «رفائيل» بتذمّره وسوء فهمه:

- نفكّك الجنزير؟، أنحن في مصنع السّلاح؟.

على الطّاقم الآن الإنتهاء من كلّ شيء قبل السّاعة الخامسة مساء، وإلاّ سنضطرّ للمبيت هنا مع «الميركافا»، ثمّ اختفى، مبقيا على تواصله معنا فقط عبر اللاّسلكي.

يهدف هذا التّدريب الغريب، إلى التّحضير النّفسيّ لمعالجة مشكلة ما حدثت للدبّابة أثناء القتال، إصابتها مثلا، أي التّكيّف مع الواقع القتاليّ المفاجئ، غير المتحكّم فيه، يجب هنا التّناوب على الحراسة، بحيث يتكفّل كلّ واحد منّا لحراسة المكان ثلاث ساعات في يقظة تامّة، ثمّ يترك مكانه لآخر كان يفكّك أو ينظّف، وبهذا يرتاح الجميع بتداولهم على أعمال بعضهم البعض، واختار اثنان منّا يكونان على بعد خمسين مترا من الطّاقم، أحدهما يحرس الشّمال، والآخر يحرس الجنوب، مع التّركيز على الإنتباه الشّديد، لكلّ حركة أو رائحة تطرأ على المكان.

كانت فترة الحراسة الأولى فترة حراستي مع «رفائيل»، كنّا منتبهين جدّا كما أمرنا، وهو يتابعنا محترسا، كأنّنا في معركة حقيقيّة، يأمر هذا ويأمر ذاك وعينه على الأفق وفي السّماء، وسارت الأمور على أجود حال، ثمّ اختفى فجأة، فظننّا أنّه ذهب لقضاء حاجته، لم نكترث ما دام معه جهاز لاسلكيّ نتبادل به المعلومات، ثمّ نسيناه مع انهماكنا الشّديد في التّشحيم ورائحته المقرفة، وقبل أن تنتهي فترة الحراسة الثّانية لكلّ من «عزرا» و«شلومو»، سمعنا صوت إطلاق نار، ثمّ أُلقيت علينا قنبلة يدويّة، وثلاث قنابل دخانيّة، إرتبكنا وانبطح «عزرا»

شارعا في إطلاق النّار دون توقّف، أمّا «شلومو» فكان حريصاً على الذّخيرة، بينما تحصّنت مع «رفائيل» في الدّبّابة، في انتظار انضمامهما إلينا، وحاولنا مناداة «ديميتري» عبر اللاّسلكي، لكن لا مجيب.

إعتقدنا جميعاً أنّ مخرّبي «حماس» شنّوا علينا هجوماً مباغتا، وعليه اتّخذنا وضعيّة الدّفاع والرّصد، لكن لم يظهر أيّ عدوّ في المكان، ظنّ «عزرا» أنّ الملازم «ديميتري» قُتل، وعليه يجب التّصرّف بناء على ذلك، لكن كيف يتأتّى لنا التّصرّف ولا قائد معيّن على الدّبّابة؟، أنا مدفعيّ، و«عزرا» و«شلومو» في السّياقة، و«رفائيل» في تحميل القذائف، الطّاقم غير مكتمل، و«ديميتري» لا يجيب، أي أنّنا وجدنا أنفسنا معزولين أمام عدوّ مجهول يترصّدنا.

فقد «شلومو» أعصابه، وتشاجر مع «عزرا» شجاراً كاد يؤدّي إلى قتال بينهما، لولا تدخّل «رفائيل»، فقد أصرّ الأوّل على التّقدّم، لأنّ الوقوف معناه ثبات الدّبّابة، وبالتّالي سهولة استهدافها، بينما تساءل الثّاني عن الإتّجاه الآمن للمناورات، فمن غير المعقول أن يتحرّك دون اتّجاه واضح، هذا يعطي انطباعاً للعدوّ أنّنا في حالة ارتباك، ويكفي صاروخين موجّهين مضادّين للدّروع لتمزيقنا، أو قذيفة «القسّام» التي أصبحت سلاحهم الفتّاك، وبقيت أنا ألتفّ بالبرج أبحث عن أيّة حركة.

تسارع نبضي وجفّ حلقي، ثمّ بدأت مخاوف ظهور مخرّبي «حماس» وقذيفتهم المشؤومة تسيطر على عقلي، في ضغط عصبيّ استمرّ لحوالي نصف ساعة، غير أنّ شعاعا رفيعا من الطّمأنينة بدأ يسري في أنفسنا شيئا فشيئا، فقد انتبه «رفائيل» لطول المدّة ونحن على تلك الحالة، ولو كان العدوّ يريد القضاء علينا لفعل منذ الدّقائق الأولى.

هذا... إن كان هناك فعلا عدوّ.

ثمّ ظهر «ديميتري» أخيراً كأنّه خرج من تحت الأرض، ظهر ليقول لنا أنّنا سنقتل لو كنّا في معركة حقيقيّة، فالقنبلة اليدويّة التي كانت صوتيّة فقط، كانت كافية لإشعال توتّرنا وهواجسنا، مع القنابل الدّخانية التي أطلقها علينا، فأصبح المكان يعجّ بالفوضى والقرارات الإرتجاليّة، لأنّنا لم نعيّن قائداً لنا يأخذ على عاتقه مسؤوليّة الضّبط والتّسيير، ثمّ من المفروض أن أتولّى أنا مهنة القائد، لأنّ المدفعيّ هو الشّخص الثّاني بعد قائد الدّبّابة.

أمّا الخطأ الثّاني فهو إهمالنا جنديّا، خاصّة وأنّ الإتّصال البصريّ كان معدوما معه، وسيلتنا الوحيدة هي جهاز اللاّسلكي، وهو في هذه الحالة الملازم «ديميتري»، بل أنّنا لا نعرف بالضّبط متى فقدنا الإتّصال به.

كان درساً قاسياً جدّا، من بنات أفكار الملازم «ديميتري»، لقد تعرّضنا لموقف لا نُحسد عليه، عهدناه صارما لا يرحم في التّدريب، يكره المتقاعسين، مبدع وفريد في تفكيره، يتجاوز التّعليم عنده كلّ قواعد العقل والتّقاليد المتعارف عليها، وحين يريد أن يضعك أمام الأمر الواقع؛ فإنّك ستكون أنت الواقع الذي يرسمه هو لك، دون شعور منك.

– تذكّروا دائما، الحرب ليست لعبة أطفال، لقد عرفت المعارك قبلكم.

في المساء ارتمينا على أسرّتنا وقد خارت قوانا تماما، الجسديّة والنّفسيّة، وبينما أنا في حيرة من أمري، أداعب قنّينة مشروب الطّاقة بأصابعي، لا أعرف ماذا أفعل بها أمام نصيحة الطّبيبة، لم أشعر إلاّ برائحته الزّكيّة أمام سريري، يهزّني هامسا لي وهو ينظر إلى الباقين، الذين كانوا يغطّون في نوم عميق:

– «دافيد» «دافيد» إستيقظ أرجوك.

– أنا مستيقظ، ما الأمر؟.

– إحتفظ بهذه الوثائق، يجب أن تخفيها في مكان آمن خارج القاعدة العسكريّة، سلّمها لي لاحقا حين أطلبها، لا أستطيع الخروج من القاعدة لأنّي مراقب، عدني ألاّ تطّلع عليها، فهي سريّة لأقصى حدّ.

وخرج مسرعا وهو ينظر يمينا وشمالا مخافة أن يراه أحد، كانت حافظة بلاستيكيّة سوداء، عمّني اعتقاد قويّ أنّها أوراق شخصيّة تخصّ تهريبه من «السّودان»، أو الفتاة التي تركها خلفه، فلم أهتمّ لها، ووضعتها في خزانتي بين أغراضي الشّخصيّة، حين نهضت في الصّباح.

كان يفصلنا عن نهاية الأسبوع يومان فقط، لمّا وجدت نفسي أمام مفاجأة ذات نكهة مميّزة، مفاجأة بطعم خاصّ، زيارة عائليّة هنا لي في «شيزافون»، «غابي» وأمّه ومعهما «أتارا» و«ياعيل»، في حين غابت أمّي لأنّهم احتاجوها في مستشفى «سوروكا».

سألت «ياعيل» عن أحوال أبي، فأجابت أنّها لا تدري، ثمّ وجدت نفسي أعانق الجميع وأبكي، وأنا الذي ذبت شوقاً لمدينتي الرّائعة «أوفاكيم» ومن فيها، وجدت نفسي أريد تقبيل كلّ شيء، مكتبتها التي رأيت فيها «أتارا» لأوّل مرّة، وحديقتها العامّة، وشوارعها وأبنيتها وتراب المدينة، كلّ ذلك كان سببا وجيها لتنبيه غددنا الدّمعيّة، في لقاء له من الذّكريات أكثر ممّا له من الأماني المستقبليّة.

إتّفق الجميع على أنّي فقدت بعض الكيلوغرامات من وزني، بالطّبع بسبب المجهود العضليّ الكبير الذي استترفني طيلة الأشهر الماضية، وازداد لوني سمرة بسبب وهج الشّمس الحارق هنا، ثمّ عاودت السّؤال عن أبي في فضول بالغ، أكثر من السّابق، وحاولت «ياعيل» التّهرّب، كما فعلت طيلة الدّقائق الماضية، غير أنّي هذه المرّة عرفت كيف أجعلها تلقي بكلّ ما في جعبتها من معلومات.

– سيبقى رهين كرسيّ متحرّك، لقد تهتّك نخاعه الشّوكيّ، هكذا تقول أوراق ملفّه الطّبيّ، رغم كلّ ما فعله السيّد «ريكاردو» له من تدخّلات عالية المستوى في الوزارة.

– نعم، مثلما توقّعت، حالته طالت أكثر من اللاّزم، وهو التّفسير المنطقيّ لمماطلات الأطبّاء.

وهنا تذكّرت أوراق «بابلو» التي يجب أن تكون خارج القاعدة، أخبرتهم أن ينتظروني ريثما أعود سريعا، وذهبت للغرفة لإحضارها، فرصة ذهبيّة لن تتكرّر، فأنا هنا لا أستطيع المغادرة بسبب الحرب، رغم أنّهم سمحوا لآلاف المجنّدين والمجنّدات بزيارة أهاليهم، كلام معسول للإستهلاك الإعلاميّ، لا أدنى من ذلك ولا أكثر.

وحانت ساعة الرّحيل، سريعة بالسّرعة التي قدمت بها، وتمنّيت لو مكثوا أكثر، أوصيت «غابي» و«أتارا» مجدّدا أن يحتفظا بالحافظة السّوداء التي استأمنني عليها «بابلو»، لأنّ فيها مستقبله، ومستقبل حبيبته «مارغاريتّا»، فأقسما على ذلك، عانقت الجميع مودّعا، واخترت أن أنظر طويلا لملاكي الطّاهر، أريد أن ألتقط آخر صورة حيّة لها، أرسّخها عميقا في عقلي الباطن.

في تلك اللّيلة وبالضّبط حين كانت السّاعة قد تجاوزت التّاسعة مساء بقليل، دخل لغرفتنا ضابط من جهاز الأمن العسكري «أمان»، مع خمسة عناصر شرعوا في تفتيش أسرّتنا ومحتويات الخزانة الحديديّة، فيما راح الضّابط يستجوبنا حول أشياء لم أجد أيّ رابط منطقيّ بينها، ذخيرة حربيّة، مسدّسات، سجائر، حزم أوراق بيضاء معدّة للطّباعة، هواتف ذكيّة، بطاريّات شحن، ثمّ خرج الجميع، وتركونا مذهولين نتساءل عن سبب هذه الزّيارة غير المرغوب فيها.

«رفائيل» هو الوحيد الذي كان متأكّدا أنّها وشاية حقيرة كصاحبها «آيزنكوف»، وحانت نظرة نحوي من «شلومو»، الذي أكّد بها دون أن ينطق ما قاله لي سابقاً حول ضرورة توخّي الحذر من هذا الشّيطان، في حين اعتبر «عزرا» أنّ حبّه مهدّد بهذه الزّيارات، وأنّه يجب أن يتّخذ مزيداً من الإحتياطات الأمنيّة حول هاتفه الذكيّ، الذي كان قد أخفاه في دورة المياه، بطريقة اعتبرها مستعصاة عن العفاريت.

قبل شروق شمس الغد، كانت نظرات «بابلو» تشي أنّ هناك شيئاً خطيراً قادما في الأفق.

كنّا نتناول فطور الصّباح، نظر إليّ نظرات كلّها استفسار عن الأوراق التي طلب منّي إخراجها من القاعدة في أقرب وقت، هززت رأسي أطمئنه فتنفّس الصّعداء، وراح يكمل عمله بنشاط وهمّة، ثمّ فجأة لمحت «آيزنكوف» ينظر إلينا، وهو الذي لم أره منذ حادثة النّادي.

(27)

– «كتائب القسّام» عدوّ خطير، لا يرحمون من يقع في أياديهم.

هذا تماما ما قاله «رفائيل»، لّما بدأت أنباء الحرب في «غزّة» تنتشر في كلّ وسائل الإعلام، وأصبحت حديث العامّ والخاصّ، وأخبار الموت تصل تباعاً للقاعدة، رغم تعتيم إعلامنا الرّسميّ، ورغم المراقبة الدّائمة للأمن العسكريّ، يقولون أنّ انتشار هذه الأخبار يساهم في انهيار معنويات الجيش، ويثير القلائل في صفوف القوّات المقاتلة.

– عائلتك في مكان آمن ومحميّ، على أيّ شيء تقلق؟.

هذا ما أظهرته نبرة صوت «شلومو زوسمان» متفائلا، في إشارة ضمنيّة لعائلة «رفائيل»، التي تعيش الآن في فندق في «طبريّا»، بمنأى عن كلّ مكروه، ثمّ راح يقارن بين نوع القتال السّائد هناك ونوع القتال الذي نتعلّمه هنا.

لقد تدرّبنا على القتال في بيئة عدائيّة، ولا نعرف شيئا عن قتال الشّوارع، حيث يختفي العدوّ وراء الجدار، ويتمترس داخل العمارة، وبين السّيّارات المتوقّفة، فكيف السّبيل إليه، ولا سيما إذا اتّخذ بعض الرّهائن دروعاً بشريّة؟.

المسألة معقّدة هناك لدرجة يصعب تصوّرها، ثمّ كيف تتحرّك الدّبّابة داخل محيط عمرانيّ ضيّق؟، ستصبح فريسة سهلة للإصطياد، هنا الرّمل والتّربة والغبار، ولا شيء غير الفراغ، لا وجه للمقارنة أصلا.

– سيأتي دور «حيفا»، حرب «غزّة» بداية اللّعبة فقط.

كان هذا «عزرا» وهو يتمدّد للنّوم، قبل أن نسمع شخيره بدقيقة أو اثنتين على غير عادته.

– على ما يبدو أنّه تشاجر مع خطيبته، وإلاّ لكان الآن يتحدّث إليها، أو أنّه اتخذ احتياطاته منذ حادثة تفتيش عناصر «أمان» لغرفتنا.

قلت هذا في نفسي واستدرت لأنام على الجهة اليسرى، لأريح كتفي الذي بدأ يؤلمني منذ الظهيرة.

لم أشعر بأيّ أحد دخل غرفتنا، حتّى هزّ شخص كتفي، وأشار لي ألاّ أثير أيّ ضجيج، فقط أتبعه في صمت للخارج، كان يبدو قلقاً على غير عادته، فقد تركته البارحة جذلان فرحا، لا يعكّر مزاجه شيء.

– إسمعني جيّدا «دافيد»، سأسلّم شحنة تمر بالسيّارة في قلعة «بطيش»، ثمّ أعود، لقد أخبروني أنّها تقع أمام «أوفاكيم»، المدينة التي تقطن أنت فيها، هل ترافقني؟.

– هل هي فكرة جيّدة؟، لا أستطيع مغادرة القاعدة دون إذن كما تعلم، كيف سأخرج كيف سأدخل؟، نحن في حالة حرب، لا تساهل في ذلك إطلاقا.

– لن يكتشف أحد الأمر، سننطلق فجر يوم الجمعة ونعود قبل غروب الشّمس، سيكون أصدقائي في الحراسة يومي الجمعة والسّبت، وسنمرّ دون طلب استفسارات، أرجوك «دافيد» وافق؛ لا أعرف شخصا آخر يمكنه مساعدتي غيرك، أنت وحدك «دافيد»، أنت وحدك من يستطيع مدّ يد العون لي.

تردّدت قليلا ثمّ قلت:

– لا بأس، موافق، لكن هناك شيء غير منطقيّ، من المسلّم به أن تأتي بالتّمر إلى هنا، وليس أن تذهب به بعيداً عن المطعم؟.

غادر بسرعة بعد أن أعطاني زجاجة عطر فاخر من النّوع الذي دأب على شرائه، «أرماف كلوب»، مشيراً لي أنّه سيفهمني كلّ شيء غدا لّما أذهب معه، مؤكّدا الموعد، الخامسة فجراً، ومشيراً إلى مكان يبعد عنّا حوالي ثمانمائة متر.

وكنت هناك تماما في المكان والزّمان، أحمل حقيبة ظهر وضعت فيها ملابسي المدنيّة، حين أتى «بابلو» بسيّارة «رونو ماستر»، المرقّمة لعام 2022، رماديّة اللّون.

صعدت معه، وخرجنا بشكل عاديّ من القاعدة، لا أحد سألنا، ولا أحد أوقفنا، ولا أحد فتّش السّيّارة، وتخيّلت أنّنا من القيادات ذوي الرّتب العالية، ندخل ونخرج متى ما أردنا.

في الطّريق شرح لي كلّ شيء وأنا أستمع فقط، دون أن أتكلّم أو أسأل.

أيقنت الآن سبب وضعه معنا في سلاح المدرّعات، ثمّ سبب نقله للمطعم.

ليستغلّوا جهله في تسيير مصالحهم، هذه هي خلاصة ما وصلت إليه، وطافت بذهني عبارة «شلومو» التي دأب على تكرارها، «إن كان ولا بدّ؛ فيجب التّضحية بأحدهم»، وزدت اقتناعاً أنّ هناك أشياء تجري في الخفاء، نعم في الخفاء لا يعلم بها النّاس، هنا في إسرائيل أرض اللّبن والعسل، وأنّ «شلومو» يعرف الكثير والكثير.

صلب القصّة أن هناك من وعده بتهريب «مارغاريتا» من السّودان، مقابل خدمة بسيطة يسديها، وهي تكفّله بنقل سيّارة محمّلة بالتّمر لقلعة «بطيش»، حيث سيتسلّمها شخص يكون في انتظاره، يفرغ السّيّارة من حمولتها، ثمّ يرجعها له فارغة ليعود بها للقاعدة، هذا هو الملخّص، أو بالأحرى ما يظهر من القصّة.

حاولت أن أفهمه أنّ هذا تصرّف غريب يشي بشيء غير قانونيّ، من المؤكّد أنّ شيئاً ما تحت الحمولة، فصرّح أنه يعلم أنّ تحت التّمر أسلحة وذخائر مهرّبة، وأنّه في وضعيّة لا تسمح له بالإختيار، ثمّ سكت برهة وقال في نبرة إحباط:

– هذه هي الفرصة الوحيدة التي لن تتكرّر لتهريب «مارغاريتا» من «السّودان»، إمّا أن أقبل ويأتون بها إلى هنا، أو تبقى هناك لتُقتل في خضمّ المعارك والإشتباكات، ستندلع مواجهات جديدة بين قوات «الدّعم السّريع» والحكومة.

– كيف عرفت؟.

– أوووه «دافيد».

ثمّ تغيّرت نبرته إلى نبرة الواثق من نفسه، فغمز بعينه اليمنى قائلا:

– لا تخف، لست غبيّا كما يعتقدون، لديّ الحافظة السّوداء.

– حافظة الأوراق السّوداء؟، إعتقدت أنّها أوراق تخصّك أو تخصّ فتاتك، هذا هو الإنطباع الذي أخذته عنها ما دمت لم أفتحها حسب رغبتك.

– أثق فيك «دافيد»، لذلك أعطيتك الحافظة لتخرجها من القاعدة في أقرب وقت، وبسببها أتوا لتفتيش غرفتكم؟، لمن أعطيتها؟.

– لصديق مقرّب عزيز لا تعرفه، جاري...

كدت أذكر اسم «غابي»، لولا فرملة مفاجئة جعلت رأسي يكاد يصطدم بسببها بالزّجاج الأماميّ، لقد اجتاز الطّريق أمامنا شيء قدّر «بابلو» أنّه حيوان صحراويّ، مرّ مسرعاً جدّا إلى النّاحية اليمنى.

ثمّ تلقّى اتّصالا من أحد أصدقائه، أشغله قرابة نصف ساعة، فنُسي الموضوع، لكنّني تذكّرت –وهو في قمّة انشغاله بالمكالمة– عمّا كان الضّابط يسأل عنه، تذكّرت كلّ الجمل والعبارات التي لم أجد الرّابط المنطقيّ بينها، ذخيرة حربيّة، مسدّسات، سجائر، حزم أوراق بيضاء معدّة للطباعة، هواتف ذكيّة، بطاريّات شحن.

وأكمل «بابلو» حكايته بعدها، ويا ليته ما أكمل، يا ليته بقي ساكتا وبقيت أنا في اعتقادي السّابق الذي يبقيني في منطقة راحتي.

ما شأني وشأن الفواتير الأصليّة للإستهلاك السّنوي للذّخيرة؟.

ما شأني أنا وشأن تهريب السّلاح داخل وخارج إسرائيل؟.

الأوراق الآن مع «غابي»، وأخبرته أنّها تخصّ صديقي، وربما دفعه الفضول للإطّلاع عليها، وقال –عن سوء فهم– أنّي كذبت عليه متعمّدا، وربما كانت القائلة «أتارا»، التي أحرص أن أبقى نقيّا طاهراً أمامها نقاء الألماس.

ما كان ليُفتضح شيء لو لم يطلب أحد الضبّاط في الشّرطة العسكريّة ممّن عُيّنوا حديثا رشوة ضخمة جدّا مبالغا فيها، ليغمض عينيه عن الشّحنة، فرصة أتته على طبق من ذهب، كي يجني أموالاً بسرعة البرق، خارج مرتّبه في رمشة عين، هذا التّصرّف لم يكن متوقعاً لدى العصابة التي خطّطت وتخطّط لعمليّات التّهريب منذ سنوات خلت، ممّا أدى إلى تقلّص الأرباح، فكان الحلّ الذي رأوه مناسباً هو سحب الفواتير التي وضعوها كأصليّة، وتعويضها بأخرى، أو لنقل ما نعتبرها فواتير أصليّة، التي استطاع «بابلو» سرقتها من مكتب أحد الضّباط، ليؤمّن نفسه من اتّخاذه كبش فداء، حين يجب أن يقدّموا قربانا للعدالة، حين يجب أن يضعوا شخصا في فوهة المدفع، والفارق يتقاسمه الضّبّاط المشتركون في التّهريب، بعد بيع الذّخيرة في السّوق الموازية.

صُعقت للأمر، كيف يحدث هذا في إسرائيل؟، وعلى يد ضبّاطها؟.

وتذكّرت المثل الذي يردّده جارنا الطّيّب السّيّد «ريكاردو»؛ «حاميها حراميها».

الآن... هم يبحثون عمّن اختلس منهم الفواتير، طبعاً دون إثارة شكوك هم في غنى عنها، يفتّشون في أيّة منطقة يظنّون مجرّد الظّنّ أنّها هناك، ويموّهون عمليّة التّفتيش، كي تبدو لغرض الكشف عن المخدّرات أو فيديوهات مخرّبي «حماس»، التي انتشرت بكثرة بين المجنّدين والمجنّدات، بدعوى أنها تؤثر على الرّوح المعنويّة للجيش.

إنّهم يعرفون كيف يستغلّون الأوضاع جيّدا.

– وصل التّهريب منذ سنوات لذخيرة الدّبّابات، ومن يدفع أكثر يتسلّم الشّحنة، السّلاح لا يبور مطلقاً ولا يكسد، ثمّ من هذا الذي يستطيع اكتشاف الكميّة الحقيقيّة لاستهلاك كلّ أنواع الذّخيرة في قاعدة واسعة رحبة مثل «شيزافون»؟، أرباح طائلة «دافيد»، أرباح بملايين الشّواكل كلّها تهرّب إلى بنوك «سويسرا»، ويطعموننا نحن شعارات زائفة، «أرض اللّبن والعسل»، «إسرائيل لا تُهزم»، «نحن هزمنا ستّة جيوش عربيّة».

كلّما يتكلّم تزداد صعقتي، ويزداد اقتناعي أنّ «شلومو» يعرف الكثير والكثير والكثير.

كنت قد ارتديت في الطّريق سروال جينز مائل للسّواد، وقميصا رماديّا مع سترة بنيّة، وحين أوشكنا على الوصول، خفّض «بابلو» السّرعة طالبا منّي أن ألقي بنفسي من السّيّارة، حين يعطيني الإشارة في اللّحظة المناسبة، فربما كان هناك شخص يراقبنا من بعيد، والتّعليمات الموجّهة إليه صريحة صارمة واضحة، «إذهب وحدك»، ثمّ نلتقي بعد تسليم الشّحنة بعد ساعة فقط.

وألقيت نفسي من السّيّارة في منعطف حادّ، بعدما أبقيت له مشروب طاقة أردت التخلّص منه بعد تحذيرات طبيبة العيادة، ثمّ تذكّرت أنّ ساعة واحدة لا تكفي لزيارة العائلة، و«غابي» و«أتارا» والسيّد «ريكاردو»، وباقي معارفي، لذلك اختبأت في الجوار أراقب ما سيحدث.

تبعد قلعة «بطيش» عن «أوفاكيم» بحوالي كيلومترين فقط إلى الشّرق، مزار سياحيّ بامتياز، أو هكذا أصنّفه، لما لهذه القلعة من هيبة في نفسي، تقع على ربوة تشرف على منطقة مفتوحة واسعة، مكان هادئ لم تلوّثه أيادي الحضارة، وعادة ما ينظّمون هنا حفلات موسيقيّة ليليّة، ومعارض فنيّة، كي يعطوا للمكان بعداً

ثقافيّا، كنت آتي هنا مع «غابي» أحيانا حين يلحّ عليّ للتّخفيف عن أنفسنا، ثمّ نتزل لمغارة تقع تحت القلعة على بعد حوالي خمسين مترا عنها.

ما إن وصل «بابلو» بدقيقة فقط، حتّى خرج شخص من القلعة، يرتدي نظارة سوداء وسترة بنية اللّون، أخذ منه المفاتيح، وأشار له بالإنتظار هنا ثمّ ابتعد بسرعة بالسّيّارة.

بعد أقلّ من ساعة، كانت جاهزة للعودة.

لم أستطع الإقتراب من «بابلو» فقد حرص الشّخص الذي استلم السّيّارة على البقاء قربه، كي يتأكّد من مغادرته، معنى هذا أن لا وجود لأيّة مراقبة أخرى، وفعلا تأكّدت من ذلك لمّا اختبأت في الجوار.

جريت بأقصى سرعتي من مكان لآخر، لألحق به دون أن يتفطّن الشّخص الذي أرجع له السّيّارة، ثمّ أشرت له من بعيد أن إذهب، حين بدأ صاحب النّظارة السّوداء يتحرّك بدوره، وهو حريص على متابعة «بابلو»؛ الذي فهم إشارتي، بينما توجّهت أنا لزيارة عائلتي.

كنت أفكّر في زيارة أبي في مستشفى «سوروكا»، وأعود مع «غابي»، مستغلاّ وجود أصدقاء «بابلو» في الحراسة يوم السّبت، يوم العطلة المقدّس لدينا نحن اليهود، حيث تكون الحركة من وإلى القاعدة شبه معدومة.

(28)

– لقد سافر للقمر بمركبته الفضائيّة.

هذا ما قالته لي أمّ «غابي» ضاحكة حين ذهبت إليه لأستلم الحافظة السّوداء، داعيا الرّبّ أن أجده في المرآب، ثمّ عادت لجديّتها:

– يتجوّل بسيّارته التي غيّر مجدّدا محرّكها، أين سيكون؟، من الأفضل الإتّصال به لتحديد مكانه بدقّة.

بيد أني تذكّرت نصيحة «بابلو» بتجنّب التّحدّث بالهاتف مهما كانت الأحوال، لأنّ هناك احتمالاً كبيراً أن يكون مراقبا، فتركت له خبرا عندها أن يأتي إليّ على عجل، في بيتنا أو في بيت «أتارا»، ملحّا عليها أن تعلمه بالأهمّيّة القصوى للموضوع، بحيث لا يحتمل التّأخير.

كانت أمّي في المطبخ منشغلة كعادتها حين قرعت جرس المدخل، لم تتوقّع أبدا زيارتي، فقد عانقتني بمريلة ملطّخة بالطّماطم، وظلّت متمسّكة بي، غير مصدّقة وجودي أمامها:

– «دافيد»، حبيبي، إيّاك أن تموت وتتركني وحيدة، لقد قتلوه وهو لم يتجاوز التّسع عشرة سنة من العمر، صديقك القديم «عيران علوني»، دفنّاه منذ أيّام.

وشهقت شهقة، وهي تحاول غرس أصابعها في ظهري، حتّى جاءت «ياعيل» من المدرسة.

أخبرتهما أنّي سأزور أبي الآن في المستشفى كي أعود غدا للقاعدة، سأذهب إلى «سوروكا» لأراه ويراني، وصدمتني إجابتها والدّموع في عينيها، مازجة بكاء الفرح ببكاء الحزن.

– سيبقى مشلولاً طول حياته، والأطبّاء يخفون عليه الأمر، كي لا يتأثّر نفسيّا، أنت تعرف تحسّسه للموضوع، الأمل في عمليّة العمود الفقريّ ضعيف جدّا لا يتجاوز خمس بالمائة، بسبب التّهتّك الشّديد الذي سبّبته الرّصاصة للنّخاع الشوكيّ.

أُسقِط في يدي، وأنا أرى الآن تضحيات أبي من أجل دولة إسرائيل تتحوّل إلى بخار.

أبي العسكريّ الشّجاع الذي أعطى سنوات شبابه لجيش الدّفاع، يخرج الآن أمام أعيننا من باب ضيّق، لا يسع تضحياته العظيمة.

أبي الذي كان «شارون» و«موشيه دايان» مثلاه الأعلى، سيقضي ما تبقّى من حياته على كرسيّ متحرّك، نضعه به كلّ يوم أمام الشّمس.

إستأذنت أمّي لزيارة «أتارا» وقلبي يكاد يتمزّق ألما على الحالة التي آلينا إليها، كنت متأكّداً أنّي سأجدها في المترل بعد انتهاء دوام الدّراسة، وشكرت الرّبّ أنّي وجدت معها أمّها السّيّدة «ليزا»، لأنّي كنت أنوي مناقشة موضوع «بابلو» وتهريب الذّخيرة، لا سيما وهي تعمل صحفيّة في جريدة «هآريتس»، ويهمّها كثيرا مثلما يهمّني إجراء تحقيق معمّق، تكشف فيه كلّ خفايا هذه اللّعبة القذرة.

لم تصدّق بداية أنّي أمامها، فقد اعتقدت أنّي ما زلت هناك في قاعدة «شيزافون»، وعليها الإنتظار حتّى انتهاء الدّورة الثّانية ليمنحوني إجازة طويلة، بدا لي لوهلة أنّي تعرّفت على «أتارا» في أوقات صعبة جدّا، وما حدث فجأة، خلط كلّ الحسابات والتّوقّعات، وأفسد الأحلام التي اقتسمناها سويّة.

– إنّها فضيحة جديدة تضاف للحكومة الإسرائيليّة، فوق فضيحة المروحيّة التي قصفت الهاربين من مهرجان «نوفا».

كان هذا أوّل ردّ فعل من السّيّدة «ليزا» قبل مناقشة الموضوع، بكلّ حيثيّاته وتفصيلاته، يبدو أنّها مثل «شلومو»، تعلم الكثير والكثير، بحكم موقعها؛ وتستطيع الوصول إلى معلومات خطيرة عن الوضع العامّ لإسرائيل، ثمّ طلبت رؤية المستندات، لدراستها وتقديمها أدلّة دامغة مع التّقرير، دون الإشارة الصّريحة لأيّ ممّن استطاعوا تهريب الوثائق، حفاظاً على سلامتهم، وخاصّة «بابلو»، الذي لولاه لما كشفنا ما يدور في الخفاء.

بعد أربع ساعات من النّقاش، وفتح أبواب جميع الإحتمالات الممكنة، وجدنا أنّ ما يعوقنا هو الوصول إلى «غابي» فقط، فالمستندات معه، وهو وحده من يملك القدرة على دفع العجلة للأمام.

أخبرتهم أنّي تركت له خبرا مع أمّه، ليلحق بمترلنا، أو يأتي إلينا هنا عاجلا، كما لا أستطيع الإتّصال به، حسبما حذّرني منه «بابلو» سابقا، وهنا حاولت «أتارا» الإتّصال به بدلاً عنّي، لأنّ رقم هاتفها غير معروف لديهم، فلا يمكنهم التّجسّس على مكالمتها، غير أنّنا وجدنا مجدّدا حجر عثرة في طريقنا، هاتفه يرنّ ويرنّ ولا يجيب، ومهما حاولت وحاولت نتلقّى نفس النّتيجة.

– ربما لم يسمعه، أو كان يصلّح شيئا تحت سيّارته، أو كان الهاتف بعيداً عنه.

قلت هذا وأفكاري المشوّشة ترهق أعصابي، فلا أكاد أسيطر عليها، أحاول جاهداً أن أعطيها شكلاً يطمئنني، ولو مؤقتاً، ويطمئنهم معي.

– ربما تخلّصوا منه فهو وحده من يملك الدّليل.

قالتها «أتارا» والرّعب في عينيها، ألقتها كرصاصة انطلقت للتوّ من سلاح آليّ، وبدأت مخاوفي تتصاعد، أنا السّبب إذا حدث مكروه له، أنا الذي قدته للموت بيدي، يا ليتني لم أعطه شيئا.

أيمكن أن يكون «آيزنكوف» قد رآني فحرّض أحدهم على التّخلّص منه؟.

لكن ما دخل «آيزنكوف» في الموضوع؟، لمشكلتي معه مسار مغاير.

وراحت الوساوس تأخذني بين القطبين كعادتها حين يشتدّ قلقي، وألقيت ببصري نحو شاشة التّلفزيون، لعلّي أنجح في الهرب من هذا الكابوس، كان صوته ضعيفا، فقد قامت السيّدة «ليزا» بخفضه لمّا بدأ النّقاش واحتجنا للتّركيز الشّديد، ثمّ رأيت فجأة سيّارة تشبه السّيّارة التي جئت فيها، وهي مقلوبة على حافّة الطّريق تأكلها النيران، أشرت بإصبعي نحوها مشدوها بعينين لا يرتدّ لهما رمش، فقد أخرست الصّدمة لساني، وأنا أرى مصرع «بابلو» واقعا مجسّدا أمام عينيّ.

ونظرت «أتارا»، صرخت، ثمّ كتمت صرختها بيدها.

لقد دخلنا نفقا مظلما لم نحسب له حساب، لقد دفعوا بشخص للمقصلة، لقد ضُحّي بصديقي، ولو ذهبت معه لكنت الآن في عداد الموتى، هناك على شاشة التّلفزيون، تراني أمّي و«ياعيل» و«غابي»، والسّيّد «ريكاردو» وزوجته وبناته، وعمدة المدينة، وأصدقائي في الثّانويّة، و«دانيال أدموني»، والجميع في «أوفاكيم».

– لقد تخلّصوا منه بعدما انتهى دوره.

إنّها السّيّدة «ليزا»، وهي تنظر إليّ، تؤكّد ما كان مؤكّدا من قبل، ثمّ تساءلت «أتارا» وهي تترقّب منّي أيّة إشارة، وقد اختلطت لديها مشاعر الخوف والحزن والحيرة:

– الحادث مدبّر؟.

هزّت أمّها رأسها بالإيجاب عنّي، وعلامات الأسف جليّة في مقلتيها:

– يا للهول!، لو رجعت معه لقتلت، هذه عصابة منظّمة جيّداً، تعرف متى تضرب، وأين تضرب، وبوسيلة لا يرقى إليها الشكّ، نحن نتعامل مع أناس على قدر كبير من الخطر، لهم نفوذ واسع في الدّولة، وغايتهم تبرّر وسائلهم.

واستمرّ عرض الصّور ذلك المساء، واستمرّت معها معاناتي النّفسيّة.

شاحنة من شاحنات نقل البضائع تصطدم بسيّارة «بابلو»، فترديه قتيلا على الفور، ثمّ تشتعل النّار وتتأجّج، بشكل يقطع نهائيّا كلّ أمل حيّ في الخروج من هذا الفرن.

كان الحادث حوالي السّاعة الواحدة بعد الزّوال، في الطّريق رقم 40، قرب «شيطيم» بالضّبط، قبل أقلّ من عشرة كيلومترات عن قاعدة «شيزافون».

من سيجلس معي ليلاً يسامرني حين تتلألأ النّجوم في السّماء؟، وماذا سأقول لأصدقائي حين يسألون عنه؟، «عزرا» و«رفائيل» و«شلومو»؟، كيف سيكون شكل المطعم وأنا أفتقد فيه «بابلو»؟، غريبة هي الدّنيا، نأتي إليها ثمّ نذهب إلى حياة أخرى، بسرعة كأنّنا لم نأت إليها في لحظة من اللّحظات.

خرجت من منزل «أتارا» في ساعة متأخّرة، رغم إصرارها على المبيت لديهم بسبب يوم السّبت، اليوم المقدّس لدينا نحن اليهود الذي لا نفعل فيه شيئا، لكنّي أمام قلقي، فضّلت الرّجوع لمنزلنا، وديدني «غابي»، الذي

بحثت عنه مجدّدا في المترل، فوجدت أمّه في حالة نفسيّة رثّة، هاتفه لا يجيب حين هاتفته هي أيضا، كانت تخشى الإرتفاع المفاجئ للسّكر في دمه، وربما هو فاقد الوعي الآن في مكان ما، وحين تجاوزت السّاعة منتصف اللّيل ولم يظهر لا هو ولا سيّارته؛ أبلغت الشّرطة.

كنت معتمداً على «غابي» ليعيدني للقاعدة، خاصّة وأنّ غدا يوم السّبت، كلّ شيء متوقّف، وإذا تأخّرت أكثر من هذا اكتشفوا غيابي، ووجدت نفسي بين ليلة وضحاها وحيدا مهزوما كسير الحال، قد أوصدت كلّ الأبواب في وجهي.

ونمت، ولا أعرف كيف نمت، حتّى استيقظت صباحاً منهكا تماماً من كثرة التّفكير، صلّيت صلاة الصّباح وذهبت للمطبخ، لأتناول الفطور المجهّز منذ البارحة.

أتت «أتارا» أوّلا ثم تبعتها أمّي، بنظرهما الحزينة:

– ستذهب اليوم؟.

– نعم، أعود كي لا يكتشفوا غيابي غدا في طابور الصّباح.

– كيف؟، كلّ شيء معطّل، اليوم يوم سبت.

– لا أعرف، كنت معتمداً على «غابي» وهو الآن مختفٍ، ولا أحد يعرف مكانه، حتّى أمّه.

– سأذهب إليها بعد الغروب لأواسيها.

قالتها أمّي وهي في الواقع تبحث عمّن يواسيها.

– آه تذكّرت، شقيق صديقتي الأكبر «حاييم» يذهب اليوم لمدينة «إيلات»، سيوصلك معه في طريقه الطّويل، أنا متأكّدة أنّه سيفرح كثيرا، سيّارته «أوبل»، قويّة وسريعة مثل البرق.

كانت هذه «ياعيل» منقذتي من الغرق.

قفزت من مكاني كمّن وخزته إبرة حادّة، وأنا غير مصدّق، ثمّ أكملت وهي تنهض من مكانها بنشاط:

– تعال معي سأهاتفها، ما باليد حيلة.

بعد أقلّ من نصف ساعة كنت في سيّارته السّوداء «أوبل أسترا»، بحقيبة الظّهر التي أحضرهما معي، مرتديا الزّيّ العسكريّ، وهو يهيّؤني نفسيّا لإمكانيّة تعطّلها في أيّ وقت، وعن الفخّ الذي وقع فيه حين اشتراها من أحد السّماسرة، وأنّه كان في سذاجة الخروف، وغباء القرد، ثمّ بدأ يسبّ ويلعن، وأنا أقول في نفسي:

– هل هذه هي السّيارة التي ستوصلنا؟، يسير ببطء السّلحفاة خشية تفكّك شيء منها، وتقول «ياعيل» أنّها سريعة كالبرق، أين أنت الآن يا «غابي»؟.

ما إن دخلنا الطّريق السّريع حتّى توقّفت، واضطررنا إلى الإنتظار أكثر من ساعتين، حتّى تنخفض حرارهما، أكثر من ساعتين ونصف ونحن على حافة الطّريق، وأنا أمام هذا الأشيب صاحب الخمس والأربعين

سنة، المتوسّط الطّول، ذو اللّحية الخفيفة والشّارب والسّترة السّوداء، مجبر على الإستماع إليه، الذي يطلب منّي كلّما حكّ رأسه أن أذكّره بإسمي، حتّى أني فكّرت جديّا أن أتخلّص منه، وأركب مع أيّ شخص آخر ممّن يمرّون علينا، وهو ما زال يحكي عن السّمسار الذي خدعه، والميكانيكيّ الإنتهازيّ الذي سلب منه أربع آلاف شيكل نقدا، ثمّ الذي باع له بطاريّة قديمة على أنّها جديدة فوجدها لا تعمل، وأوشك على قتله حين رفض تغييرها، وبائع قطع الغيار، الذي أخذ منه سبعمائة وخمسين شيكلا، مقابل قطعة فولاذيّة صينيّة المنشأ غير أصليّة في المحرّك.

دون الحديث عن التّوقّفات الأخرى لقضاء الحاجة، فتارة لديه مشكل في البروستاتا، وتارة لديه عسر هضم سبّب له إمساكا مؤلما، وتارة أخرى إسهالاً مفاجئاً لم يكن يتوقّعه.

حين وصلنا بعد السّاعة السّادسة مساء، صافحني قائلا بتبجّح يشبه تبجّح «دانيال أدموني»:

– أتمنّى ألاّ أكون قد أزعجتك بثرثرتي أيّها الشّابّ... ذكّرني باسمك أرجوك.

(29)

يبدو أنّ أمّي حين غادرت، دعت لي الرّبّ مخلصة أن يوفّقني في ذلك اليوم، فقد وجدت أصدقاء «بابلو» في الحراسة كما أخبرني تماما، لم يتغيّروا، مررت دون أن أقول شيئا، لم أرد أن أثير انتباههم كي لا يُثار التّساؤل عن سبب تواجدي معه في السّيّارة، وانسللت إلى غرفتي مباشرة كأنّ شيئاً لم يحدث، وجدت هناك «شلومو» وهو يستعدّ للرّسم بعد الغروب وقد حضّر أدواته.

أثار حزني الظّاهر انتباهه، فالتفت إليّ مستفسرا بحركة من رأسه، وحاجبين مقطّبين، فبادرته:

– «بابلو»... مات في حادث مرور، رأيت ذلك في التّلفزيون البارحة.

– غير معقول، هل كان هو؟، حادثة «شيطيم»؟.

هززت رأسي وقد بدأت الدّموع تنساب على وجهي كنبع ماء

ذهب «بابلو» واختفى «غابي» ومعه المستندات، وأنا نجوت من الموت بأعجوبة، ولا أعرف ما الحلّ الآن.

– آه تذكّرت، لقد بحث عنك أحد الضبّاط اليوم، سأل عنك هكذا دون اهتمام.

ألجمتني المفاجأة، من هذا الضّابط الذي يسأل عنّي يوم السّبت؟، كم من سبت مرّ عليّ هنا ولا أحد سأل عنّي، لماذا الآن بالذّات؟.

– أين كنت «دافيد»؟.

قالها منشغلاً بأقلامه وأوراقه البيضاء دون أن يرفع لي طرفا.

– لا أتدخّل في شؤونك لكن لا يبدو الأمر طبيعيّا، أشعر بشعور غريب لست مرتاحاً له إطلاقا، من الأفضل لو تتكلّم مع طبيبة العيادة وتجهّز لك سبباً مقنعاً للغياب، أو سيقولون أنّك غادرت القاعدة دون إذن.

ثمّ أردف وهو ينظر إلي محذّرا:

– أخرج من المنطقة الرّماديّة، ستواجه السّجن خمسة عشر يوما، هذا في أحسن الأحوال، وربما اتّهموك بالتجسّس أو بشيء آخر.

لم أهتمّ لكلامه، فقد مللت من التّفكير الزّائد الذي أتعبني نفسيّا، تعبت من هذا الخوف الذي يقيّد عقلي وعواطفي، أنا الآن لم أعد أهتمّ لشيء... لأنّي سئمت كلّ شيء، أبحث عن عالم جديد نقيّ يأويني، لم أعد أهتمّ لمن مات أو قُتل أو اختلس أو سرق، سئمت نفسي، لا أعرف... ربما أكون في حالة صدمة أو تآكل أو في بداية انهيار عصبيّ، أجد صعوبة في اختيار الألفاظ والعبارات المناسبة لشرح معاناتي، أشعر بضباب يلفّني، ورائحة غريبة تجتاح أنفي.

نمت بحزني دون تناول وجبة العشاء، صراحة؛ لا أستطيع الذّهاب لمكان أرى فيه ظلّ «بابلو»، يجوب المكان جيئة وذهاباً بين الكراسي والطّاولات، وأشمّ رائحة عطره العالق بأنفي، الذي ما بخل ولو مرّة عليّ به.

أيّ قلب يحتمل مكاناً جمع ذكريات في طعم العسل، تتحوّل بين ليلة وضحاها إلى علقم؟.

أيّ قلب محطّم يستطيع رؤية المزيد من الحطام؟.

نمت وأنا أتمنّى أن أستيقظ في الجنّة لأرتاح نهائيّا من همومي المتنامية تنامي العشب والفطريّات، نمت وأنا أعي فعلاً سبب انتحار هؤلاء المساكين، يتملّكهم الإحباط ويسودّ العالم في أعينهم، رغم مباهجه ومسرّاته، فيلجؤون لرصاصة من عيار صغير هي في الواقع أقوى جواز سفر للعالم الآخر.

نمت لأستيقظ على صوت الضّابط اللّعين الذي قال أنّنا ذاهبون لمركز القيادة، ثمّ انحرف بي إلى أحد المكاتب حيث أمروني بالذّهاب إلى «سديروت»، مركز تحشّد الجنود الذين سيساقون لحتفهم هناك في «غزّة».

كانت السّاعة تقترب من العاشرة صباحاً حين وصلت هنا يوم الأحد، الحادي والثّلاثين من ديسمبر 2023، هالني منظر آلاف المجنّدين والمجنّدات، ما يقارب المائة ألف جندي، يشغلون مساحة واسعة شاسعة على مرمى البصر، مع مدرّعاتهم، وأصوات محرّكاتها الهادرة، بعد أن تمّ إخلاء المستوطنات والكيبوتسات.

أقمت مع رفقائي الجدد في موقع ميدانيّ غير بعيد عن «سديروت»، أمام السّياج الفاصل، بعد أن ودّعت «عزرا غولدشتاين» و«رفائيل أشكينازي» و«شلومو زوسمان»، أصدقائي القدامى الذين لن أنساهم ما حييت، ولن أراهم بعد الآن، وصلت هنا متحسّرا على ما حدث لي، ولم أكن أعرف ما سوف يحدث.

قدّمت نفسي في مركز التّحشّد مبرزاً أمر الإنتقال المستعجل، فوجّهوني لغرفتي في الإقامة الميدانيّة للجنود، من أجل الرّاحة، في انتظار الغد الذي لا أعرف ماذا يخبّؤ لي فيه.

مدمّر نفسيّا، وبشعور بغيض ألقيت بجسمي على السّرير، وفي ذهني ألف سؤال ينتظر كلّ واحد إجابة محدّدة أو إجابتين، لقد غيّروا قلادتي الحربيّة التي تضمن التّعرّف على جثّتي حين تحترق معالم الوجه، وجدت نفسي هنا برتبة عريف، بعد أن كنت على مرمى حجر من أن أصبح ضابطاً في المدرّعات.

هل يعرف الملازم «ديميتري» ما حدث لي؟، هل سيسكت أم سيتدخّل لإنقاذي من هذا المأزق؟، لقد ضاع حلمي الذي تحمّست له وتحمّس له أبي و«غابي» والسّيّد الطّيّب «ريكاردو»، ماذا سأقول لهم؟، وبأيّ وجه سأقابلهم؟، ماذا سأقول لحبيبتي «أتارا»؟، ستعتبرني نسخة طبق الأصل عن «دانيال أدموني»، وستكرهني كرهها للشّيطان، ثمّ ما فائدة تعليمي وتحصيلي الدّراسيّ في الرّياضيّات إذا كان هذا في النّهاية مصيري؟، مصير صرصور.

ما جدوى شهادة «البغروت» وأنا أتساوى الآن مع من طُرد في التّعليم المتوسّط؟.

إستولت عليّ نوبة غضب عارمة، كم كنت مغفّلا، مخدوعاً، مثل حمار الطّاحونة.

ووجدت نفسي ضعيفاً جدّا، لا حول لي ولا قوّة ولا نفوذ ولا واسطة ولا معارف، ضعيف بالمعنى الحرفيّ للكلمة، مثل مولود خرج للتوّ من بطن أمّه، لا يملك لنفسه سوى البكاء والبكاء والبكاء.

– ستكون سائق دبّابة، لديكم خمسة عشر يوماً للتّدريب الميدانيّ فقط، لن تحتاجوا الجانب النّظري أو جهاز المحاكاة، خمسة عشر يوما كافية للتحكّم في «الميركافا»، ليس لدينا وقت.

هذا هو مدرّبي الجديد، الرّقيب «ألكسندر كارهي»، ذو السّتّة والعشرين ربيعا، أوكرانيّ المولد والنّشأة، الذي عرّفنا بنفسه مسهباً في الحديث في صراحة، وبساطة تختلف كثيراً عن صرامة «ديميتري»، ثمّ أتبع:

– شيء واحد فقط هو ما يجب أن يكون مهمّا لكم وواضحا كلّ الوضوح؛ التّقدّم بالدّبّابة مهما كانت الموانع؛ توقّفكم سيقتلكم جميعا، هنا التّدريب... وهناك الموت، هنا العرق... وهناك الدّماء.

وأشار ببنان سبّابته اليمنى إلى «غزّة»، فأتى إلى ذهني ما قاله لي «غابي» ذات يوم.

يختلف الوضع هنا عن قاعدة «شيزافون»، أشياء بدأت أكتشفها كلّما انغمست في حياة المعسكر، بدأت أعي معاناة الجنود، تصرّفات وسلوكات تدلّ على أزمات نفسيّة حادّة، هذيان أثناء النوم، إرتجاف لا إراديّ، عزلة، عصبيّة، مناوشات بالسّكاكين على أبسط الأشياء، التّهديد بالقتل باستعمال السّلاح، كحول ومخدّرات، إدمان المهدّئات من أجل النّوم ليلا، بل إنّي رأيت أحدهم يحدّث نفسه!.

كلّ واحد هنا إلاّ وله طريقته الخاصّة في الهروب من الواقع، في انتظار بروز حلّ واضح، مثل مدرّبي اللّبق «ألكسندر كارهي»، الذي يفتح قلبه للجميع، يقول أنّه سئم هذا الوضع البائس، وهو يحضّر جديّا للهجرة للأرجنتين، لقد كان من أوائل من اجتاحوا القطاع في السّابع والعشرين من أكتوبر 2023، ضمن الكتيبة المدرّعة 52، ثمّ أرجعوه لتدريب المجنّدين، ورسكلتهم، بناء على الخبرة التي توفّرت لديه، يعتبر نفسه واحداً منّا، بحيث لا تشعر بتلك المسافة التي تحول بينك وبينه.

علمت منه أنّه جرى تدمير دبّابات لنا حين توغّل الجيش في منطقة معبر «رفح» الحدوديّ، في الثّالث والعشرين ديسمبر الماضي، ثمّ تدمير دبّابة أخرى هرعت لمكان الكمين مباشرة بقذيفة «ياسين 105»، ثمّ قال إنّه تمّ سحب كتيبة من لواء «غولاني» لواء النّخبة الإسرائيليّة، بعد ستّين يوماً فقط من القتال الضّاري، بعد أن

تكبّد خسائر ثقيلة في كلّ تشكيلاته، وعليه وجب الحفاظ على ما تبقّى منه، وعلى شرف الجيش الذي أهين، على يد مقاتلين لا يأبهون لمصيرهم.

إنّهم يبجّلون الموت الذي نخشاه نحن.

– إسرائيل أرض اللّبن والعسل، لكن من يشرب اللّبن ومن يأكل العسل؟، الجالسون في مكاتبهم في «تل أبيب»، ونحن هنا نشرب الماء القذر وتأكلنا النّار.

إجابة مفزعة أجابني بها، حين تشجّعت لما رأيت فيه من تهذيب ولطف وتواضع، مستفسراً منه عمّا يحدث هناك وراء السّياج، وأظن أنّ الأمر أكبر ممّا أخبرني به.

أمّا في المساء، فسألت أحد الجنود العائدين من مهمّة قتاليّة عن الوضع، مرّ إلى جانبي مرهقاً وسلاحه على كتفه، لكنّه أجابني بتذمّر ولا مبالاة:

– تدمير أربع مركبات مدرّعة هناك في كمين في «جحر الدّيك» أدّى لمقتل وسحق أغلبهم.

نظرت مستفهما إلى صديقي الجديد الملازم «غريغوري آلكلاي»، فهزّ رأسه لي للتّأكيد.

يا إلهي، يبدو أنّها معارك طاحنة في شمال «غزّة»، في حيّ «الزّيتون» وفي«الشّجاعيّة» وجنوبها، وخاصّة في «خان يونس»، كلّ يوم تنقل المروحيّات الجرحى إلى مستشفى «بير شيفا»، إصابات فظيعة عند رفقائي، منهم من وجدوه محروقاً داخل دبّابته، ومنهم من فقد رجله أو يده، هؤلاء القتلى كانوا هنا بالأمس، يعيشون بيننا في مساحات التّحشّد، كانوا يشاركون صوراً وفيديوهات عبر حساباتهم في وسائل التّواصل الإجتماعيّ، مع ذويهم وأصدقائهم، ويتفاخرون فيها بإنجازاتهم وأعمالهم القتاليّة البطوليّة، الحقيقيّة أحيانا والمزيّفة.

هذه الأشياء لم نكن نعرفها تماما على هذا القدر من الزّخم، حين كنّا في «شيزافون».

كنّا نعيش في هدوء، بعيدا عن كلّ مستويات الخطر، كانت الأخبار تصلنا عبر فيديوهات مهرّبة عن اصطياد الدّبّابات، فاعتقدنا أنّ خطر الأمر يكمن في أن تصاب بالقذائف، ونسبة إصابتك ضعيفة، مقارنة بما ينتشر لنا من قوّات على الأرض، أمّا أن يتساوى الجميع في الموت، في إبادة شاملة، بحيث لا ينجو إلاّ القليل؛ فهذا شيء يصعب تصديقه، حتّى تراه بعينيك.

(30)

الخميس الرّابع من جانفي 2024، منطقة التّحشّد، «سديروت».

لقد فقدت كلّ أمل في العودة سالما، وأيقنت بالهلاك بعد عشرة أيّام من الآن، عندما تطأ قدماي تلك المساحة المخيفة الواقعة خلف السّياج.

المسألة كلّها مسألة وقت فقط، ولن أرى بعد اليوم أمّي أو أبي، أو «أتارا» أو «ياعيل»، أو «غابي»، سيصطادوني مثل العصفور مباشرة حين أعبر بالدّبّابة إلى الطّرف الآخر، سيصطادوني بسلاح ككلّ الأسلحة وليس أيّ سلاح، يطلق من على الكتف، لا يحتاج لمنصّة تثبيت، قذيفة طالما حذّرني منها رفقائي، وخاصّة «أفيخاي هرغوبي»، رقيب أوّل في لواء «جفعاتي»، مكلّف بحماية الدّبابات من القذائف، أثناء توغّلها في المناطق الحضريّة.

– نحن لم نتدرّب على قتال الشّوارع، لا التّدريع ينفعنا هنا ولا «معطف الرّيح»، هذه القذيفة لا ترحم ولن ترحم أحداً منّا، لقد صُنعت خصّيصا لسحقنا، إنّها تخترق بدن الدّبّابة كالسّكّين الذي يقطع الزّبدة، وتنفجر في الدّاخل، مدمّرة الذّخيرة والجنود معا، يا ربّ «موشيه»، إنّهم يخرجون لنا من كلّ مكان، يضربون بعنف وسرعة، ثمّ يختفون تاركين ورائهم الموت والدّمار.

قالها بعصبيّة، وبصق على الأرض، مكملا في استغراب حذر:

– ليست لديهم مناظير للرّؤية اللّيليّة، ومع ذلك يروننا في الظّلام الحالك، كأنّ الملائكة هي من تدلّهم علينا، حتّى «ميري سيناي»، لا يمكنه فعل شيء، عمليّة «السّيوف الحديديّة» لن تنجح، لن تنجح، لن تنجح.

أردت منه شرحا، غير أنّه ذهب وهو ما زال يبصق، شاتما الحكومة و«نتنياهو» و«غالانت»، وأنا ألتفت يمنة ويسرة، مخافة وجود أحد أفراد الإستخبارات العسكريّة، حتّى نكزني صديقي الجديد:

– لا تخف «دافيد»، الوضع هنا يختلف تماما عن الثّكنات والقواعد، هؤلاء رأوا الموت أمام أعينهم، بحيث أصبح جهاز «أمان» لا يمثّل لهم أكثر من بعوضة تلدغ، من عرف «الياسين 105»؛ لا يخشى السّجن أو أيّ عقاب آخر.

ذات تقنيّة ترادفيّة، بحيث تخترق الشّحنة الأولى جسم الدّبّابة، وتنفجر الثّانية في الدّاخل، تطلق مباشرة على بعد مائة متر، كمدى فعّال قاتل لا مهرب منه، هذه المسافة القريبة جدّا تجعل عمل المستشعرات مستحيلا، وبالتّالي فإنّ منظومة «معطف الرّيح» لصدّ الصّواريخ المضادة للدّروع؛ ليست فعّالة على الإطلاق، وعليه، كثيرا ما يلجأ جنود الهندسة إلى إقامة سواتر ترابيّة بارتفاع مترين، كي تكون الدّبّابات محميّة خلفها؛ فإذا لم يتمكّن المهاجم من رؤية الدّبابة؛ لن يستطيع توجيه القذيفة نحوها، هذا أقصى ما يستطيعون فعله، أو بالأحرى ما يستطيع فعله جيش الدّفاع الإسرائيليّ.

لم أستطع النّوم ليلا، تراءت لي أطياف العائلة والأصدقاء، وزاد تضايقي وانزعاجي، ثمّ شعرت بضرورة الخروج لقضاء حاجتي، فوجدت ثلاثة جنود يتبادلون الحديث وهم يدخّنون المخدّرات، كان أحدهم يغنّي منتشيا، بينما كان الآخر جالسا القرفصاء واضعا رأسه بين يديه، غير مصدّق أنّه نجا اليوم من الموت بأعجوبة، بيدين ترتجفان:

– تمّ تفجير دبّابة بعبوة «شواظ»، لقد كنت أراه، مرّ أمامي بكلّ جرأة دون خوف أو تردّد، تخطّى دبّابتنا في سرعة، وألصقها في الدّبّابة الثّانية، وانسحب في أقلّ من نصف دقيقة، خفّة ورشاقة، ثمّ عمّ المكان اهتزاز شديد كالزّلزال المدمّر، وتصاعدت ألسنة النّيران.

وزاد ارتجافه، ثمّ أعطاه أحد الجنديّين سيجارة ثانية.

سمعت عن هذه القنبلة من «غريغوري»، قنبلة طوّرتها «كتائب القسّام»، على أساس مبدأ عمل القنبلة اليدويّة، تزن أكثر من عشرين كيلوغراما من المتفجّرات، وتوضع مباشرة على الدّبابة، وتنشّط بصاعق، ولها القدرة على اختراق أكثر من ستّين سنتيمترا من الفولاذ المصفّح.

من أين لهم بهذه الأسلحة التي تعتمد على المواجهة المباشرة؟، كيف لهم أن يقاتلونا من مسافة الصّفر؟، دون خوف، أو تردّد، كأنّهم هم الذين على حقّ، ونحن على باطل؟.

أيّ شجاعة يتحلّون بها؟، وأيّ عقيدة هذه التي تملأ قلوبهم؟.

أسبوع واحد فقط نجحت فيه في عقد صداقات قويّة مع مجنّدين أكبر منّي، وجدت نفسي أصغرهم، ومع هذا يسود بيننا نوع من الإحترام والتّوقير، هنا لا خيار لك أن تكون اجتماعيّا أو لا تكون، إختلاف أعمار الجنود، معناه اختلاف في الخبرات والسّلوكيّات ووجهات النّظر، هذا ما يُستشفّ من السّنّ، أمّا أسماء الألوية والكتائب التي نحن أساساً تابعون لها؛ فلا أحد يهتمّ ما دام الموت لا يفرّق بينها، نتقاسم المصير ذاته؛ نضحك كلّنا ونبكي كلّنا.

هنا تجد نفسك تصاحب كلّ من يجلس إليك رغماً عنك، لأنّ مشاعر الإنسان تتحرّك بالموت، منهم من يفضي بأسراره الخاصّة، لمن يجد فيه أذاناً صاغية؛ ومنهم من يفرغ ما بداخله تنفيساً، حتّى ولو لم يسمعه أحد، ومنهم من ينتحر من تأثير الإحباط واليأس، حتّى الضّبّاط الميدانيّون، نزعوا عنهم لباس الغطرسة والكبرياء،

واندمجوا بيننا، عكس القادة الكبار، الذين لا يأتون إلاّ لالتقاط الصّور والفيديوهات، تفوح منهم رائحة العطور الفخمة، تغطّي ماضيهم الدّنس.

هنا تتعرّف على كلّ أشكال البشر والطّبيعة الإنسانيّة، في صورها الحقيقيّة وتناقضاتها، يرفع الموت كلّ قناع، كلّ نفاق، كلّ تنكّر.

منذ خمسة أيّام، فقط، تعرّفت على «نوعم ياخين»، ثلاث وعشرين سنة، جنديّ في الفرقة 8105، أخبرني صراحة دون تلميح أو خجل، أنّه ينتظر دخول «غزّة» بفارغ صبر، لا لشيء سوى ليسرق كلّ ثمين هناك، مشتكيا من مرتّبه الذي لا يكفي كلباً مدلّلا، في ظلّ الإنهيار الإقتصاديّ الذي تشهده إسرائيل، وأنّ هناك من أقسم له أنّ النّساء تركن ذهبا كثيراً في المنازل، هاربات على عجل، لينأين بأنفسهنّ وبأولادهنّ عن القصف، تذكّرت المغامرين الإسبان وما اقترفوه من جرائم، يندى لها جبين الإنسانيّة، حين أبادوا قبائل الهنود الحمر بأطفالهم ونسائهم، لا لشيء إلاّ لأجل البحث عن الذّهب، والغريب أنّه يعرض عبر حسابه في وسائل التّواصل الإجتماعيّ صوراً لتدمير المنازل، كأنّه هو من دمّرها، إنّه يحاول جاهداً الظّهور بمظهر الشّجاع الجسور المقدام، في حين أنّه لا يهتمّ لشيء سوى لكلّ ثمين.

– إحذر على الأقلّ... ستضع «كتائب القسّام» على صورتك مثلّثا أحمرا وأنت تسرق، ثمّ ينتهي كلّ شيء، ستكون فضيحة كبيرة، وربما ستتسبّب في استقالة «غالانت» أو «نتانياهو».

غير أنّه هزّ كتفيه في لا مبالاة، مجيبا ضاحكا:

– «غالانت»؟... ممكن؛ لكن «نتانياهو»... مستحيل، سيطلب حصّته من عائلتي.

ثمّ التقيت بجنديّ آخر، «ألكانا نيولاندر»، أربع وعشرين سنة؛ مسعف في كتيبة «يفتاح» في الفرقة 99، يحاول التّشدّق بإنجازاته، إذا أجريت عمليّة حسابيّة؛ لوجدت أنه أنقذ بشجاعته المزعومة ما يقارب الثّلاثة آلاف جنديّ في ظرف يومين فقط، عرفت لاحقاً من صديق له أنّه كاذب أفّاق، يظلّ مختبئا مثل الجرذ في قنوات الصّرف الصّحّي، وحين يرى صحفيّي القناة 12 يظهر مثل «سوبرمان».

وهناك «دينيس كروخمالوف»، إثنين وثلاثون سنة؛ نقيب في الهندسة القتاليّة من «يهالوم»، حين أخبرته أنّي من «أوفاكيم» ازداد تقديره لي:

– أنت صديق «عيران»؟.

– لا أعرفه.

ثمّ تذكّرت أنّي أعرفه جيّدا، لكنّي لم أره منذ مدّة طويلة.

(31)

«عيران علوني»، قُتل في الثّاني عشر من ديسمبر 2023، في شمال القطاع، مع تسعة جنود آخرين، من لواء «غولاني»، قُتل وهو لا يتجاوز تسع عشرة سنة، ودُفن في «بير شيفا»، وحضرت أمّي وأختي جنازته، أخبرتني «ياعيل» أنّ أمّي كانت في حالة توتّر شديد أثناء المراسم التأبينيّة، خائفة ألاّ تراني ثانية، وظلّت تبكي أثناء الدّفن، حتّى اعتقدوا أنّها هي أمّه الحقيقيّة.

– يبدو أنّ فصائل المقاومة قد نظمت صفوفها دون أن نشعر، ودون أن تتفطّن لها الإستخبارات، لدرجة أنّنا لا نستطيع سحب جنودنا القتلى إلاّ بصعوبة بالغة، شراسة القتال تجبرنا على ترك جثث القتلى إنقاذاً للأحياء؛ رفقائي تركوا أصدقائهم المقرّبين، لقد تخلّوا عنهم، ثمّ ما فائدة إحضار ميّت إذا كنّا سنفقد ثلاثة جنود على الأقلّ؟، هنا يجب أن تتوقّف عن استخدام العاطفة، لأنّها لا تفيد؛ هنا دماغك فقط ما يجب أن يشتغل.

هذا هو موقف «دينيس»، الذي يعتبر أنّك ما دمت في «غزّة»؛ لا يهمّ قاتلك لأيّ فصيل عسكريّ ينتمي.

ما شأنك بطرفي المعادلة إذا كنت ستفقد حياتك كنتيجة؟.

ربما تنجو بأعجوبة بطرف مقطوع، أو بتشويه مدى الحياة، لن تسألك القيادة عن المتسبّب في هذا، «كتائب القسّام»، أم «سرايا القدس»، أم «شهداء الأقصى».

– نسعى لشقّ طريقين، الأوّل موازاة مع السّياج في الشّمال بعمق كيلومتر واحد، والثّاني على خطّ «كيسوفيم»، من السّياج إلى البحر، لفصل مدينة «غزّة»، مع إنشاء سواتر ترابيّة عالية، تكفي لحجب دبّاباتنا عن قذائف «الياسين».

ثمّ أردف:

– الأوغاد، إنّهم يهينوننا بمثلّثهم الأحمر، أصبح جيش الدّفاع الإسرائيليّ أضحوكة يتسلّى بها الأطفال.

كنّا مجتمعين كلّنا في المطعم الميدانيّ نتناول وجبة العشاء، أنا و«ألكسندر» و«نوعم» و«ألكانا»، والأخوان «موشيه» و«إيتان عسيفا»، في انتظار الباقين الذين ربما سيأتون أحياء، لمّا دخل أحد الجنود طويل القامة ذو عينين بنيّتين، وهو يضع على وجهه ملوّنا للتّمويه، كالذي يستعمله أفراد القوّات الخاصّة.

– آآآآآآ، وأخيرا أنت حيّ... إجلس أمامنا «ميري».

قالها «ألكسندر» الذي كان إلى جانبي بنبرة واثقة.

جلس أمامنا واضعاً بندقيّة القنص خاصّته على ركبتيه، التي ما إن رأيتها، حتّى تيقّنت أنّه هو القنّاص «ميري سيناي»، الذي طالما تغنّوا بأمجاده.

– ضعها على الأرض، لن تهرب منك.

ضحك الجميع وأكملوا عشائهم، بينما رحت أتطلّع إلى سلاحه.

– هل تعجبك؟، إنّها «HTR 2000»، بندقيّة قنص مثاليّة، رغم أنّها ثقيلة عند البعض، لكنّها رائعة بكلّ ما في الكلمة من معنى.

وأطال حرف الرّاء بارتياح في كلمة «رائعة»، كمن يتلذّذ بالكلمة.

– تحفة.

– سأدعك تجرّبها يوما ما، عرّفني بنفسك.

تلعثمت، كنت سأقول جملتي المعروفة التي لقّنوها لنا في «شيزافون»، غير أنّي كبحت لساني في الثّانية الأخيرة:

– «دافيد عوفر»، ثماني عشرة سنة، لواء 401 مدرّعات.

– «ميري سيناي»، وينادونني «ألكسي»، سبع وعشرون سنة، قنّاص في لواء «جفعاتي».

ومدّ يده مصافحا فوق الطاولة.

لم ننم حتى ساعة متأخرة من اللّيل، بدا طيّبا جدّا وخلوقاً جدّا ومتواضعا ولبقا، ماذا عساي أقول في وصفه؟، يكاد يكون نسخة طبق الأصل عن الملازم «ديميتري» في طيبته، من أب جورجيّ أرثوذكسيّ، طويل القامة، وأمّ يهوديّة من «الغروزينيم»، ورث عنها لون عينيه، لكنّه قنّاص محترف لا يعرف الرّحمة، ولا يفرّق بين رجل وامرأة وطفل، الكلّ لديه أهداف مشروعة، قال إنّه تلقّى أوامر بإطلاق النّار على أيّ هدف يتحرّك يراه مناسباً للقنص، خاصّة الصّحفيّين، لأنّهم أعين العالم، وبهم تُكتشف أفعالنا وحيثيّات الحرب، ولذلك يجب التخلّص منهم في أسرع وقت، وسنتذرّع بأخطاء القتال، فكلّ حرب إلاّ ولها أخطاؤها.

ثمّ من يهتمّ لمن يُقتل حين تتشابك الخيوط؟، العالم كلّه منشغل بالحفاظ على البيئة، وأسعار البترول، وأخبار البورصة، وأبطال الكرة المستديرة، هل يملك وقتا أو وعيا ليتساءل عمّن قتل هذا الطّفل ومن جرح هذه العجوز؟.

– في انتظار أن يُغلق مكتب «الجزيرة» في إسرائيل.

– «الجزيرة» القطريّة؟... سيوقفوها عن العمل؟.

– مؤكّد وأكيد، إنّها تهدّد سمعتنا في الخارج، بوق إعلاميّ لمخرّبي «حماس»، أرأيت كيف يدافعون عنهم؟، كيف يتبنّون رواياتهم؟، خاصّة «وائل الدّحدوح»، ذاك السّمين؛ أقسم ببندقيّتي أنّي سأفجّر رأسه حين أراه.

– حريّة صحافة، نحن نتكلّم وهم يتكلّمون.

إبتسم هازئا بكلامي:

– عن أيّة حريّة تتحدّث «دافيد»؟، يبدو أنّك تؤمن بحلّ الدّولتين، لا تثر غضبي، كلّما زدنا في تدمير وإحراق الأرض ومن عليها؛ زدنا من احتماليّة هجرة الفلسطينيّين، ليتركوا الأرض لنا، مثلما تركوها خائفين في حرب الإستقلال في 48، «السّيوف الحديديّة» مجرّد تسخينات، هؤلاء متمسّكون بالأرض، وسنريهم من سيأخذها في النّهاية، صهيونيّ حتّى الرّمق الأخير أنا، وسأبقى كذلك.

كان واضحاً وصريحا في عباراته، يعرف جيّدا ما الذي يريده، أيقنت من أسلوب كلامه أنّ لديه أوامر سريّة بتصفية الصّحفيّين، أينما كانوا، وحيثما وُجدوا.

وتركني مودّعا، ودخلت أنا لأصلّي، ولألقي بنفسي على سريري.

كان «إيتان عسيفا» مستيقظا:

– ما يعجبك في «ألكسي»؟، أكثر من ساعتين وأنتما تتحدّثان.

– «ميري سيناي»؟، شخص جيّد.

– هل تعرف أنّه ملحد لا يؤمن بوجود إله؟، هذا كلامه وليس كلامي، والجميع هنا يعرفون أنّه ملحد، لا يصلّي ولا يمارس أيّة شعيرة، هل تعرف أنّه يتمنّى لو كان غير مختون؟، ولذلك يتجنّبون الكلام معه، جبان رعديد، يتّخذ من الفلسطينيّين طعوماً بشريّة.

فتحت عيناي واسعا في الظّلام نحو السّماء:

– يا إلهي، لقد بدا لي شخصاً نزيهاً صادقا، ما معنى «الطّعم البشريّ»؟.

إعتدل في فراشه وراح يشرح في امتعاض واستقذار:

– إنّه يقيّد أيّ أسير يجده طعماً مناسباً لجذب الآخرين من ذويه، من النّساء والشّيوخ والأطفال، جيّدا إلى شيء ما، ثمّ يترصّد من يأتي لإنقاذهم، ليقتلهم بدم بارد، البارحة فقط ربط إحدى النّساء إلى شجرة، وقبع في إحدى البنايات العالية، ينتظر أن يأتي أحد إليها، من في رأيك كان يحاول إنقاذها؟، أبناؤها الأربع، أكبرهم فتاة دون الخمس عشرة سنة، كانت تحاول فكّ قيد أمّها باكية، مع أخواتها الصّغار المرتجفين من الجوع والذّعر، ثمّ فجأة، فجّر رأسها أمام أمّها، وتلطّخ الجميع بدمها وبقايا الدّماغ، ثمّ أجهز على الباقي، تاركاً الأمّ تهذي بعبارات غير مفهومة، لقد فقدت المسكينة عقلها، بعد أن كانت بطلة وضحيّة لفيلم الرّعب هذا.

ثمّ زاد حنقه الذي ظهر واضحاً في صوته:

– أكبر نذل على وجه الأرض؛ من ينكر وجود الإله، لا يمكن أن يتواجد الصّدق في قلبه، هذا ما نقوله في «إثيوبيا»، تصبح على خير أخي «دافيد».

تركني مصدوما، كنت أريد أن أستعلم منه أكثر، لكنّه نام.

هل يُعقل أن تصل وحشيّتنا إلى هذا المستوى؟.

في الصّباح لم أجده، كان قد غادر فراشه باكرا، حاولت البحث عن «ميري» في المطعم، وجدته جالساً وحده يتناول كأساً كبيراً من الحليب، مع خبز فرنسيّ بالمربّى، ودجاجاً مشويّا، ما إن رآني حتى أشار لي بفيه الممتلئ، جلست أمامه وأنا أنظر إليه مشدوها.

– ما بك؟.

– لا شيء، غير أنّي...

قاطعني وهو يعطيني فخذاً من الدّجاجة التي عمّت رائحتها المكان:

– أخبروك أنّي ملحد؟، حسنا أنا حرّ في اعتقادي، أنا أؤمن بنظريّة التّطوّر، لا يمكن أن يكون هناك إله، الطّبيعة أوجدت نفسها بنفسها.

– إذن لماذا تقاتل معنا في دولة الربّ؟.

– الدّولة هي التي تحمينا فقط وليس الرّبّ، ليس الرّبّ من أنشأ هذه الدّولة، يجب أن يكون لنا نفوذ وقوّة جبّارة، تقتل عن يمينها وشمالها لتُحترم، «الحريديم» الحمقى وتوراتهم، يقولون أنّ بقرة حمراء تعيد أمجاد إسرائيل، لا تضحكني أرجوك، هؤلاء يثقون كثيرا في الماورائيّات؛ أنا لا أعرف شيئا يسمّى الرّبّ، أنا أعرف بندقيّتي فقط، هي إلهي الذي أقسم به، نحن نقاتل من أجل وجودنا، من النّهر إلى النّهر، ما نفعله اليوم في الفلسطينيّين، سنفعله في غيرهم من شعوب الجوار، كلّهم حثالة، كلّهم أعداؤنا «دافيد»، حتّى حركة «ناتوري كارتا»؛ أعداء الدّولة، يجب أن يموتوا مثلهم كما تموت الكلاب.

أحسست أنه بدأ يتوتّر، أردت أن أستفسر منه عن «الطُعم البشريّ»، لكنّه انصرف معالجا ما بقي في فيه من طعام، حاملاً بندقيّته بين يديه.

شعرت برغبة في التقيّؤ من وجهه الكئيب؛ إنهار كلّ ما بنيته عنه في لحظات، هذا الوجه الذي ينكر وجود من خلقه، بل يظلّ يكرّر متبجّحا أنّ الطّبيعة هي من فعلت هذا لوحدها، دون تدخّل من أحد، ومن خلق الطّبيعة إذن؟.

نحن اليهود، نؤمن بوجود خالق واحد لهذا الكون، ونؤمن بوجود الجنّة والنّار، والملائكة والأنبياء، ويوم القيامة، ما اعتراه حتّى ينكر كلّ شيء؟.

حتّى الشّيطان لا ينكر وجود الرّبّ، فعلا... جيش الدّفاع أصبح مزبلة يضمّ حثالة البشر.

هنا على الجبهة، ستستمرّ في رؤية كلّ ألوان الطّيف، الذين تتخيّلهم والذين لا يستطيع عقلك تخيّلهم، من المتزمّت المنغلق على ذاته، إلى المنفتح على الآخر، الذي يقبّل الجميع مثل «عزرا»، من اليمينيّ إلى اليساريّ إلى عديم العقل، من اللّيبيراليّ إلى الإشتراكيّ، من المتحزّبين السّياسيّين إلى أعضاء الجماعات السّرّيّة والعلنيّة كحركتي «حباد» و«كاخ».

رأيت كلّ هؤلاء هنا، رأيت الذين يدّعون أنّهم أقوياء وأشدّاء، وأنّهم فراعين الأرض، وحين تقطع رجله، يستنفد دموعه أكثر من أختي «ياعيل» حين تخدشها قطّتها، ويندب حظّه أكثر من النّساء، الكلّ يصف نفسه «سوبرمان»، وينسون أنّهم بين براثن الموت والتألّم الفظيع، قنصاً أو تمزيقاً أو احتراقا.

بعد السّياج الفاصل لا أمان لأيّ أحد، سواء كنت في «الميركافا» أو خارجها، هناك الرّبّ وحده من يحميك من إشارة المثلّث الأحمر، هناك الرّبّ وحده من يقرّر متى ستموت، برصاصة، أو بقنبلة، أو بشظيّة من قذائف الهاون التي تتساقط علينا كزخّات المطر، رغم طائراتنا التي تراقب الوضع عن كثب، على امتداد هذه الأرض.

(32)

ما فعله «أفيخاي» لي لم يفعله أحد معي من قبل.

وحين يسدى لك أحدهم خدمة جليلة ومعروفاً، أمن الرّجولة أن تنساه؟.

هذا الطيّب الذي رمّم جراحي، وأنا الذي فقدت كلّ أمل في الوصول ذات يوم إلى نبع الماء، بكيت بكلّ أسى ومرارة على تابوته، حين أحضروه لوحدته ممزّقا إربا، ملفوفا نعشه في العلم.

هذا القلب الحنون الذي ما بخل بعطفه على الجنود، كأنّه أخاهم الكبير المهتمّ بكلّ صغيرة وكبيرة لهم، هذا البلسم الذي ما فتئ يحدّثني عن دميته الصّغيرة، إبنته «جاكلين» ذات ثمانية أشهر، لّما تستبد به الأشواق، وأمنيته المشتركة مع زوجته، أن يعودا لمدينتهما التي ترعرعا فيها، «شاعر هنيجف»، قبل إخلائها بسبب القصف.

بدا متغيّرا ذات صباح ينظر كثيرا إلى السّماء، واجهني برعبه من المثلّث الأحمر، والكلّ هنا مرعوبون، لكن لا يظهرون ذلك، حفاظا على الرّوح المعنويّة، وخوفا من ضبّاط الأمن العسكريّ، الذين لا يتردّدون في حبس أيّ جنديّ يجدون عنده فيديوهات «القسّام».

ورغم أنّ هذه ليست هي المرّة الأولى التي يذهب فيها وراء السّياج الفاصل، إلاّ أنّ لديه حدساً غريباً مقلقاً تكاثف في الآونة الأخيرة، تكاثفا بلغ به مبلغ الهلوسة، سيُقتل، وستعيش ابنته «جاكلين» يتيمة الأب، فأتذكّر أختي «ياعيل» حين كانت في سنّها، إنطبعت صورتها في ذهني منذ ذلك الوقت، رغم أنّي كنت صغيراً جدّا آنذاك.

مستسلم لواقعي كميّت بين يدي مغسّله؛ أكملت حصّة التّدريب الصّباحيّة، مناورات لا تنتهي، وبناء ردود أفعال تتّسم بالإيجابيّة والسّرعة، أتبادل السّياقة مع صديقي الدّمث «موشيه»، في جوّ بارد جدّا، بعد أن غادرنا أخوه «إيتان»، عائداً إلى المترل، في عطلة لا تمتدّ لأكثر من أربع وعشرين ساعة، بدأت أحقّق تقدّما سريعاً حسبما أخبرني به الرّقيب «ألكسندر»، وعلى ما يبدو، فإنّ أسلوب تدريبه كان الفيصل، إذ الكلّ يشيد بطريقته المثلى في التّعليم، وكلّما اقترب الوقت لدخول «غزّة»؛ إزداد قلقي على مصيري المجهول، إذ تشرف دورتي التّطبيقيّة كسائق دبّابة على نهايتها، وإذا قرّر المدرّب إرسالي، لا مجال للتّراجع.

نعم أعترف أنّي تعلّمت هنا أكثر ممّا تعلّمته في «شيزافون».

رأيت جنوداً يبتسمون أمامنا آخر ابتساماتهم، ثمّ يعودون مساء في توابيت مغطاة بعلم إسرائيل، هذه القطعة القماشيّة التي كنت أبجّلها كأيّ مراهق نشأ بين أحضان ما تمثّله، مثلما يجّلها صديقي العريف «موشيه عسيفا»، يهوديّ إثيوبيّ من «الفلاشا»، من سكّان جنوب «تل أبيب»، مشرق العينين، متوسّط الطّول، يميل لون بشرته إلى السّواد، مع لمسة فاتحة تقرّبه للسّمرة أكثر، لا يتجاوز سنّه الأربع والعشرين سنة، كان في سلاح المدفعيّة، ثمّ كنتيجة لعدم التزامه بالأوامر؛ عوقب بشهرين سجناً مع تخفيض رتبته، ونُقل هنا كسائق دبّابات، لقد جُنّد مع أخيه «إيتان» في يوم واحد، ونالا معاً رتبة «رقيب»، و«إيتان» هذا يعتبر صديقا حميما للرّقيب «ألمانو إيمانويل فالكا»، من وحدة «دوفدوفان»، الذي قُتل في السّادس من ديسمبر 2023، متأثراً بجراحه.

كنّا نستعدّ لتناول الغداء لّما رأيت أحد الجنود يتحدّث مع «موشيه»، ثمّ رأيت هذا الأخير يمسك برأسه، كأنّ مصيبة حلّت عليه.

ركضت سريعا نحوه أستطلع ما يجري.

– أخي «إيتان» في السّجن.

وذهب راكضا دون أن يضيف شيئا.

كان الجنديّ الذي أخبره قادما نحوي حاملا بعض المعدّات، ولّما اقترب، حاولت أن أنتزع منه بعض المعلومات المفيدة، فأفرغ كلّ ما في جعبته ككتاب مفتوح، تقرأ منه ما تشاء، حتّى أنّي ساعدته في حمل المعدّات، كي أعطي له انطباعاً جيّدا، فلا يخفي عنّي أبسط التّفاصيل.

في السّابع عشر ديسمبر 2023، إعتقل «الشّاباك» النّصّاب «روعي يفراخ»، صاحب السّجل الطّويل في قضايا النّصب والمخدّرات والتّزوير، الذي انتحل عدّة صفات بهويّات مزوّرة، منها ضابط في وحدة مكافحة الإرهاب، وحتّى ضابط في «الشّاباك»، سارقاً أسلحة متنوّعة وذخيرة وقنابل يدويّة، من مساحات التّحشّد، وداخل «غزّة»، لبيعها في السّوق السّوداء، حسبما نشرته صحيفة «يديعوت أحرنوت»، وحسب لائحة الإتّهام الموجّهة ضدّه، فإنّه سيواجه تهما أثقل من وزن الزّئبق، تهم إن دلّت على شيء، فإنّها تدلّ على هشاشة الأمن الدّاخليّ للدّولة، ممّا مكّنه من اختراق الدّوائر العسكريّة، والأمنيّة العليا، وبناء على التّحقيقات؛ تمّ اعتقال «إيتان عسيفا» يوم الثّالث من جانفي المنصرم، الخبر الذي نزل كالصّاعقة على أخيه «موشيه».

كان كلّ شيء سيمرّ على ما يرام، لولا الصّورة التي كشفت خيوط اللّعبة، وأثارت انتباه الأجهزة الأمنيّة.

صورة جماعيّة لتسعة جنود رفقة رئيس الوزراء «بنيامين نتنياهو»، خلال تفقّده لقوّات الجيش التي تحاول السّيطرة على قطاع «غزة».

كان من بينهم «روعي»، الشّيء الذي اقتضى معرفة المزيد عنه، وبالتّالي الوصول إلى ملابسه القذرة.

تذكّرت ما قاله لي «بابلو» قبل مقتله في حادث السّيّارة المدبّر، «السّلاح لا يبور ولا يكسد».

واشتدّ كربي حين وجدت نفسي أمام ذكرياتي، التي أصبحت الآن تغرقني، بمجرّد وجود رابط بسيط يستدعيها من الماضي.

أقلّ من ثلاثين كيلومترا تفصلني فقط عن وجه «أتارا» وعينيها، ولا أستطيع الإتّصال بها لأعرف الجديد عن «غابي»، أنا في وضع لا أحسد عليه، مشلول مثل أبي الذي يرقد في المستشفى لا يشعر برجليه، كما لا أستطيع مغادرة المكان تحت أيّ ظرف.

أيّ عجز أكثر من هذا الذي أنا فيه الآن؟.

هل هناك من وشى بي؟، هل كان «آيزنكوف» يراقبني من بعيد؟، كيف عرفوا أنّي غادرت قاعدة «شيزافون»، رغم أنّي أخذت كافّة احتياطاتي؟.

هذا ما أفكّر فيه دائما، ولا أستطيع الوصول إلى نتيجة تقنعني، أكاد أجنّ، يتطوّر القلق شيئا فشيئا ويتعاظم حتّى أفقد الأمل، كلّ محاولاتي لنسيان مشكلتي لم تفدني.

كنت في لحظات انهزام نفسيّ، أسير وحيدا يائسا مطرقا برأسي منهارا، حتّى سمعت صوتا يناديني، إلتفتّ خلفي لأجد صديقي «أفيخاي» خارجاً من المطعم، بعد السّاعة الثّامنة مساء، ينظّف أسنانه بقطعة رفيعة من الخشب، إثر رجوعه من وراء السّياج.

– أهلا «أفيخاي»، كيف كان يومك؟.

– صعب جدّا، توفير الحماية لبعثة من الصّحفيّين من القناة 12، جاؤوا لتغطية مجريات الحرب، مسؤوليّة كبيرة، تتسبّب في إرهاق عصبيّ، وجسمانيّ فظيع.

– أعرف طبيعة عملكم تواجهون الخطر أكثر منّا، ليساعدكم الرّبّ.

وهممت بالإنصراف وأنا أقول في داخلي:

– «كتائب القسّام» لا تقتل الصّحفيّين، فلماذا هذا التوجّس من مشكل لن يحدث؟.

غير أنّه ناداني مجدّدا، كالذي يريد الإستفسار عن شيء، أو كالمتردّد في فتح موضوع:

– ألست أنت «دافيد عوفر» من سلاح المدرّعات من مدينة «أوفاكيم»؟.

– نعم، هل هناك خطب ما؟.

– لا... لا أعرف ما الموضوع بالضّبط، كانت إحدى الصّحفيّات تسأل عنك، أو عن شخص آخر له نفس الإسم، لست متيقّنا، كانت تبحث عن مجنّد، سيتخرّج ضابطا في سلاح المدرّعات، في قاعدة «شيزافون»، أخبرتها أنّك صديقي، وأنت تتدرّب في مهنة سائق دبّابة لتعبر إلى «غزّة» بعد أقلّ من أسبوع.

ثمّ وضع كفّه على رأسه:

– يبدو أنّ هناك التباساً ما أو سوء فهم، لا تهتمّ... أعتذر.

– صحفيّة في القناة 12؟.

– كلاّ، في «هآريتس».

خفق قلبي فجأة، إنّها السّيّدة «ليزا» أم «أتارا»، لا شكّ في ذلك.

إندمجت معه مركّزا، فأكّد أنّها ذكرت إسمي دون قصد، حين أرادت إلتقاط صور للّواء 401 المدرّع، الذي فقد الكثير من جنوده، فردّ عليها أحد الضبّاط الأشكيناز بعلوّ وعنجهيّة ألاّ تهتمّ، هذا ما يحدث في كلّ الحروب، ومن المؤكّد أنّ المدارس العسكريّة ستسدّ النّقص، وإن لم تكفي فسنجنّد مرتزقة من خارج إسرائيل، مهما كلّفنا المشروع من مال، ثمّ ذكرت له –مقدّمة إسمي الكامل– أنّ خطيب ابنتها هناك، يتدرّب ليصبح ضابطاً على دبّابة «ميركافا 5»، وسيكون هنا مباشرة في اللّواء 401 بعد تخرّجه.

أكملت حديثها مع الضّابط، فاقترب منها «أفيخاي» مستفسرا عن الإسم، ومنوّها أنّه يعرف شخصا يحمل الإسم ذاته والأوصاف؛ يقيم معهم في مساحات تحشد الجنود، وأعطاها حتّى عنواني هنا لزيارتي إن أرادت التّحقّق بنفسها.

عانقته والفرحة تكاد تفجّر صدري، وعلامات الدّهشة على وجهه، لم يستطع استيعاب شيء، وانقلب همّي انشراحا وبهجة، وأنا متيقن تماما أنّ السّيّدة «ليزا»، ستكون هنا لرؤيتي في أقرب وقت، وشكرت الرّبّ على نعمه.

بعد أقلّ من أربع وعشرين ساعة، حوالي السّاعة الحادية عشرة صباحا، كانت هنا تبحث عنّي مثلما توقّعت، ومعها رائحة «أتارا».

أشار لي «ألكسندر» أن أغادر الدّبّابة، كنت قد دخلت مقصورة القيادة للتوّ بعد أن تركت مكاني لأحد المغضوب عليهم، القادم حديثا من «تلّ هاشومير»:

– هناك امرأة تطلبك، تجدها في ذاك المكتب، خذ كلّ وقتك ولا تعد إلاّ بعد الغداء.

ركضت بأقصى سرعتي، ومن لوعتي، إحتضنتها مثلما أحتضن أمّي، كانت وحدها غير أنّي شممت رائحة «أتارا» في ثيابها، وعانقتني طويلا، ثمّ نظرت في عيني:

– وأخيرا «دافيد» وجدناك، بحثنا عنك طويلا، كلّ واحد يقول لنا كلاماً مختلفا.

ثمّ مسحت دمعة كانت تهمّ بالنّزول:

– المهمّ أنت هنا.

مسترسلة في الحديث، ومستمعا لها دون مقاطعة، متوتّراً، مستعجباً، وحائرا، أنتظر أن تظهر «أتارا»، لأراها أمامي وأحتضنها، كما كنت أنتظر أن تتحدّث عن تاريخ نشر المستندات في «هآريتس»، بيد أنّها لم تتطرّق لهذا الجانب، بل ركّزت على شيء آخر أقلقها.

من أجل تغطية مجريات الحرب، دخلت «غزّة» مع مجموعة من الصّحفّين من القناة 12 و14 الإسرائيليّة، في البداية، لاقت صعوبة في قبولها، كونها من «هآريتس»، الصّحيفة التي تؤرّق صنّاع القرار في «تلّ أبيب»، لنشرها مواضيع لا تعجبهم، جاعلة مبدأ حرية التّعبير، وحقّ المواطن الإسرائيليّ في معرفة ما يدور في وطنه؛ أولى أولويّاتها، غير أنّ بعض الضّباط المحبطين من سير العمليّات القتاليّة، سهّلوا لها المرور، على أمل أن تتطرّق للخطّة المفتقدة التي يجب أن تتوفّر، من أجل خوض حرب مفهومة على الأقلّ، بيّنة الأهداف.

«غابي» ما زال مختفيا، وعائلته أودعت بلاغاً لدى الشّرطة، وأمّه في غاية القلق عليه، وهناك أدلّة جديدة على أنّ موت «بابلو» كان بفعل فاعل، ولم يكن مجرّد حادث مرور عاديّ مثلما أشيع في الأخبار.

لقد وجدت الشّرطة كاميرا صغيرة جدّا مخبّأة بعناية في السّيّارة، تنقل على المباشر كلّ شيء، صوتاً وصورة، لقد اعتقدوا أنّي سأعود برفقته، لهذا أرادوا التّخلّص منّا بحجر واحد، لكن بقائي في «أوفاكيم» أدّى لتغيير الخطّة، بحيث أزاحوا «بابلو» عن طريقهم، كي لا يخرج الموضوع عن حيّز السّيطرة.

هم الآن ينتظرون أن يعرفوا مكان المستندات، ثمّ يتخلّصوا منّي، وما دمت لم أذكر اسم «غابي» في السّيّارة؛ فهذا معناه فقدانهم للخيط الموصل لبقيّة التّفاصيل، تأكّدت الآن أنّهم لن يقتلوني، ما داموا لا يعرفون مكان المستندات، بل سيراقبونني من بعيد، حتّى يتّضح لهم كلّ شيء، كما لن يرسلوني إلى «غزّة»، لأنّهم سيخشون عليّ من «كتائب القسّام».

سأعيش من الآن فصاعدا مثل الإمبراطور.

من أجل تعميق تحقيقها؛ زارت السّيّدة «ليزا» عائلة «بابلو» في جنوب «تلّ أبيب»، لتقديم التّعازي، ولتتعرّف أكثر على حيثيّات قدوم «إدواردو تسيحاي» إلى إسرائيل، فاكتشفت أنّ كلّ من أحضرهم معه غير مؤمّنين اجتماعيّا، حتّى السّاعة، فيما رفضت أمّه أن تكشف عن اسم من تولّى استقدامهم، قائلة أنّ ذلك يندرج ضمن عمليّة سريّة، وأنّ هناك من أكّد عليها مرارا أن تبقى في إطار الكتمان، إذا أرادوا الإستقرار هنا نهائيّا، لأنّ صفتهم ما زالت في نظر القانون لم تتجاوز مرحلة اللّجوء.

وحين خرجت من عندهم، رأت سيّارة تسير خلفها، فقرّرت حين تأتي هنا أن تتخذ جميع احتياطاتها.

بقدر ما أراحني كلامها بقدر ما وتّرني، هل يُعقل أن يُستغل «بابلو» وعائلته معه بهذا القدر من البشاعة؟، وأين؟، هنا في إسرائيل؟، أين هي الإنسانيّة؟.

ثمّ من هذا الذي استقدمه بهذه الطّريقة الغريبة المريبة؟، وماذا يريد منه بالضّبط؟.

يبدو أنّ «بابلو» لم يكن مطمئنّا لما يحدث، وانتابته الشّكوك، فخلُص إلى البحث عن طريقة جيّدة لتأمين نفسه وأسرته، فاختلس المستندات التي أنا شخصيّا لا أعرف مكانها الآن، الوحيد الذي يعلم مكانها هو «غابي»، والكلّ يبحث عنه، ولا أحد يعرف مكانه، ويجب أن نصل إليه، لِيُنشر الموضوع بالأدلّة التي تدعّمه.

ما هذه المشاكل التي تأتي متسلسلة؟، كأنّ مشكلة واحدة لا تكفي؟... تبّا لهذه الحرب.

(33)

أحاول الإنغماس في التّدريب قدر المستطاع، وإشغال ذهني كي لا تسحبني الأفكار السّلبيّة مجدّدا، وأحيانا يشجّعني لطف الملازم «غريغوري» على طلب مساعدته، على الأقلّ استشارة بسيطة تخفّف من شدّة أمواجي المتلاطمة.

هل تعرفون ما معنى مجالسة «غريغوري»؟.

معناه أنّه قد لمس في مجالسه حبّه وشغفه للتعلّم، وإلاّ لما نظر إليه أصلا، لكنّي حين أتذكّر عواقب هذه المساعدة، أعدل عن الموضوع برمّته.

أشقر بقامة تتجاوز المائة والتّسعين سنتيمترا بقليل، وعيون خضراء وأنف ضخم بارز، ومنكبين عريضين يوحيان بقوّة جسميّة هائلة، أوصاف تفسّر وافية انتمائه لأصول صربيّة عريقة، وحين أحدّثه عن أبي، يفتخر بوالده الحاخام، الذي شارك في مجزرة «سيربرينيتشا»، في 1995 ضدّ المسلمين، وامتدّ هذا الحقد الدّفين لكلّ العرب أينما كانوا، وخاصّة لّما قتلوا حبيبته «ليا بن نون»، صاحبة التّسعة عشر عاما، القناصّة البارزة في كتيبة «الفهود».

هذا هو «غريغوري»، ذو التّسع والعشرين سنة، المنتمي للواء «كفير» الهندسيّ لتفجير الأنفاق، وهو صديق حميم للنّقيب «يارين غالي»، الذي قُتل في جنوب القطاع، يوم الثّامن عشر من ديسمبر 2023.

كانت ليلة صافية صفاء عيني «أتارا»، برّاقة النّجوم، كاللّيالي التي يحبّها «عزرا»، أشعل سيجارة لأوّل مرّة وراح ينفث دخانها متمهّلا:

– نحن نخوض حرباً فاشلة؛ سنُهزم، لا محالة، حتّى ولو ثابرنا على إقناع أنفسنا بالإنتصار.

– لدينا جيش قويّ، وعقيدة عسكريّة هي من أفضل العقائد العسكريّة في العالم.

نظر إليّ وعينيه تدمعان من تأثير التبغ، بابتسامة تحوّلت لضحكة ساخرة:

– دعك من هذا الذي يحشون به أدمغتكم في المدارس العسكريّة، إنّها مجرّد نظريّات وأفكار طوباويّة لا تمتّ للواقع بصلة، دولتنا قائمة على عنصر الخوف يا «دافيد»، لا تدع أحداً يخدعك، لا تسمح لأيّ كلب

بالنّباح عليك، ألا ترى حين تطلق صفّارات الإنذار في «حيفا» و«تلّ أبيب» و«أشكلون»، كيف نختبئ كالفئران في الملاجئ، ما يقال لدينا في الإعلام كذب في كذب؛ «نتانياهو» و«أدرعي» و«غالانت»، كلّهم يعرفون أنّهم يكذبون، لكنّهم مصرّون على الكذب حتّى يصدّقوهم، حتّى يحافظوا على مناصبهم المالية، كلّ ما فعلناه منذ حرب الإستقلال وسنفعله لن يفيدنا بشيء، العمليّة تلو العمليّة، ولا نتيجة نهائيّة وصلنا إليها، لأنّ هذه الأرض ليست لنا «دافيد»، نعم هذه الأرض ليست لنا... ولن تكون لنا، نحن نضيّع الوقت والمال والجهد والأرواح، من يريد التّمسّك بكلّ شيء سيفقد في النّهاية كلّ شيء.

كأنّ شخصا ألقى عليّ دلوا من ماء مثلج:

– الأرض التي وُلدت عليها ليست لي؟، هل هذا معقول؟.

ثمّ نظرت إلى قسمات وجهه الذي بدا حزينا متسائلا في قرارة نفسي:

– أليس فيها بيتنا وبيت جارنا الطّيّب السّيّد «ريكاردو»؟، والثّانويّة وحبيبتي «أتارا» وسيّارة «غابي»؟، أيكذب أبي؟.

كأنّه قرأ أفكاري، هزّ رأسه نافيا، ثمّ أخرج صورة زوجته وابنتيه، ساحقا ما بقي من عقب السّيجارة، وراح يقبّل خاتم الزّواج قبلة طويلة، وأكمل حديثه محدّقا فيما أخرجه، بدموع احتشدت في عينيه:

– «القسّام» يدافعون عن شرف أرض المسلمين المقدّسة التي اغتصبناها منهم حين أسّسنا دولتنا، هم ليسوا إرهابيّين كما يحاول قادتنا إقناعنا به... هم أصحاب الأرض الحقيقيّين، أبي حاخام «دافيد»، ويعرف الإسلام جيّدا، لقد مشينا في هذا الطّريق منذ 48، ووصلنا إلى نقطة لا نستطيع العودة فيها إلى الوراء، لا نستطيع الإعتراف فيها بأخطائنا، لقد اتّبعنا مجموعة من الصّعاليك الذين كانوا يبحثون عن المجد بأيّة وسيلة، فوجدوه في الزّعامة، «هرتزل»، «بن غوريون»، «غولدا مائير»، «رابين»، والمئات منهم، ونحن الآن ندفع الثّمن باستمرار، وبكلفة ترتفع شهراً عن شهر، وسنة عن سنة، ضع هذا نصب عينيك «دافيد»، لا تدع أحلام المراهقة تأخذك إلى الغمام، تذكّر هذا جيّدا، فربما لن نرى بعضنا بعد اليوم أبدا.

وانصرف لينام، وكلّما لفظ إسمي تأخذني قشعريرة غريبة.

وبقيت عباراته في خلدي كلّما خلوت بنفسي.

أكملت دورتي التّطبيقيّة الصّرفة في السّياقة، وأنا متأكّد أنّ مشكلتي الأساسيّة لا وجود لها، لن أذهب وراء السّياج الفاصل، أو –على وجه أدقّ–؛ لن يستطيع أيّ أحد إرسالي إلى هناك، مهما كان نفوذه، ما دام مكان المستندات مجهولا، وعليه فقد بقيت لا أراوح مكاني، حتّى أنّ الرقيب «ألكسندر» تعجّب من كوني ما زلت مع الجنود، وقد وقّع بنفسه على محضر إتمامي للدّورة بنجاح، ثمّ وصله أمر يقيني معه كمساعد، أمّا صديقي «موشيه»، فقد دفع الثّمن غاليا يوم الثّاني من جانفي 2024.

صدمة بمعنى الكلمة، أدّت لدخوله العيادة وهو في حالة انهيار عصبيّ، من أجل تلقّي علاج تقدّمه مختصّة نفسيّة، بذلت كلّ ما في وسعها لتعيده للجبهة في أسرع وقت، لأنّ القيادة رفضت سحبه من القتال، أو حتّى

إدخاله المستشفى، رغم الكوابيس التي توقظه صارخاً في اللّيل، وعرقه البارد المتصبّب على وجهه وجسده، متلفّظاً بعبارات بذيئة، كلّها سبّ ولعن للضّابط الذي أمره بسياقة جرّافة «D9»، المتقدّمة رفقة الدّبّابات.

لقد رجع ذلك اليوم بوجه أصفر، كأنّه رأى ملك الموت أمامه؛ لم يكلّم أحدا حينها، ولم يستطع الوقوف على قدميه، حتّى أخذوه للكشف الطّبّيّ العام.

– رأيته «دافيد»، لقد رأيته، كان قبالتي وجها لوجه، تخطّاني بسرعة ووجّه القذيفة للدّبّابة، التي انفجرت أمامي في ثانية واحدة، سار كلّ شيء مثل الفيلم، في سرعة لا يستوعبها عقل بشر.

بعد يومين أراني أحدهم فيديو التّفجير كاملا، كانت هناك جرّافة واقفة مع دبّابتين تتقدّمان، ثمّ ظهرت علامة المثلّث الأحمر على الدّبّابة الأولى، وفي لمح البصر خرج مقاتل من «كتائب القسّام»، من مكان ما بنشاط عجيب، مرّ بجانب جرّافة «موشيه»، مطلقا قذيفة «ياسين 105» نحو الدّبّابة التي كانت في الأمام، لتتفجّر مخلّفة كرة كبيرة من اللّهب والنّيران.

لمست مدى فظاعة التّجربة التي مرّ بها، التّجربة التي حتّمت على «جودي عشيرات» أن تتناول دواء للإستفراغ المعدي، متظاهرة بالمرض، ومؤخّرة إرسالها وراء السّياج أسبوعاً على الأقلّ.

كلّ الأهداف هناك يضعون عليها مثلّثا أحمر؛ ثمّ فجأة تنطلق القذيفة في أقلّ من ثانية واحدة، أو تفجّر بعبوة «شواظ»، أو بعبوة «العمل الفدائيّ».

يا ربّ «موشيه»، ما هذا؟!، كلّ التّحصينات التي تمّ تطويرها وأُنفقت عليها الملايين، أضحت دون جدوى، وحتّى المشاة الرّاجلون، مستهدفون؛ يأبى هذا المثلّث اللّعين أن يفارقهم، مثلّث واحد، وأحيانا ثلاثة أو أربعة مثلّثات، تُظهر المعنيين بالقتل، ثمّ يتولّى قنّاص مهمّة إسقاط الهدف، أو تتكفّل بهم عبوات فتّاكة، مزروعة في الأرض وبين الأنقاض.

إنّهم يوثّقون هجماتهم بطريقة يخلّدها التّاريخ والأجيال اللاّحقة، هم يعرفون جيّدا ما يريدون؛ يخرجون من تحت الأرض، ليضربوا أهدافهم الدّسمة، ليصطادونا، هؤلاء ليسوا عصابات مخدّرات وتهريب كما أخبرونا في «شيزافون»، أو كما يُشاع عنهم في الإعلام، المهرّبون وعصابات المخدّرات ليست لهم وحدات قتاليّة متخصّصة في الهندسة والقنص والدّروع، أيّ تدريب تلقّوه كي يقاتلوا بهذه المرونة والسّلاسة والشّراسة في آن واحد؟، ما هو سرّ هذا النّشاط وهذه الرّوح القتاليّة العالية؟، أيّ جنديّ هذا الذي يستطيع التّسديد القاتل على دبّابة تتحرّك وهو يتحرّك معها؟، إن لم يكن قد تلقّى تدريباً عالي المستوى، يوحي بالرّؤية الإستراتيجيّة التي تتمتّع بها قيادته؟، أو... كان الرّبّ معه.

«غزّة» مستنقع غادر كما يقول عنها أبي، فقد قاتل فيها قبل خطة «فكّ الإرتباط» ويعرفها جيّدا... مثلما يعرف أمّي.

في «غزّة» يختفي الأصدقاء بسرعة أكبر من السّرعة التي يختفي بها أصدقاء قاعدة «شيزافون» في صحراء «النّقب»، الصّداقة هناك شيء والصّداقة هنا شيء آخر، حين تتفجّر مشاعرك فجأة، فتجد نفسك تعانق

صديقك بشدّة، تسحق بها ضلوعه، ثمّ يعود مساء جثّة هامدة يحويها تابوت، بعدما كان في الصّباح يتناول فطوره أمامك، يمازحك ضاحكا، أو يتحدّث مع خطيبته أو زوجته، هذا ما حدث للكثيرين مثل «ألكانا نيولاندر»، الذي قُتل في وسط القطاع في معركة ضارية، في التّاسع جانفي 2024، وأمثال «سفيان ديجيف»؛ «أليراز غاباي»؛ «هرئيل إيتاش».

على الأقلّ، هؤلاء عادوا قطعة واحدة، أمّا «ناريا زيزاك» الذي أُرسل إلى «جباليا»، فقد عاد أشلاء ممزّقة، مجموعة في تابوت مختوم لا يفتح، بعد يومين فقط من إرساله، أي في الخامس والعشرين من ديسمبر 2023.

نفس الشّيء حدث مع «أفيخاي هرغوبي» صديقي الحميم، الذي استهدفوه بقنبلة مزّقته إربا، تاركا ابنته «جاكلين»، ذات الثّمانية أشهر، تكبر دون وجه أبيها الصّبوح، ومرمّلة زوجته التي انتظرته كلّ يوم سبت.

مات «أفيخاي» وهو ينتظر وعد «نتنياهو» بعودة السّكّان إلى مدنهم التي هُجّروا منها بسبب هذه الحرب، التي بدأت يوم السّابع أكتوبر 2023، وتكلّفنا يوميّا ستين مليون دولار، كلّه على حساب رفاهيّة المواطن الإسرائيليّ، الذي صدّق وعود الأطفال، وما زال يصدّقها منذ 1948، حرب الإستقلال.

(34)

– خسائرنا تتفاقم ويجب إيجاد حلّ لهذه المهزلة في أقرب وقت.

هذا ما جلجل به أحد الضّباط ببصاق ينقذف من بين أسنانه، صبيحة يوم من أيّام شهر جانفي، في جولة تفقّديّة لعيادتنا، ثمّ تحوّل لمعاينة الدّبّابات المتضرّرة.

– الوغد، ليذهب إلى مكان آخر، ألا يرى أنّنا جرحى ولا نستطيع القتال؟.

وهذا ما أجاب به أحد المجنّدين بصوت مسموع بينه وبين نفسه.

بعد أربع وعشرين ساعة اختفى المجيب.

وبعد اختفائه بأيّام، تمّ إقحام كتيبة «كاراكال 33» في الأعمال القتاليّة، وبدأ التّنسيق واضحاً لّما بدأنا بالتّدريب المشترك على المهاجمة، والمناورة مع إسناد المشاة، كان البعض متحفّظين من القتال مع امرأة، مثلي تماما، فقد تذكّرت «شلومو» و«رفائيل»، لكنّ «غريغوري» اعتبر أنّ ما يجري فضيحة أخرى من الفضائح التي تُضاف لرصيد جيش الدّفاع، قتلانا بالمئات، ولا أحد يناقش الموضوع، بدعوى أنّه سرّ من أسرار الجيش، وها نحن نصل إلى نتيجة تعكس فشلنا، بل ضبابيّة رؤيتنا الإستراتيجيّة.

– تبّا لهذه الحرب، نحن نموت هنا و«بنيامين» يحافظ على ابنه «يائير» هناك في «فلوريدا»، سليما معافى في القطن، مثل ساعة جيب سويسريّة، تبّا، تبّا.

وبصق على الأرض في غيظ شديد، إحمرّت بسببه عيناه، وأكمل كلامه ثائرا:

– لم يبق إلاّ النّساء الآن، سنحميهنّ أم نحمي أنفسنا؟.

ثمّ ارتدى خوذته واختفى بين الدّبّابات والآليات المتوقّفة، لتأتي بعده بأقلّ من ساعة، شاحنات تحمل مجنّدات ينتمين للكتيبة «كاراكال 33».

لحظة... كأنّي لمحت امرأة أعرفها، أو هكذا تخيّلت، وسط العشرات من النّساء المختلفة الأشكال والألوان.

مسحت زجاج نظّارتي ودقّقت جيّدا...

نعم هي، بعينيها العسليّتين، ووجهها المكتنز الذي علاه هذه المرّة شحوب واضح، صعّب عليّ تمييزها من مسافة بعيدة.

قسّمونا لمجموعات، كلّ واحدة فيها مجنّدتين وأحيانا ثلاث مجنّدات، يأتمر الجميع بأمر ضابط، كانت مجموعتي تحوي الضّابط القائد «تسفي ماتياهو»، وأنا السّائق، مع مجنّدة كمدفعيّة إسمها «إليشيفا كوهين»، ومجنّدة أخرى كمحمّلة قذائف، إسمها «تامار بلوخ».

سار كلّ شيء تماما على ما يرام، وخاصّة التّمرين الميدانيّ الذي يحاكي عمليّة دعم مدرّع للمشاة، مستمرّون في هذه المناورات الشّاقة المجهدة للأعصاب، من السّاعة الثّامنة صباحا، إلى السّاعة الرابعة عصرا، دون انقطاع.

ومع حلول اللّيل، كان التّعب قد أخذ منّا كلّ مأخذ، كنت مغتبطاً مزهوّا بنفسي، متأكّد أنّهم لن يرسلوني هناك وراء السّياج، عكس «تامار» ذات العشرين سنة، التي أخبرتني أنّها تكره الدّماء، منذ أن خطفوا قريبتها «عدين ياروشلمي» القادمة من «تلّ أبيب»، والتي كانت برفقتها في حفل «نوفا» الموسيقيّ.

منذ ذلك التّاريخ؛ أصابتها فوبيا الدّمّ، خائفة لأنّها المرّة الأولى التي ستقاتل فيها، وسترى الدّماء أمامها، إنّها تدعو الرّبّ في صلواتها أن تكون في مأمن من أيّ هجوم، كانت صريحة لأبعد حدّ في مسألة الحرب، وبدت لي مثقّفة من أسلوبها في الحديث، والمصطلحات العلميّة التي تستعملها:

– لا أريد أن أقتل أيّ شخص، أنا هنا مكرهة، رغما عنّي، سيزجّون بي في السّجن لو انسحبت، يا ربّ «موشيه»، هل يجب أن أفعل شيئا بنفسي كي يدَعوني بسلام؟.

بعد يومين، تمّ إلغاء التّدريب المشترك بين المجنّدين والمجنّدات بقرار حاخاميّ، ثمّ انقسمت الآراء حول كيفيّة توظيف «كاراكال 33» في عمليّات القتال الدّائرة في «غزّة»، منهم من يقول أنّهم سيتولّون زمام المبادرة مثلهم مثل الرّجال، وآخرون يقولون أنّهم سيحتفظون بهم كتشكيل دعم قتاليّ، ومنهم من يقول أنّنا سنتركهم في المناطق المسيطر عليها، بعد تطهيرها تماما من «كتائب القسّام».

– شئنا أم أبينا؛ لدينا تخبّط واضح في الرّؤية الإستراتيجيّة، ناهيك عن أهداف الحرب، والأخطاء الجسيمة التي تُرتكب باستهتار.

كلّهم يقولون ذلك، ولا سيما من دخلوا «غزّة».

لقد تشاجر «غريغوري» مع الضّابط الذي يعلوه رتبة، بسبب رفضه نقل الجنود مع المتفجّرات، معتبرا أنّ هذا يعارض كلّ الأعراف العسكريّة الدّوليّة، وإذا لم يحدث شيء في المرّة الأولى والثّانية؛ فهذا لا يعني أنّ الخطر مستبعد دائما، وسيأتي يوم يحدث فيه حادث، يدفع فيه الجميع الثّمن باهظا، عن المرّات السّابقة، وسنرى كيف ستتصرّف القيادة الحكيمة التي تعجز بعد مرور ثلاثة أشهر من بداية هذه الحرب، عن قراءة متفحّصة، ومتأنّية للمشهد العسكريّ، مقابل التّنظيم الصّارم للمقاومة بكلّ أطيافها، وتحكّمها في كلّ شيء في الميدان.

الكلّ متأكّدون من أنّنا لم نقم بما يكفي لدعم وتوجيه من أرسلناهم للموت هناك، وعليه يمكن تفسير كثرة القتلى والإصابات التي يتكتّم عليها الجيش، والصّمت المطبق حول تحرير أو تبادل الأسرى، الذين يتعذّب ذويهم بغيابهم، بعد أكثر من ثلاثة أشهر من الإختطاف.

إنّهم يحاولون بكلّ قواهم أن يفعلوا شيئا، كالمسيرة التي نظّموها قرب السّياج الفاصل باستخدام مكبّرات صوت ضخمة، كنّا نسمعهم قرب كيبوتس «نير عام»، يردّدون عبارات تشجيعيّة، على غرار «نحن معكم لا تيأسوا»، «لا تفقدوا الأمل، سنحرّك السّماء والأرض من أجلكم»، حسبما نشر في موقع «أخبار إسرائيل 24»، يوم الخميس الحادي عشر جانفي 2024، وأطلعني عليه صديقي الملازم «غريغوري»، الذي يبصق في الأرض كلّما يشعر بضيق:

– ماذا يفعل هؤلاء الحمقى؟، هل الأسرى فوق الأرض حتّى يسمعوا صياحهم؟، إنّهم في الأنفاق، وربما تحتنا الآن، الحكومة فاسدة والجيش فاسد، لا يهتمّان إلاّ بمصالحهما الخاصّة.

ثمّ نظر إليّ في عصبيّة:

– هل تعرف بروتوكول «حنّبعل»؟.

– لا، لم أسمع به من قبل.

– بالطّبع لم تسمع به من قبل، أنت مجنّد جديد، إنّه بروتوكول سرّي في الجيش يقول أنّه يمكن قتل الجندي الأسير أو الذي في طريقه للأسر بأيدينا كي لا يتحوّل مستقبلا لورقة ضغط.

حاولت التحلّي بالهدوء قدر استطاعتي، وألاّ أرسم على وجهي أيّ تعبير، وما حيلتي أمام الذّهول الذي اعتراني مقابل جملته التي هزّت كلّ ذرّة في دماغي؟.

ها أنا ذا أضع يدي الآن على تفسيرات حقيقيّة في غاية الغرابة لعدّة أشياء، لم أجدها منطقيّة ساعتها، فقد نشرت صحيفة «هآريتس» مقالا يوم السّبت الثّامن عشر من نوفمبر 2023 لم يقنعني، أطلعتني عليه السّيدة «ليزا» حين كنت في منزلها، نتناقش حول موضوع نشر مستندات «بابلو»، فحواه أنّ مصدراً رفيعاً من الحكومة أكّد أنّ هناك مروحيّة انطلقت من قاعدة «رامات دافيد»، متلقّية الأمر بإطلاق النّار على كلّ من تراهم يعودون لقطاع «غزّة»، حتّى ولو كانوا رفقة رهائن، بل وأطلقت قذائفها عليهم، بما يفسّر وجود جثث ممزّقة محترقة متفحّمة، فهل من المعقول أن تقوم «كتائب القسّام» بحرقهم وتمزيقهم؟.

نعم جيش الدّفاع الإسرائيليّ هو من أحرق مائتي شخص، نساء ورجالا، كانوا في حفل «نوفا» الرّاقص، وهو نفس الجيش الذي قتل «إيليا توليدانو» وأصدقائه، يوم الخامس عشر ديسمبر 2023، حين رفعوا الأعلام البيضاء، مستسلمين للذين من المفروض أن يحضنوهم بكلّ ترحيب، فكيف يتحوّل خير منقذ لشرّ قاتل؟.

للأسف... نحن من نقتل مواطنينا قبل أن تقتلهم «كتائب القسّام»، ونحن من نحرقهم أحياء بالصّواريخ موازاة مع نيران الإشتياق واللّوعة.

ثمّ ذهب ملمّحا لي أنّه سيبعدهم من هنا لأنّهم يثيرون أعصابه، بينما جلست مسنداً ظهري لجتزير إحدى الدّبابات المعطوبة، مرتديا وشاح أمّي الأبيض، أمنّي نفسي من خلال النّظر في صورة «أتارا»، وهي على ظهر الجواد الأسود، الصّورة التي أعتبرها أحبّ ذكرى بصريّة أحملها معي أينما ذهبت، وأنقلها من موضع لموضع، ومن مكان لمكان، أعيد من خلالها أمجاد فؤادي أروم شحنه والأنس، ومغبطا هذا الحيوان على حمله لهذا الملاك.

– هل تسمح بسؤالك؟.

رفعت رأسي لأرى من صاحبة هذا الصّوت الرّخيم.

كانت هي بشحمها ولحمها واقفة أمامي بلباسها العسكريّ المشدود، وعينيها العسليّتين.

قفزت من مكاني كالذي يرى ضابطاً رفيعاً، غير مصدّق أنّ «باولا» المغرورة بجمالها تحدّثني، آه لو يراني «شلومو» الآن، وأنا أقف أمام هذه المعجزة الأرجنتينيّة، صنيعة الرّبّ.

– كيف كان «بابلو» معك؟، أنت «دافيد» صديقه المقرّب، أليس كذلك؟، دائما أراكما مع بعض، كأنّكما توأم.

– ما وراء هذه الماكرة؟، لقد قُتل «بابلو» وانتهى الأمر، لماذا تجري خلفه الآن؟.

لم أرتح لها في البداية، لكن مع صدق حديثها، وجدت نفسي أسرد لها كلّ شيء، من تاريخ لقائنا إلى غاية حادث المرور المشؤوم الذي أودى بحياته، الخبر الذي عرفته كغيرها من التّلفزيون، وأدخلها في أزمة صحّيّة.

محاولاً استشفاف ما تفكّر فيه، وجدت نفسي أتجرّأ وأخبرها عن «مارغاريتا» قصّة حبّه، التي تركها هناك في «السّودان»، وعن المستندات السّرّيّة التي أراد تأمين نفسه بها، وعن العصابة التي استغلّت جهله، وحاولت استعباده لمصالحها الخاصّة.

كانت دموعها تجري في صمت، غير آبهة بالمجنّدين ولا بالمجنّدات الجديدات الذين كانوا يحاولون تفحّص الموضوع، ماسحة أنفها من حين لآخر ببعض المناديل الورقيّة، في حين لاحظت أنّ عطرها الذي يمثّل راتب شهر قد غاب عنها هذه المرّة.

«بابلو» لم يكن مثل باقي الرّجال الذين رأتهم في حياتها، لم يكن يشبههم بأيّة صورة من الصّور، كان عملة ذهبيّة وأغلى من الذّهب، كان نادرا ونفيسا أكثر من الألماس، غير منساق لشهواته، ولذلك لفت انتباهها، أحسّت أنّه هو الوحيد الذي سيتحمّل مسؤوليّتها كزوجة، وسيحافظ عليها من غدر الزّمن، ثمّ أخرجت التّوراة التي كانت تحملها معها، وأقسمت أمامي أنّها كانت تحبّه وما زالت تحبّه، بل زادها موقفه منها في المطعم تمسّكاً به لأقصى درجة، كونها لمست إخلاصه لشيء تجهله.

في لحظة، تغيّرت نظرتها لتتحوّل إلى قطّة شرسة، كالوشق الذي سمّيت كتيبتها على اسمه:

– أقسم بربّ السّماء والأرض أن أنتقم له، ولو كان آخر يوم في حياتي.

يا لحظّك يا «بابلو»، لو تعرف الآن من تقسم لأجلك؟.

وانتهى حديثنا كما بدأ، أكثر من ثلاث ساعات، كانت كافية لتفتح لي قلبها وتطلعني على بواطن ما كانت تخفيه، جلسة واحدة جعلتني ألمس عن كثب ما تكنّه لسعيد الحظّ هذا الهارب من أتون الحرب في «السّودان»، فما كان بيدي إلاّ أن أوصيتها بضرورة التّنسيق مع السّيّدة «ليزا» حين تسرّح من الخدمة، وتبحث عن «غابي» في سريّة تامّة، فهو الوحيد الذي يعرف مكان المستندات، وأن تعرف جيّداً مع من تتحدّث أو تتعامل.

التهوّر هنا معناه التّحييد، دون إثارة شكوك، معناه القتل تحت أيّ غطاء يضمن غلق الملّف نهائيّا، مع عدم فتحه لأيّ سبب من الأسباب.

بعد أيّام كانت «باولا» في فندق «ليوناردو»، الواقع في شارع «هنرييتا سولد» في «بير شيفا»، مقرّ عملها الأصليّ، لقد سُرّحت في إطار خطّة الحكومة خفض جنود الإحتياط لإنقاذ الإقتصاد المتهالك من نقص اليد العاملة، التي استُنفرت للحرب منذ السّابع من أكتوبر الماضي، لكن هذا لا يمنع كونها تحاول إطالة مدّة الحرب، لينشغل الإسرائيليّون عن أمور الفساد المستشري فيها، فضدّ «نتانياهو» اتّهامات خطيرة بالرّشوة والفساد، وهو يتهرّب دائما من العدالة، لأنّه يعرف مسبقا أنّه مدان، وسيتعفّن في السّجن مثل «إيهود أولمرت»، نحن من يعاني هنا من ويلات المثلّث الأحمر الذي لا يرحم أحدا، بينما ابنه المدلّل «يائير»، ذي الإثني والثّلاثين سنة، يعيش في شقّة فاخرة في «فلوريدا»، تحت حراسة أمنيّة مشدّدة، وجميع تكاليفه ندفعها نحن من الضّرائب، يدفعها أبي وأمّي والسيّدة «ليزا»، و«أتارا»، وجارنا الطّيّب السّيّد «ريكاردو»، و«غابي» والآخرون.

هل هذا من العدل في شيء؟.

تبّا لإسرائيل التي يتحدّثون عنها؛ أرض اللّبن والعسل، تبّا لشاربي اللّبن وآكلي العسل، للجالسين في مكاتبهم في «تلّ أبيب»، ونحن هنا نأكل القذارة كما تأكلنا النّار.

لقد وصل الأمر إلى سرقة الضبّاط مخصّصات الجنود، بل حتّى الإقتطاع من رواتبهم بطريقة ما، وبشكل بسيط كي لا يُكتشف شيء، ثمّ إلى غياب الأكل الصّحيّ الكامل، ليتمّ بيعه لجهات أخرى، دون الحديث عن إهمال الحالة النّفسيّة للعائدين من خلف السّياج.

«موشيه عسيفا» عيّنة بسيطة ممّا يحدث هنا.

أغلب الذين ألتقيهم من الذين قضوا أيّاماً هناك، يعانون من مشاكل نفسيّة عويصة، يحاولون إخفائها بعزّة نفس، يتظاهرون بالتّماسك والصّلابة، ويكبتون ضغوطهم، في حين أنّهم يتحوّلون إلى وحوش عند ملاسنة بعضهم البعض.

وحتّى الأطبّاء النّفسانيّون؛ أصبحوا عاجزين تماماً عن إرساء حلول جذريّة لهذه الأزمة، التي باتت تهدّدنا جميعا، إذ كلّ جهودهم المبذولة لا تخرج عن إطار واحد، ممارسة أفعال روتينيّة من أجل الحفاظ على منصب العمل الذي يضمن دخلاً ثابتا، أمّا الحكومة، فما زالت تكذب وتكذب، موزّعة تصريحات لا تكلّفها في الواقع شيئا، مثل عجوز تسير في الشّارع، تكسب رضى الأطفال الصّغار، بحبّات حلوى تقتنيها بثمن زهيد.

هل يعلم وزير الدّفاع ما فعلته هذه الحرب التي تباهوا بإعلانها أمام العالم؟.

هل يعلم أنّنا نعيش في مستشفى للمجانين؟.

هلاوس بصريّة، هذيان، تغيّرات سريعة في المزاج، فقدان الثّقة في الآخر، إنتحار، وليس صحيحاً البتّة ما يزعمونه من تكفّلهم التامّ بضحاياها على أنسب وأكمل وجه، إنّنا هنا نواجه مصيرنا بمفردنا، من قُتل قُتل، ومن جُرح جُرح، ولا أحد من القادة الكبار يبالي بنا، وممّا سيزيد الطّين بلّة، خروج إشاعات تقول أنّ وزارة الدّفاع تدرس بعناية شديدة مشروعاً لتمديد فترة التّجنيد.

سحقاً لإسرائيل.

(35)

عاد صديقي «موشيه» للخدمة بعدما رفضوا إخلاء سبيله، عاد وهو ليس «موشيه»، الذي أعرفه ويعرفه الجميع، لقد غابت تلك الإشراقة التي عهدناها في عينيه، تاركة مكانها للكآبة والتّيه والشّرود.

كلّ ما فعلوه له أنّهم أبقوه في منطقة التّحشّد شهرا حتّى تتحسّن حالته النّفسيّة، فأصبح يقضي وقته إمّا متسكّعاً بين الآليّات، أو نائماً داخل إحدى الدّبّابات، وغلبت عليه الوحدة، فنادرا ما أراه يجالس أحدا.

– إنّهم يعالجونه على طريقتهم.

هذا ما أجابني به الرّقيب «ألكسندر كارهي» وهو يقلّب منصرفا أوراقا سلّمها له أحد المحامين.

ذات سبت قرب الغروب بقليل، رأيته يركض وهو يتلفّت خلفه في وجل، يسأل هذا ويسأل ذاك، ظننت في بادئ الأمر أنّه سمع خبرا جديدا عن أخيه المسجون، غير أنّه كان يبحث عنّي لأمر شديد الأهمية والخصوصيّة.

لوّحت له من بعيد فجاءني مسرعا بوجه يغالبه الخوف، لقد سمع ضابطين يتكلّمان عنّي حين كان نائما داخل إحدى الدّبّابات، دون أن يتيقّظ له أحد، رغم أنّ أحدهما كان حريصا جدّا على سريّة حديثهما، بدليل أنّه راح يضرب كلّ الآليّات المتوقّفة أمامه بمسدّسه، ليتأكّد من عدم وجود أيّ شخص داخلها، بينما اعتبر الآخر أنّ الجميع ذهب للمطعم؛ بعدما غادروا دبّاباتهم، وحثّه على التكلّم بسرعة، قبل قدوم أحد المجنّدين أو المجنّدات.

لحظات يتزاحم فيها التّشويق والإثارة والتّرقّب الحذر.

كان أحد الضّابطين «نيتاي»، إبن خالة «آيزنكوف»، بصوته الجهوريّ الغليظ، الذي لا تخطئه الأذن على حدّ تعبير «موشيه»، والثّاني «حنانيا» من سلاح المدفعيّة، صاحب الصّوت الأنثويّ، الذي أكله القلق أكلا، وهو يؤكّد على وجوب التّخلّص منّي بأيّة طريقة ممكنة، قبل أن يسقطوا جميعا مثلما سقط «روعي يفراخ»، متّهما «نيتاي» بالتّخطيط مسبقا للهروب إلى «أمريكا»، إذا تسرّب الماء للسّفينة.

إعتبر «نيتاي» أنّ المسألة منتهية قبل أن تبدأ، لأنّه يراقبني جيّدا، بعيون لا تنام، في كلّ مكان حولي على مدار الأربع والعشرين ساعة، وأنّهم لا يستطيعون قتلي قبل التّحديد الدّقيق لمكان المستندات، التي إن تسرّبت للصّحافة؛ ستكون قضيّة الرّأي العامّ الإسرائيليّ، وستُثار التّساؤلات، وستُفتح ملفّات ثقيلة نُسيت بعد عقود من الزّمن، بل سيتحرّك الكنيست، ومجلس الوزراء، وحتّى فئران المخازن، معترفاً عن واقعيّة أنّي رقم صعب، على اعتبار أنّ أمّ خطيبتي صحفيّة في «هآريتس»، الصّحيفة التي لديها مصداقيّة أكبر من «نتنياهو»، وستسقط السّماء على الأرض إذا حدث لي مكروه، وأنّ أفضل طريقة هي إدخالي لقطاع «غزّة» في الوقت المناسب، هناك سأقتل بلا شكّ، ومن المؤكّد أنّ «كتائب القسّام» ستضع علامة المثلّث الأحمر على دبّابتي، كوني أمثّل لهم عدوّا منطقيّا، وبالتّالي تتمّ تصفيتي دون إثارة شكوك أو تساؤلات أو أيّ ارتياب في الأمر.

كان هادئا يطالبه دوماً بخفض توتّره وصوته، لأنّ الجنود على بعد أقلّ من خمسين مترا، كما أنّه أوضح المسألة من جميع جوانبها لضابط آخر إسمه «يعقوب»، وإن كان ولا بدّ من كبش فداء؛ فالأحمق -على حدّ وصفه- «إيتان عسيفا» في قبضة «الشّاباك»، وسيدفع الثّمن نيابة عن الكلّ.

ثمّ أخبره «حنانيا» أنّ الضابط «يعقوب» طلب كمّيّة كبيرة من ذخائر الدّبّابات، لأنّ الطّلب يتزايد عليها في دول إفريقيّة، والتّهريب إلى هناك أسهل بكثير، وإن تطلّب الأمر دفع رشوة ضخمة، فلا بأس، لأنّ السّوق واسعة جدّا، وسيتمّ تعويض كلّ التّكاليف.

متحمّسا جدّا لفكرته التي سيجنون من ورائها جميعا ملايين الشّواكل، ويحرّكه جشع يخفي ورائه رغبة ما فتئت تتضخّم باستمرار، هو ما أدّى إلى نهره من طرف «نيتاي»، مطالبا بنسيان المسألة كلّها، كأنّها لم تكن من أصلها، فهذا الطّمع سيقلب الطّاولة بما فيها على الجميع، مفضّلا الأسلحة الخفيفة، لسهولة نقلها، وعدم لفتها الأنظار، حتّى ولو كان ربحها من القلّة ما لا يقارن بالرّبح المتأتّي من السّلاح الثّقيل.

ثمّ ساد صمت للحظات، حاكى فيه «حنانيا» أمر الصّمت، ممّا دلّ على قدوم شخص نحوهما، قائلا في همس أنّه سيكون في اجتماع اللّيلة، ومفضّلا مغادرة المكان.

كان «موشيه» يحكي لي وهو غير مصدّق بتاتا ما يحدث، والورطة التي سيجد شقيقه «إيتان» نفسه فيها، إنّه فخّ تستحيل النّجاة منه مهما فعل ومهما وكّل من محامين أكفاء، أو اتّصل بجمعيّات حماية الأقلّيّات في إسرائيل.

لقد تقرّر في الإجتماع أنّه سيكون هو القربان المقدّم للعدالة، شاء أم أبى، وما الذي يستطيع فعله خروف بيد صاحبه سكّين يرمي ذبحه به في كلّ الأحوال؟، هل ينفعه الهرب، أو الإختباء، أو المقاومة؟.

وجدت نفسي ملزما بإيصال ما نقله لي صديقي «موشيه» للسيّدة «ليزا»، على وجه السّرعة، فكّرت أن أرسل شخصا أثق فيه، وراقت لي الفكرة كثيراً، لكونها المسلك الوحيد الذي لا يجب التردّد مطلقا في سلكه.

نهضت صباحاً على أصوات كثيرة متداخلة لما يقارب المائة جندي وضابط، متجمهرين في مساحة واسعة أمام آليّاتهم، كان بينهم صديقي «غريغوري» بجسده الضّخم، وصوته الجهوريّ الذي لا يمكن لأذن أن تخطئه،

يحرّض على العصيان، حتّى تلبّى جميع مطالبهم، ومنها مجموعة من التّجهيزات التي لا تتوفّر داخل إسرائيل، مع قائمة بحوالي عشرين جنديّا، مؤهّلين مدرّبين جيّدا سبق أن خدموا معه.

كما اشتكى الباقون من نقص المعلومات الإستخباراتيّة الدّقيقة، والتّنسيق بين مختلف الوحدات المنتشرة في الميدان من جهة؛ وبين الطّيران من جهة أخرى، مع الإستهتار العامّ، واللاّمبالاة التي تسود الجيش، مؤكّدين أنّه يجب التّعلّم فعليّا وعميقاً من أخطائنا الكثيرة التي لا تُغتفر، خاصّة وأنّ حادث الشّاحنة الذي أودى بستّة جنود وأصيب بسببه ثلاثون آخرون، منهم من قطعت أطرافه؛ ما زال حادثا يوصف بالصّعب، إذا نُظر إليه بموضوعيّة، وعالقا في الأذهان بطريقة لا يمكن وصفها، سوى بفضيحة تسيّب، وكلّ ذلك بسبب نقل متفجّرات في شاحنة كانت تحمل جنوداً للجبهة، في مخالفة صريحة لقواعد السّلامة في هكذا حالات، وفي تناقض مع العرف العسكريّ السّائد في كلّ الدّول.

وقعت الحادثة يوم التّاسع من جانفي الماضي، وكشفتها وسائل إعلام إسرائيليّة، وتكتّمت عليها الحكومة كعادتها، لكنّها اشتهرت هنا في كامل مساحات التحشّد، بل زادت الوضع احتقانا.

لم يقابل طلب «غريغوري» بالرّفض المطلق فحسب؛ بل بإنزعاج شديد من القيادة، التي اعتبرته مجرّد جنديّ رغم كونه ضابطا برتبة ملازم، وموقعه لا يتيح له سوى الإذعان لما يأمره به من هم أعلى منه، فقط دون مناقشتها، أو توجّه إليه تهمة العصيان.

ثمّ أتى الأمر العامّ للجميع مهما كان سبب تخلّفهم بضرورة الدّخول إلى قطاع «غزّة».

نعم، أُجبرنا على التّحرّك إلى «رفح» لمنع «كتائب القسّام» من الإنسحاب جنوباً، وقطع الطّريق الوحيد أمامهم، الذي يمكن أن يتسلّلوا عبره إلى منطقة آمنة.

هكذا كانت الرّواية الرّسميّة، ويا لها من رواية!.

جافانا النّوم تلك اللّيلة، وبكى «موشيه» على الزّنزانة التي وجد نفسه محشورا داخلها، مؤكّدا ومصرّا على استحالة تنفيذ الأمر، لأنّ هناك جحيما ينتظرنا وراء السّياج، بكى على حالته التي آل إليها، وأحلامه التي يراها تتبخّر أمامه كماء القدر الذي يحمله معه، وهو عاجز عن الإتيان بأيّة حركة تدفعه ولو شبرا للأمام.

كنّا نسمع نحيبه وهو يندب حظّه المسكين، وحظّ أخيه العاثر الذي استغلّوه في دولة، يكذب حكّامها على الشّعب، أضعاف أضعاف ما يكذبون على زوجاتهم.

قبل الفجر بما يقارب ساعة أو ساعتين، إستيقظنا فزعين على وقع دويّ طلقة ناريّة لم نعرف مصدرها، خشينا أن تكون المقاومة بيننا الآن، تجتاحنا مثلما اجتاحونا في السّابع أكتوبر الماضي، ثمّ أتت إحدى المجنّدات فزعة طالبة منّا النّجدة، فخرجنا جميعا ورائها، ويا ليتني لم أخرج.

لقد انتحر صديقي «موشيه» برصاصة في الفمّ، بسلاحه الشّخصيّ، وها هو الآن غارق في دمه أمامنا، ننظر إليه مشدوهين، لا ندري ما نفعل من هول المألم، ثمّ بعده بدقائق معدودة، ونحن ما زلنا لم نفق من هول المشهد، سمعنا دويّا آخر لرصاصة من عيار صغير، من مسدّس لمنتحر يبدو أنّه تعيس الحظّ مثله.

في لحظات، إنتشر فوقنا الإحباط العامّ، مثلما انتشرت بيننا عناصر «أمان»، أحسسنا أنّنا نساق للموت رغما عنّا، وتذكّرت ما قاله لي «غابي» قبل أشهر، وتذكّرت معه أبي الذي لن أراه مجدّدا ولن يراني، تذكّرت أمّي ووشاحها الأبيض الذي نسجته لأجلي بيديها، وأنا أمسك بهاتف أحد الأصدقاء في يدي التي راحت ترتعش.

تذكّرت «أتارا»، وعيد ميلادها الذي سيكون بعد أقلّ من خمسة عشر يوماً من الآن، وأنا ما زلت لم أشتري لها هديّة تذكّرها بي... حين أوضع في تابوت تغطّيه قطعة قماش ذات لون أزرق زاهٍ، بنجمة سداسيّة، لم تعد لها أيّة فائدة الآن.

▼

قد يعتقد البعض أنّ المشكلة في حرب العصابات هي جهلهم بمكان تواجد العدوّ على وجه التّحديد، قد يكون الآن أمامك، وفجأة يختفي ليظهر خلفك، ثمّ عن يمينك، ثمّ عن شمالك، ثمّ تأكله الأرض كأنّه شبح.

لكن الطّامة الكبرى هي أنّ تغادر هذا العالم دون أن تكون مستعدّا للمغادرة.

هذا هو بالضّبط ما نعانيه في قتالنا مع «كتائب القسّام» في قطاع «غزّة»، وباقي فصائل المقاومة التي تساندها.

وهذا هو ما حدث للوشاح الأبيض.

توغّلت دبّاباتنا من منطقة «صوفا» تجاه «رفح»، ثمّ توجّه عدد منها إلى «خان يونس» لحدث طارئ، إستُدعيت المدرّعات بصفة عاجلة لإسناد القوّات الأخرى، وفي أتون معركة ضروس؛ خرج مقاتل بسرعة من إحدى البنايات المدمّرة حاملاً على كتفه قاذفاً صاروخيّاً ليطلق منه قذيفة «ياسين 105»، نحو إحدى الدّبّابات، لتتحوّل على الفور إلى كتلة من اللّهب الأحمر، في أقلّ من ثانية، فأحرقت كلّ ما فيها، حتّى الصّور التي أخذها معهم الجنود، وعلّقوها أمامهم إستئناسا.

كان ذلك يوم الثّاني والعشرين يناير من سنة 2024، وبعدها بأقلّ من أسبوع تمّ نشر فيديو العمليّة مثل باقي العمليّات السّابقة، وعلامة المثلّث الأحمر على الدّبّابة المستهدفة.

يستمرّ مسلسل العبث والتّوجيه العشوائيّ للجنود، الذين يتلقّون الضّربات الأولى الموجعة، مثلما حدث للواء «كرياتي»، الذي فقد أغلب قواه البشريّة وآليّاته، ممّا أوجب سحبه نهائيّا من القطاع، في الثّامن والعشرين يناير 2024؛ حفظاً لماء الوجه.

لكن...

سُحبت الرّوح من صديقي «دافيد»، تاركاً خلفه والده السيّد «يوسف»، ووالدته السيّدة «إيليانا»، وأخته «ياعيل»، تعتصرهم غصّة الوداع، وخطيبته المسكينة، التي كانت تستعدّ لدعوته لعيد ميلادها في الأيّام القادمة.

نعم... قُتل صديقي «دافيد عوفر» في ذلك اليوم، محترقاً داخل دبّابته في «خان يونس»، مع وشاحه الأبيض، وصورة «أتارا»، وبقي من دبّابته بعد ثلاث ساعات، رائحة الدّيزل المحترق، وعمود صغير من الدّخان، يشهد على مرور ملَك الموت من هنا.

قُتل «دافيد» يوم الثّاني والعشرين من شهر يناير، من سنة 2024.

قُتل «دافيد»، وقُتل معه كلّ حلم شابّ إسرائيليّ، ذنبه الوحيد أنّه تماهى مع من أقنعوه بأنّهم رعاة أمناء لأحلام المراهقة، فاستفرد به الأمل فتبخّر.

الباب الثّاني

(1)

العشرون من جوان سنة 2020.

يوم لا يُنسى، يوم وُجد فيه «عديال فشلر» مقتولاً خارج قاعدة «شيزافون»، ببزّته العسكريّة، مباشرة بعد يومين من اختفائه، ومعه سلاحه الشّخصيّ، بندقيّة من نوع «M16».

لقد تمّ الإيقاع به من طرف أحدهم؛ أعطاه موعداً على السّاعة التّاسعة والنّصف مساء، لأمر طارئ لم يحدّده له، ثمّ تخلّص منه بناء على أوامر تلقّاها، وتمّ حفظ القضيّة ضدّ مجهول.

تبيّن لاحقاً أنّها أوامر من الضبّاط الضّالعين، ومنهم «نيتاي»، الذي لم يكن يعلم أنّ «دافيد» قد تلقّى أمراً للتّوجّه للجبهة المشتعلة، بصفة مستعجلة.

«نيتاي» الذي رغم مركزه المرموق، أصبح الآن بين المطرقة والسّندان، مطرقة المستندات وسندان الأوامر العليا، القاضية بإدخال جميع المجنّدين الموجودين في «سديروت» وما جاورها إلى «غزّة»، مهما كانت حالاتهم.

أمّا المستندات، فهي أولويّة الأولويّات، التي إن ظهرت وتسرّبت للصّحافة، فستطيح بكلّ الرّؤوس دون استثناء.

عادت «باولا» لعملها في فندق «ليوناردو» في «بير شيفا»، ينبثق منها عزم غريب وإصرار دفين على الإنتقام لمن أحبّته بصدق وإخلاص، هذا ما أراه ثابتاً في عينيها، لا يتغيّر أو يتميّع، على مرّ الفترات التي ألتقيها فيها، تلك العينين العسليّتين اللّتين تحوّلتا منذ زمن إلى عينا وشق.

وباعتبارها حاصلة على دبلوم دوليّ في الفندقة، وثقافتها الواسعة، وإتقانها للفرنسيّة والإنجليزيّة والعربيّة والتّركيّة؛ فضلا عن العبريّة، مع جمالها الفتّان، وجديّتها الملموسة التي انعكست في تفانيها في العمل؛ أسّست «باولا» بواعث حاسمة، تضمن لها إحاطة معرفيّة بكلّ ما يدور في المكان، بما في ذلك المتردّدين عليه.

هيكل ضخم مؤلّف من اثني عشر طابقا، يحوي ما يقارب مئتين وخمسين غرفة، أقيم خصّيصاً لجذب أصحاب الأعمال والمشاريع، بتصنيف أربعة نجوم، وموقع استراتيجيّ يميّزه عن باقي المنشآت المماثلة، أصبح

فندق «ليوناردو» واحة في صحراء «النّقب»، وأضحى يستقطب عدداً لا بأس به من رجال الأعمال، من إسرائيل ومن خارجها، هؤلاء الحريصون على راحتهم، وراحة من يجتمعون معه، مثل الجنرال ذو الوجه العريض، الذي حلّ حديثاً بجواز سفر كينيّ، تحت إسم لا يثير أيّة شبهة، السيّد «إبراهام نباومبورا».

كلّ شيء بدا عاديّا ساعتها، لا يمكن أن تثار حوله ذرّة شكّ أو توجّس، حتّى حانت اللّحظة التي اجتمع فيها مع أحدهم في المطعم الفارغ، تجنّبا للفت الأنظار، متحدّثين بالإنجليزيّة، وبعدما تأكّدا أن لا أحد مهتمّ لشأنهما، من بعض النّزلاء الذين جلسوا بعيدا عنهم، يرتشفون فناجين من القهوة؛ راح الجنرال يلحّ في طلب عشرين ألف قذيفة دبّابة، ناسيا أنّ صوته بدأ يرتفع شيئا فشيئا، ممّا أثار انتباه «باولا» التي كانت في الإستقبال، خاصّة بعد التحاق شخص ثالث، بدا لها مألوف الوجه، ثمّ التحاق رابع بالمجموعة، سرعان ما غادر متفقّدا ساعته السويسريّة الفاخرة.

كان الشّخص الأوّل «حنانيا»، الضّابط في سلاح المدفعيّة، حريص كلّ الحرص على إرضاء الجنرال، ولو بتقديم وعود زائفة، والملتحق بهما هو «نيتاي»، الذي حمل لواء الوسطيّة، يحاول التّوفيق بين المطالب المستعجلة للجنرال، وبين جشع «حنانيا»، الذي راح يعرض جهوزيّته التّامّة لتهريب أعضاء بشريّة من «غزّة»، قصد بيعها في العالم لمن يدفع أكثر، من كلي الجنسين، ومن كافّة الأعمار، كلية، رئة، قلب، بنكرياس، قرنيّة العين، بل تجرّأ عارضا على الجنرال العمل معه، بأرباح تتراوح من خمس وعشرين إلى خمسين بالمائة، غير مدرك أنّه بتسرّعه وتهوّره، سيغرق السّفينة بمن فيها.

كانت طلبيّة القذائف العاجلة من أجل إحداث انقلاب في إحدى الدّول الإفريقيّة، ولا يجب أن تكون عبقريّا لتدرك أنّ دولة هذا الجنرال هي التي ترعى الإنقلاب.

بخفّة الوشق، تسلّلت «باولا» وراء إحدى الأساسات الكبيرة للمبنى، دون أن يتمكّن أحد من اكتشافها، لأنّ الجميع كانوا حذرين من رجل أسمر طويل القامة، رياضيّ الهيئة، لا يتجاوز سنّه الأربعين عاما، وامرأة في منتصف العشرينيّات، بيضاء البشرة، ذات شعر بنيّ فاتح، جلسا على بعد طاولات منهم، ملقيان نظرات عابرة بين الفينة والأخرى.

ثمّ ذهبوا جميعهم للحانة بطلب من الجنرال الإفريقيّ، الذي تحمّس للثّروة القادمة إليه من وراء السّيّاج، تحت أعين كاميرات المراقبة، دون أن يخطر على بال أيّ واحد من هؤلاء السّعداء، أنّ صورة تذكاريّة لهم، قد سُرّبت تحت الطّاولة، من فريق أمن الفندق.

(2)

معرباً عن تعاطفه الصّادق، وتعازي جيش الدّفاع الإسرائيليّ، في العريف الذي رُقّي بعد مقتله إلى رقيب في سلاح المدرّعات، «دافيد عوفر»، قدّم نفسه باسم «رفائيل أليعازر»، للسّيّدة «إيليانا» التي كانت وحدها في المترل آنذاك.

ما إن رأته حتّى انهارت من هول المصيبة التي هوت عليها من السّماء، كأنّ جبلاً عملاقاً انطبق عليها فسحقها، إرتجفت يداها، وجثت على ركبتيها تبكي في مدخل البيت، وحتّى البكاء ضلّ طريقه إلى عينيها، إذ تجمّدت دمعتان كبيرتان سدّتا مسار البقيّة.

إنّه إحساس الأم بأنّ شيئا خطيرا حدث لفلذة كبدها.

وسرعان ما جاءت جارتها السّيّدة «براخا» عقيلة السيّد «ريكاردو مزراحي»، رفقة ابنتيها التّوأم، «مارتينا» و«روزاليا»، قصد مواساتها، والتّخفيف من مصابها الجلل، مع تذكيرها المتواصل أنّها حامل، والتوتّر سيضرّ جدّا بها وبجنينها.

– هوّني عليك عزيزتي «إيلينا»، الحيّ الذي يكبر داخلك الآن أولى من الميّت الذي لن يعود، ولو بكينا عليه ليل نهار.

وكم كانت صعبة مهمّة إجلاسها على أريكة في الصّالون!، لم يترك موت ابنها فيها من قوّة تستعين بها على الكلام، فضلاً على الوقوف أو السّير.

إغتنم الضّابط فرصة توجّه السيّدة «براخا» للمطبخ، مع ابنتيها، لتحضير قهوة له، وعصير اللّيمون للأمّ الثّكلى، وسأل السيّدة «إيليانا» بودّ واضح لا يخلو من مكر عن الحافظة السّوداء التي أحضرها «دافيد» معه، محاولاً إيهامها أنّها تخصّ الدّبّابة الجديدة «ميركافا 5»، الذي كان يتدرّب عليها، وأنّ هذا يعدّ من أسرار الجيش التي يجب أن تبقى في طيّ الكتمان، كونها تكنولوجيا حديثة، يتحتّم عليها تسليمها له مباشرة متى ما وجدتها بين متعلّقاته الشّخصيّة، ثمّ –متصنّعا ابتسامة تخفي وراءها انزعاجه البليغ من كونها لا تعلم شيئا حولها، ولم تر أبدا أيّة حافظة سوداء في المترل–؛ غادر على عجل، غير مقتنع بما تحصّل عليه من إجابات، عندما فاجأته «روزاليا»

بفنجان القهوة، وبابتسامة ترحيب عريضة، مع كلام لبق، فلم يجد بدّا من أخذ رشفة واحدة، كمجاملة يخفي بها مراوغته الفاشلة.

في اليوم التّالي، إستدعت الحاجة أن أقتني دوائي الخاصّ من إحدى الصّيدليّات في «أوفاكيم»، فلمحت «آيزنكوف» يقود سيّارة بسرعة جنونيّة، غير عابئ بقوانين السّير، ولا بتذمّر السّائقين الآخرين، تساءلت في قرارة نفسي عمّا حدث حتّى يتواجد هذا الشّخص هنا.

ثمّ ربطت بسرعة بينه وبين ابن خالته «نيتاي»، وجهان لعملة واحدة، واتّجهت مباشرة لمترل صديقي «دافيد»، حيث وجدت هناك «أتارا» مع والدها السيّدة «ليزا»، رفقة جمع من المعزّين، من بينهنّ عقيلة عمدة المدينة الماكر «يتسحاق دانينو».

كان الجميع في حالة نفسيّة سيّئة للغاية، حتّى أنّ «أتارا» لم تستطع الكلام من هول ما حدث، كانت عيناها حمراوين منتفختين من شدّة البكاء، ومن آثار الصّدمة التي ما زالت لم تستوعبها، بحكم سنّها، بعد مرور أربع وعشرين ساعة على ورود الخبر المشؤوم، ثمّ دخل والده السيّد «يوسف»، على كرسيّ متحرّك، يدفعه به أحد الجيران، بوجه حزين عبوس يعكس مرارة الألم، ولوعة الفراق المقرون بخيبة الأمل.

بعد الغروب وبعد انصراف المعزّين؛ إجتمعنا كلّنا في الصّالون نتشاور في كيفيّة التّصرّف المثلى، محاولين إيجاد حلّ، ينهي حلقة الفراغ اللاّمنتهية، التي وجدنا أنفسنا داخلها، حين نبّهتنا السيّدة «ليزا» راشدة أنّ إدارة النّشر في الصّحيفة، رفضت رفضاً قاطعاً نشر القصّة، أو حتّى مجرّد الإشارة إليها، لغياب المستندات، التي تُعتبر حجّة إدانة دامغة للمتّهمين، وبرهاناً على صحّة ادّعاءاتنا، وحماية قانونيّة في حالة رفع دعاوى قضائيّة ضدّها بتهمة التّشهير.

- يجب البحث أوّلا عن «غابي» أكثر من أيّ وقت مضى، لأنّ بيده مفتاح اللّغز.

هذا ما قلته.

«غابي» الذي يُعتبر مختفياً منذ أكثر من أسبوع، دون أن يبذل أفراد الشّرطة جهوداً حقيقيّة في البحث عنه، على حدّ قول والدته المحبطة من تقاعسهم، إذ كلّما ذهبت للإستعلام عن أيّ جديد، يتجاهلونها متحجّجين بأولويّات أخرى.

كأنّ الشّرطة ضالعة في المسألة بشكل أو بآخر، أو هناك يدا عليا تخشى عمليّة التّحريك.

يحدّق السّيد «يوسف» جيّدا في الصّورة التي أريها لهم، بعدما نجحت «باولا» في تهريبها من كاميرات أمن الفندق، وهو غير مصدّق لما يراه بأمّ عينيه:

- «غارسيّا»؟، بلا شكّ، زوج «إنجي»، لقد زارني مرّات في المستشفى، لا يمكن أن أنسى وجهه.

وأخيرا، بدأ الضّباب ينقشع، ليكشف عمّن يشربون اللّبن ويأكلون العسل، في أرض أشواكها للأغبياء الذين يسهل خداعهم، أكثر من الأطفال الصّغار.

رجعت لمنزلي في تلك اللّيلة قرب منتصف اللّيل، بعد أن اتّفقنا جميعاً على الإلتقاء دوريّا كلّ نهاية أسبوع، لمناقشة أيّ جديد يطرأ على الموضوع، مع ضرورة إبقاء جسور التّواصل قائمة للظّروف الطّارئة، لا سيما وأنّه يتوجّب عليّ العودة للخدمة.

رجعت وعشرات الأفكار تتراكم في رأسي، بعد يومين اتّصلت بي السيّدة «ليزا»، لتقول أنّ أمّ «دافيد» قد نُقلت بصفة مستعجلة إلى مستشفى «سوروكا»، في وضعيّة حرجة للغاية، فما كان أمامي سوى التّوجّه هناك، لأجد السيّد «يوسف» والد «دافيد» مهموما مع «ياعيل»، وهما ينتظران خروج الطّبيب من غرفة العمليّات.

طالت دقائق الإنتظار، وزادت التوجّسات لديهما.

أخبرني السيّد «يوسف» أنّ «دافيد» قد قُتل بعد إجراء مكالمة مع والدته، حيث إتّصل برقم هاتف جديد، بنبرة صوت الخائف من شيء غامض مجهول، طالباً الصّفح من كلّ أفراد العائلة، ثمّ قُطع الخطّ، ليجد الجميع أنفسهم في حيرة وضياع وغمّ، فميّزت أنّه اتّصل حين تلقّى أمر الدّخول إلى «غزّة»، بعد انتشار خبر العصيان العسكريّ، وورود إشاعات عن استدعاء وحدة «كفير»، المتخصّصة في قمع التّمرّد المسلّح.

لم يدرِ المسكين ما يفعل، بعد أن تعقّد الموقف وتزعزع الوضع، ووجد نفسه في زجاجة، فقد ترسّخ لديه الإعتقاد أنّه باقٍ في مساحة التّحشّد لأشهر طويلة قادمة، آمن بكلّ ما للكلمة من فحوى، لا يمكن أن يصيبه شيء ما دامت المستندات مختفية، بينما يحاول إيجاد طريقة ما، مضمونة للوصول إلى «غابي»، الشّخص الوحيد الذي يعرف مكانها، لكن انهار كلّ شيء، بشكل غير متوقّع، ممّا خلط كلّ الأوراق لدى جميع الأطراف.

بعد ساعة أو أكثر بقليل، خرجت ممرّضة ترتدي كمّامة وفي عينيها أثر انزعاج، فهرعت «ياعيل» إليها باكية، تريد الاطمئنان على والدتها الرّاقدة بين الحياة والموت، وهرعنا إليها كلّنا دون شعور، حتّى السيّد «يوسف»، محاولاً بيديه دفع كرسيّه المتحرّك نحوها.

لم يلبث الطّبيب أن خرج بعدها، مزيحا الكمّامة عن وجهه، بيدين تحاولان السّيطرة على حركتهما، مع بعض الإرهاق الخفيف المتجلّي على وجهه الأسمر، وفي صوته، مؤكّدا أنّ حالة السيّدة «إيليانا» مستقرّة الآن، بعد تجاوزها مرحلة الخطر، غير أنّه اضطرّ للتّضحية بالجنين، بعدما عمل كلّ ما في وسعه رفقة الطّاقم المرافق، إلاّ أنّ إرادة الرّبّ سبقت كلّ أخذ بالأسباب.

(3)

يقول «الشّاباك» إنّ حركة «حماس» قويّة جدّا سياسيّا وعسكريّا، ولها أساليبها الخاصّة التي يعتمدون عليها في حربهم ضدّنا، «حرب العصابات»، لكن لا يعترفون بذلك علنا.

إنّهم يخشون حتّى الإعتراف، رغم معرفة الرّأي العامّ الإسرائيليّ، واقتناعه به اقتناعاً لا يقبل التّشكيك أو الطّعن، لدرجة أنّ «نتنياهو» و«غالانت» أصبحا يتبادلان التّهديدات فيما بينهما، فإذا كان الأوّل ما زال يحاول إطالة أمد الحرب بطريقة نموذجيّة، تسمّى «الهروب إلى الأمام»، حسب تلميحات صحيفة «هآريتس»، التي ذكرت أنّه يفضّل شعارات النّصر الجوفاء على حياة الأسرى الإسرائيليّين، فإنّ الثّاني واقعيّ جدّا، يدرك أنّ المقاومة حقيقة يجب التّعامل معها، دون استهتار أو استفزاز، وبين هذا وذاك؛ فإنّ الشّرطة أو بالتّعبير الأدقّ، شرطة القزم «نتنياهو»؛ تتولّى مهمّة قمع المطالبين بالتّسوية السّلميّة لملفّ المخطوفين.

شرطتنا التي أصبحت تعتدي على المواطنين المطالبين بحقوقهم لأتفه الأسباب، حتّى أنّهم اعتدوا على عضو الكنيست عن حزب «العمل» السيّد «جلعاد كريم».

هل يمكن أن يعتدي شرطيّ يتقاضى راتبه من ضرائبنا المدفوعة على مواطن إسرائيليّ مثله؟، مواطن خرج معبّراً عن رأيه، بطريقة بليغة في السّلميّة والدّيمقراطيّة والحضارة؟.

طبعا سيكون للمتظاهرين ردود أفعال على قمع الشرطة المتواصل، المصرّين على إغلاق آذانهم أمام أصواتنا، وهو ما حدث يوم العاشر من فبراير 2024 في «تلّ أبيب»، حيث تحوّلت المظاهرات السّلميّة إلى مشادّات كلاميّة، سرعان ما تطوّرت إلى أعمال عنف وتخريب، شارك فيها الآلاف، حاملين علم الدّولة، وصور أحبّائهم والشّعارات، التي سئم أصحابها الوعود العسليّة، والكلام المطاطيّ الرّنّان.

إستفزاز الشّرطة هو ما أوصل الحشود إلى حالة من الهستيريا، فقطعوا الطّرق الرّئيسة، وأشعلوا النّيران بكثافة، ممّا أدّى إلى تكرار الخطأ ذاته، وهو اعتقال العشرات منهم.

كانت أمّي وخالتي مختبئتين في إحدى زوايا الشّارع القليلة الإنارة، فلم يرهما الثّور الهائج وهو ينفّذ أوامر أسياده، المتشدّقين بزعمهم أنّهم سيحرّرون الأسرى بالقوّة؛ وهل تنفع القوّة مع «كتائب القسّام»؟.

لا أحد في إسرائيل يخشى على مختطف له عند «حماس»، فهم لم يخطفوهم كي يقتلوهم في النّهاية، لكنّنا نخشى قصف الجيش الذي لا يميّز بين طفل وامرأة ورجل وقطّ، ثمّ يتذرّعون باستحالة السّيطرة على تأثير انفجار القنبلة الملقاة، مثلما حدث لتعساء الحظّ، «رونين أنجل»، «يوسي شرعابي»، «مايا غورين».

حكومتنا تعاني إحباطا عالي المستوى تسعى لإخفائه، إحباط قاتل انعكس سلباً على طريقة تصرّفها، وأدائها المسرحيّ الهزيل، هل يعتقدون أنّ سيناريو القصّة المفبركة للأسيرين المحرّررين؛ «فيرناندو سيمون» و«لويس هار»، صالحة لخداع أكثر من تسعة ملايين إسرائيليّ؟.

هذان الأسيران كانا تحت مسؤوليّة عائلة من «رفح»، ولا شأن للمقاومة بهما، لكن القزم الأفّاق سوّق للعمليّة إعلاميّا، كعمليّة إنقاذ، شاركت فيها «الشّاباك» والفرق الخاصّة لمكافحة الإرهاب، وتحت المتابعة المباشرة له، إلى غير ذلك من الوهم الذي يريد منّا أن نصدّقه، لإقناع الرّأي العامّ أنّ تحرير الأسرى لا يكون إلاّ بالقوّة.

حسنا؛ إذا كان هذا صحيحاً؛ فلماذا لم يتمّ تحرير باقي الأسرى بالقوّة كما استعادوا الأسيرين؟.

لقد تمّ الإتّفاق وديّا مع عائلتيهما لتسليمهما مقابل مبلغ ماليّ معتبر، لا أكثر من ذلك ولا أقلّ، والباقي ما هو سوى محاولة ذرّ الرّماد في العيون، هم يريدون الحفاظ على مصالحهم السّياسيّة، شأن «نتنياهو» شأن وزير المالية «سموتريش»، الذي صرّح أنّ الأولويّة لتدمير «حماس»، ثمّ تحرّر الأسرى فيما بعد.

وبين الإشاعات وتداعياتها على قرب التّوصّل إلى اتّفاق نهائيّ، وأعصابنا المشدودة ليل نهار، يقبع أخي هناك، تحت الأرض في «غزّة»، وراء السّياج الفاصل، ينتظر وننتظر معه كلّنا، أنا وأمّي وخالتي، شروق الشّمس الذي طال انتظاره.

قبل تاريخ السّابع والعشرين من أكتوبر سنة 2023، كانت منطقة غلاف «غزّة» تعجّ بآلاف الجنود الذين يحاصرونها في انتظار الضّوء الأخضر لدخولها، ومن بينهم أخي الأوّل، الملازم في سلاح الهندسة، الذي أكّد لنا قبل شهر أنّه بعيد تماما عن الخطر، وجدت نفسي مع أمّي وخالتي، أصدّقه، لأنّني أريد تصديقه، رغم أني أعرف يقينا أنّ الوضع خطير، وهناك تعقيدات ميدانيّة، لا يعيها إلاّ من كان هناك، يتشبّث بالحياة بين أعاصير الرّصاص.

قبل يومين؛ قال إنّه قلق من الوضع المتأزّم باستمرار، لأنّ «كتائب القسّام» لا يعرفون الخوف، ولا يهربون من الموت، بل يسعون إليه سعينا نحن للحياة، فكيف نخيف شخصاً هو من يملك وسيلة الإخافة؟.

لقد حكى لي مواقف بطوليّة عنهم، مواقف لا تصدر إلاّ عن مقاتلين أشاوس، في شجاعة الأسود وبطشهم، يبحثون عن الموت مثلما يبحث الظمآن عن الماء، أخي وأعرفه أكثر من أيّ شخص آخر، لقد سئم هذه الحرب التي لا تنتهي، ولن تنتهي، قتلانا بالمئات، غير أنّ الجيش يخفي ما يحدث حفاظاً على الرّوح المعنويّة، و«أمان»، جهاز الإستخبارات العسكريّة يراقب كلّ صغيرة وكبيرة، ولا يتوانى في محاكمة أيّ تردّد، أو تشكّك لأيّ مجنّد مهما كان.

باتت القيادة الآن بعد مرور ثلاثة أشهر، تخشى انهيار معنويات الجيش، وتتوجّس العصيان.

إنّهم يريدون الحفاظ على شعار «الجيش الذي لا يُهزم» مهما تكلّف الأمر، والظّهور بمظهر القويّ أمام حلفائنا، وأمام الرأي العام العالميّ.

وانهزم أخي حين أصابتهم قذيفة فجّرت حولهم كلّ شيء، انهزم مع رفقائه الذين كانوا قد أنهوا للتوّ تركيب ألغام من أجل تفجير إحدى المباني.

لقد قُتل أخي في نفس اليوم الذي قُتل فيه «دافيد»، وفي نفس المنطقة، ثمّ نشرت «كتائب القسّام» الفيديو، يظهر فيه المثلّث الأحمر مرسوماً على كافّة الجنود المستهدفين.

كم هي عجيبة هذه الدّنيا، أن يرحل أخوك وصديقك في يوم واحد!.

أفضل حلّ كي تبقى حيّا في إسرائيل هو أن تدير ظهرك للدّولة مثل «يعقوب غوتنبورغ»، صديقي من «الحريديم»، المعارضة لإقامة دولة إسرائيل منذ تاريخ إنشائها.

لا يشاهد التّلفزيون وليس لديه هاتف، يتعرّف على آخر الأخبار وما يدور حوله من مطالعة الصّحف المعلّقة لديهم في حيّهم، لم أره أبدا يلبس ملابس ملوّنة؛ لأنّ اللّون الأسود لونه الغالب المفضّل الوحيد.

بلحية خفيفة وقميص أبيض، وقبّعة سوداء مع معطف وسروال يماثلها في السّواد، يمضي كل أيّام الصّيف والشّتاء، كلّ همّه الصّلاة والتّوراة وإنجاب الأولاد؛ ولا يشارك في أيّ أنشطة أخرى، بل تزوّج باكراً عند بلوغه سنّ العشرين، وهو ينتظر مولوداً بعد ثلاثة أشهر، قال إنّه سيسمّيه «موشيه»:

– جدّي هنا قبل إنشاء هذه الدّولة، كنّا نعيش مع العرب والمسلمين دون مشاكل، حتّى أتى «بن غوريون»، الصّعلوك الباحث عن الشّهرة والمجد، وعصابته، فأفسدوا كلّ شيء، نعم أفسدوا كلّ شيء، بما يصعّب عمليّة الإصلاح، ونحن الآن بين نارين، معارضة إسرائيل من جهة؛ ومحاولة إفهام العرب أنّنا لسنا صهاينة من جهة ثانية.

ذكرت أمامه مرّة «إيتمار بن غفير» كيمينيّ، فقاطعني متشائما:

– لن يغفر الرّبّ له، هذا العلمانيّ، هذا الكافر بتعاليم التّوراة، يريد إقحام خمسة عشر ألف مقاتل منّا لسدّ العجز في القوّات، في أتون حرب هو من أشعلها وهو جالس في مكتبه، هل رأيت شيطانا أخسّ من هذا؟، المجد له والموت لنا؟، لعنة ربّ «موشيه» عليه إلى يوم القيامة.

ثمّ أردف وهو يحاول ضبط قبّعته التي كادت تسقط بتوتّره:

– قانون إعفائنا من الجيش سينتهي في الحادي والثّلاثين من مارس القادم، ونحن نحضّر من الآن لمظاهرة حاشدة في أبريل، أوسع من أيّة مظاهرة سبقتها، أمام مكتب التّجنيد في «أورشليم»، لن نتركهم يدمّرون كلّ شيء، هؤلاء العلمانيّون الكفّار، أعداء الرّبّ، هل تعلم أنّهم يتدرّبون يوم السّبت؟، غير معقول؛ السّبت يوم مقدّس، لا يجوز أيّ عمل فيه مهما كان نوعه، التفرّغ للتّوراة هي من تحمي ديننا، أمّا الوطن فلا نحتاجه، كنّا

نعيش مع العرب والمسلمين منذ الخلافة العثمانيّة، كأنّنا شعب واحد، بل كنّا شعبا واحدا، لهم دينهم ولنا ديننا، ما الذي تغيّر الآن كي نضرب في بعض، ويقتل أحدنا الآخر؟.

هذا هو موقف «الحريديم» منذ وجودهم هنا قبل حرب الإستقلال، لا يقبلون إعانات من الدّولة، ولا يتوظّفون، نساؤهم هنّ فقط من يعملن في متاجرهنّ ومطاعمهنّ الخاصّة، عن الأزواج المنشغلين بالعبادة والذّكر.

كانوا قلّة قليلة لا يؤثّرون في شيء آنذاك، أمّا الآن، فهم يتزايدون باستمرار، بمعدّل سبعة أطفال في الأسرة الواحدة، أي أنّهم باتوا يشكّلون خمس وعشرين بالمائة من السّكان.

(4)

خرجت من مترل السيّدة «ليزا»، لأجد «آيزنكوف» يحوم بسيّارته حول المترل، فبات من المؤكّد لنا جميعا أنّه عين «نيتاي».

لا أحد سبر أغوار «دافيد» مثلي، أنا صديقه الذي عرفته منذ سنوات، نشأنا في بيئة تحبّ الكتب والعلم وتقدّس العلماء، المكتبة هي محورها العامّ، وهي النّجم الذي يدور حوله كلّ الكواكب، بيئة هي في الأصل عالمه الخاصّ، عالم يعيش مطمئنّا بداخله لا ينقصه شيء، وقلمه هو كلّ شيء.

يكتب كلّما وجد وقتاً ملائما للكتابة، للتّنفيس أوّلا، وللتّوثيق ثانيا، وفي حركة أشبه ما تكون دفاعيّة، لكلّ موقف لا يستطيع مواجهته ثالثا.

لم يكن يخبر أحداً أنّه يكتب، في فعل تراكميّ نادر، أنتج بعد سنوات مئات الصّفحات من حياته، ليطلعني على الموضوع برمّته في السّاعات الأخيرة، وظننت أنّها مزحة منه، غير أنّه أقسم لي أنّه جادّ، ملمّحاً أنّه سيخفيها في «غزّة»، عرين الأسود، وهو مكان آمن في نظره.

كان مشتّت التّفكير، قلقاً شارد الذّهن منهارا، رغم كونه يتظاهر بالصّلابة والرّزانة، لقد كان يخشى أن يجدوها معه، فيتخلّصون منه ومنها، فتختفي الحقيقة نهائيّا، ولذلك لجأ إلى استنساخها، فإذا ضاع الأصل بقيت الصّورة، وإذا ضاعت الصّورة بقي الأصل، وللحقيقة ألف طريق.

كم تمنيت لو استنسخ المستندات قبل أن يجد نفسه أمام طريق مسدود.

أوصاني «دافيد» أن تعطى المذكّرات لخطيبته في سريّة إن أصابه مكروه ما، فقد كانت حبّه الأوّل المكنون، وعملت على تنفيذ وصيّته.

وسلّمت لها نسخة، بعد أن اطّلعت على بعض الصّفحات، إرضاء لتطّفلي.

كان ذلك ظهر يوم الجمعة بعد أن انقضى أسبوع الحداد، فاستقبلتها المسكينة بيد مرتعشة، ثمّ انهارت على الأريكة خاشعة بدمع ينساب رقراقا من عينين متورّمتين بهالات سوداء، وهي تقرأ كلّ كلمة فيها كالذي يقرأ التّوراة.

كان الموقف عصيبا، إمتدّت يد السيّدة «ليزا»، وحقّ لها أن تمتدّ، لتقطع يد كلّ مجرم يرمي بها أولئك القادمين من وراء السّياج، ما كتبه «دافيد» بقدر ما حواه من غرابة؛ بقدر ما كان فاضحا للمجتمع الإسرائيليّ، الممزّق، الأنانيّ، الحقير.

لّما اطلعت على أسطر منها؛ لم أستطع مقاومة فضولي الذي راح يتنامى كلّما رقصت عيناي بين الصّفحات، بل عرضت نشرها كاملة على «هآريتس»، ليعلم الجميع بما جرى ويجري، وخاصّة في السّابع من أكتوبر سنة 2023، وتحمّست السيّدة «ليزا» للموضوع كلّ حماس، كما تحمّست للقاء من عرفه جيّدا هناك في قاعدة «شيزافون»، الملازم «ديميتري»، ولو أنّ هذا الإسم ليس غريبا عنّي، هذا الذي كان يعوّل على «دافيد» كثيرا، ويحاول بناء المقاتل الشّديد فيه، لما لمسه من مميّزات وخصائص.

عدت للجيش بعد انتهاء عطلتي القصيرة، عدت للجيش الذي ما زال يُهزم مراراً وتكرارا، ويمّنينا بالعودة مجدّدا للإستيطان في «غزّة».

يا لغباء هذا التّلميذ الذي لا يستوعب الدّرس ولو أُعيد له عشرات المرّات.

كنت هناك في «نتساريم»، قبل أن تفكّك في الثّاني والعشرين من أغسطس سنة 2005 بعد الإنسحاب، كنّا جميعا هناك، مع سبع عشرة مستوطنة، بعدما وثقنا في «شارون»، فمنحناه قلوبنا، بكلّ ما فيها من حبّ وتقدير وامتنان، قبل أن يتخلّى عنّا، ذلك البرميل الذي أجبرنا على التّخلّي عن كلّ شيء، وأنا ابن عشر سنوات.

وما زلت أتذكّر، كلّما حملت سلاحي متوغّلا في هذه الأرض، أرى كلّ المباني المشيّدة، تدكّها قنابلنا بما حوته، من النّساء والأطفال والشّيوخ، هذه الأرض التي وعدونا أنّها لنا، تركت فيها غرفتي، وأرجوحتي التي كانت في الحديقة، ومعلّمتي «كاتيا»، الجميلة ذات الشّعر الأشقر.

وُلدت هناك في «نتساريم» المحصّنة جدّا كما كانوا يزعمون، سمعتهم يقولون أنّنا من «الصّابرا»، الجيل الجديد المولود هنا، ولنا كلّ الحقّ في امتلاك ما استردّه الآباء والأجداد بتضحيات نفيسة بذلوها، لا يجب أن تُنسى مهما حدث، بل يتعيّن علينا أن نحمي كلّ شبر حين نكبر، حين تتغيّر فينا الأجساد والأصوات وتبقى الأفكار، مثلما تحمينا الدّبّابات وجنودنا الأشاوس الأقوياء.

كنّا خمسين عائلة فقط أو أكثر من ذلك بقليل؛ نعرف بعضنا بعضا؛ لكنّ هذه الأرض لا يبدو أنّها تعرفنا.

كان هناك جيش جاهز ليسحق حتّى الذّبابة التي تحطّ على جبين أيّ واحد فينا، من لوائي «باراك» المدرّع ومشاة «جفعاتي».

أتعلم؟، ليس من السّهل إزعاجنا، فنحن شعب الرّبّ المختار، الذي تمتدّ أرضه من النّهر إلى النّهر، ثمّ فجأة... إختفى كلّ شيء، حلم آسر أخّاذ، أفقت منه بغتة حين حاولت معلّمتي إفهامنا ذات صباح مشمس بهيّ والدّموع تتلألأ في مقلتيها، أنّ المغادرة أمر حتميّ، بعد أن عانينا من سلسلة لا تنتهي من الهجمات.

– يجب تقليل مستوى الإحتكاك مع الفلسطينيّين قدر المستطاع.

هذا ما قالته أمّي لخالتي وهي تجمع حاجياتنا.

كنت صغيراً لا أفهم ماذا يعني هذا الخطاب، ولماذا كانت تحاول تهيئتنا نفسيّا لتقبّل الوضع الجديد؟، ما سبب بكاء أمّي باستمرار كلّما جلست وحدها؟.

كنت لا أفهم لماذا يتوجّب علينا دائما الخروج من المستوطنة في حماية الجيش؟، أقصّر نحن يخشون علينا من الضّياع؟، ثمّ لماذا يكرهنا العرب ويقتلوننا؟.

لم يخبرني أحد أنّنا أخذنا أرضهم وبساتينهم عنوة، واغتصبنا فوقها كلّ ذكرياتهم الجميلة، التي كانت في قراهم الوارفة الظّلال، قراهم التي محوناها من الخارطة محوا حتّى الآثار، وأسكنّا بدلهم يهود الشّتات.

لقد أورثناهم لواعج لا تُحتمل ولا تُغتفر.

لم تخبرني معلّمتي الأوكرانيّة الأصل بكلّ ذلك، لم تقل أنّ السّرقة التي تغضب الرّبّ نحن الذين ارتكبناها أوّلا، وأنّ احتقار الآخر نحن من بدأناه، لم يخبروني بالقصّة الكاملة، لقد حذفوا منها كلّ ما أزعجهم، وما يزعجهم هو تماما مربط الفرس.

– مهمّتنا الأساسيّة هي تدمير البنية التّحتيّة لحركة «حماس»، وذراعها العسكريّ «كتائب القسّام»، والقضاء على «السّنوار»، مخطّط هجمات السّابع من أكتوبر، مع كلّ القادة المساعدين له.

هذا ما تلقّيته من أمر في اجتماع عاجل للضبّاط، كُلّفت بنقله للجنود الذين هم تحت إمرتي، ويا لها من مهمّة، نحن نتعامل مع أشباح يضربون ويختفون تحت الأرض، لا يشبهون أحدا ولا أحد يشبههم، يصطادون جنودنا في براعة الثّعالب وشجاعة الأسود، بينما نحن نعاني من إجهاد بدنيّ وعصبيّ، طول النّهار، سببه الرّئيسيّ انعدام الرّاحة، حيث تصل مدّة أنشطتنا القتاليّة إلى أربع عشرة ساعة كاملة دون انقطاع، تظلّ أصابعنا على الزّناد، وأعيننا تترقّب أيّة حركة.

إنّهم يقاتلوننا باستقلاليّة تامّة عن قياداتهم العليا، في مجموعات صغيرة، خفيفة الحركة، لا يمكن رصدها بل يستحيل، بينما نحن ننتظر كلّ شيء عبر اللاّسلكيّ، بل ممنوعون من المبادرة، ونتحرّك في مجموعات كبيرة، مع محاولة التّنسيق مع سلاح الجوّ، وأحيانا سلاح البحر، لا يوجد وجه للمقارنة، هذه القراءة العبثيّة لا تمتّ للواقع بصلة، بل أحيانا نتلقّى أوامر بالمبيت في «غزّة»، لنظلّ مستيقظين خائفين من قذيفة لا تبقي ولا تذر، رغم أنّي أعطي أوامر لجنودي بضرورة النّوم، وترك واحد فقط للحراسة، إلاّ أن توتّرهم ينعكس سلباً على نومهم، أصابعهم مشدودة على الزّناد، وتصيب أحدهم من حين لآخر رجفة شديدة، ومنهم من يفقد القدرة على تحريك رجليه، ثمّ ينعكس سلبا على أدائهم في اليوم التّالي.

أراهم في حالة انهيار تامّ، تتأخّر ردود أفعالهم وتتدنّى مستويات تفاعلهم مع الأوامر، سهو ونسيان وصعوبة بالغة في الإستيعاب، وحتّى في الفهم، أخاطب تماثيل برونزيّة، مجموعة من المعتوهين، يفقد أحدهم توازنه بمجرّد دفعه خطأ من رفيقه، ليثور عليه فينشب شجار بينهما، فأُضطرّ للتّدخّل.

لن تكون شخصاً لطيفاً إذا لم تحظَ بمقدار كافٍ من النّوم.

هذا المناخ الذي أعيشه، هو الورقة الضّاغطة في يدي الآن، لأطلب أيّ عطلة أريدها، شرط ألاّ تتجاوز خمسة أيّام، وهو بالضّبط ما تقدّمت به بعد ثلاث أسابيع من القتال، واحد وعشرون يوما، كدت أفقد فيها حياتي حين وقعنا في كمين، أودى بعدد من جنودي، الذين لا يعرفون أصلاً لماذا يتواجدون هناك، وما هي دافعهم ليقاتلوا أصحاب الأرض.

إشتريت باقة ورد مشكّلة، وذهبت لزيارة أسرة صديقي «دافيد»، من عادتي أن أطرق الباب حتّى ولو كان لديهم جرس.

بعد طرقتين خفيفتين، خرج لي شخص لا أعرفه، حيّيته بألف علامة استفهام، مستفسراً عن السّيّدة «إيليانا» والسيّد «يوسف»، فقال إنّه اشترى المترل منهما منذ أربعة أيّام، ولا يعلم شيئا آخر.

كان جاره خارجاً من المترل مستقلاّ سيّارته، فسألته عنه، غير أنّه أجابني مزمجرا كاشفا عن أشياء كثيرة حدثت في غيابي:

– «يوسف» شخص خائن لإسرائيل، لا أريد أن أسمع عنه بعد الآن، لا هو ولا عائلته.

كانت عباراته موجزة صارمة، كأنّ بينهما حساباً قديما، ثمّ أردف في حقد وغضب:

– عمليّة «السّيوف الحديديّة» ما زالت مستمرّة، لقد دمّرنا كلّ شوارع «غزّة» انتقاماً من هؤلاء الذين يرفضون الخضوع لنا نحن أسياد العالم، يجب تجويعهم كي يغادروا المكان، أو نسحقهم نساء وأطفالا، مثلما نسحق الصّراصير، دون رحمة.

ثمّ نزل وهو يقول:

– سنجعلها مجاعة لم يروا مثلها في حياتهم، ولن يقف إلى جانبهم أحد.

وصعد من جديد وابتعد، وهو يواصل شتمه اللاّذع.

كان يتكلّم ويرتعش، هذا أهمّ ما لاحظته، ولم أدقّق في باقي التّفاصيل، غير أنّ رائحة عطره أبت أن تفارق أنفي؛ أعرف هذا العطر جيّدا، إنّه «روجا سكاندل»، نوع فاخر رغبت في شرائه ذات صباح وأنا أتجوّل في «حيفا»، لكنّي عدلت عن الفكرة، بسبب ثمنه المبالغ فيه، أكثر من ألفي شيكل، واقتنيته من محلّ آخر بثمن أقلّ، عطر لا يقتنيه إلاّ أصحاب الطّبقة المخمليّة في إسرائيل.

ثمّ خرجت السيّدة «براخا» معتذرة عن السّلوك الفضّ لزوجها.

إذن هذا هو السيّد «ريكاردو مزراحي»، جار «دافيد»، الذي توسّط له في الإنضمام لسلاح المدرّعات، كثيراً ما سمعته يتحدّث عنه، وأوّل مرّة أراه.

ورحت أقارن بين تصرّفه معي، وما يشاع عنه وعن روحه الرّياضيّة.

ثمّ أكملت بنبرة حزن:

– لقد عاد لوطنه الأصليّ، «المغرب»، بعدما فقد ساقيه في شلل تامّ، وولديه، «دافيد» والجنين، لم يبق له شيء هنا.

عرفت الآن سبب سخط السّيد «ريكاردو»، وسبب اتّهامه بالخيانة، لقد تخلّى عن صهيونيّته، أو بالأحرى تفطّن لمن غرّر به، وهو ما أثار حقده عليه، خاصّة وأنّهما صديقان لا يفترقان، فضلاً عن جيرتهما.

قالت السّيدة «براخا» إنّها تعذره، فقد مرّ بظروف صعبة للغاية، لقد كان دائم الصّراخ والشّجار في الآونة الأخيرة، مع زوجته المسكينة التي عانت وتعاني مثله الأمرّين، كيف لا وهو يرى أنّ مستقبل العائلة دُمّر، وما بقي يدمّر أمام عينيه؟، فآثر العودة لبلده الأصليّ الذي جاء منه، بعدما أصبح لا يطيق البقاء في إسرائيل ساعة واحدة، لدرجة أنّه لم ينتظر التّعويض الماليّ.

لقد تناقصت القدرة الشّرائيّة تناقصا سريعا يكاد يوصف بالإنهيار، حتّى أنّ بعض السّلع أضحت مفقودة، وزادت المشاحنات بين النّاس في الطّوابير، وأصبح الحفاظ على المرتّب لآخر الشّهر كابوسا يؤرّق الجميع، وخاصّة الطّبقة المتوسّطة، أو التي تتدحرج نحو الفقر عاما بعد عام، مثل أسرته.

بعض الشّركات الكبرى هنا، أعلنت أنّها ستزيد عشرين في المائة على أسعار السّلع الإستهلاكيّة، بسبب فرض «اليمن» حصاراً على السّفن الإسرائيليّة، في مضيق «باب المندب»، على مدخل «البحر الأحمر»، ممّا سيتسبّب في تسريح عشرات العمّال من ميناء «إيلات»، كنتيجة للوضعيّة الماليّة الصّعبة، كما أنّ سعر الكهرباء ارتفع باثنين ونصف في المائة، وهناك إشاعات تقول أنّ نزاعا مسلّحا سيبدأ مع «حزب الله» اللّبنانيّ قريبا؛ لأنّ كلّ المؤشرات تقول أنّ هناك حربا وشيكة شاملة في الأفق.

سنكون جميعاً في مأزق كبير، وربما سيغيّرون العملة، لخفض التّضخّم المتزايد، الذي يسرّع من انهيار اقتصادنا، سيتغيّر الشّيكل الجديد منذ سنة 1986، مثلما تغيّرت اللّيرة، وظهر الشّيكل القديم في سنة 1980، والرّبّ وحده يعلم ماذا سيحلّ بنا مستقبلا.

(5)

عدت لحياتي العادية بعد أن أخذتني الحرب في «غزّة»، عدت وأنا مصمّم على عدم العودة إلى الجبهة، ولو كلّفني ذلك الفرار، وليحدث ما يحدث.

عدت لألتقي مع «باولا»، وأرى سيرورة الأمور معها، بعدما غادرت أسرة صديقي «دافيد» إسرائيل نهائيّا، معتبرة وجودها هنا خطأ استراتيجيّا، يجب تصحيحه بالرّحيل.

كان يوما غائما حين دخلت فندق «ليوناردو» في «بير شيفا»، هذه المدينة التي كانت تسمّى في الأصل «بئر سبع»، أبحث عن «باولا»، متعمّدا زيارتها أثناء تناول الغداء، كي نكون مرتاحين في الحديث.

وجدتها مع زميلاتها، فأشارت لي من بعيد أنّها آتية، فطلبت قهوة إيطاليّة وجلست قبالة المدخل، و لم تلبث أن التحقت بي وهي تحمل كأس عصير بارد.

– لقد عرفت أشياء خطيرة أنت شخصيّا لن تخطر لك على بال.

قالتها وهي تجلس أمامي، هذه الأرجنتينيّة الميسم، وفي عينيها إصرار غريب.

– لقد عدت للتوّ من الجيش وأنا أفكّر في التّهرّب من الخدمة، نحن نغرق في مستنقع يسمّى «غزّة»، يريدون منّا أن نقتل كلّ ما يتحرّك هناك، لإقامة مستوطنات جديدة، والحكومة تحضّر لإلغاء قانون «فكّ الإرتباط».

– ما الأمر؟.

– فيما بعد سأخبرك بكلّ شيء، هات ما لديك.

– سأطلب قهوة إيطاليّة مثلك، أريد المزيد من التّركيز.

وأشارت بيدها لنادلة كانت على مقربة منها، بحركة اعتبرتها رمزاً كافياً للقهوة، إذ قاربت بين سبّابتها وإبهامها مسافة لا تتجاوز خمسة سنتيمترات في وضعية أفقيّة، ثمّ نظرت لي متجهّمة كمن تطرق أنفه رائحة كريهة.

إسمه الحقيقيّ «جاكوب أرماندو مونتير» من مافيا «MS 13» السّلفادوريّة، هرب من هناك بعد سرقته أكثر من مليون دولار أمريكيّ من مافيا «غوزمات لويرا»، عقب محاولة فاشلة لتسليم شحنة من المخدّرات، تمّ اعتقال أفراد من المافيا على إثرها، بينما هرب هو بالمال، فاتّهم فيما بعد بالخيانة والوشاية بهم.

لقد كان يعرف ممرّا سريّا مموّها بين الأشجار، فيما يشبه النّفق المشكّل من النّباتات الملتوية، تسلّل منه بعيداً عن الخطر حين بدأ إطلاق النّار.

وحتّى الآن، لا يزال مطلوباً من طرف الشّرطة السّلفادوريّة، على اعتباره عضواً من المافيا، ومن مافيا «MS 13»، على اعتباره واشٍ حقير، باعهم مقابل عفو وحماية من الحكومة، ثمّ هرّبه أحدهم إلى إسرائيل، وأنشأ له هويّة جديدة وسط المجتمع، ومع الوقت عمل النّسيان عمله، لكن من هرّبه وأوجد هويّته؛ لم ينسَ ما فعل، بل راح يحاول استغلاله بشتّى الطّرق، وفي مختلف العمليّات القذرة، أي واضعاً إيّاه في فوهة المدفع.

كان هذا الضّابط هو «يعقوب»، ومن صنعه هنا في إسرائيل هو «غارسيّا»، ضابط «الموساد»، وزوج «إنجي» أخت صديقي «دافيد».

كم تحمل هذه الدّولة من مفاجآت غريبة؟!.

أتت النّادلة تحمل فنجان القهوة السّاخن مع بعض السّكّر، فسكتت «باولا» متظاهرة بالخجل، كأنّي طلبت يدها للزّواج، خطوة حذرة تجاه هذه النّادلة، التي ربما تكون عينا علينا، تحاول «باولا» الآن الظّهور بمظهر رومنسيّ، كي لا تلفت الإنتباه، فيبدو المشهد العامّ كأيّ عاشقين، التقيا في مكان عامّ، يخطّطان لبناء مستقبلهما.

وتبادر لذهني فجأة موقف محرج، تعرّضت له مع إحدى قريباتي التي كنت أخطّط للزّواج منها منذ سنوات خلت.

وضعت «باولا» قطعة سكّر واحدة في الفنجان، وحرّكت القهوة، فانتشر عبقها في المكان، وألقت لي بالمفاجأة الثّانية، بعلامات أسى ترتسم ببطء على وجهها الجميل:

– لقد عثروا على «إيتان عسيفا» منتحراً في السّجن، لقد تخلّصوا منه كي لا يثير المشاكل، كي لا يعترف أمام هيئة المحكمة مقابل حكم مخفّف، بل ربما سيتحوّل إلى شاهد، وبما أنّه من «الفلاشا»؛ فإهمال قتله وإجهاض التّحقيق بعد ذلك شيء أسهل من شرب هذه القهوة، لأنّ عائلته فقيرة وأميّة، لا يعرفون القانون، وليس لهم مال لتوكيل محامٍ قدير يتولّى القضيّة نيابة عنهم، أو يوصلها لأعلى المستويات.

خطيرة هي المرأة إذا استغلّت كلّ قواها من أجل هدف واحد، وخطيرة هذه المافيا بتنظيمها الجيّد، تعرف كيف تختار بيادقها، ثمّ كيف تتخلّص منهم في الوقت المناسب، بطرق لا توحي بأنّ الحادث مدبّر بتاتا.

كلّ المعلومات المتوفّرة إلى حدّ اللّحظة حسب «باولا»، تقول أنّ «نيتاي» هو المدير التّنفيذيّ فقط، من بين بضع مدراء تنفيذيّين آخرين، أمّا الرّئيس والعقل المدبّر لكلّ شيء، فهو «غارسيّا»، بعلاقاته الواسعة في

«الموساد»، وفي كلّ مفصل من مفاصل الدّولة، وضابط في الإستخبارات الخارجيّة عادة ما يتوفّر لديه حسّ أمنيّ عالي المستوى، أكثر من أيّ ضابط في جهة أمنيّة أخرى، لأنّه يتلقّى أقوى دورات التّدريب.

كلّ خطوة هنا تُتّخذ؛ يجب أن تُدرس أكثر من مرّة، وتُقلّب على أكثر من وجه.

أيّة خطوة هجوميّة فاشلة ضدّه؛ ستزيده حذرا، وبالتّالي ستزيد المسافة المأخوذة كمنطقة أمان وتتّسع، ولو وجد نفسه موشكاً على الغرق؛ سيلهينا بكبش فداء، ولو كان من أقرب المقرّبين إليه.

وحان دوري لأحكي لها ما في جعبتي من جديد.

(6)

ما يقال عن «ميري سيناي» يجب أن يؤخذ على محمل الجدّ، فالمعروف بين رفقائه باسم «ألكسي»؛ شخصيّة توصف بالنّرجسيّة، وهذا النّوع من الصّعب جدّا أن يؤثر فيه أحد، أو أن يغيّر له ولو موقفا بسيطاً من مواقفه، لذلك فالإعتراف الصّغير منه يعني الكثير، ولا سيما إذا كان الإعتراف يخصّ صديقاً عزيزاً عليّ يسمّى «دافيد عوفر».

– هل تعرف جنديّا يسمّى «دافيد عوفر» من «أوفاكيم»؟، سائق «ميركافا» يرتدي نظّارات طبيّة؟، يشبه كثيرا «هاري بوتر»؟.

كان هذا أبرز ما قاله لي باقتضاب، حين خضنا في حديث عابر، ولمّا أخبرته أنّي أعرفه؛ ترجّاني أن أبلّغ له تحيّاته، فقد أثّر فيه كل تأثير.

– قُتل في يناير الماضي في «خان يونس».

تغيّرت ملامح وجهه كأنّه انتبه لضياع شيء منه.

– كيف؟.

وسردت أمامه الحكاية، فكان آذانا صاغية، والصّدمة على وجهه تزداد وضوحا كلّما استوعب أكثر.

– حكومتنا مافيا كبيرة؛ كلّ فرع فيها له تخصّص معيّن، والكلّ يبذل جهداً مضاعفاً للحفاظ على مكتسباته، ولا اعتبار لنوعيّة الثّمن، أصبحت أشكّ في نزعتي الصّهيونيّة؛ هذه الفكرة غير المنطقيّة التي يحاولون إقناعنا بها، ومقتل «دافيد» حرّك في قلبي أشياء ما كانت لتتحرّك لولا مقتله، لقد كان القطرة التي أفاضت الكأس.

ثمّ راحت يده ترتجف مستمرّا في اعترافاته، وأنا غير مصدّق لما أسمع، هل يُعقل أنّ هذا «ميري سيناي»؟، الملحد الذي له قلب أقسى من الصّخر؟، يتكلّم الآن أمامي بكلّ شفافيّة وخضوع؟.

نعم... إنّها الحقيقة الخالية من مساحيق التّجميل، والبعيدة عن كلّ تزييف.

- هل تعلم؟، لقد أطلقت النّار على إحدى النّساء منذ يومين، كانت تنظر إليّ مبتسمة والدّماء تنزف من جرحها بغزارة، هل تصدّق أنّ هذه المرأة الضّعيفة تضحك على جيش الدّفاع الإسرائيليّ؟.

- كيف؟.

- ضمّت ابنتها لصدرها في قوّة عجيبة، ورفعت إصبعها تتمتم بكلمات لم أتبيّنها، وفارقت الحياة، هذه المرأة أصبحت في تلك الثّواني الزّهيدة قويّة منّي ومنك، ومن كلّ ألويتنا ودروعنا ووحداتنا القتاليّة.

- كانت تلك شهادة المسلمين التي يردّدونها عند الموت، عبارة «لا إله إلا الله؛ محمّد رسول الله».

وانتفض جسمه كلّه كعصفور، ثم قال واضعاً كفّيه على وجهه منخرطاً في بكاء متقطّع صامت:

- وجهها ما زال أمام عينيّ حتّى الآن، لا أعرف من أين جاءت بتلك القوّة، رصاصاتي مميتة لا ترحم، لا يثبت أمامها أشدّ الرّجال صلابة.

من كان يصدّق أنّ الملحد «ميري سيناي» يبكي مثل طفل صغير حين يسمع شهادة المسلمين؟.

من كان يعتقد؛ أو حتّ يظنّ مجرّد ظنّ أنّ القويّ «ميري سيناي»؛ تهزّه ابتسامة امرأة استقبلت الموت بحفاوة، مثلما تستقبل الفتاة شابّا يأتي لخطبتها؟.

لقد أوهمونا أنّهم مخرّبون ومهرّبون وإرهابيّون، ويجب تجويعهم في إطار خطّة ممنهجة حتّى يثوروا ضدّ «حماس»، و«حماس» فكرة، والفكرة لا تموت.

كنّا في الحواجز نسمعهم يشتمون «السّنوار»، لكنّهم في الواقع يسمعوننا ما نرغب نحن في سماعه، إنّهم متماسكون إلى حدّ بعيد، يصعب تصديقه لو لم تكن ترى ذلك أمام عينيك.

واستمرّ بكاء «ميري» كما استمرّ حديثه:

- لم أستطع إطلاق النّار على الطّبيبة الفلسطينيّة في «مجمّع ناصر الطّبيّ»، لقد خاطرت بنفسها لإحضار شخص أصبته برصاصة في الرّجل، لم أشأ قتله، بل أردت أن يبقى دمه ينزف معذّبا حتّى الموت، لأنّ رصاصة مباشرة في الرّأس ستريحه، لقد تجمّد إصبعي على الزّناد وأنا أراها بشجاعة اللّبؤة، تجري إليه متحدّية رصاصاتي، تذكّرت كلّ النّساء اللّواتي كنت أتلذّذ بقتلهنّ، تذكّرت المرأة التي كان حفيدها يرفع الرّاية البيضاء، ومع ذلك أطلقت النّار عليها، كانت على بعد مائتي متر، هدف سهل جداّ، أشبه بطبق الحلوى لنا نحن القنّاصة، ثمّ عرفت فيما بعد من أحد الرّفقاء أنّ اسمها «هالة خريس»...

قاطعته منتبها:

- «هالة خريس»؟، سمعت بهذا الإسم من قبل.

- دُفنت في منزل عائلتها بسبب الحصار الذي فرضناه عليهم.

وأتت إلى ذهني الأوامر الصّادرة إلينا من حاخام عسكريّ:

- لا فرق بين مدنيّ وعسكريّ في «غزّة»، أقتلوا أيّ شخص يتحرّك حتّى ولو كان طفلا، والرّبّ يباركك يا أبنائي.

وطبّق جنودي أوامر الحاخام بحذافيرها، فكانت الأهداف الحيّة تثير شهوتهم للقتل، ويغريهم الأطفال بأجسادهم الصّغيرة، التي يتراهنون على إصابتها، ومن ينجح؛ يكسب حتّى مائة وخمسين شيكلا.

إنّها لعنة الرّبّ التي ستتزل علينا يا سيّدي الحاخام.

تذكّرت كلّ شيء كشريط سينمائيّ يمرّ أمامي لقطة بلقطة، لقد تحوّلنا إلى مصّاصي دماء، نتلذّذ بافتراس الضّعفاء.

- سيلاحقني الشّعور بالذّنب طيلة حياتي.

وبكت «باولا» تأثّرا.

كانت تفاصيل وجهها الجميلة تعكس مدى الحالة النّفسيّة التي انتابتها، ومقدار الألم الذي يعتصرها، ثمّ أخبرتني أنّها التقت مع السيّدة «ليزا» البارحة، التي أجرت لقاء في عجالة مع الملازم «ديميتري»، كان في الأصل تمهيداً لمقابلة ستجرى بعد أيّام، يكشف فيها كلّ ما عرفه ويعرفه عن «دافيد»، الذي سيكون مضرب المثل للشّاب الإسرائيليّ المدافع عن وطنه، المواظب النّشيط ذو الصّرامة والهمّة، إلى حدّ اللّحظة كان مجرّد موعد غير محدّد بزمن أو بتاريخ.

وكم تأثّر الملازم «ديميتري» بالحادثة التي أقحمت «دافيد» في «غزّة» دون تحضير مسبق، لمّا التقته في «تلّ أبيب»، لقد بحث عنه في قاعدة «شيزافون» حين مرّت ثلاثة أيّام ولم يظهر، غير أنّهم أخبروه أنّه في عطلة لمدّة شهر كامل بسبب ظرف طارئ ألمّ بأسرته، فأجبروه بذلك على السّكوت.

إضطرّت السّيّدة «ليزا» من جهتها أن تحكي له الموضوع برمّته، وأنّه كان ضحيّة مؤامرة لعصابة تتاجر بالسّلاح المسروق من القاعدة، وبالأعضاء البشريّة للجثث المهرّبة من القطاع، فما كان منه إلاّ أن عرض مساعدته المفتوحة، لأيّ شيء تراه يخدم إظهار الحقيقة.

كان الملازم «ديميتري» يعتبر «دافيد» أخاه الصّغير، الذي يجب أن يقسو عليه كي يتقوّى عوده، كان يريد أن يصنع منه رجلاً بأتمّ معنى الكلمة، خاصّة وأنّه طالب متفوّق في دراسته، يمكن أن يصل إلى مستويات عالية من الإحترافيّة بالتّدريب الجادّ.

«ديميتري»، آه... أحاول جادّا تذكّر أين سمعت هذا الإسم.

(7)

تُعتبر «غزّة» منجماً لا ينضب؛ فهي ذات كثافة سكانيّة عالية من الأطفال والشّباب، وهذه الفئات العمريّة مطلوبة أعضاؤها بكثرة في «أمريكا» و«أوروبّا»، كالكلى والقرنيّة والقلب والكبد والرّحم، الإتّجار بالأعضاء البشريّة يضمن دخلاً مادياً معتبراً لا يخطر على بال، ولأنّهم فلسطينيّون؛ لا تهتمّ الحكومة لأمرهم، ولا تحقّق في أيّ شيء.

هذا ما يقوله المنطق، لكن ما تقوله «باولا» شيء آخر مختلف.

أرسل «نيتاي» «آيزنكوف» إلى «غزّة» في مهمّتين؛ إحضار جثث حديثة لبيع أعضائها، والبحث عن مذكّرات «دافيد»، على أن يظهر الأمر كلّه للجميع على أنه حماية للبيت الإسرائيليّ، خاصّة بعد تسجيل عدّة حالات عصيان، ووزارة الدّفاع تتابع الوضع على أعلى مستوى.

حسب شكوك «نيتاي»؛ فإنّ «دافيد» دفن مذكّراته الشّخصيّة قرب إحدى الأشجار في «خان يونس»، قبل قتله بدقائق فقط، حسب المعطيات المقدّمة من إحدى الطّائرات المسيّرة من نوع «كوادكوبتر»، التي صوّرته يتحرّك جيئة وذهابا وهي تراقب المنطقة، ممّا يعني أنّه كان يريد إخفاء شيء هامّ، ثمّ اختفى تحت بعض الأشجار لفترة كافية، ومن ثمّة عاد للدّبّابة.

إذن يجب إحضار المذكّرات قبل أن يعثر عليها آخرون.

هناك قوّات من الهندسة القتاليّة تتقدّم للبحث عن الأنفاق، وسيحفرون المنطقة ويجدونها.

لم أستطع هضم فكرة إدخال «آيزنكوف» إلى القطاع، أحسّ أنّ في المسألة شيئا مستترا، لسببين هامّين؛ أوّلاً يمكن لأيّ شخص أن يحضر الجثث دون أن يسأل عن الدّافع لذلك، أمام المال، ثانيا تحرّك «دافيد» جيئة وذهاباً لا يعني أنّه سيخفي شيئا ما، حيث لا تشير المعطيات الميدانيّة إلى أنّه كان يحمل شيئا.

أمّا «باولا» فرجّحت أنّ «غارسيّا» شرع في التخلّص من أعضاء العصابة، بأسباب منطقيّة لا تثير أيّ شكّ من أيّ نوع، فبعدما تخلّص من «بابلو» و«إيتان»؛ ها هو الآن يريد التخلّص من «آيزنكوف».

سيدفع قريبه إلى مثلّث الموت بيديه، بينما هو يبقى آمنا في الخلف، هل هناك من سيشكّ في الموضوع؟.

ثمّ سيتخلّص من «نيتاي»، بإقحامه في مسألة منطقيّة تفادياً لطرح التّساؤلات، وسيتخلّص من «حنانيا» في الوقت المناسب، وباقي الأعضاء الذين لا نعرفهم، إذا فرضنا أنّ «غارسيّا» هو من يتربّع على قمّة الهرم، كما تؤكّد «باولا»، طبقا لمعطياتها الميدانيّة.

تحليل «باولا» ذكيّ جدّا، إذ اقتنعت به مباشرة بعد لحظات، وهذا ما كنت أحاول الوصول إليه بعد عدم اقتناعي بموضوع إرساله إلى «غزّة».

لا أحد يعرف وظيفة «آيزنكوف» في الجيش، كان في قاعدة «شيزافون»، ثمّ هو الآن في القطاع ضابط «ميركافا»، هل أتمّ مدّة دوراته كلّها بهذه السّرعة؟، ألغاز على ألغاز، وضباب عامّ لا يدعك ترى الأمور على حقيقتها.

وودّعت هذه الفاتنة الأرجنتينيّة على أمل أن ألتقيها مجدّدا، لقد استطاعت بلباقتها وجاذبيّتها، معرفة الكثير من الأشياء، في ظرف وجيز، مجازفة بحياتها ومستقبلها المهنيّ، ولا أعرف إن كان الحظ هو الذي يسعفها دائما، أو ذكاؤها وحسّها الأمنيّ العالي، أو حبّها العظيم لهديّة الرّبّ المرسلة إليها من «السّودان».

(8)

– هل ينتظرون منّا نحن النّساء أن نقبض على السّنوار؟، من هذا الذي يستطيع القبض عليه؟؛ أعطونا عنوانه وستروره.

قالتها وهي تنظر للسيّدة «ليزا»، مستغربة من الإستدعاء الذي اعتبرته فخّا منطقيّا للتخلّص منها، بعد مرور أقلّ من سنة على تسريحها، وبعد استدعاء «نتنياهو» المزيد من جنود الإحتياط لاجتياح «رفح»، بتاريخ الحادي عشر من فبراير سنة 2024 الماضي.

«باولا» التي تؤمن بحلّ الدّولتين، كما تؤمن بإمكانيّة تحقيق السّلام النّهائيّ الشّامل، تباركه دول ثقيلة الوزن على المستوى العالميّ.

في الثّالث والعشرين جوان سنة 2024، ستصادق الحكومة على قانون جديد بعد صدوره من طرف «الكابينت»، أي «مجلس الوزراء الإسرائيليّ المصغّر للشّؤون الأمنيّة»، يفرض على جنود الإحتياط الخدمة في الجيش حتّى سنّ الحادي والأربعين عامًا، ويفرض على ضبّاط الاحتياط الخدمة حتّى سنّ السّادسة والأربعين، بذريعة الحاجة الماسّة للجنود، حسبما ذكرته القناة 12 الإسرائيليّة، وبالتّالي زيادة الإستدعاءات والإستدعاءات المتكرّرة، حتّى ولو لم يوافق الكنيست الإسرائيليّ، فإنّ ذلك سيكون سريّا دون إثارة الرّأي العامّ، لأنّ الجيش يحتاج إلى المزيد من الجنود، ويجب توفيرهم مهما كلّف الأمر.

وهناك إشاعات بدأت تُتداول إلى أنّ الخدمة العسكريّة الإلزاميّة للجنود الرّجال ستبلغ ستّ وثلاثين شهرا، وستكون للنّساء ثمانية وعشرين شهرا، لمدّة ثماني سنوات قادمة.

لقد اختارتا أن تتقابلا في كافتيريا قرب فندق «ليوناردو» تفاديا لكلّ مراقبة محتملة.

– إذا عصيتِ الأمر سيزجّون بكِ في السّجن، مثل «صوفيا» و«سيلينا كونونوفيتش»، يجب أن تلتحقي بوحدتكِ في التّاريخ المحدّد لكِ عزيزتي «باولا»، لا تجازفي، ليست المسألة سهلة كما تعتقدين، نحن في حرب.

– لن أذهب، إنّه فخّ للتخلّص منّي، لأنّهم عرفوا أنّي اكتشفت أشياء كثيرة عنهم، وأنا متأكّدة من صحّة معلوماتي، لن أذهب، ستضع «كتائب القسّام» مثلّثا أحمر على دبّابتي، مثل الذي وضعوه على دبّابة «دافيد»، هذا تهديد مباشر لحياتي.

– في كلتي الحالتين مقتولة، سواء هناك بقذيفة «ياسين»، أو هنا، وتسجّل القضيّة على أنّها انتحار، هم أقوياء، وأياديهم في كلّ مكان.

– آه، رأسي سينفجر، لا أستطيع التّفكير، دعينا من هذا كلّه وأخبريني عن جديدك.

قالتها وارتشفت جرعة كبيرة من القهوة الإيطاليّة التي أمامها.

– هل تصدّقين؟، لقد أخفوا قضيّة انتحار «إيتان عسيفا» عن عائلته.

كانت هذه السيّدة «ليزا»، وهي تضع شيئا من السّكر في فنجان قهوتها، مع تحريك بسيط لا يكاد يُسمع فيه صوت الملعقة، وقالت مكملة:

– ضحايانا لغاية الآن أكثر من ثمانية آلاف قتيل، وأكثر من اثنين وعشرين ألف جريح، لكنّهم يخفون ذلك، بل وينكرون، متبجّحين بعبارتهم المشهورة «الجيش الذي لا يُهزم».

إتّسعت عينا «باولا» من هول الرّقم، وأضاء ثغرها من العبارة، كأنّها طرفة تسمعها لأوّل مرّة، طرفة بقدر ما تضحك، بقدر ما هي صعبة التّصديق.

واستمرّت الأخرى في الشّرح، لتتكلّم عن الوضعية الكارثيّة التي آلينا إليها، فلم يعد هناك مكان آمن، سواء هناك خلف السّياج الفاصل، حيث تتفنّن «كتائب القسّام» في قتلنا، بقذائف «الياسين 105» وعبوات «شواظ»، أو في مساحات التّحشّد حيث تمطرنا «سرايا القدس» بقذائف الهاون.

لقد تحوّل المكان كلّه لجحيم لا ينجو منه أحد، والجميع يوثّق عمليّاته لأسلوب الدّعاية، ولتبقى راسخة، في الأذهان وفي التّاريخ.

أمّا جيشنا المغوار فيستعرض عضلاته في «مجزرة القمح»، التي ارتُكبت بدم بارد في التّاسع والعشرين فبراير سنة 2024، ضدّ النّساء والأطفال الصّغار والنّاس الأبرياء الذين لا حول لهم ولا قوّة، لقد كان الفلسطينيّون ينتظرون المساعدات الإنسانيّة، في ظلّ النّقص الحادّ في موادّ التّموين، فأطلق الجيش النّار عليهم متعمّدا.

أكثر من سبعين قتيلا، وحوالي مئتين وخمسين جريحا، هناك في شمال القطاع في منطقة «النّابلسي»، حيث اشتُهرت في وسائل الإعلام، مجزرة كشفت زيف روايتنا للعالم، ودحض صداها مزاعم الجيش الذي لا يُهزم.

هل هؤلاء «حماس»؟.

هل من المقنع أن يكون هذا خطأ غير مقصود؟.

لقد أشهر أحد الضّبّاط سلاحه في وجه أحد الجنود لّما لمس تردّده في إطلاق النار، مؤكّداً على وجوب الإنتقام من كلّ شيء هنا، حتّى من الحيوانات، إنّها حرب إبادة وليست حرباً ضد الإرهاب كما يريدون إقناعنا به، لقد وثّقت شهادة أحد الجنود، «ستيفي» كما يسمّيه أصدقاؤه، مسجّلا صوتا وصورة، أخبرها فيه أنّه محبط ومندهش للجرأة والوقاحة التي وصلنا إليها، لقد تفاخر الضّابط الذي هدّده بمسدّسه بمركزنا، وسيطرتنا

على«أمريكا»، ملمّحاً أنّنا نحن من أنشأناها، وحين تسقط؛ سنختفي وراء دولة أخرى تقود العالم بشعارات وهميّة، ومن ذا الذي يجرؤ أن يفعل شيئاً حقيقيّا ضدّنا؟، نحن الصّهاينة السّادة العظماء، نحرّك العالم بما يخدم مصالحنا، أيادينا في كلّ مفصل، بل في كلّ زاوية من شوارع هذا الكوكب.

ووثقت شهادة الجنديّ «أوريا» الذي جزم أنّ النيّة كانت مبيّته لقتلهم انتقاماً من «القسّام»، مثلما هي مبيّتة لقتل الأسرى في الوقت المناسب، كي لا يشكّلوا ورقة ضغط، مثلما قتلوا «حاييم جيرشون بيري»، و«يورام إتاك ميتزجر»، و«أميرام إسرائيل كوبر»، في قصف لسلاح الجوّ، الذي لا يفرّق بين مواطنينا والفلسطينيّين، المهمّ أن يدمّر كلّ شيء، لينشئ سلّماً من جماجم القتلى نحو الدّولة المنشودة، حتّى ولو كانت جماجم من ساهموا في بناء هذا الجيش حين كان في مرحلة النّشوء.

أيّ منطق غريب هذا الذي يفكّر به «نتنياهو» و«بن غفير»، والعصابة الحاكمة؟.

– أصبحت أخجل أن أقول أنّي إسرائيليّة، وأنا أرى بأمّ عينيّ أنّ ما تأسّس؛ إنّما تأسّس على الرّمل، لا يمكن أن ننتصر على «حماس» أبدا مهما كذبنا، ومهما قتلنا منهم ومن غيرهم، لذلك، من الأفضل أن نبقى محافظين على يهوديّتنا، بدل هذه النّزعة الصّهيونيّة الشّاذّة، وحتّى حلّ الدّولتين لا يبدو لي أنّه سيجدي نفعا، وأنّنا سنعيش في إطاره في سلام مع جيراننا العرب.

– يبدو أنّ الأمر كذلك، أنتظر مكالمة الملازم «ديميتري» ليفرغ لي ما في جعبته من أسرار، لقد وعدني بذلك في أقرب وقت.

ورجعت «باولا» لعملها من طريق آخر، وهي تفكّر في الهجرة نهائيّا من إسرائيل، كما فعل الكثيرون، حسب بحثها عن محامٍ جيّد يخرجها من بيت العنكبوت.

(9)

عدت إلى الجيش خشية المحاكمات العسكريّة التي أصبحت بالمرصاد لكلّ من يشكّون فيه أنّه يتهرّب من الخدمة، عدت وأنا كلّي عزم على إيجاد طريقة أخرى مناسبة تخرجني من هذا المأزق الذي وضعت نفسي فيه حين فكّرت في الإنضمام لهذه المهزلة الكبرى، عدت لأكتشف مقتل القنّاص «ميري سيناي»، الذي أجبروه على الدّخول للقطاع بعدما رفض سابقا، مهدّدين إيّاه بالمحاكمة العسكريّة، في تقرير رفعه لقائده المباشر، يقول فيه أنّه يعاني من الإرهاق الشّديد الذي يؤثّر على تركيزه، حيث قضى أيّاما لم يذق فيها طعم النّوم إلاّ نادراً جدّا، وأنّه بحاجة ماسّة لعطلة يستعيد بها قواه المنهارة.

لم يعطوه أدنى اهتمام، بل أوكلوا له مهمّة مستعجلة، القضاء على قنّاصي «حماس»، مهما كان الحال، لأنّهم يهدّدون ضبّاطنا، خاصّة وأنّ «الشاباك» أشارت في أحد تقاريرها أنّ «هاليفي» شخصيّا سيكون مستهدفاً من أكثر من قنّاص.

لقد تطوّر أسلوب المعارك الآن، قناصو «القسّام» يبحثون عن قياداتنا مثل الذي يبحث عن ملكات النّحل.

يقول رفقاء «ميري» عنه أنّه كان متوتّرا جدّا في الآونة الأخيرة، بسبب ملاسنة حادّة مع أحد الضّبّاط المتعجرفين، الذي أهانه أمام رفقائه بكلام جارح، لمّا ذكّره بأنّه في حاجة للرّاحة، وأنّه ينتظر جواباً من القيادة منذ أسبوع:

– من تظنّون أنفسكم أنتم الجورجيّون؟، هذا جيشنا نحن «الأشكيناز»، نحن من أسّسنا هذه الدّولة حين كنتم تتغوّطون في ملابسكم الدّاخليّة رعبا من «ستالين».

القطرة التي أفاضت الكأس.

لا أحد يعرف لمّا كتم غيظه ما الذي كان يجول بخاطره؟، حين توجّه لأحد المباني متحصّناً في أعلاها، ثمّ فجأة ارتدّ صوت إطلاق نار في المنطقة، ظنّ البعض أنّ «ميري» قد وضع حدّا لحياته، غير أنّ دويّ الرّصّاصة كان قويّا جدّا، بما يكذّب أيّ ادّعاء بالإنتحار.

إتضح فيما بعد أنّ سبب الدّويّ القويّ هو بندقيّة «الغول» التي كانت قريبة منه.

لقد قنصوا أيقونة الجيش الذي لا يُهزم، كانوا يعرفونه جيّدا، يبحثون عنه بالصّورة، تماما مثلما كان يبحث هو عن أهدافه من صحفيّي قناة «الجزيرة».

رحل «ميري» إلى العالم الآخر عند العصر، رحل مثلما رحل أخي وصديقي «دافيد»، ومثلما سيرحل آخرون، بنفس الطريقة أو بشيء مختلف.

تبّا لهذه الحرب التي تسلب منّا كلّ شيء، حتّى الرّحمة بنفسك.

وأقسمت ساعتها على ألاّ أقتل أيّ شخص من الفلسطينيّين، لن أكون من اليوم أداة طيّعة في يد من يشربون اللّبن ويأكلون العسل في «تلّ أبيب»، هذه الأرض ليست لنا، ولو كرّرنا كذبتنا ملايين المرّات، إنّها لأصحابها، أصحاب المسجد الأقصى وأشجار الزّيتون، فكفانا إهداراً لأرواح هؤلاء الطّيّبين الشّرفاء، أطهر خلق خلقه الرّبّ على هذا الكوكب.

ما الذي يفرّقنا عن المافيا؟، لا نرتدع للأعراف ولا للقوانين الدّوليّة.

«أوبس»، وأخيرا... تذكّرت أين سمعت اسم «ديميتري»، اليتيم البولنديّ صاحب الأربعين عاما.

عنيف السّلوك، ذو مبادئ عادلة ومشاعر صادقة نبيلة، دخل إسرائيل ليبدأ صفحة جديدة، وبوشم كبير كان على ظهره، كدليل على عضويّته السّابقة في المافيا البولنديّة، خدمت معه أوّل ما خدمت في الجيش، كنّا في الشّمال، حيث كان هو برتبة رقيب أوّل، ثمّ تحوّل إلى كتيبة «ريشيف» في الجنوب، إستغلته مافيا «كراكوف» واستغلّت أوضاعه المعيشيّة السّيّئة، وحين أدرك أنّ الوضع لا يمكن أن يستمرّ على هذه الشّاكلة؛ بعدما سئم حياة العصابات التي لا مستقبل لها، ولأنّ شكوكاً بدأت تحوم حوله بتخابره مع الشّرطة المحلّيّة؛ أخبره أحدهم أنّه يمكن أن يهرب لإسرائيل، خاصّة وأنّ له جذوراً يهوديّة قديمة تدعّم هجرته، فيسهل اعتباره من «السّفرديم»، ولا يوجد إسمه على القائمة السّوداء، سواء لدى «الموساد» أو«الشّاباك».

يتم فظيع عانى منه «بوغدان بوتشكورا»، إسمه الحقيقيّ، وهذا اليتم هو الذي جعل منه رجلاً بحقّ، كان عليه العمل هناك ليأكل، إذا مات من الجوع لن يأبه به أحد، لقد أفصح لي مرّة أنّه لم يؤمن قطّ بإسرائيل، هذا الحمل غير الشّرعيّ الذين يحاولون إظهاره للنّاس كافة أنّه نتيجة منطقيّة لزواج صحيح، بُني على قاعدة «شعب دون أرض لأرض دون شعب»، كنّا ساعتها في الشّمال قبل أن ينتقل هو للجنوب.

لقد إرتكزت الفكرة على إبعاد الشّعب الأصليّ للأرض قتلاً وتهجيرا، وسيأتي اليوم الذي سينتقمون فيه منّا، وأنّه مضطرّ لاعتناق فكرة الصّهيونيّة، أو على الأقلّ التّظاهر بها مثل الآخرين، لأنّ لا مكان له آخر يؤويه.

حين ينهض سكّان الأرض الأصليّون سيغادر، لأنّ القتال ضدّهم مضيعة كبيرة للوقت.

ما فعلته هذه الدّولة باختصار، هو تحويل كلّ الفائض البشريّ لمقاتلين، كي يبقوها حيّة عبر السّنوات المتتالية، كلّ إسرائيليّ هنا، إلاّ وله قناعه الذي يرتديه دائما؛ وهناك طيف واسع، من الباحثين عن المجد، إلى الباحثين عن المال، إلى الباحثين عن الإستقرار، إلى الباحثين عن المغامرة والنّجاح الإقتصاديّ.

منذ ذلك الحين لم أره، حتّى تقرّرت الإستعانة ببعض العناصر المرموقة في سلاح الدّبّابات، لنجدة الجنود الغارقين هناك في إحتدام المعارك.

كان «ديميتري» ضمن هؤلاء، حيث استدعي من قاعدة «شيزافون» على وجه السّرعة إلى «تلّ أبيب»، ليلتحق بالقوّات التي دخلت «غزّة» في الحادي والعشرين فبراير سنة 2024، ضمن القوّات المشكّلة من لواء مدرعات، إضافة إلى لواءين، قوّات خاصّة مع لواء «جفعاتي»، كلّها لحسم المعركة في «خان يونس»؛ مكان اختباء «السّنوار»، مهندس هجوم السّابع من أكتوبر عام 2023، في شبكة معقّدة من الأنفاق، تصل إلى خمسمائة كيلومتر، رفقة بعض الأسرى الذين يتّخذهم دروعاً بشريّة، ومن الحتميّ أنّ خسائرنا ستكون فظيعة أكثر ممّا نتصوّر، وسيتكتّم عليها الجيش كعادته في إخفاء الحقيقة، بدعوى الحفاظ على المعنويّات.

لا أعرف إن كان مجرّد صدفة أم تدبير من الرّبّ، حين التقيت بالسّيّدة «ليزا»، رفقة جمع من الصّحفيّين، حضروا لتغطية عمليّات التّقدّم العسكريّ، بفرحة تشعّ من عينيها تعكس ما حقّقته من سبق صحفيّ، حيث التقت مع «ديميتري»، ووثّقت له حديثاً طويلاً حول مسيرة «دافيد» في قاعدة «شيزافون»، سيُنشر في «هآريتس» حين تجتمع كلّ الخيوط، كما أطلعتني على مدى تقدّم عمليّة التّحقيق والإستقصاء.

للخبيث «غارسيّا» شكوك تقول أنّ «ديميتري» يعرف كلّ شيء، وربما لديه المستندات والمذكّرات التي يبحث عنها الجميع، فاعتبر هذا فرصة ذهبيّة لن تتكرّر لاستعادة ما يبحث عنه، ومن ثمّة التخلّص من الكلّ بضربة واحدة، وعلى «آيزنكوف» تتبّعه أينما ذهب، متعلّلا بحمايته، خشية أن يحدث له مثلما حدث للرّائد احتياط «يتسهار هوفمان» من وحدة «شالداغ»، واضع مخطّط حصار مستشفى «الشفاء» ومنفّذه.

كانت «كتائب القسّام» ترصده، حتّى اصطاده قنّاص من قنّاصتها في شمال «غزّة»، الأربعاء الحادي والثّلاثين يناير من سنة 2024، ببندقيّة «الغول» الرّهيبة، التي يصل مداها إلى كيلومترين، لقد وضعوا عليه مثلّثا أحمرا، كغيره من الجنود، ونشروا الفيديو في قناة «الجزيرة».

حين رأينا الصّور خفية، لم نصدّق أنّهم أصبحوا بهذا المستوى، حيث أمست السّترات الواقية من الرّصاص عديمة الجدوى، أمام الذّخيرة الخارقة التي صنعها مقاتلو «القسّام»، والذّخيرة الخارقة للدّروع، من عيار 12.7 مم، هذا العيار يحتّم على القيادة توقيع شهادة وفاتك رغما عنها.

في حالة ما فشلت خطّة الحماية، سيكون «آيزنكوف» هو سائق الدّبّابة التي سيكون «ديميتري» الضّابط المسؤول عليها، في خطّة بديلة.

ومثلما توقّع «غارسيّا» رفض «ديميتري» أن يتولّى «آيزنكوف» حمايته، معتبراً إيّاه غرّاً لا يستطيع حتّى حماية نفسه، كان ذلك في حصار «مجمّع ناصر الطّبّيّ»، للبحث عن أنفاق «حماس» المحفورة تحته، ثمّ قرّر الجيش اتّخاذه ثكنة، غير أنّهم انسحبوا إلى محيطه، لمّا تواردت شكوك حول وجود أنفاق ملغّمة أسفله، ستفجّر في الوقت المناسب، لكنّ تفتيشا دقيقاً لقوّات الهندسة القتاليّة في الثّالث والعشرين من فبراير 2024، أدحض كلّ المزاعم وطمأن الجميع.

ما تبذله السيّدة «ليزا» من جهد يجب أن يسجّل كعلامة لها، كونها نجحت في بناء تنسيق جيّد بينها وبين «باولا»، من أجل الحصول على معلومات، ربما يصعب حتّى على الشّرطة أن تصل إليها.

تسلّل «ديميتري» بذريعة القيام بدوريّة ليليّة -حيث كان هو الضّابط المسؤول- إلى منطقة يشكّ أن «دافيد» دفن المذكّرات والمستندات فيها، بيد أنّ «آيزنكوف» لم يستطع تتبّعهم بدقّة، رغم ما بذله من محاولات، فقد كان مرعوبا من «كتائب القسّام» أن ترصده، ويبدو أنّهم كانوا يراقبونهم جميعا، فهم يسيطرون على كلّ المنطقة، لقد لمح «آيزنكوف» في الظّلام بعض الأوراق التي كانت بيد «ديميتري»، فاعتقد أنّ المطلوب لديه، وفوراً اتّصل عبر موجة سريّة بابن خالته الذي قرّر التخلّص منه قبل أن يخرج من «غزّة»، معطيا الأمر إلى «آيزنكوف» بإطلاق الرّصاص عليه في الوقت المناسب، ولن يبحث أحد عن الفاعل، لأنّ الجميع والمنطقيّ هنا سيقولون أنّ «كتائب القسّام» هي المسؤولة، بيد أنّ لا فرصة حقيقيّة أتيحت له، ممّا اضطرّه لتحيّن السّاعة المناسبة.

كان «آيزنكوف» قد جهّز مسبقاً عدّة جثث صالحة للإتّجار بأعضائها، تحت ذريعة أخذها لفحص حمضها النّوويّ، بغية التّحقّق من كون أصحابها لا ينتمون لأيّ فصيل مسلّح، ممنّيا نفسه بما وعده «نيتاي» من مكافأة ماليّة سخيّة جدّا تغنيه عن العمل لسنوات؛ إضافة إلى مليون شيكل، كمستحقّات مباشرة نظير ما أحضره من جثث، مبلغ كاد أن يصيبه بانهيار عصبيّ بسبب تخوّفاته ليلاً وأعصابه المرهقة، فقبل يوم واحد فقط من تلك اللّحظة التي راقب فيها الوضع من النّافذة؛ دمّرت «القسّام» ثلاثة دبّابات بقذيفة «الياسين»، كانت إحداها أمامه مباشرة.

لم يتقبّل عقله الباطن أن يموت في الأخير، تاركاً كلّ هذه الأموال التي ستجعله من مليونيرات إسرائيل خلفه، كما لم يكن أحد يعلم بما ينوي «ديميتري» القيام به بعد هذه الخطوة، ولم تتركه «كتائب عزّ الدّين القسّام»، الإسم الكامل للذّراع العسكريّ لحركة «حماس» أن ينعم بما وُعد به، إذ نشرت فيديو عمليّة جريئة يوم الخامس والعشرين فبراير 2024، توثّق تدمير شقّة يتحصّن فيها مجموعة من الجنود، بقذيفة «تيندوم» مضادّة للأفراد، ثلاثة مثلّثات حمراء كانت كافية لإرسال «آيزنكوف» و«ديميتري» رفقة جنديّ آخر، إلى الدّار الآخرة دون تذكرة رجوع.

بسبب الرّعب المخلّف في النّفوس، لم تستطع فرقة الإنقاذ الدّخول للمنطقة، حتّى تأكّدت فعلاً أنّها خالية من أيّ تهديد، كما لم تستطع إنقاذ «آيزنكوف» المصاب بجرح بليغ، فقد على إثره الكثير من دمائه، في حين كان «ديميتري» قد فارق الحياة مباشرة مع الجنديّ الثّالث.

وبذل «نيتاي» جهداً مضاعفاً مع «غارسيّا» من أجل التكتّم الشّديد على الضّحايا، كي لا تُتّبع خيوط العمليّة التي شكّلت للجيش الذي لا يُهزم، فضيحة من نوع آخر.

(10)

مشكلة أغلب النّاس أنّهم يحتقرون ذوي الطّباع الهادئة الخجولة، بل ينظرون إليهم كأغبياء يسهل التّلاعب بهم، واستغلالهم استغلال السّادة للعبيد، وهذا ما كان يحدث لصديقي «دافيد»، الطّفل الهادئ في داخله، الطّموح الذي كان يقظاً منتبهاً لكلّ ما يحدث حوله، غير أنّه لم يكن اجتماعيّا لدرجة تسمح له بتفريغ كلّ مكبوتاته، فكان القلم ملجأه الوحيد، وخير مترجم لفيض المشاعر والعواطف والمواقف المتناقضة، التي يوضع أو يجد نفسه فيها.

توقّف رتل «ميركافا» في انتظار الأوامر، وأمام الهدوء الحذر الذي ميّز المنطقة، تشجّع البعض على الخروج من الدّبّابات تحت حمايتنا، وهناك فاجأني بلفّة ورق أخرجها من تحت بذلته، هي جزء ممّا كتبه عبر سنوات، في عجالة مستغلاّ انفراده بي، ثلاثة دقائق كانت كافية للفصل في الموضوع، قبل أن يصعد إلى دبّابته متوجّهاً للقتال، ثلاثة دقائق كانت الفيصل في كلّ شيء، بعدها كان تحت إشارة المثلّث الأحمر.

كان يعلم أنّ عدّة مسيّرات تراقب النّملة من السّماء، لذلك، ما أخفاه «دافيد» كان أوراقاً عادية ككلّ الأوراق الأخرى، لكنّه أعطى انطباعاً عامّاً أنّه متكتّم على شيء خطير، يريد إخفائه تحت الأرض قرب شجرة زيتون، تمويهاً عن الوجهة الأساسيّة للمذكّرات.

ودون أن ينبس ببنت شفة ودون أن أسأله؛ أخفيت اللّفة تحت بذلتي وانسحبت للخلف، متسلّلاً بين عشرات الجنود متظاهراً بألم في كاحلي، بعد أن دست عن طريق الخطأ، على بعض الأنقاض، من أحجار إسمنت مسلّح تظهر منها قضبان حديديّة، وعزّزت موقفي إصابة قديمة بأثر أزرق في الكاحل، فنُقلت إلى الخطوط الخلفيّة مباشرة بعد أن حضر المسعفون.

هناك انتهى بي المطاف على سرير في عطلة مرضيّة تدوم أربعة أيّام، إعتبرتها كافية جدّا لأعرف ما الذي خطّه «دافيد» بيده.

أوّل ما أثار انتباهي، هو ما حدث يوماً واحداً قبل هجمات السّابع من أكتوبر.

كان «دافيد» شاهداً على عملية قتل وصفها بالبشعة، ورأى الفاعل يخفي الجثّة بعدما حاول تقطيعها دون جدوى، بين بعض النّفايات المنزليّة، كان يبدو ثملاً، بسكّين في يده المضرّجة بالدّماء، يقلّب وجهه ذات

اليمين وذات الشّمال لا يدري ما يفعل، لتُكتشف في ظهر الغد يوم السّبت، واتُّهمت «حماس» بالجريمة وبالتّنكيل بالجثّة.

لم تكترث الشّرطة أصلاً، لأنّ الأولويّة آنذاك لستّ وعشرين مقاتلا من قوّات النّخبة، تسلّلوا لمقرّها، متحصّنين به حتّى الموت، بعد ستّ وعشرين ساعة من الإشتباك المرير، قتلوا فيها «دافيد بن دايان»، «مور شكوري»، «إلياهو ميخائيل هاروش»، «أدير شلومو»، وأذلّوا «رونين غاباي» و«أفيعاد عكّا» والمغرورة «مالي شوشانا» التي كادت من رعبها أن تبلّل بزّتها.

كان هناك عشرات الضّحايا على الطّرق، كلّهم قتلى، وفي الأماكن العامّة، ومنازل محترقة، والكلّ منشغل بأفراد عائلته أو أقاربه المختطفين، وبما لديه من هموم، لدرجة أنّ عمدة المدينة «علون دافيدي»، قال إنّ الحرب لا يجب أن تنتهي، حتّى تدمّر «غزّة» بالكامل.

أهي الشرّ كلّه القادم من وراء السّياج؟، بينما الإجرام متأصّل بجذوره بيننا، منذ اغتصبنا الأرض في سنة 1948.

هناك من استغلّ الوضع وقتل جاره، أو صديقته، أو شريكه في السّكن والتّجارة، ليتخلّص منه من جهة، أو ليأخذ منحة تعويضيّة، أو حتّى سكناً من جهة أخرى.

هذه أمور لا تستطيع استيعابها إلاّ إذا كنت مقيماً هنا في إسرائيل، لمدّة طويلة، ترصد إشارات تفكّك المجتمع، وضياع القيم الأخلاقيّة.

نعم للأسف، وصلنا لهذه الدّرجة المقرفة من التّمزّق في الرّوابط الإجتماعيّة، ولا يجب علينا أن نهرب من مواجهة الحقيقة.

صديق «دافيد» مثلا، الجنديّ «نيريا بالتا»، الذي قُتل بعده في الرّابع والعشرين فبراير 2024، أقيمت له جنازة متواضعة جدّا، رأيت ذلك بأمّ عيني ولم يخبرني به أحد، عكس «إيال شومينوف»، الذي قُتل في نفس اليوم، ودُفن في المقبرة العسكريّة، في أبّهة أسطوريّة مثل إمبراطور رومانيّ.

لقد أدرك «دافيد» هذا رغم صغر سنه، لقد رآه في الثّانويّة والجيش، بين يهود «الفلاشا» و«الأشكيناز».

لقد لمسه في توزيع السّكنات الفاخرة على أصحاب المراكز العليا، حسابات تحت الطّاولة لأصحاب النّفوذ حسبما روى له والده العسكريّ السّابق، الذي يعرف أشياء كثيرة على الطّوائف اليهوديّة الهامشيّة، التي يحاولون طمس هويّتها، مثل يهود «كوشين» القادمين من الهند، ويهود «كايفنج» القادمين من الصّين.

هناك أشياء حسّاسة لا نستطيع قولها مباشرة، لكن نستطيع توثيقها بطرق شتّى.

ليس سرّا هنا أنّه يُستحسن أن تكون من «الأشكيناز»، بل يجب أن تكون كذلك، لتُفتح في وجهك كلّ الأبواب الموصدة، والباقي مجرّد بيادق موزّعة على رقعة شطرنج واسعة.

مجتمعنا ينهار على نفسه من الدّاخل؛ لأنّه ببساطة شديدة لا توجد عدالة اجتماعيّة بيننا، هنا يوجد تمييز طبقيّ وعنصريّ شنيع، مقرف، بغيض، تشمئزّ منه الأنفس.

هل يمكن أن يتفكّك المجتمع الإسرائيليّ برمّته لهذه الدّرجة؟، أم أنّه أصلاً لم يكن ملتحماً من البداية ليتفكّك؟.

«دافيد» شخصيّة خجولة، يعي الكثير من الأشياء، لكن لا يجرؤ على إخبار أحد بها.

كان في «سديروت»، راجعا من عند صديق له، إقترح عليه المبيت عنده لتأخّر الوقت، خاصّة وأنّه كان في ليلة الجمعة، لكنه أصرّ على الرّجوع للبيت، ليرى بأمّ عينيه مشهد القتل المرعب، وما كتبه من صفحات حول «أتارا»؛ يعكس فعليّا مشاعره النّبيلة تجاهها، وتربيته العائليّة الرّفيعة وحسّه الثّقافيّ.

ومع كونه حريصاً على توثيق كلّ شيء؛ إلاّ أنّ حرصه على حياة صديقه ومستقبله العسكريّ كان أكثر بكثير، الصّديق الأمريكيّ الذي كان له الفضل في حصوله على شهادة «البغروت»، «هارون بوشنل» الذي يتحدّث معه أحيانا عبر إحدى تقنيّات التّواصل الإجتماعيّ، معبّرا له عن مساندته لإسرائيل كدولة وشعب.

في ديسمبر الماضي، من سنة 2023، تغيّر موقف هذا الطّيار مائة وثمانين درجة، بل أضحى يعتبرها دولة إرهاب في الشّرق الأوسط.

سجّل «دافيد» في مذكّراته بأيّام قبل مقتله في «غزّة»، أنّ صديقه الطّيّار اطّلع على وثائق سرّيّة للغاية في الجناح سبعين، وهو جناح إستخباريّ محض تابع للقوّات الجويّة الأمريكيّة.

تكشف هذه الأوراق بالتّفاصيل قضايا شنيعة، منها ما يرويها جنود أمريكيّون بألسنتهم، ممّن شاركوا هنا في الحرب ضدّ «غزّة».

يقول «دافيد» أنّه لا يستطيع كتابتها وتدوينها بأيّ شكل، للحفاظ على مستقبل وحياة صديقه الذي إئتمنه عليها، ولم يكن يعلم أنّ الذي أقسم له على التّوراة انتحر حرقاً أمام سفارتنا في «أمريكا»، في الخامس والعشرين من فبراير 2024، كردّ فعل سلبيّ، لجأ إليه حين استعصى عليه القيام بأيّ شيء آخر.

بعد إعلان الحرب، وبالضّبط في الخامس عشر أكتوبر سنة 2023، تمّ استدعاء الأخ غير الشّقيق لزميل «دافيد» في الثّانويّة «تشاتشا» للجيش، وبرتبة رقيب أوّل في قاعدة «زيكيم»، توفّرت له الصّلاحيّات لاستنطاق المعتقلين، باستعمال كلّ وسائل التّعذيب الممكنة، وخاصّة تلك التي لا تترك أثرا دائما على الوجه.

كانت مهمّته التي عافها «دافيد»، هي تعذيب المعتقلين، للحصول على أيّة معلومات حول أنشطة المقاومة في «غزّة».

ثمّ وبدافع عنفوان الشّباب، يلتقط صورا لهم وهم في وضعيّات حسّاسة، تحت الألم النّفسيّ والجسديّ، يملؤه الحقد الذي زرعوه فيه، كان أحد الضبّاط يكرّر دائما أنّ هؤلاء هم من قتلوا النّاس في السّابع أكتوبر، هم

من مزّقوا الجثث وذبحوا الأطفال، وصدّقه «تشاتشا» بحماس شديد، لأنّ الوضع العامّ آنذاك كان مكهربا جدّا، كل كلمة تُقال هي مرادف للتّصديق.

صور فظيعة تلك التي كان يرسلها له، من أطفال في سنّ الثّانية عشرة عاماً إلى شيوخ في أواخر العمر، عراة الجسم كما ولدتهم أمّهاتهم، تبدو على أجسادهم الهزيلة آثار الضّرب والجروح والصّعق الكهربائيّ، ومنهم حتّى المعاقين ذهنيّا.

لم تُكتب النّجاة لأحد من جحيم الإستنطاق الرّهيب.

كتب «دافيد» في إحدى الصّفحات:

«شكرت الرّبّ حين توقّف تشاتشا عن إزعاجي بصور من يتلذّذ بتعذيبهم، كأنّه يتناول قالبا من الحلوى، بعد أن أخبرته أنّي سأكون مجنّدا بعد يومين من الآن، أيّ درجة منحطّة وصل إليها شعورنا بآلام الآخر، وأيّ بشاعة تركناها لأعدائنا حين نحاول بكلّ قوانا الشّريرة، أن نرسم الذّعر على وجوه أطفال وشيوخ، لا يعرفون ماذا حدث لنا يوم السّابع من أكتوبر، لأنّهم ببساطة ليسوا هم من هاجمونا، أنختلف نحن عن المغامرين الإسبان؟».

كما يقول في فقرة أخرى:

«قد أُتّهم بالجبن أو حتّى بالتّعاطف لا شعوريّا مع من جاؤوا من وراء السّياج، أنا إنسان ولي مشاعر، وقلب أحاول جاهداً أن أحافظ عليه من تلك المشاهد القاسية، التي توسّع الهوّة باستمرار بين معتقداتنا في العدوّ، وبين معتقدات هذا العدوّ فينا، لا أظنّ أبداً أنّ أسرانا يكابدون ما يكابده هؤلاء، الذين أوقعهم سوء حظّهم في أيادي من يعبدون الشّيطان».

(11)

– يجب إطلاق صافرة النّهاية في «خان يونس».

بهذه العبارة التي تعتبر صريحة إلى حدّ لا تحتمل معه أيّ تأويل، عبّر محلّل الشّؤون العسكريّة في القناة 13، «علون بن دافيد»، عن رأيه أمام الجميع، كردّ فعل على استدعاء أحمق الحكومة «نتنياهو» لجنود الإحتياط، من أجل عمليّات عسكريّة موسّعة في «رفح»، بتاريخ الحادي عشر فبراير 2024 الماضي، وهو الشّيء الذي أزعج «باولا» غاية الإزعاج، لأنّها كانت ضمن القائمة، مثلما توقّعت، لكن تأكّد لها كخلاصة واستنتاج أنّها في الطّريق الصّحيح.

من لقاءاتي الكثيرة معها أصبحت أعرفها جيّدا.

يهوديّة من «الأرجنتين»، هاجر والداها الصّهيونيّان في سنة 2000، نتيجة انهيار الإقتصاد هناك، وتأقلما بسرعة في المجتمع، حيث سكنوا العاصمة «تلّ أبيب»، ثمّ رحلوا إلى «بئر سبع» في 2010.

إنتحرت أختها الكبرى «مارتا» التي تكبرها بعشر سنوات، بسبب فضيحة أخلاقيّة، حيث رفض صديقها الإعتراف بالمولود، إقتنعت يومها اقتناعاً تامّاً أنّ أختها وضعت ثقتها في الشّخص غير المناسب، في ذكر وليس في رجل، فدفعت الثّمن باهظا، لهذا أقسمت ألاّ يمسّها إنسان حتّى تتزوّجه رسميّا، وحين أحبّت «بابلو»، خطّطت للهجرة إلى «إيرلندا» لو تزوّجها، غير أنّ «غارسيّا» وعصابته، إنتصبوا حجر عثرة في طريق حبّها الوحيد، وأملها في الإستقرار الدّائم بعيدا عن بؤرة الصّراع.

في الخامس مارس 2024 كان كلّ شيء جاهزاً للعمليّة البريّة، قرار الحكومة فقط هو ما يُنتظر، التي كانت بدورها تنتظر قذائف الدّبّابات والمدفعيّة، مع إجلاء مليون ونصف مليون نازح.

كانت «باولا» في الخطوط الخلفيّة في دبّابتها التي يحميها ساتر ترابيّ، لكن من يضمن أن تبقى في الخطوط الخلفيّة دائما؟، لا شيء مضمون في إسرائيل، والكلّ يترقب خطأ الكلّ، ثمّ وعلى حين غرّة؛ حدث إنسحاب كلّي من «خان يونس»، في السّابع أبريل 2024، والقرار كان قبل يوم فقط، من أجل تجميع القوّات التي ستشارك في اجتياح «رفح»، هذا ما يُشاع في الإعلام، وتعزّزه البروباغاندا، بيد أنّ الحقيقة تكمن في ارتفاع

خسائرنا التي تقدّر بأكثر من مائتي قتيل أسبوعيّا، حسبما نراه أمامنا في الواقع، ويراه كلّ الجنود والضّباط، واستقال بسببها من يعملون مع «دانيال هغاري»، المتحدّث باسم الجيش الإسرائيليّ الذي لا يُهزم.

لدينا سوء تقدير للمواقف، وضبابيّة في الخطط، بل ومغامرة بأرواحنا من طرف ضبّاط يجلسون وراء مكاتبهم المكيّفة، وعمليّة «الزّنّة» في شرق «خان يونس» أكبر دليل على العبث، أربعة عشر قتيلا لأجل لا شيء، في السّادس من أبريل 2024.

إستهزاء عامّ بالجيش الذي لا يُهزم عبر وسائل التواصل الإجتماعيّ، هذه المنطقة لمن لا يعرفها لا تبعد سوى ثلاثة كيلومترات عن السّياج الفاصل، وهي مؤمّنة جيّدا أكثر من العاصمة «تلّ أبيب»، لدرجة أنّ الكثير من الجنود كانوا يلتقطون صوراً، ويبثّون فيديوهات منها، بما فيهم «باولا» رفقة صديقاتها، وكم استمعنا في هذه المنطقة لعزف صديقنا «باروخ»، الفنّان المجتهد الذي قُتل دون معنى.

لقد قُتل دون أن يعي ما الذي قُتل من أجله.

لم أقدر على حجب دموعي وأنا أرى أمّه «شارون» في جنازته تقاوم ألمها في بسالة، لم تستطع أن تقول أنّها فقدت ابنها لشيء تافه خوفاً من «الشّاباك»، لكنّها في داخلها كانت ترفض ما حدث، لاعنة كلّ ساكت عن قول الحقيقة بيده تغيير مسلك الأمور.

بماذا سيفيدها «نتنياهو» الآن و«بن غفير» و«غالانتس» وقد فقدت فلذة كبدها؟.

لقد دمّر الجيش المنطقة كلّها، وتأكّد تماما أنّها آمنة، ثم فجأة يخرجون من تحت الأرض، من أنفاق مجهولة لدينا؛ يضربون وينسحبون، بل يجهّزون كميناً قاتلاً رغم طائرات الإستطلاع التي تراقب النّملة، لقد هاجموا الدّبّابات بقذائف «الياسين 105»، ثمّ فجّروا ألغاماً كانت تنتظر قوّة النّجدة، ثمّ أجهزوا بقذائف «الياسين» المضادّة للأفراد؛ على ما بقي من الذين لجؤوا إلى الشّقق القريبة للإحتماء، لدرجة جعلت من الكاتب «علون مزراحي»، يقول أنّ «حماس» تتمتّع بعبقريّة فذّة في إدارة مواردها، مغيّرة مسار التّاريخ.

لقد هزمتنا وهزمت حلفائنا كلّهم مجتمعين.

هل إلى هذا الحدّ تحبّهم هذه الأرض كي تحافظ عليهم؟، بينما تنبذنا نحن وتتخلّص منّا تخلّص الجسم من الفضلات؟.

معركتنا آيديولوجيّة، ولأنّ «حماس» تدرك ذلك تمام الإدراك؛ أصبحت تمثّل مأساة حقيقيّة لنا، بل نراها في كوابيسنا لنستيقظ مفزوعين وجلين من الموت، لقد جعلتنا نبدو كالمغفّلين أمام العالم، ونحن من نحن في المنطقة التي غرسنا فيها نيران الصّراع المتأجّجة، لقد قصفنا مقرّ القنصلية الإيرانية في «سوريا»، في تحدّ صريح صارخ، ثمّ سارعنا لإغلاق أكثر من عشرين سفارة حول العالم، خوفاً من ردّ الفعل الذي نجهل حجمه.

هل نحن مجانين إلى هذا الحدّ؟، أم هي الغطرسة التي أعمتنا عن رؤية الواقع الحقيقيّ؟.

لقد بتنا نختبئ كالفئران، لأنّنا ادّعينا الشّجاعة والقوّة، ونحن في الأصل مثل عنكبوت منزليّ، يسحقه ابن صاحب البيت بنعل حذائه متقزّزا.

كلّ هذا لم يكف أحمق حكومتنا، ليقول بكلّ تيه وصلف أنّنا لسنا مستعدّين للإستسلام، وقريبون جدّا من النّصر!.

ما النّصر الذي يقصده هذا الكاذب اللّعين هو وزمرته؟، إنّهم يصوّرون أنابيب الصّرف الصّحيّ على أنّها أنفاق مكتشفة؛ أيّ كذب هذا وأيّ ضحك على الذّقون؟.

من الطّبيعيّ أن يقول أيّ شيء يطيل الأزمة، فنجله العزيز هناك في «فلوريدا»، إذا تطوّر الموقف وتعفّن الوضع؛ فسيغادر المكان ملتحقاً به، بعد أن تسبقه أمواله التي اختلسها، ونبقى نحن هنا عرضة لانتقام الفرس والعرب والأتراك، بل وحتّى الأفغان، الذين سيتوحّدون تحت لواء دينهم، وسيسحقوننا مثل الصّراصير، رغم كلّ ما بُذل من مال وجهود، لإذكاء روح العصبيّة والتّفرقة بينهم.

«باولا» تعي جيّدا كلّ هذا.

(12)

ويتكرّر الكابوس معها مرّات كثيرة.

مقلق ما تراه أمّي في نومها حين تحكيه، رغم أنّها تختبئ وراء ابتساماتها التي يجمّلها وجهها البشوش، ووصلت في الآونة الأخيرة إلى حدّ أن هدّدت بحرق «نتنياهو» أمام النّاس، بعدما اتّضح للجميع أنّه يعرقل مفاوضات التوصّل النّهائيّ إلى حلّ، من أجل إطلاق سراح المخطوفين في «غزّة» منذ السّابع من أكتوبر.

– مجرّد قزم، هذا هو «نتنياهو» لمن لا يعرفه، سأحرقه داخل بيته، حيّا وأنهي الموضوع، سأريح جميع الأمّهات منه.

بسبب هذا الكابوس الذي جفاها النّوم بسببه؛ زارت كمّا هائلاً من الأطبّاء وعيادات العلاج النّفسيّ، دون جدوى، أبرزهم الدّكتورة «ألانا سيجل»، والدّكتورة «بنيامين»، مديرة الرّعاية النّهاريّة السّريريّة في مستشفى «ميرهافيم»، ومركز «إيميد» المتخصّص في معالجة الذّكريات بواسطة خطّ العين، المعروفة باسم «EMDR»، وفي النّهاية حين لم تجد أيّ نتيجة تُذكر؛ زارت إحدى الطّبيبات المتخرّجات حديثاً من جامعة في «ألمانيا»، أعطتها أقراصاً منوّمة تساعدها لأسابيع فقط، لكن يبقى أخي شغلها الشّاغل.

أخي الذي تراه في نومها يسقط في حفرة دون قرار، وهو يمدّ يديه الإثنتين لها لإنقاذه، بينما هي تقف متسمّرة في مكانها مشلولة الفعل والإرادة.

آخر العنقود شقيقي الذي يشبه أمّي كثيرا، ويصغرني بعامين، كلّما نغزها قلبها، تقول إنّه المسكين «غريدي»، يعاني الجوع والبرد ونقص في أشعّة الشّمس.

بعد قتل أخي الأوّل الملازم في سلاح الهندسة، توتّرت أعصاب أمّي أكثر، خاصّة ونحن نرى أن لا جديد تحت الشّمس، هذه الوضعيّة اللاّمستقرّة تحفّز هرمونات القلق مسبّبة الذّعر، ومهيّئة جوّا فريداً لنموّ الإشاعات التي لا نعرف بالتّحديد من يطلقها، مجرّد كلام يُلقى هنا وهناك، في المقاهي والحانات، وفي مساحات التّسوّق وبين المارّة على أرصفة الشّوارع.

لقد أزاحت الشّرطة جميع الخيم، التي تمّ نصبها أمام منزل «نتنياهو»، يوم السّبت عشرون يناير 2024 للضّغط عليه، ثمّ أزاحت باستعمال القوّة المفرطة جميع الخيم للمرّة الثّانية المنصوبة أمام «الكنيست»، للمطالبة

برحيل الحكومة وإعادة الأسرى، فأيّ عقل يبقى لديها هذه المكلومة على فلذة كبدها؟، وهي ترى اليأس يتجسّد أمامها تمثالا برونزيّا ضخما، بعناد أصحاب البطون الكبيرة، أولئك الجالسين في مكاتبهم في «تلّ أبيب».

كلّ فرص النّجاة تتضاءل لديها يوما بعد يوم؟.

– «حماس» لن تتخلّى عن الأرض، مستحيل، لأنّها لها، متى يجب أن يفهم «نتنياهو» ذلك؟، نحن من يتحتّم عليهم المغادرة فور استعادة أخيك، لقد خسرت واحداً منكم، ولست مستعدّة لأخسرك أنت وشقيقك الثّالث، ستذهبون كلّكم للدّار الآخرة، ولن يبقى معي أيّ أحد، هذا هذا عدل؟، أنا أمّ، هل يفهمون ما معنى الأمّ؟، هل يرضى الرّبّ «أدوناي» بهذا؟.

واجهتني بكلماتها وهي تنظر لخالتي في غضب ممزوج باليأس الصّارخ، واستمرّت تشكي وضعيّتها، والحالة التي آلت إليها، معتبرة ما يحدث عقاباً فظيعاً من الخالق «إلوهيم» ربّ السّماء والأرض، لاقترافنا ذنوباً عظيمة في حقّ الكثيرين، منذ حرب الإستقلال وإلى غاية اللّحظة.

أمّي تعرف الكثير عن تاريخ إسرائيل المخفيّ، وعن الملفّات الغامضة التي لا يتطرّق إليها الإعلام.

لقد أسهبت في الحديث عن «عرفات»، الشّخص النّبيل، الذي استغلّينا طيبته وخدعناه في اتفاقيّات «أوسلو»، كانت النيّة مبيّتة ضدّ الآخر، وحين غزونا «لبنان» في صيف سنة 1982، كان ذلك قرارنا المتّخذ قبل عام من ذلك التّاريخ، لطرد منظّمة التّحرير الفلسطينيّة «فتح»، لكن كنّا نبحث عن ذريعة قويّة أمام العالم، وحصلنا عليها في حدثين رائعين، إستقبلناهما على طبق من ذهب، أوّلا حين قصفتنا الفصائل الفلسطينيّة بالمدفعيّة وصواريخ «الكاتيوشا»، بدءا من سنة 1981، وثانيا لمّا قام «صبري البنّا» المعروف باسم «أبي نضال»، المنشقّ عن «عرفات»؛ بمحاولة اغتيال سفيرنا في «لندن» «شلومو أرجوف»، في جوان عام 1982، متسبّبا له في أضرار جسديّة جسيمة.

مباشرة، أخذنا الأمر على محمل الجدّ في اجتماع أمنيّ عاجل، ونظرنا إليه على أنّه استفزاز صريح، لا يجب السّكوت عنه، فقمنا بمحاولة التّقدّم نحو «بيروت»، في عمليّة جريئة أسميناها «سلامة الجليل»، غير مكترثين للقرار رقم 508، الصّادر عن مجلس الأمن.

ما لا يعرفه النّاس أنّنا وسّعنا الدّولة في غفلة من الكلّ، معلنين في كلّ محفل وتصريح أمام العالم، أنّ هدفنا هو احتلال خمس وأربعين كيلومترا فقط من الحدود، لطرد من يقتلوننا بصواريخ «الكاتيوشا»، ولا أكثر من ذلك، حتّى نحمي مواطنينا.

سبب منطقي تماما ما أبرزناه للعالم، لكنّ مخابرات «الإتّحاد السّوفياتيّ» آنذاك، كانت على علم من جواسيسها بأنّنا نسعى قدما نحو «بيروت».

وفي كلّ مرّة نعود من حيث بدأنا، منذ حرب الإستقلال لم نتعلّم شيئا.

لقد نجحنا في طرد المقاومة الفلسطينيّة، وإحلال «لحد» جيش لبنان الجنوبيّ العميل لنا مكانها، حتّى فكّكه «حزب الله»، وتفرّق أعضاؤه هاربين خائفين من المحاكمات العسكريّة التي تنتظرهم، لارتكابهم جرائم حرب وإبادة في مذبحة «صبرا وشتيلا»، أمّا نحن فرجعنا لنقطة الصّفر، كالتّلميذ الغبيّ، الذي يعيد السّنة للمرّة الأولى والثّانية والثّالثة والرّابعة، والآن نفس السّيناريو سيتكرّر مع «حزب الله»، سنتقدّم نحو «لبنان»، وسنقصف بالأسلحة المحرّمة، وسنبيد كلّ أعدائنا، أو بالأحرى جزءا من أعدائنا، وفي النّهاية سنندحر.

كان من الضّبّاط المسؤولين عن المذبحة التي حدثت في ماي عام 1948، بعد أسبوع واحد من قيام الدّولة، على يد لواء «إسكندروني»، مدمّر قرية «الطّنطورة»، الواقعة على بعد خمس وعشرين كيلومترا جنوب «حيفا»، قتل أولاداً صغاراً أمام أعين والديهم، وأخرج الأجنّة بسكّينه، ملقيا إيّاها في العراء، ثمّ ذبح أمّهاتها، واغتصب إحدى النّساء، لأنّه أراد قهرها لمّا رأى عناداً وترفعاً في نظرتها إليه، ثمّ قتلها مع والدتها بعد ذلك رفقة أفراد عائلتها، مطلقاً النّار على البنات الصّغيرات الباكيات حولها من أقاربها.

كان وحشاً كاسراً لا يرتوي من الدّم، يحكي لأمّي ما فعله متلذّذاً، كأنّه يتناول قطعا من قالب حلوى، معتبراً «بن غوريون» مثله الأعلى، ومتعصّبا للصّهيونيّة أيّما تعصّب؛ بينما الجميع في الأسرة مستغربين من وحشيّته، التي تختفي وراء وسامته وعينيه الخضراوتين، هذه الوسامة التي كانت محطّ أنظار المجنّدات، أمثال «ستيفا بوبوفيتش»، الشّقيّة التي كانت تطارده وتعشقه حدّ الجنون، موقدة نيران الغيرة في قلب جدّتي.

هو ذاك، جدّي لأمّي المقاتل البارز في «البلماح»، هذه القوّة النّظاميّة الضّاربة لعصابات «الهاغانا»، التي سفكت الكثير من الدّماء، في تطهير عرقيّ إجراميّ ممنهج، لكلّ ما هو عربيّ، أو نصرانيّ، وحتّى لليهود المعارضين لمشروعهم.

كان هذا بعد أقلّ من شهر من مذبحة «دير ياسين»، التي شارك فيها أيضا باستمتاع كبير، إستراتيجيا القتل الممنهج خطوة مدروسة بدقّة شديدة، كي تُحدث أكبر أثر في نفسيّة الفلسطينيّين، فكلّما كان القتل بشعا؛ كلّما أحدث فزعاً لا يُقاوم، تختلط فيه الأوراق والحسابات، وينهار منه أشجع الرّجال، ولولا هذه المذابح التي أخافت العرب منّا ما استطعنا امتلاك الأرض.

نعم... كنّا مثل «المغول» في وحشيّتهم، وكان جدّي هو «جنكيز خان».

ثمّ تضاعف توتّرها حين قتل الجيش أبناء «إسماعيل هنيّة»، السّياسيّ في حركة «حماس»، في العاشر أبريل 2024، في قصف صاروخيّ، أدى لمصرع ثلاثتهم مع أبنائهم، بعدما كانوا في زيارات عائليّة في مخيّم الشّاطئ بمناسبة عيد الفطر، وهو العيد الذي يأتي بعد شهر رمضان مباشرة عند المسلمين.

لقد ارتعبت من توقيف المفاوضات، بسبب هذه الخطوة التي تبعدنا عن شاطئ التّفاهم أميالاً بحريّة أخرى.

مقتلهم زاده مصداقيّة، قائد سياسيّ لا يفكر في مصلحته الشّخصيّة، يستطيع بإشارة منه تهريب كلّ عائلته خارج «غزّة»، لكنّه لم يفعل، أيقونة لا يمكن مقارنتها بسياسيّينا الذين يهرّبون أموالهم لبنوك «سويسرا»، وأولادهم إلى «فلوريدا».

الفكرة العامّة التي يعمل عليها «الشّاباك» و«الموساد»، هو محاولة تشويه صورة قادة أصحاب الأرض أمام النّاس، إنّهما يعملان معاً على تأجيج الرّأي العامّ الدّاخليّ، ضدّ «هنيّة» و«السّنوار» وآخرين:

– أنظروا لهؤلاء... يعرّضونكم للموت أنتم وعائلاتكم، بينما هم مختبؤون تحت الأرض يأكلون الدّجاج المشويّ، ويشربون ماء «زمزم».

هذا قد يشكّل دافعاً حقيقيّا للثّورة ضدّهم، أو على الأقلّ تنامي مشاعر الرّفض والتوجّس وانعدام الثّقة، وهو بالضّبط ما يبحث عنه «الشّاباك» تحديدا، لكن حين يُقتل أبناء القادة مع أبناء الشّعب، فهذا سيزيد من صلابة الجبهة الدّاخليّة، وتتوحّد كلّ الجهود لمقاومتنا.

– لا مجال لهزيمة هؤلاء مهما فعلنا، والحلّ هو مغادرة إسرائيل، لن يتخلّوا عن الأسرى مهما كان عنفنا نحوهم؛ لم لا نفاوضهم ونسترجع ما بقي لنا من كرامة؟.

تقول خالتي وهي تنظر لكتلة الدّهون والمياه الذي هوايته المضغ والنّوم.

إنّهم يزدادون قوّة في شهر «رمضان»، شهر الصّوم لديهم، ولن يثنيهم الجوع والعطش، أو يقلّل من عزيمتهم.

سمعت الدّكتور الباحث في الثّقافة العربيّة والإسلاميّة، الذي عمل مدّة خمس وعشرين سنة في «أمان»، «مردخاي كيدار»، ذو الأصول البولنديّة؛ يقول مرّة أنّ لدى «حماس» سرّاً؛ وهو الصّبر، ونحن اليهود ليست لدينا هذه الكلمة، بل لا توجد في العبريّة؛ إنّهم يعيشون لأجل الله، ونحن نقاتل لأجل إسرائيل، فكيف سننتصر؟.

هم يصبرون والله مع الصّابرين، عيونهم في كلّ مكان... آذانهم في كلّ مكان، لا يغفلون عن شاردة أو واردة، حتّى أنّهم قبضوا على قوّة أمنيّة تسلّلت مع قافلة مساعدات، إنّهم يراقبون كلّ شيء في «غزّة»، ومن له القدرة على فعل ذلك إن لم يكن صاحب الأرض؟.

كل مآسينا وأوجاعنا غير كافية؛ لنبيت في الملاجئ، نترقّب ضربات إيرانيّة، إنتقاماً من قصف قنصليّتها في «دمشق».

إذا دخلت «إيران» في حرب معنا؛ ستحاول جرّ المنطقة برمّتها، ولن يلتفت ساعتها أحد للأسرى، «بن غفير» –لا غفر الرّبّ له– و«نتنياهو»، يسعيان لصبّ الزّيت على النّار مهما كلّف الأمر، والمخابرات الأمريكيّة تتوقّع ضربات انتقاميّة مباشرة مباغتة من «إيران»، مثل القصف العراقيّ الذي ذقنا الويلات منه على يد «صدّام حسين»، حين أطلق صواريخ «سكود» و«العبّاس» و«الحسين» نحو «تلّ أبيب».

أخبرتني أمّي أنّنا عشنا جحيماً حقيقيّا في سنة 1991؛ حتّى اعتقدنا أنّها نهايتنا ونهاية إسرائيل، إذ كانت أقنعة الغاز لا تفارقنا ليل نهار، وماتت جارتنا السّابقة جرّاء سقوط صاروخ على منزلهم، بسكتة قلبيّة، كان «صدّام» يريد إشعال المنطقة، لقد فتح الباب على مصراعيه، منتظراً أن تهاجمنا كلّ دول الجوار، غير أنّنا كنا نسيطر على الموقف، حتّى أنّ خسائرنا البشريّة لم تتجاوز الخمسة عشر قتيلا، وتكتّمت الحكومة مع ذلك على المسألة، من أجل المعنويّات العامّة للشّعب، وسمعة الجيش الذي لا يُهزم، ولم نردّ حينها، لأنّنا كنّا متأكّدين أنّ «العراق» سيسقط في أيدينا في مطلع القرن الحادي والعشرين، تمهيداً لما هو مرسوم في علمنا، من النّهر إلى النّهر.

لقد هُزمنا في «غزّة»، ولا يريدون الإعتراف بهذا، والآن يُبقون على لواء «ناحال» حفظاً لماء الوجه، في الطّريق رقم 10، قرب «وادي غزّة»، لمنع تسلّل عناصر «القسّام» نحو الشّمال.

ما هذا السّبب المضحك الذي لا يُقنع حتّى الأطفال؟.

هم يدركون جيّدا أنّ «كتائب القسّام» تنتقل تحت الأرض، ولا معنى لوجود قوّاتنا في المحاور والقواطع.

جيشنا هناك، لنبدو أمام العالم أنّنا أصحاب الحلّ والرّبط، وأنّ الكلمة ما زالت لنا، ثمّ من يهتمّ أصلاً بلواء الفلاّحين؟، في مجتمع طبقيّ أشكينازيّ ديدنه الرّبح والمصلحة؟.

بالنّسبة لي أن تكون أسيراً في أيدي «كتائب القسّام»، أفضل بكثير من قتلك، والتّشهير بك عبر الإنترنت والفضائيّات، بمثلّث أحمر يغمز فوق رأسك، وتفاصيل وجهك تظهر بوضوح تامّ للعيان.

يا للفضيحة ويا للعار.

إنّنا فوق شيء يخصّهم، ليس لنا ولا نملكه، ومن المستحيل أن تهنأ بشيء يطالبك صاحبه به ليل نهار، صيفاً وشتاء، عبر العصور والأزمنة.

(13)

مناورة لا يسعني إلاّ أن أصفها بالذكيّة، ما فعلته السيّدة «ليزا»، الصّحفيّة التي تعتبر الكلمة لديها أكبر وقعاً من الرّصاص لدينا نحن العسكريّون، وما كنت أصدّق جرأتها حتّى روت لي بلسانها كلّ شيء، مرغمة إيّاي على التّساؤل في قرارة نفسي عن سرّ قوّة شخصيّتها.

مقتل «ديميتري» و«آيزنكوف»؛ أكّد للسيّدة «ليزا» أنّ هناك شيئا يُحاك في السرّ، بما يفتح بابا واسعا من الإفتراضات، التي تكون بحاجة إلى تفنيد أو تعزيز، فكان لا بدّ من صنّارة متينة تُلقى في الماء.

وألقت بصنّارتها بعيدا للحيتان، «أين تذهب الذّخيرة يا جنرالات جيش الدّفاع؟».

ستتحدّث بإسهاب عن مشكل الأسلحة في الجبهة، ولا سيما بعد اكتشاف عدّة محاولات تهريب، وعدم توفّر ذخيرة كافية لمواصلة الحرب، رغم ما ترسله «الولايات المتّحدة الأمريكيّة» والدّول الغربيّة الحليفة لنا، ثمّ تشير بتلميحات بين السّطور إلى أنّ هناك من لديه اعترافات حول هذه المسألة، وأنّ لكلّ مواطن الحقّ في معرفة ما الذي يدور حوله بالضّبط، مرتكزة على كوننا جميعا ندفع بفلذات أكبادنا للقتال، ولسنا مستعدّات للبكاء عليهم فقط، دون محاسبة من هو المسؤول عن دفعهم للموت.

في سريّة تامّة ودون أن تشرك أيّ أحد في الأمر؛ -وهو ما أزعج كثيرا «أتارا»-؛ ذهبت بالمقال المفخّخ لرئيس التّحرير «آمنون هراري»، لتسلّمه له، يدا بيد، خوفاً من أيّ تجسّس إلكترونيّ، عازفة عن إخبار أيّ أحد هناك، حتّى نائبته «نوعا لانداو»، إلاّ أنّها عادت كما يقول المثل العربي بخفيّ حنين، وهو ما جعل «أتارا» تحمد الرّبّ كثيرا ذلك اليوم، لأنّه أنقذ والدها من موت وشيك.

- خسرت «دافيد» بسببهم ولا أريد أن أخسركِ أنتِ أيضا.

قالتها جملة واحدة وهي باكية، رافضة نشر أيّ شيء حتّى الوصول النّهائيّ للمستندات، وهو ما يضمن التخلّص من العصابة، دون ترك ولو أصغر فرصة لهم للهروب أو الإنتقام.

وجهة نظر منطقيّة، غير أنّ السيّدة «ليزا» نظرت للمسألة من زاوية أخرى.

كونها صحفيّة، فمنصبها يحميها من كلّ من يريد إلحاق أيّ أذى بها، وزادها التّسجيلات المرئيّة والصّوتيّة التي زوّدها بها «باولا» ثقة، تسجيلات هرّبتها من أمن الفندق، تضمّنت أسماء بعض الضبّاط المتورّطين في عمليّات المتاجرة بالأعضاء البشريّة، وتهريب السّلاح والذّخيرة، وهناك حتّى من هم مقرّبين من «نتنياهو»، بما في ذلك زوجته «سارة»، التي أخذت ما قيمته مائة ألف دولار للإنفاق على حياة البذخ والتّرف التي تعيشها، كما استطاعت الوصول إلى أخت «دافيد» زوجة «غارسيّا»، الواقف خلف المشهد.

بصراحة؛ المسألة مغرية جدّا لأن تُلقى على الملأ، والسيّدة «ليزا» متأكّدة أن طلقتها لن تخيب.

– ماما سيقتلونك، لا شكّ في ذلك، ما وصلتِ إليه سيُحدث انهياراً شاملا في الدّولة، أنظري من النّافذة، إنّهم يراقبوننا عن بعد، لا أستطيع الذّهاب إلى المدرسة وأنا أعيش هذا الرّعب.

– إذا سكتّ أنا فمن سيتكلّم؟، قوّة «نتنياهو» هي الإئتلاف مع الأحزاب اليمينيّة التي تحميه، فقط، مثل «شاس» و«يهوديت هاتوراه»، و«عوتسما يهوديت» بزعامة «بن غفير»، «نتنياهو» مثل فزّاعة الحقول، لا يخيف سوى الطّيور الصّغيرة، هناك ثلاث عشرة قضيّة ضدّه بسبب الفساد، هل تعلمين هذا؟، هل تصدّقين أنّ الجيش يكرهه؟، ولذلك يلقي بأبنائنا للمثلّث الأحمر كي ينجو هو من السّجن، ويستمرّ في إجهاض مفاوضات الأسرى، وسيجازف بنا في «لبنان»، ومع «إيران»، ومع دول أخرى، ولا تسلم الجرّة في كلّ مرّة.

هذا ما حكته لي حين التقينا للتّنسيق، وراحت تدافع عن مشاعر ابنتها حين استعظمت لومي.

في الحادي عشر من أبريل 2024، يصرّح «بيني غانتس» في مؤتمر في «سديروت» أنّنا سندخل «رفح»، وسنعود هناك إلى «خان يونس»، وفي نفس اليوم؛ يُقصف سوق «فراس» الشّعبيّ وسط «غزّة»، بناء على معلومات مضلّلة، ثمّ يُقصف حيّ «الجنينة» في شرق «رفح».

طبعا لا شيء أسهل من قول أحدهم أنّه وصله تقرير عن وجود مقاتلي «القسّام» في منطقة ما، لتلقي الطّائرات الحربيّة بحمولتها على رؤوس الأطفال والنّساء، وتعرض قناة «الجزيرة» صوراً ومشاهد يندى لها جبين الإنسانيّة.

يبدو أنّ إسرائيل تحوي عشرات العصابات، كلّ واحدة لها مجالها الخاصّ، فضلا عن مصالحها المشتركة، عصابات يهمّها بقاء هذا الكيان مهما كانت الأحوال، عصابات في السّياسة، وأخرى لتهريب السّلاح وتجارة الأعضاء، وأخرى لتهريب البشر، وأخرى للمضاربة في السّلع، والشّعب المكذوب عليه، هو من يدفع الثّمن في الأخير، هذا الشّعب بكلّ أطيافه، القادم من الشّتات، بثقافات مختلفة تماماً والمغرّر به، لو بقي في البلاد التي أتى منها، لكان أفضل، ولما كنّا جميعاً نواجه هذا الشّقاء والمعاناة.

من حسّي الأمنيّ أدركت أنّه ليس غبيّا كي يترك السيّدة «ليزا» تسرح وتمرح دون مراقبة، أخبرته عيونه في «هآريتس» أنّها ألحّت بشدّة على مقابلة رئيس تحرير الأخبار «آمنون هراري» شخصيّا، بعد انتظاره لأكثر من ساعة ونصف، وأنّها كانت حريصة على مقال أحضرته معها لا أحد يعرف ما فيه، ولم تترك أحدا يطّلع على محتواه.

ولأنّ إشاعات متعدّدة المصدر، بدأت تنتشر، مفادها أنّ رئيس جهاز «أمان»؛ «أهارون هاليفا»، يريد الإستقالة بأسرع وقت؛ لأنّه رأى المركب تغرق، أوّلا، وأنّ هناك مذكّرات اعتقال دوليّة ستصدر في حقّ «نتنياهو» وبعض القيادات الإسرائيليّة، ثانيا، و«تركيا» التي تستعدّ للإنضمام للدّعوى التي رفعتها «جنوب إفريقيا» ضدّ إسرائيل، ثالثا، غيّر «نيتاي» اسمه في جواز سفر مزوّر، تمهيداً لهروبه لإحدى الدّول العربيّة الصّديقة المطبّعة، التي تقول السيّدة «ليزا» إنّها «المغرب» يقينا، لأنّها في غرب شمال قارة «إفريقيا»، بعيدة عن أرض الصّراع، وربما يفرّ إلى «أمريكا» إذا اقتضى الأمر؛ وهناك سيكون إبرة في كومة قشّ.

(14)

أتى عيد الفصح «بيسح» دون أخي؛ هذا العيد الكئيب للكثيرين من شعبنا المخدوع.

لم نستطع الظّهور بمظهر الفرح، ولا أعرف كيف يفرح النّاس والحرب تأخذ منهم كلّ عزيز.

لقد أقسمت أمّي ألاّ نحتفل بأيّ عيد مهما كانت قدسيّته في اليهوديّة في غياب أخي، الذي ننتظر إطلاق سراحه كلّما أشرقت الشّمس، رغم تطمينات جارتنا الببّغاء:

– سمعتهم يقولون في الإعلام أنّ هناك هدنة لستّة أسابيع، تطلق «حماس» سراح ثلاث وثلاثين أسيراً ممّن لديها.

في اعتقادها مشكلة الأسرى ليست أكثر من فتح صنبور ماء في الحمّام.

إستسلمت أمّي للمرض بعد انهيار نفسيّتها، كنت ساعتها في «غزّة»، وخشيت أن تموت كمدا، دون أن أراها ولو للمرّة الأخيرة حين هاتفتني خالتي، فكان لزاماً عليّ أن أطلب تسريحاً من الخدمة لمدّة لا تتجاوز أربع وعشرين ساعة، لظرف طارئ، ويجب أن يأخذوه بعين الإعتبار.

– أفضّل العيش في دولة تحكمها «حماس» بدل هذه القاذورات السّياسيّة؛ على الأقلّ ستكون حقوقنا مضمونة كيهود، لقد أخطأنا كثيراً حين فكّرنا في طرد هذا الشّعب وسلب أرضه؛ كان أجدادنا هنا آمنين مكرّمين، أمّا الآن، فلن ننعم بالأمان مطلقاً، مهما فعلنا؛ لأنّ الحقّ يوجد هناك في الطّرف الآخر، إنّ الربّ يعاقبنا لأنّنا خالفنا أمره، وأقمنا دولة على جثث السّكان الأصليّين.

هذا ما قالته بالحرف الواحد قبل استدعاء الإسعاف بدقائق لينقلها للمستشفى، ثمّ غرفة الإنعاش، بعد أقلّ من ثمانٍ وأربعين ساعة من مشاهدتها لفيديو الأسير «هيرش بولن» ذي اليد المقطوعة، الذي بثّته «كتائب القسّام» يوم الأربعاء، الرّابع والعشرين من أبريل 2024.

رأيتها هناك شاحبة الوجه في غرفة العناية المركّزة، ترقد على سرير تتنفّس فوقه بصعوبة، كالذي يقاوم حشرجة الموت، وألقت خالتي بنفسها عليّ تحتضنني شاهقة ببكاء فظيع، ما كانت تنتظر رؤيتي بسبب توقيف

منح العطل للجنود، وأحسست بجبل من الهموم يحتضنني ساعتها، حتّى كادت قواي أن تخور، فأسقط على الأرض وأُسقطها معي.

هلع هذه المسكينة على أختها وهي تراها بين الحياة والموت، وخوفها على ولدها «دييغو» الذي سيُستدعى للجيش عن قريب، والآثار النّفسيّة التي تركها الفيديو الذي لا يتجاوز ثلاث دقائق؛ كلّها أسباب جعلتها تبحث عن شخص تستند عليه، ليريحها من فاجعة في وزن جبل.

جلسنا في غرفة الإنتظار وراحت تحكي لي تطوّرات الوضع الأسريّ التي لم أشهدها في السّاعات الأخيرة.

في الخامس عشر أبريل 2024، بدأت التّشكيلات العسكريّة في الوصول إلى «رعيم»، مقرّ قيادة «فرقة غزّة»، المسؤولة عن المنطقة الجنوبيّة، تمهيداً لاجتياح «رفح»، ولم أستطع إخفاء تذمّري من العبثيّة التي تقودنا نحو طريق مسدود، فلاحظ أحد الضبّاط الذي يعلوني رتبة ذلك، فما كان منه إلاّ أن ردّد بصوت لا يخلو من زهو وعنجهيّة، أنّه تمّ القضاء على كلّ كتائب «القسّام» في القطاع، باستثناء كتيبتين، وبقيت «رفح» فقط بأربع كتائب، آخر معاقلهم، الشّيء الذي استفزّني، إذ كيف يُعقل أنّنا ما زلنا نتعرّض لضربات قاتلة كلّ يوم كأنّنا في بداية الحرب؟.

وما زالوا يكرّرون لنا في القيادة أنّهم قتلوا أكثر من تسعة آلاف مخرّب.

إذا كان هذا صحيحاً فمن يقاتلنا في كلّ مكان؟، من يطلق علينا قذائف «الياسين»، ويقنص ضبّاطنا على مسافة كيلومترين؟.

أنا ضابط ميدانيّ، وأعلم جيّدا أنّنا منذ العاشر من أبريل 2024، ونحن نبذل جهدا شاقّا مريعا، للتوغّل من «نتساريم» نحو «دير البلح»، دون جدوى، حتّى أنّنا لم نستطع قطع «وادي غزّة» والتّمركز بعده، ولو أمتارا بسيطة، رغم القصف العنيف الذي وجّهناه لهم، والآن يريدون لنا أن نغرق في مستنقع اسمه «رفح»، دون أيّة استراتيجيّة قتال واضحة.

ولكي نظهر للعالم بمظهر الدّولة الرّاعية للإنسانيّة، أطلقنا مناقصة لاقتناء أربعين ألف خيمة للسّكان الذين ننوي تهجيرهم من المستنقع، ذرّا للرّماد في العيون، حين نتفرّغ له، لأنّ قيادتا السّياسة والجيش متّفقتان على إنهاء العمليّات في الشّمال والوسط، أوّلا وقبل كلّ شيء.

كاد الأمر أن يصل إلى مشاجرة بالأيدي بيني وبين هذا الوقح، لم أعد أحتمل الوضع، ما نتقنه هو محاصرة اللاّجئين في «بيت حانون»، والتّنفيس عن غضبنا في النّساء والأطفال.

هل يعلم هذا اللّعين أنّ كلّ «كتائب القسّام» ما زالت تعمل؛ أربع وعشرون كتيبة كاملة حتّى هذه اللّحظة، بل حتّى الأنفاق التي يحاولون إقناع العالم أنّنا دمّرناها، أخبرني أحد ضبّاط الهندسة القتاليّة هامسا، أنّهم لا يستطيعون تعطيل سوى مائة متر منها، إذا فجّروا عين نفق مكتشفة، وأقلّ من كيلومتر واحد أو اثنين إذا حالفهم الحظّ واستطاعوا تفجير نفق كامل، لكن هناك خمسمائة كيلومتر منها، لم نصل إليها ولن نصل إليها،

ولا نعلم عنها شيئا، وليست هذه مشاعري الخاصّة، بل هي مشاعر الجنود والضّباط الميدانيّين أمثالي، أمّا قذارة «تلّ أبيب»، فهم لا يعرفون شيئا عن الميدان، سوى ما يجب أن يتواجد في الخلفيّة حين يلتقطون الصّور أمام وسائل الإعلام.

في الفاتح من ماي 2024، تقصف «القسّام» القوّات المتمركزة في مستوطنة «حوليت»، التي تبعد كيلومترين عن القطاع، قرب المستنقع الذي يريدون إغراقنا فيه، أمام معبر «كرم أبو سالم»، وهي مساحة تجمّع للجنود قبل الإجتياح؛ وهذا ما يسمّى «هجوما إجهاضيّا»، وسلاحهم الفتّاك هذه المرّة صواريخ «رجوم»، التي تصل إلى ثماني كيلومترات، برأس حربيّ متفجّر يحوي من اثنين إلى ثلاثة كيلوغرامات، أي مجزرة بكلّ المعنى الذي تحمله الكلمة.

بنفس السّلاح في نفس اليوم، تمّ ضرب ممرّ «نتساريم»، الذي كان يتمركز فيه لواء «ناحال».

أيّ قيادة غبيّة هذه التي تجمع جنودها ليكونوا لقمة سهلة، أمام ضربات لا تُشترط الدّقة فيها لتصيب منطقة بعرض ستة كيلومترات، وتضم ما يقارب العشرة آلاف جندي؟.

هل يجب أن تكون حاصلاً على درجات علميّة كبيرة كي تدرك أنّ مقاتلي «القسّام» لا يختبؤون مع النّاس في الأسواق، ولا مع الأطفال في المدارس؟.

هل يجب أن تكون متخرّجاً من ألمع الكليّات العسكريّة، كي تدرك أنّ الجنود سيكونون لقمة سائغة لهم كلّما تجمّعوا؟، لأنّهم يتبّعون أسلوب «حرب العصابات».

ما نحن فيه الآن ليس حرباً نظاميّة.

بعد مائتي يوم من الحرب، إستقال قائد الاستخبارات العسكريّة «أهارون هاليفا»، واستشار «هاليفي» و«رونين» و«غالانت» محاميهم، مبدئيّا، تمهيداً لاستقالتهم، حتّى أنّ «أفرايم غانور»، المحلّل في صحيفة «معاريف»، أكّد أنّه لا يجب أن نتوهّم أنّ «رفح» هي نهاية الحرب، «نتنياهو» يهذي؛ والمختطفون سيتأذّون كثيرا، لأنّ «حماس» مستعدّة جيّدا، وخطاب «أبي عبيدة»، المتحدّث العسكريّ باسم «كتائب القسّام»، يؤكّد أنّهم ما زالوا أقوياء، وليسوا في رمقهم الأخير، كما يتوهّم «بن غفير» ويريدنا أن نُخدع بكلامه.

وبعد مائتي يوم من الحرب، لم نصل إلى «السّنوار»، ولم نصل إلى «أبي عبيدة»، ولم نحرّر أيّ أسير، بل قتلنا شباب إسرائيل بطائراتنا.

لقد دمّرنا كلّ شيء في «غزّة»، أكثر من مائة مبنى تعليميّ من مدارس وجامعات، أكثر من مائتي مسجد؛ وأكثر من خمس وثمانين ألف مسكن، وأكثر من ثمانين مستشفى ومركزا صحيّا.

هل يختبئ مقاتلو «القسّام» هناك؟.

أفسدنا ما مجموعه ثلاثون مليار دولار، ولم نصل إلى شيء كما وعدنا «بيبي»، بل خرج «السّنوار» أمامنا للشّارع يتبختر مثل العريس، متفقداً الأوضاع، وملتقياً بقادة ميدانيّين، في تحدّ صارخ لجيش إسرائيل الذي لا يُهزم، ولسان حاله يقول:

– أنا هنا في أرضي، فمن أنتم يا وطاويط اللّيل حتّى أضعكم في الحسبان؟.

والآن يحاولون استعمال ورقة الهجوم على «رفح» في المفاوضات، أيّ منطق هذا الذي به يفكّرون؟.

من البداية وهم يؤجّلون اجتياح «رفح»، لانعدام معلومات إستخباراتيّة دقيقة، هذه هي الحقيقة، هم لا يعرفون ما الذي سيكون هناك بانتظارهم، بعد أن انتهوا من الرّدّ الإيرانيّ الذي كان يشغلهم، فقد قصفتنا «إيران» في خطوة كانت متوقّعة من المخابرات الأمريكيّة، في الثّالث عشر أبريل 2024، ردّا على قصف قنصليّتها في «دمشق».

أخيرا انتهى رعب الفئران، بأكثر من ثلاثمائة صاروخ وطائرة انتحاريّة مسيّرة من نوع «شاهد 136»، وسط ذهول العالم، ونحن من نحن في المنطقة؛ بمنظومات الدّفاع الجوّي المختلفة التي أفزعنا بها الطّيور، «القبّة الحديديّة» للصّواريخ القصيرة المدى والصّواريخ المجنّحة؛ «مقلاع داوود» و«باتريوت» و«حيتس 2»، وحتّى «حيتس 3» التي ما زالت قيد التّجربة.

لقد أطلقت «إيران» من جملة ما أطلقته، خمسة صواريخ باليستيّة على قاعدة «نيفاتيم»، وسبعة صواريخ أخرى على قاعدة «رامون»، أهمّ قاعدتين جوّيّتين لنا في صحراء «النّقب»، كما قالت صحيفة «معاريف» أنّها ضربت «ديمونا»، بصواريخ من نوع «عماد» و«غدر»، القادرة على حمل خمسمائة كيلوغرام من المتفجّرات، والطّائرة لمسافة تتجاوز الألف والخمسمائة كيلومتر، بهامش خطأ لا يتجاوز الخمسة أمتار.

في «نيفاتيم» فقط، أصيبت منشأة تخزين، ومنشأة أخرى في المدرّج الشّماليّ، مع المدرّج الذي توسّطته حفرة، كعلامات لمدى دقّة الضّربات، ولو أرادت «إيران» أن تصيب «تلّ أبيب» لفعلت، ولحدثت كارثة، فمنذ قيام الثّورة الإسلاميّة فيها، وقيادتها تعتبر الكيان ورماً سرطانيّاً خبيثا يجب إستئصاله، هي من تدعّم «حماس» في «غزّة»، و«حزب الله» في «لبنان»، و«أنصار الله» في «اليمن»، والمقاومة في «العراق»، بكلّ أشكال الدّعم، ضدّ إسرائيل، بنت «الولايات المتّحدة الأمريكيّة» غير الشّرعيّة، التي لو غفلت عنها لوهلة فقط، لانقضّ عليها حتّى الأطفال الصّغار بالحجارة.

هل يعلم «هغاري» أنّ جنوده يفرّون مذعورين أمام مقاتلي «القسّام» حين يرون أنّه لا فائدة من القتال؟.

لقد باتت كلمة «الله أكبر» ترعبنا أكثر من انفجار القنابل، هل يتساوى من يطلبون الموت مع الذين يهربون منه بمسمّيات متعدّدة؟.

هل يعلم أنّ «سرايا القدس» و«كتائب القسّام» يستطيعان إنزال مسيّراتنا بكلّ سهولة، والإستيلاء على قاعدة بياناتها، بما في ذلك مناطق إنتشار القوّات، ممّا يسهّل استهدافها؟.

لماذا إذن ما زال في تعنّته؟.

لماذا يصرّ على إضحاكنا بتصريحاته الغبيّة أمام وسائل الإعلام، وإضحاك العالم علينا، متشدّقاً أنّنا قضينا على أغلب الكتائب وبقي القليل فقط؟، وأنّ منظومات الدّفاع الجوّي نجحت في اعتراض تسع وتسعين بالمائة من كلّ ما أُرسل ضدّنا في السّماء؟.

«هغاري» بطل فيلم هنديّ، حيث اللاّمعقول يصبح معقولاً، رغم أنوف المشاهدين؟.

في الخامس والعشرين أبريل 2024، أي بعد مرور ستّة أشهر على الحرب، أعلنت إذاعة الجيش عن سحب لواء «ناحال»، الذي أقام قاعدتين على محور «نتساريم»، تمهيداً لإعادة بناء مستوطنة «نتساريم» المفكّكة، أسبوعين فقط من إقالة قائده، بعد تسبّبه في قتل سبعة موظّفين من موظّفي لجنة الإغاثة الدّوليّة، وهو ما أثار موجة استنكار عارمة، ضدّ كلّ ما هو إسرائيليّ، وتُركت هناك الفرقة 99.

– ماذا تنتظر من لواء الفلاّحين؟.

هذا ما علّق به أحد الضبّاط على سحب اللّواء، مكملا سخريّته ضاحكا:

– إنّه لواء الجهلة، لا يفرّقون حتّى بين بعضهم بعضا، ويقولون أنّه لواء مرن.

لا تستغرب، جيشنا مجمّع كبير من الحثالات، وقد وجدت القيادة فرصة للتخلّص منّي بعد ملاسنتي مع أحدهم، فمنحتني عطلة تدوم خمسة أيّام، قرّرت استغلالها جيّدا، وإلى أقصى حدّ ممكن.

كانت أمّي وخالتي تحضّران للمظاهرات التي تطالب باستقالة حكومة «نتنياهو» وإعادة المختطفين، المقرّرة كلّ يوم سبت، لكن حين ألّمت بها الفاجعة يوم الجمعة، وجدت خالتي نفسها وحيدة، مهزومة، ورغم ذلك شاركت في المظاهرة التي جرت يوم السّابع والعشرين أبريل 2024، في «تلّ أبيب»، لوحدها والدّموع في عينيها تأبى النّزول أو الجفاف، بعدما أوصتها أمّي وألحّت عليها أن تبقى وفيّة، في كلّ المظاهرات، التي تنادي بوجوب استعادة الأسرى بالمفاوضات، لقد كانت تخشى أن تموت دون رؤية ولدها الأسير، وراودتها الوساوس من أن يلقى أخي نفس مصير الطيّار «رون آراد»، الذي مات في الأسر، ونُسيت قصّته، مثلما ننسى قصص ما قبل النّوم التي كانت تحكيها لنا الجدّات.

لقد أصبح الأسرى نقطة محوريّة لجميع آلامنا.

– هذا العلم لم يعد يمثّلني.

جملة قالتها خالتي حين أعطتها إحدى صديقاتها علم إسرائيل لتحمله، كما هي عادتها دائما، في كلّ المظاهرات.

(15)

يأبى قلبي أن ينسى أمسية الأحد، إنّها الأمسية التي غيّرت كلّ شيء في حياتي، أمسية ليست ككلّ الأمسيات الكئيبة في منزلنا، الذي ما زال يفتقد عبق أمّي، ورائحة طعامها، بعدما أنسانا الزّمن عبق أبي منذ سنوات، أبي الذي لم تكتحل عيناي يوما برؤيته، فقد هجرنا سنة 1984 أثناء حرب «لبنان»، بعد رفضه إعادة تجنيده في الجيش، ورحل بعيداً إلى «أوروبّا»، ثمّ انقطعت أخباره بغتة عنّا، لمّا علمت أمّي بزواجه، فصار في نظرها خائنا لحبّهما، ترفض حتّى ذكر اسمه أمامنا.

كانت خالتي في مطبخ منزلنا تحاول طهو طبقي المفضّل تخفيفاً عني، طبقي الذي تتقنه أمّي كإتقاني أنا قلي البطاطا، رغم الغلاء الفظيع وندرة السّلع، والتّضخّم المتسارع، الذي بسببه لا تُعرف القيمة الحقيقيّة للأشياء، بينما كنت أنا في الصّالون، أنتقل بين قنوات التّلفزيون، التي تذكّرك بشيئين لا ثالث لهما، إمّا بالحرب، أو بوضعنا الإقتصاديّ القابع على كفّ عفريت.

أمّا وسائل التّواصل الإجتماعيّ، فتضجّ بخبر محاولة طرد «بن غفير» من المقبرة العسكريّة في «بئر سبع»، بعد مشادّات بين أنصار هذا الكلب، وبين إحدى العائلات المكلومة من فقد ابنها.

وضعت هاتفي جانبا كي أهرب من توتّري، وإذا بهاتفها الموضوع أمامي على الطّاولة الزّجاجيّة، يرنّ لمرّة ولمرّتين، ولثلاث مرّات متتالية، ظننت أنّه «ديغو»، إبنها المدلّل الطّائش، الممتلئ دهونا ومياه، الذي لا يعرف حتّى كيفيّة سلق بيضة، يستميت في الإتّصال بها ليحثّها على العودة، كونه جائعا، يريد أن يأكل من يديها كما يقول، أو سوف يطلب عشاء جاهزاً إذا كانت ستتأخر عنه.

جاءت مسرعة وهي تمسح يديها بمنشفة صفراء فاتحة اللّون، ثمّ بدأت تتحدّث بإنجليزيّة كسيحة، بمشاعر حزن تارة، ومشاعر فرح تارة أخرى، وأنا لا أملك سوى النّظرات التي تمشّط وجهها، علّي أفلح في قراءة شيء ما على هذه الملامح، ثمّ طرق سمعي صوت عذب أعرفه جيّدا ولا أعرفه.

– طبعا طبعا عزيزتي «دينا»، «It’s very good».

قالتها بحبور يعلوها بريق السّرور، ولتكسو وجهي حرارة لم تجد تفسيرا لها سوى الخجل، على الفور دون أيّ تردّد.

يا لها من ذكريات تلك التي دعكتني، فلم أنتبه جيّدا لما كانت تقوله لها، ثمّ واصلت، تروم ضرب الحديد وهو ساخن:

– نسيت أن أخبرك أنّها كانت تسأل عن صحّة أمّك منذ إدخالها المستشفى، منذ مرضها وأنا غارقة في دوّامة، ويا للمسكينة «دينا»، جسدها هناك وقلبها هنا، و... سألت عنك.

أطلقت عبارتها الأخيرة بنبرة فاحصة بعدما سكتت لثانيتين.

خفق قلبي بكلّ قوّته حتّى خلته سيتوقّف بعد لحظات، من كان يعلم أنّها ستتّصل من هناك؟، على بعد أكثر من تسعة آلاف كيلومتر، بعد هذا الإنقطاع؟، وأسمع صوتها لأوّل مرّة، بعد أن فرّقتنا الآيديولوجيا البغيضة لأعوام؟.

– هي الآن طالبة في جامعة «كولومبيا» في «نيويورك»، ومن قيادات الحركة الطّلابيّة اليهوديّة، المناهضة للصّهيونيّة، والمؤيّدة لحقوق الفلسطينيّين في استعادة أرضهم المسروقة وحقّهم المسلوب.

قالتها باعتزاز غريب لم أعهده فيها من قبل.

– إذن ما زالت محافظة على مبادئها، لم تتغيّر منذ سنوات.

فهزّت لي رأسها إيجاباً وعينيها مثبّتتين في عيناي، تريد رصد أيّ تغيّر في شعوري نحوها، بعد كلّ هذه المدّة الطويلة من النّسيان.

نحن من أسرة يهوديّة عريقة، من أصحاب العقّارات والأراضي في «الولايات المتّحدة الأمريكيّة»، حيث بقي أغلبنا، وهاجر البعض منّا بحثا عن فرص أفضل في العالم، فمنهم من ارتحل إلى سويسرا مقتحما تجارة الألماس، ومنهم من استثمر في المساكن، ومنهم من هاجر إلى هنا طمعاً في مستقبل واعد مختلف، وشاء الرّبّ أن تكون عائلة أمّي من المهاجرين المغرّر بهم، ويا ليتها ما جاءت، يا ليتها ما خضعت لتأثير آلة الدّعاية الصّهيونيّة، وها هي الآن تدفع الثّمن.

بمعدّل مرّتين أسبوعيّا وعبر تقنيّة «السّكايب»، إستمرّت «دينا» في التّواصل مع خالتي، دون أن يتجرّأ أحدنا على الحديث مع الآخر، لتطلعها على التّحوّلات الفكريّة الجذريّة لدى الجالية اليهوديّة هناك تجاه إسرائيل والصّهيونيّة، حوالي خمس وسبعين جامعة في «أمريكا» تشهد حراكاً طلابيّا واسعا، منذ الشّرارة الأولى التي انطلقت في جامعة «كولومبيا»، يوم السّابع عشر أبريل 2024، عبر تحالف ضمّ مائة وعشرين منظّمة طلابيّة وهيئة تدريس، ثمّ تطوّر الأمر إلى إعتصامات بالخيم، وأبرزها ما كان في جامعة «جورج واشنطن» بالعاصمة في مطلع شهر ماي.

لا يتعلّق الأمر بمعاداة السّامية كما يُشاع في الإعلام، فكلّنا يهود؛ لكنّهم يرون، ونرى معهم؛ أنّ ما يحدث للفلسطينيّين، ظلم لا يجب السّكوت عنه.

معاداة السّامية أضحت مشجباً سحريّا يعلّق عليه الصّهاينة أيّ شيء، حتّى ولو كان شيئا لا يصلح للتّعليق.

واجه الطّلاب تهديدات من طلبة آخرين صهاينة بالقتل، محميّين جيّدا من نافذين في السّلطة، وواجه آخرون تهديدات جديّة بالفصل من الدّراسة من إدارة الجامعة، التي من المفروض أن تعزّز الشّعور بالدّيمقراطية وحريّة التّعبير، في حماية القانون الذي تمثله الشّرطة، غير أنّ الواقع عكس هذا تماما، شرطتهم مثل شرطتنا.

شرطتهم تستفزّ الطّلبة كي تنقلب الأوضاع إلى عنف مسلّح، رغم إقامة هيئة التّدريس جداراً بشرياً لحماية «دينا» وزملائها.

لقد تجرّأ عنصر منهم على نزع حجاب إحدى الطّالبات المسلمات، لكنّ زميلاتها المسلمات وغير المسلمات تصدّين له في وقفة رجل واحد، وحتّى «دينا»، حاول أحدهم اعتقالها، لكنّه اضطرّ لإطلاق سراحها في أقلّ من ساعة بعد تدخّل والدها، حظّ لم يحالف تسعمائة طالب وطالبة خلال عشرة أيّام متواصلة، ثمّ يرتفع الرّقم إلى ألفي شخص؛ في كلّ الجامعات التي تميّز أغلبها بالنّخبويّة.

كان اليهود المؤيّدين للمظاهرات مع «غزّة» أكثر المشاركين، ولم تكن عنصريّة، أو معادية للسّامية إطلاقا.

هؤلاء اليهود الأحرار الرّافضون لهذه النّزعة، كالكاتبة «ناعومي كلاين»، التي برهنت على شجاعتها في كلمة لها أمام حشود طلبة «كولومبيا»، معتبرة أنّ الصّهيونيّة صنم زائف، ليتفاجؤوا باقتحام الشّرطة مبنى الجامعة، واندفاعها إلى قاعة «هاملتون»، حيث اشتبكوا معها بالكراسي، ليلة الثّلاثاء دون تسجيل أيّة إصابات، معتقلة حوالي ثلاثمائة شخص.

أمّا «دينا» المختبئة خلف خزانة، فلم يفكّر الشّرطيّان الذين دخلا في حالة من الهستيريا بسبب طالب دفعهما بكلّ قوته، بالنّظر إليها.

لقد اعتقلت الشّرطة حتّى مرشّحة الرّئاسيّات «جيل ستاين» اليهوديّة، لأنّها وقفت مع الحقّ، متّهمينها بالإعتداء على شرطيّ.

هل هذه هي الدّيمقراطية التي تتغنّى بها الحكومة الأمريكيّة أمام دول العالم؟، حريّة الرّأي والتّعبير؟.

أم هي مجرّد شعارات وهميّة لا أساس لها في الواقع، ولا انعكاس حقيقيّ لصورها في الميدان؟.

إنّنا أمام مشهد مكرّر، حدث في السّتينيّات أثناء حرب «فيتنام»، لكنّ الشّعوب لا تستلهم العبر.

عادت «دينا» وزملاؤها للتّظاهر مجدّدا صبيحة الثّاني من ماي 2024، مطالبين بالإفراج فوراً عن كلّ المعتقلين، مهما كانوا ودون استثناء، كانوا واقفين بالمئات يرتدون الكوفيّة الفلسطينيّة، تحت أعين الشّرطة التي وقفت هذه المرّة، تراقب المشهد عن كثب، قائلين جميعا، مسلمون ويهود:

– نرفض دولة إسرائيل المقامة على جثث الأبرياء.

وانتشرت أخبار المظاهرة وتناقلتها وسائل الإعلام العالميّة، مثل «الجزيرة» و«العربي»، رغم محاولات تهميشها وتشويهها، بل وإخراجها من سياقها العامّ، المشجب المعروف الذي يعلّق عليه كلّ لباس غير مرغوب فيه.

على بعد تسعة آلاف كيلومتر، وهناك تحديدا وراء السّياج، في مخيّمات «رفح»، التي كانت تحت رحمة القنابل والخناق والحصار، كتب الأهالي على لافتات كرتونيّة، وعلى أقمشة خيامهم البالية، عبارات شكر للطلاّب الذين وقفوا إلى جانبهم، مضحّين بوقتهم، وبمستقبلهم من أجل قضيّة إنسانيّة عادلة، لا يجب أن يطمسها الخذلان أو النّسيان.

هناك في «رفح»، رفع الطّفل «نبيل معروف»، الذي لا يتعدّى سنّه العشر سنوات، لافتة كتب عليها بالإنجليزيّة، «شكرا طلبة جامعة كولومبيا، شكرا لكم... نحبّكم».

كم هي جميلة الأحاسيس الرّاقية السّخيّة المنتقلة بين الأديان وقلوب البشر!.

(16)

– وحقّ الرّبّ لن يذهب للحرب، سأخفيه، سيُقتل مثل أخيه، وسأبقى وحيدة في هذا العالم، أيّ شيطان يسكنك؟.

هذا ما ألقت به في وجه ضابط الشّرطة، تعس الحظّ الذي طرق الباب وهو يرتشف ما تبقّى من قهوته الصّباحيّة، بعدما نال مقدّم نشرة الأخبار نصيبه من شتائمها قبل أقلّ من ساعة.

نعم، لقد استدعوا «دييغو» للجيش مرّة ثانية، ويبدو أنّه سيكون في سلاح المدرّعات، أو سيشارك لواؤه في القتال إلى جانب اللّواء 401.

الشّيء الذي جعل عواصف غضبها تنطلق مدمّرة كلّ آنية في المترل، في حالة عصبيّة لم أرها فيها من قبل.

من الجيّد أنّها لم تكن في مترلنا ساعة علمها بالموضوع.

واستمرّت في الصّراخ والعويل، وأنا مشفق عليها من هول ما هي فيه، حتّى أنّ إحدى جاراتها اعتقدت أنّ أخي قد قُتل فعلا، فجاءت معزّية بلباسها الأسود، وهنا اشتدّت ثائرتها، معتبرة فعل الجارة علامة شؤم، وراحت تدعو على «نتنياهو»، و«هاليفي»، و«بن غفير»، ثمّ شرعت في بثّ مسلسل طويل من اللّعنات، أبطاله «بن غوريون»، و«غولدا مائير»، والشّرطة، وحرس الحدود، ووزارة الدّفاع، و«الكنيست»، و«الشّاباك» و«الموساد»، والمهندس الذي ابتكر «الميركافا»، وحتّى رئيس إسرائيل شخصيّا، لم ينجو من لسانها الذي فاض سمّا.

خطيرة خالتي عظيم الخطر إذا استيقنت ضعفها، ووجدت التّوراة أمامها، تتذكّر ساعتها كلّ من أخطأ بحقّها في الماضي، وحتّى من في نيته أنّه سيخطئ معها في المستقبل.

ثمّ التفتت لي كأنّها تذكّرت شيئا، أو كأنّني أنا الضّابط المسؤول الذي وقّع أمر استدعائه:

– لا تنظر إليّ هكذا كالأخرق، سأخفيه عند الأقارب والمعارف، كلّ يوم أو يومين عند واحد منهم، حين تقتله «القسّام»، لن تأتي زوجة «نتنياهو» لتبكي معي، أنا أمّ... هل أقدّم ولدي للموت بيدي من أجل وسام الشّجاعة؟، من أجل قطعة أرض مسروقة تسمّى إسرائيل؟.

قالتها باندفاع وبحنق، وفي منتهى الثّقة.

يبدو أنّ مسألة الإخفاء شيء هيّن، أو ربما تصوّرت أنّ «دييغو» عبارة عن آنية من الأواني، أو هاتف أو حتّى كرسيّ، ممّا يسهل حمله في كيس، أو إخفاؤه في ثقب مموّه في الحائط، فبعد مقتل أخيه في اجتياح «غزّة» سنة 2014، أصبح «دييغو»، الرّقيب الأسمر في لواء «يفتاح»، وحيد أمّه، الذي تخشى عليه من أشعّة شمس الصّيف وبرد الشّتاء.

حين تجلس وحدها، أسمعها تردّد في حسرة، أنّها ليست مستعدّة لخسارة من حملته رضيعاً بين يديها، واعتنت به كزهرة، ورأته يكبر أمام عينيها، الشّهر تلو الشّهر والسّنة تلو السّنة، إلى أن أضحى يمثّل لها النّفس والنّفيس.

سيقتلونه بالتّأكيد هناك في «غزّة»، مكان يرتسم فيه المثلّث الأحمر على كلّ جنديّ، ثمّ سيرقّونه رتبة واحدة ويحضرونه في صندوق، يغطّيه العلم الذي رفضت حمله في المظاهرات، وسيساومونها مقابل سكوتها مثل العادة، وربما سيقولون أنّه قُتل بنيران صديقة، فقد كثر الأصدقاء الذين يطلقون علينا النّيران في الآونة الأخيرة.

ويشقّ عليّ إفهامها في كلّ مرّة أنّ «دييغو» بجسده الدّهنيّ؛ ليس آنية من الأواني الكريستاليّة التي تعشق اقتنائها.

حسنا، من المفترض أن يتواجد «دييغو» بعد خمسة عشر يوماً من الآن في ممرّ «نتساريم»، الذي يحميه اللّواءان «يفتاح» و«كرملي»، وسيبحثون عنه حين يسجّلون غيابه، لهذا فإنّ فرص بقائه مختفياً عن الأنظار ستقلّ مع مرور الوقت، والحلّ الوحيد هو خروجه من هنا، لتُحلّ المشكلة نهائيّا.

حين تقول «حماس» أن لا استعادة للأسرى إلاّ بإيقاف الحرب؛ فهذا معناه أنّهم ما زالوا أقوياء، وحتّى لو دمّرنا «رفح» على بكرة أبيها؛ فلن ندمّر «حماس»، أو «الجهاد»، أو روح المقاومة عند هذا الشّعب.

ما زال أطفالهم يشكّلون أفواجاً لحفظ القرآن، كتابهم المقدّس، رغم جوعهم وآلامهم، رغم يتمهم ورغم كلّ ما فعلناه بهم.

هل يعلم حمقى «تلّ أبيب» أنّ «كتائب القسّام» قد عادت إلى شمال «غزّة» ووسطها؟، وإلى كلّ المناطق التي أوهموا أنفسهم وأوهمونا معهم أنّها قد طُهّرت منهم؟.

لقد عادوا مجدّدا إلى أراضيهم أيّها المتهوّرون المهووسون بطلبات نسائهم وحساباتهم البنكيّة.

في اليوم الذي انتهت فيه إجازتي، الخامس من ماي 2024، قُصفت قوّاتنا المحتشدة في مستوطنة «كيرم شالوم» بصواريخ «رجوم»، وقذائف الهاون، محقّقة إصابات كثيرة، ومُنع نشر أيّ شيء عنها، كما حذّرونا من

التّصوير، وطلب الجيش مروحيّات لإخلاء القتلى والجرحى، حتّى أنّ بعض القذائف أصابتنا إصابات مباشرة، كأنّ يدا خفيّة من السّماء توجّهها نحونا، أصابت إحداها خيمة فقتلت خمس جنود مباشرة، منهم صديقي «عيدو تيستا» من لواء «جفعاتي»، وهو ما زال في ريعان شبابه، إذ لم يتجاوز التّاسعة عشرة ربيعا.

«عيدو» –حين أراه– أتذكّر «دافيد»، يرتدي نظّارات طبيّة مثله، وله أسلوب حديث مشابه.

لقد تركونا حتّى عمّت الطّمأنينة المكان، ثمّ فجأة صبّوا علينا جام غضبهم، قال لي مرّة أنّهم بعيدون عن الخطر، نفس الكلام الذي كان يقوله أخي، وأنّه يثق في قادتنا ويجب الثّقة بهم، لم يكن يعرف المسكين بطراوة عوده أنّه أمام بيت النّمر، وأنّ هؤلاء الذين يجب الوثوق بهم ثقة عمياء يخفون خيبة أملهم؛ فلا أسرى حرّروهم، ولا هم أمسكوا النّمر.

ما ذنب الجنود الشّباب الذين وثقوا بكم فأرسلتموهم إلى الموت وهم في ربيع أعمارهم؟، ما ذنب الخطيبة التي كانت تنتظر فارس أحلامها ليأخذها من يدها لمنزل يؤسّسون فيه أسرة، يحضرونه لها اليوم في تابوت، ملفوف بعلم النّجمة السّداسيّة الذي رفضت خالتي حمله في المظاهرات؟.

تذكّروا جيّدا «عيدو»، المهتمّ كثيراً بلياقته خشية أن يصبح بدينا مثل «غابي»، لقد كان شابّا قويّا مفعماً بالطّاقة، بل كان في ذاته هو الطّاقة التي تضيء مساحة فارغة لا تحتاج لضوء، وفجأة انطفأ المصباح.

(17)

– لقد وقفت مع الحقّ، تذكّري ذلك، لقد اخترت أخفّ الضّررين، ماذا ستفعلين لو كنتِ مكاني؟.

هذه هي عبارتها الأخيرة قبل أن تصفق الباب ورائها في غضب لفت إليها الأنظار.

غير أنّ الحقّ الذي تقصده «إنجي» أخت صديقي «دافيد»؛ هو العاطفة التي تركتها تحافظ على علاقتها الزّوجيّة، مقابل العقل الذي يدفعها للثّورة في وجه زوجها «غارسيّا»، وما يرتكبه من أعمال قذرة لا تقبلها الشّريعة اليهوديّة أو القانون.

– هناك قرب مجمّع «الشّفاء»، سيجدون مقابر جماعيّة.

– إذن أنتِ تعلمين بالجثث المسروقة من «غزّة»؟.

سكتت «إنجي» وصرفت نظرها بعيدا.

– تعرفين، أليس كذلك؟، للمتاجرة بأعضائها؟، لماذا لا تواجهينه؟.

وأمسكتها من ذراعيها تهزّها هزّا عنيفا.

– من؟، زوجي؟، أواجه ضابط «موساد»؟، هنا في إسرائيل؟، هل أنتِ مجنونة سيّدة «ليزا»؟.

محاولة تثبيت نظرها في عينيها بعد تحاشي المواجهة؛ نقطة تُحسب لها:

– يجب أن تقفي مع الحقّ ضدّ الباطل، هؤلاء الضّبّاط يستغلّون نفوذهم في أجهزة الدّولة كي يقوموا بأشياء غير أخلاقيّة، لا يقبلها أيّ دين أو منطق.

هذا أبرز ما جرى بينهما في زيارة دامت ساعتين في مكتب الصّحيفة في «تلّ أبيب».

– هو من أرسلها ليجسّ نبضي.

– من تقصدين؟.

– وهل هناك غيره؟، براغماتيّ لا يردعه شيء.

وكنت أوّل من يعلم بهذه الزّيارة.

كتب «دافيد» في مذكّراته أنّه لّما زاره زوج أخته «غارسيّا» في قاعدة «شيزافون»؛ ليس لعرض فكرة انضمامه للمكتب؛ وهو الإسم الرّمزي لجهاز «الموساد»، كما صرّح له، بل لشيء لم يقدر على معرفته آنذاك، و لم يستطع استنباطه رغم تفكيره المتواصل، وهو ما لم أستطع بدوري الوصول إليه حتّى كان هذا اللّقاء.

بعدما لاحظ «آيزنكوف» تقارباً مبدئيّاً مع «دافيد» و«بابلو»، في بداية فترة صداقتهما، نقل ذلك لابن خالته «نيتاي»، الذي أراد استغلال سذاجة «دافيد»، وتوريطه في عمليّات صغيرة مدفوعة، لم يكن يدري أنّ هذا الذي سيتخرّج ضابطا من «شيزافون» هو الأخ غير الشّقيق لزوجة شريكه، وهو ما اعترضت عليه «إنجي»، حين علمت بطريقتها الخاصّة، بل وذهبت حتّى لتهديد زوجها بفضحه أمام الرّأي العامّ الإسرائيليّ، وأنّها ستدمّر كلّ شيء على رؤوس الجميع، إذا فكّر ولو لبرهة واحدة في توريط أخيها في صفقاته غير الشّرعيّة.

كأنّها عقدت صفقة رابحة، هكذا تهيّأ لها، في حين كان «غارسيّا» أمام خيارين، إمّا استغلال «بابلو» وتجنّب مشاكل زوجيّة قد تؤدّي به إلى الطّلاق، أو استغلال «دافيد» وتحمّل عواقب ذلك، بما فيه تدمير مساره المهنيّ بشكل غير مباشر.

غير أنّ الرّياح جرت بما لا تشتهي السّفن، عندما ورّط «بابلو» صديقه «دافيد» دون قصد منه، وراحت الأحداث تتوالى وتخرج عن السّيطرة، في تعقيدات والتباس وتصعيد مأساويّ، كلّما تشعّبت.

(18)

«رفح»، السّابع من ماي 2024.

تجمّعنا أمام دبّاباتنا نتلو الدّعاء:

– يا ربّ أنقذنا؛ يا ربّ انصرنا، الشّعب الأبديّ سينتصر.

ثمّ نفخ أحدهم في البوق، وصرخنا جميعا ملء أفواهنا:

– لندمّر «رفح».

كنت معهم ولست منهم، أصارع سؤالا طالما جثا على فكري، هل سيستجيب الرّبّ لنا ونحن الذين اغتصبنا هذه الأرض من أصحابها؟.

شمل التّقدّم محوران؛ نحو مطار «غزّة» المغلق باتجاه منطقة «الشّوكة»، حيث بدأت مجموعة مؤلّفة من ثلاثين جنديّا التّوغّل متريّثين، خوفاً من وجود كمائن، ترافقهم ثلاثون دبابة، وبعض الطّائرات المسيّرة، مع قصف الطّائرات الحربيّة، تزامنا مع تحييد المناطق التي تقع أمامنا بقصفها من السّفن.

ونحو معبر «رفح» بالتّوازي، حيث كانت أربع دبّابات تسير عبر محور «فيلادلفيا»، التي تمّت السّيطرة عليه في سرعة غريبة، ورُفع علم النّجمة السّداسيّة هناك على الجانب الفلسطينيّ.

أمّا المحور الأول، فقد شهد قتالاً شرساً، خسرنا فيه الكثير من الجنود والدّبّابات، محور كانت «كتائب شهداء الأقصى» التّابعة لحركة «فتح» تنتظرنا على أحرّ من الجمر، وبالضّبط في منطقة «الشّوكة»، حيث تمّ تفجير دبّابة «ميركافا»، وتولّت الرّشّاشات أمر المشاة، ممّا تحتّم بدفع ثلاثين دبابة نحو معبر «رفح»، للإنقضاض على المحور الأوّل من زاوية أخرى؛ حيث تمركز لواء «ناحال» واللّواء المدّرع 401، لتأمينه، وعزله عن العالم نهائيّا؛ في العاشر من ماي 2024.

منطقة التّقدّم في المحور الأوّل لا تتجاوز خمسة كيلومترات، وهي مناطق مفتوحة لا يمكن أن نمنّي أنفسنا فيها بإنجاز حقيقيّ.

لقد أعطونا قذائف محرّمة دوليّا، وأمرونا بالتّكتّم التامّ؛ قذائف تهشّم العظم وتحرق اللّحم، بل وتخرج الأحشاء والدّماغ عند الإصابة.

في تلك اللّيلة هاتفتني خالتي والفرح بادٍ في صوتها الحادّ الجميل:

– لقد وافقت «حماس» على الصّفقة البارحة، حاولت الإتّصال بك أكثر من عشر مرّات ولم أستطع، الكرة الآن عند «نتنياهو».

كانت تريد أن تفاجئ أمّي عند استفاقتها من غيبوبتها التي دامت أيّاما، ووجدت نفسي أستبشر فرحاً، كما استبشر رفقائي هنا، ثمّ تذكّرت لئيم «تلّ أبيب» وخبثه، وسرعان ما تسلّل إليّ الإحباط الذي حاولت أن أخفيه من نبرة صوتي، سيراوغ وسيجهض كلّ شيء، كعادته، من المؤكّد الآن أنّه يعتقد أنّ «القسّام» منهارة ومحبطة، وأنّ هذه فرصة ذهبيّة لمواصلة الضّغط عليها وتمزيقها شرّ تمزيق، ونسي أو تناسى شبح أربع كتائب تنتظرنا هنا، جاهزة كلّ الجهوزيّة للقتال، في مدينة من الأنفاق نجهلها، مثلما نجهل كوكب «الزّهرة».

واستمرّ في المراوغة كما توقّعت، واستمرّت المظاهرات الغاضبة أكثر من أيّ وقت سابق في «القدس» و«تلّ أبيب»، التي أغلق فيها المتظاهرون شارع «أيالول»، وأشعلوا النّيران في الطّريق مهدّدين بالتّصعيد، إذا لم يوافق فوراً.

كانت خالتي معهم، حاملة صورة أخي الذي لا أخبار عنه إلى الآن.

بينما كانت أمّي المسكينة تمنّي نفسها بفيديو من «كتائب القسّام» عنه يطمئنها، قبل أن تنهار، على الأقلّ تراه أمامها حيّا يرزق، ثمّ تأتيها الهواجس ليلاً، فتوقظني لتسألني عن نسبة احتمال نجاته من قصف جوّي، فأجيبها بأنّ كلّ شيء على ما يرام الآن، وإذا حدث خطب ما؛ فسيصرّح مقاتلو «القسّام» بذلك.

– هل أنت متأكّد أنّهم سيفعلون؟.

– وحقّ توراة «موشيه»؛ إنّي لأثق فيهم أكثر من ثقتي في قياداتنا العسكريّة.

فتذهب لفراشها متفائلة.

متشائمة خالتي هذه المرّة، هاتفتني وهي تردّد غاضبة، أنّ هناك صدمة في الشّارع الإسرائيليّ، بسبب إلغاء «حماس» الصّفقة، لتعنّت الحكومة والجيش، واستمرار الهجوم على «رفح» في جنوب القطاع.

لم أتفاجأ، ولَمَ المفاجأة؟.

لقد كان هذا منتظراً من البداية، خاصّة وأنا أرى بأمّ عيني الثّمن الذي ما زلنا ندفعه للسّيطرة على أرض ليست لنا، لقد تحوّلت الهمسات والوشوشات إلى أحاديث صريحة علنيّة بين الجنود:

– سئمنا الحرب، دعونا نرجع لمنازلنا، نحن نقاتل أشباحا لا يمكن هزيمتهم.

بينما ردّ عليه الآخر:

– مفاوضة الأشباح أفضل من قتالهم، لماذا هذه الحرب أصلا؟.

خاصّة بعد عودة الجنود إلى «جباليا» في شمال القطاع، في مسلسل لم تنتهي حلقاته ولن تنتهي.

لقد أرانا هنا أحد الضبّاط فيديو لم أشاهد مثله مطلقا، يُظهر خروج المقاتلين من نفق أمام رتل دبّابات شرق «رفح»، كان أحد الجنود يسير أمام الدّبابة غير منتبه للخطر المحدق به، حين تسلّل المقاتل في خفّة القطّ ملصقاً عبوة «شواظ» في الدّبّابة الأولى، وملصقا الثّانية في الثّانية، بعد ظهور مثلّثين أحمرين عليهما، ثمّ ظهر مقاتل آخر يستعدّ لإطلاق قذيفة «ياسين»، تجاه دبّابة ثالثة عُلّم فوقها بمثلّث أحمر.

إنفجر كلّ شيء في لحظات، في سرعة تصعّب عليك استيعاب ما يحدث، ثمّ سمعنا تكبيرات شكر، تسلّل رعب خفيّ لأفئدتنا من خلالها، وعادوا جميعاً سالمين مثلما جاؤوا، كأنّ شيئا لم يكن، لتجمع طائرات الهلكوبتر الجرحى وأشلاء القتلى.

كان في قدرة «القسّام» إسقاط الطّائرات التي حضرت للإنقاذ، ليكتمل المشهد، وتتعزّز الفضيحة.

حدثت العملية يوم الرّابع عشر من شهر ماي 2024، أي قبل يوم واحد من عيد الإستقلال، شاهدنا جميعا الفيديو، وهذه المرّة أمام أعين بقيّة الضبّاط وأعين «أمان».

– حربنا عبثيّة، و«السّنوار» يدير الحرب من الأنفاق، أفضل بكثير من أيّ جنرال لدينا.

قالها أحد الضبّاط في حزم وانصرف، بينما سمعت أحدهم يقول في الخلف:

– إنّه الجنرال «يحي السّنوار»، عدوّي اللّدود، لكنّي أكنّ له احتراماً أكثر من فيلسوفنا الغبيّ «هاليفي»، وجه الكوسا، التّلميذ الذي يجب أن يُضرب على مؤخّرته دائما، وبقسوة دون رحمة، كي لا ينسى الدّرس.

ثمّ قال أحد الضبّاط من «أمان» الذي يبدو أنّه يئس من الحرب، لكنّه يحافظ على راتبه:

– كلّ شيء هنا يؤكّد أنّنا باقون في القطاع، إنطلاقاً من القواعد الأربعة الكبيرة التي تُشيّد في «نتساريم»، والميناء العائم الأمريكيّ يجسّد مشروعنا الطّموح، يجب تأمين «غزّة»، قبل حفر قناة «البحر الأحمر» الموازية لقناة «السّويس».

غير أنّ أحد الجنود الأفارقة قاطعه بحماسة كأنّه كان ينتظر هذه الفرصة ليعلن ولاءه لسيّده:

– ليس سرّا هذا الذي تقوله سيّدي، لقد كشفت صحيفة «جيروزاليم بوست» عن خطّة مستقبليّة، مساعدات إنسانيّة، ثمّ إعمار شامل ثمّ حكم ذاتيّ، حيث نكتفي بالسّيطرة الخارجيّة على القطاع، ونترك الدّاخل للفلسطينيّين، بعد القضاء على كلّ أشكال المقاومة المسلّحة، وخاصّة «حماس» وذراعها العسكريّ، ثمّ إطلاق مشاريع بناء وتعمير، ومناقصات دوليّة بملايين الدّولارات، وفتح فرص عمل ضخمة، لإشغالهم بالتّحوّل الإقتصادي النّامي، كي لا يفكّر أحد في حمل السّلاح، لتأتي المرحلة الأخيرة، تعزيز مشاريع إقليميّة ضخمة، تمتدّ لدول الجوار، لإشراكهم في مصلحة واحدة، ويجب أن يكون كلّ ذلك مترافقا مع غسيل دماغ كلّ الأهالي، بأنّ اليهود هم أصحاب الأرض الحقيقيّين الذين يجب أن يبقوا ليعمّ الرّخاء.

نظر إليه الضّابط غير مصدّق أنّ هذا الأسود الصّغير الذي أمامه لديه كلّ هذه المعلومات، حاثّا الحضور على قتل كلّ حيّ يتحرّك، كي يتركوا الأرض مقهورين:

– تذكّروا أيّها الأشاوس أنّ الإبادة الجماعيّة هي أنسب وسيلة تُستعمل لقذف الرّعب في النّفوس.

هنا، قفزت إلى ذهني صورة «ممدوح مرتجى»، بنظّاراته الطّبّيّة التي زادته هيبة وجلالا، الأربعينيّ ذو اللّحية الخفيفة والشّارب، الذي أعاد ترميم منزله في «الشّجاعيّة»، ليكون جاهزاً للسّكن حين ترجع إليه عائلته، في صبر «أيّوب» وإصرار «موشيه» الأسطوريّ، وبعد كلّ ما فعلناه ببيته وأرضه وحيّه؛ ما زالت شعلة الأمل موقدة فيه.

مرآة تعكس نماذج آلاف الفلسطينيّين والفلسطينيّات، الذين أبوا الخضوع لنا منذ عام 1948، لأنّنا لا نعدو أن نكون عابري سبيل.

(19)

إذا رأيت فتاة في العشرين من عمرها، طويلة القامة، رشيقة القوام، يعلو وجهها الأبيض الطّويل نمش كثيف، وفوقه عينان خضراوتان، وشعر كستنائيّ فاتح يتجاوز الكتفين بقليل، فأنت دون شكّ أمام «ريتانا هيزكياهو»، المسعفة المقاتلة التي دخلت معنا إلى «رفح»، مع اللّواء المدرّع 401.

أمنيتها وأمنية والدها أن تكون طبيبة بمئزر أبيض، وسمّاعة تتدلّى على الصّدر الممتلئ، ولأنّها أصبحت تشعر بالنّقص أمام الآخرين؛ تحاول بكلّ حيلة الظّهور بمظهر فتاة رفيعة الشّأن من الطّبقة المخمليّة، كونها من أسرة فقيرة هاجرت من «أوروبّا» الشّرقيّة، في الأربعينيّات من القرن الماضي، بعدما عانت عائلتها كثيراً في معسكر «أوشفيتز»، إبّان الحرب العالميّة الثّانية.

وعبر سنوات طفولتها؛ كانت آلام الماضي المترسّب من حكايا جدّتها خبزها اليوميّ، فلا غرو اليوم أن أكل الحقد قلبها أكلا، ونمت فيه مشاعر الشّناءة نموّ الطّحالب والفطريّات.

– أحبّ أن أرى أطفالهم جوعى يركضون بأواني فارغة يتسوّلون الطّعام، سيحلّ الصّيف قريباً، وسندمّر آبار الماء، ومحطّات الضّخّ، سينفذ مخزونهم بعد أشهر، وستكون مجاعة لم يعرفوها من قبل، مجاعة سيتحدّث عنها العالم بأسره، سيعرفون جيّدا ما معنى «سيوفنا الحديديّة».

هذا ما قالته لي وهي تجهّز حقيبة الإسعاف، أمام إحدى الدّبّابات المعطّلة، إستعداداً لمرافقة القوّات التي كانت تنتظر الأوامر بالدّخول للقطاع، من أجل عمليّة مراقبة روتينيّة، ثمّ تردّد على مسامع الجنود عبارتها الشّهيرة «القسّام في مرحلة موت إكلينيكيّ، وسنسحقهم جميعاً كما نسحق النّمل تحت أرجلنا، وسنقتحم أيّة منطقة ترفع حماس فيها رأسها، مهما كلّفنا الأمر من تضحيات، وسنتابع قادتهم، وجميع من تسوّل له نفسه ضربنا».

حتّى أنّها في الثّامن من ماي 2024، إحتفلت مع صديقاتها بمقتل «أحمد علي»، قائد القوّة البحريّة في «كتائب القسّام» في مدينة «غزّة»، في عمليّة مشتركة بين الجيش و«الشّاباك»، معتبرة ذلك إنجازاً عظيماً لا يفوقه إنجاز، في انتظار عيدها القادم كما تظلّ تكرّر، حين نتخلّص من «محمّد الضّيف» و«السّنوار» و«اسماعيل هنيّة».

– ألا تشعرين الآن كأنّك سوف تعبرين إلى الجانب المظلم من القمر؟.

أغلقت علبة الإسعاف وهمّت بالذّهاب، بعد أن أشارت لها إحدى المجنّدات من بعيد وهي تطمئنني:

– هناك جواسيس نستغلّهم في نقل أخبار العدوّ إلينا، قاذورات من البشر التي تخون أقرب المقرّبين إليها من أجل المال والمنصب، ثمّ ليذهبوا للجحيم؛ هم ليسوا يهودا على أيّة حال، فلماذا نهتمّ لمصيرهم؟.

– أليس من الواجب أن نحمي من يكون إلى جانبنا؟، هذا هو العرف المتّبع في كلّ جيوش العالم.

عادت بخطوات سريعة، قائلة بنبرة واعظ لا تخلو من تحذير:

– لا تفكّر بهذه الطّريقة، الخائن خائن ولو أنذرك بوقوع زلزال.

آه يا «ريتانا»، آه يا أختي الصّغيرة التي تعيش بين النّجوم، السّاذجة ككلّ السّذّج وبيادق إسرائيل، كم أشفق عليك يا مسكينة.

لو تعلمين أنّ «القسّام» ما زالت كما كانت في أوجّ قوّتها، مثلما كانت في بداية الحرب، رغم خسائرهم البشريّة.

لو تعلمين أنّ «بئر سبع» قُصفت البارحة فقط، العاشر من ماي، بصواريخ «سجّيل»، وأنّ مستشفى «سوروكا»، الذي ترقد فيه أمّي الآن فاقدة الوعي؛ أصبح مبكى للأرامل والثّكالى والأيتام، حتّى أنّهم نقلوا إليه جرحى «كيرم شالوم»، الذين كانوا مع صديقي «عيدو».

من المؤلم أن تري الصّواريخ التي فتكت بأصدقائك وصديقاتك تجهّز للإطلاق أمام عينيك، في فيديو يوثّق جيّدا ما حُضّر ويحضّر لنا في الخفاء.

تذكّرني أحلامكِ بوالد «دافيد»، الذي فقد رجليه إثر إصابته في العمود الفقري، ثمّ تخلّى الجميع عنه، ليعود خائباً إلى «المغرب»، يجرّ أذيال النّكسة، بعدما فقد كلّ شيء من أجل لا شيء.

هل ما زلتِ تصدّقين أنّنا قضينا على عشرين كتيبة من أصل أربع وعشرين؟.

هل ما زلتِ تثقين في «نتنياهو» وزمرته الحاكمة بعد كلّ ما كُشف حوله؟.

كذبتنا التي صدّقناها أطفالا، وتعلّقنا بها شبابا ويافعين، ما عادت صالحة اليوم للتّصديق، دولتنا الآن تحتضر ببطء، مثل عجوز في خريف عمرها، ستقاسي الأمرّين إلى أن تموت، فهل ستسعفينها؟.

ألم تقولي ذات يوم أنّ الإسعاف خطوة استراتيجيّة لإنقاذ حياة أيّ شخص مهما كان؟.

وفي نفس الوقت تقولين أنّه يجب ترك الفلسطينيّين مرضى وجوعى كي يدركوا قيمة ما نعطيه لهم، وإتلاف المساعدات الغذائيّة الدّاخلة من المعابر، شيء طبيعيّ في نظركِ ومنطقيّ إلى حدّ كبير.

من الأجدر بالإسعاف يا «ريتانا»؟، الميّت أم الجريح؟.

(20)

كلّما تتّصل بي خالتي؛ تشتكي من تدهور الوضع الإقتصاديّ، مقابل شره ابنها ودلاله، الذي ما زال يعتقد أنّنا نعيش في العصر الذّهبيّ للدّولة، فابتداء من التّاسع من ماي 2024؛ زادت أسعار الدّجاج بعشرين بالمائة، والتهبت أسعار اللّحوم خمسون بالمائة، وفي سنة 2025 القادمة ستزيد الضّرائب، بسبب ضعف الموازنة، نتيجة عجز مقدّر بثلاثين مليار شيكل، وحكومتنا الطّاهرة تعيش على كوكب «المريخ»، حتّى أنّ الجيش يوسّع قاعدة «أوريم» الإستخباراتية في «أوفاكيم»، مدينة صديقي «دافيد».

كلّ ذلك ليس له سوى دلالة واحدة، سيزداد الفقر، ستنهار الطّبقة المتوسّطة التي تشكّل عماد المجتمع.

من غير المقبول أن توجّه أموالنا كلّها للجيش، ونحن نحترق في نار غلاء متأجّجة ذات منحى تصاعديّ.

أيّ دولة هذه التي تبني أسواراً عالية وأبراجاً مزروعة في الشّمال والجنوب للحماية الخارجيّة؛ وحمايتنا الدّاخليّة تتآكل كما يأكل الصّدأ الحديد؟.

لقد أوقفت «تركيا» جميع صادراتها نحو إسرائيل، إبتداء من الثّاني من ماي المنصرم، ليزيد ارتباكنا ومعاناتنا عمّا كانت عليه، حتّى أنّ خالتي الآن لم يعد يهمّها تنظيم انتخابات مبكّرة، رغم أنّها كانت من المنادين بها، والمتحمّسين لها، لطرد «نتنياهو» شرّ طردة، ما دامت الغرغرينا تنهش كلّ مفصل في هذا الكيان.

كنت معهم و لم أكن معهم.

كانوا مجتمعين أمام التّلفزيون يستمعون لخطاب الدّمية، وجه النّعامة البارد، «يتسحاق هرتسوغ»، الذي ألقاه في مقرّ إقامته في «القدس»، أمام أكثر من مائة وعشرين متميزّا من الجنود والضّبّاط من الجنسين، بمناسبة مرور ستّ وسبعين سنة على تأسيس الدّولة، مباشرة بعد نهاية الإنتداب البريطانيّ على «فلسطين»، في الرّابع عشر من ماي عام 1948.

مجرّد دمية من دمى الغراغوز، يحرّكونها بخيوط من أعلى؛ هذا هو باختصار رئيسنا العظيم؛ حتّى أنا هنا في الجيش أنسى أنّ لدينا رئيسا، بل كدت أنفجر ضاحكاً حين صرّح بقوله:

– لن نسمح لأحد أن يهزمنا.

هل تعرف الدّمية أنّنا هُزمنا منذ الأشهر الأولى من هذه الحرب؟، أم ما زال الخيط المسؤول عن الرّأس لم يحرّك؟.

قبل سنوات؛ كنت أنتظر عيد الإستقلال بفارغ صبر، كي أفرح بما أقنعونا أنّه لنا، كان علم النّجمة السّداسيّة يمثّل مدلولا رمزيّا عظيما لي، ويبعث في نفسي نشوة انتصار عمرها في عمر أمّي التي شاركت في حرب 67، ضدّ «مصر» و«سوريا» و«الأردن»، لكن الآن أصبح كلّ لون أزرق أراه أمامي يثير اشمئزازي ونفوري، عميقا عمق آبار البترول، لأنّه يذكّرني بمن قتلناهم لأجل أرضهم، خاصّة بعد أن حكت لي أمّي كلّ شيء قبل أن تتدهور صحّتها، وتذهب لترقد على سرير لعين في العناية المركّزة، لا أعرف متى وإلى أين ستخليه.

في الخامس عشر من ماي عام 1948، كانت أمّي في عمر ثلاث سنوات، تربّت ونشأت وراهقت الفترة الحسّاسة من تاريخ إسرائيل، وطالما افتخرت بكونها من القوّات التي وسّعت حدود الدّولة، مرتكبة أعمالاً وحشيّة ضدّ السّكّان الخائفين المرعوبين من مجازر اللّيل ومذابحها.

لا أحد في العالم كان يهتمّ آنذاك، كان الجميع يحاول ترتيب أوراقه، بعد الخروج من حرب عالميّة مدمّرة أكلت الأخضر واليابس.

في تلك الفترة؛ كلّما كنت مندفعاً لدرجة التّعصّب الأعمى تزداد الثّقة فيك، وأصبحت جزءاً من الجهود الصّهيونيّة التي تعبّد الطّريق وتمهدّ لإقامة الدّولة، وتتملّكني قشعريرة المكان الجديد، ونحن نستمع ثلاثتنا رفقة خالتي للتي ارتبطت سيرتها بوحشيّة أبيها، المشارك في تدمير قرية «الطّنطورة».

كانت الوضعيّة العامّة والمناخ السّائد في تلك الفترة مختلفاً عمّا هو عليه الآن، كان الجميع يحاولون الخروج من الإحباط الذي أصابهم من النّزعة النّازيّة، لقد قتل «هتلر» أحبّائهم في معسكرات الإعتقال التي أضحت مضرب المثل في الهمجيّة والتّوحّش، كان الكلّ راغبين في إقامة دولة يشعرون فيها بالأمان، يستطيعون النّوم ليلاً دون أن يفكّروا في الجنود الذين سيقتحمون بيوتهم للتّفتيش، واستغلّت الوكالة اليهوديّة الموقف جيّدا، بغدر الذّئب ومكر الثّعلب وقذارة الخنزير، لتهرّب آلاف العائلات النّازفة الممزّقة، بعدما أغرتهم أنّ أرض اللّبن والعسل التي وعد بها الرّبّ «يعقوب»؛ تقع هناك حول «القدس»، المدينة التي تسمّى «أورشليم» في توراتنا، وفيها يجب إعادة بناء هيكل النّبيّ «شلومو».

كنت كثيرا ما أغفو على ركبة خالتي وأنا أستمع لقصص أمّي التي لا تنتهي:

– أنا ابنة «غولدا مائير»، أنا ابنة من ما زالت إسرائيل تدين لها بالوجود.

هذا ما تردّده حين تستحوذ عليها مشاعر العزّة الآثمة والكبرياء الكاذب.

بل تحفظ سيرتها الذّاتيّة عن ظهر قلب، للتي تصفها بالأيقونة القوميّة الأوكرانيّة المولد، المكروهة حتّى من أقرب المقرّبين لها، والأسطورة الصّهيونيّة، لأنّها استطاعت جمع خمسين مليون دولار لعصابات «الهاغاناه»، قبل إعلان الدّولة في عام 1948، ثمّ خمس وسبعين مليون دولار قبل نهاية سنة 1949؛ متطرّفة من العيار الثّقيل، بدأ

العالم يعرفها ابتداء من سنة 1956، لّما غيّرت لقبها من «مايرسون» إلى «مائير»، طبقاً للقانون الذي وُضع آنذاك، باعتماد أسماء عبريّة لجميع قادة إسرائيل.

تاريخ أمّي هو حاضر «ريتانا» الآن.

كم أرجو من الرّبّ أن يشفي لي أمّي وتعود للمنزل بكامل عافيتها، وأفرحها بعودة علاقتي مع «دينا»، لا سيما وأنّ أمنيتها منذ زمن أن أتزوّج منها، ونؤسّس أسرة سعيدة، غير أنّ التحوّلات الحالية تفرض علينا طرح الموضوع بشكل مغاير، وأن نجري مقاربة جديدة، لم نكن نتخيّلها أصلا.

(21)

لأنّنا كنّا مختلفين آيديولوجيّا؛ رفضت «دينا» استمرار علاقتي بها، شخصيّتها القويّة الرّافضة للصّهيونيّة كانت السّبب في حدوث نقاشات حادّة بيننا، ثمّ صدامات، ثمّ شجارات، وانتهى الأمر بفراق عنيف في إحدى المطاعم.

– ليس عيباً أن أكون يهوديّة، ولكن كلّ العيب أن أكون صهيونيّة.

هذه هي جملتها التي فجّرت الموقف بيننا، واعتبرتها أنا إهانة كبيرة لي، ثمّ واصلت كلامها بنبرة مستفزّة:

– لن أسمح أن يتحدّث صهيونيّ قذر باسم اليهود؛ فاليهوديّة أسمى من الصّهيونيّة، منذ القدم ونحن نعيش مع المسلمين دون مشاكل، حتّى بدأت أفكار هذه النّزعة تنتشر.

ثمّ تجرّأت وثبّتت عيناها في عيناي تتحدّاني:

– أنت تعلم من روّج لها قديما، وما زال يروّج لها الآن بغباء القرد، إسمع، لا تكن سخيفا، من يبحث عن المجد بتحريف المعتقدات وليّها كي يصل لأهدافه؛ فسيدركه الذلّ مهما طال الزّمن.

لم أتمالك نفسي فصفعتها أمام النّاس في المطعم، تضايقت من طريقة كلامها، ونبرة صوتها المتهكّمة، واتّهاماتها المستترة لي.

والآن يجب على أحدنا أن يحرّك الأعماق الرّاكدة منذ سنوات، وعلى ما يبدو؛ فإنّ الأعماق ستتحرّك أكثر ممّا هو منتظر منها.

(22)

وجدته أمامي ينتظر الجنود العائدين من خلف السّياج، ما إن نزلت من مدرّعة «النّمر»، حتّى أخذني بلطف من ذراعي، ودسّ في يدي ورقة وهو ينظر إليّ نظرة اختلط فيها الحزن بالألم بالشّفقة، نظرة قالت كلّ شيء، وأوضحت كلّ شيء، وعبّرت عن كلّ شيء، ووجدت نفسي أقاوم دموعي التي فاضت على وجهي الملوّن المغبرّ.

لقد فهمت ما عجز عن قوله لي مكتفياً بالتّربيت على كتفي، وعجزت أنا عن تقبّله، فلم تسعفني رجلاي لأحتفظ بقامتي المنتصبة.

وجثوت على ركبتي وأمامي سلاحي من فرط ما نالني من ألم، ثمّ استعدت توازني مستوعباً ما يدور حولي، ووجدت نفسي أركض بكلّ قواي بدموع يتقاذفها النّسيم، لأراها لآخر مرّة قبل أن توارى التّراب، ركضت بلباسي العسكريّ لأقرب طريق، وأوقفت سيّارة كانت مارّة ملقياً بنفسي على سائقها الذي وجل من طريقة استيقافه:

– إلى مستشفى «سوروكا»، فورا وسأضاعف أجرتك.

كانت رائحة تراب «غزّة» المنبعثة من بزّتي تتسلّل إلى كلّ زاوية في السيّارة، كأنّها تذكّرني بذنب مقترف منذ أعوام، ولم يثر ذلك السّائق إطلاقا، فقد كان يقود متجاوزاً التّسعين كيلومترا في السّاعة، محاولاً الإفلات من زحمة السّيّارات، شاقّا طريقه نحو الوجهة التي حدّدتها له، متأفّفاً من كاميرات المراقبة، وكنت بجانبه أداري عبراتي، محاولاً إشغال تفكيري بأيّ شيء يبعدني عن مأساتي، حتّى أنّه نبّهني إلى هاتفي الذي كان يرنّ دون توقّف.

– أين أنت؟، لقد تركت لك خبراً عند الضّابط حين لم أستطع الإتّصال بك، نحن في منزلكم في «الشفعاه»، تعال أرجوك.

لقد ماتت أمّي منذ أيّام، وتمّ دفنها دون أن أقبّل التّراب الذي يحتضنها إلى يوم القيامة، وتجتمع العائلة الآن لمدّة أسبوع في بيت العزاء، وهذا ما يسمّى في اليهوديّة «شفعاه».

من هول ما فهمته من الضّابط، إختلطت عليّ كلّ الأشياء، فلم أعد أعي ما أفعل، خاصّة أمام الإرهاق الذي عشته في «غزّة»:

– أنا في الطّريق إليكم، سآتي على الفور.

نظر إليّ السّائق مستفهما عن الوجهة الجديدة، فأشرت إليه أن يأخذ إحدى الطّرق الجانبيّة، ليوصلني للبيت، وأنا أهزّ رأسي أطمئنه على بقاء الأجرة المضاعفة دون تغيير.

ما إن ولجت الباب حتّى صافحني أحد الجيران معزّيا، وتبعه آخر بوجه يتظاهر بالحزن، كان الجميع جالسين في صمت، بينما كانت أصوات البكاء والنّحيب تنبعث من غرفة النّساء، ونظرت نحو باب الغرفة لأرى خالتي جالسة تبكي، ثم التقت عينانا، فنهضت من مكانها وأقبلت عليّ تعانقني، ثمّ زاد صوت بكائها ليغطّي على أصوات الأخريات:

– ستصل «دينا» غداً بعد الظّهر.

لم أكن أتوقّع أنّي سأراها بعد كلّ هذه السّنوات، وبعد كل ما سبّبته لها من ألم نفسيّ في حادثة المطعم، بأيّ وجه سافل سأقابلها الآن، وأنا المغرور الذي انساق بغباء القرد نحو موز الأوهام؟.

نمت في تلك اللّيلة في فراش أمّي، نمت ورأسي على وسادتها، وسط رائحتها التي كانت تغمر المكان.

لا أعرف إن كانت خالتي تشمّ رائحتها أيضا، أم أنا وحدي من يتهيّأ له أنّ شذاها منتشر في كلّ أرجاء المترل؟.

مسكينة أمّي قتلتها الحسرة على أخي الأسير الذي كنّا نأمل أن يُطلق سراحه، فتراه أمامها حين تفيق من غيبوبتها، وماتت قبل أن ترى أولادنا يتشاقون حولها.

هل سيغفر لها الرّبّ كل ما فعلته في حياتها؟.

كان هذا هو السّؤال الذي يجلدني طوال ساعات الأرق التي مرّت عليّ وأنا في فراشها، أتذكّر ما اقترفته يداها في حقّ الفلسطينيّين، هل يمكن أن تكون مرتاحة الآن في قبرها؟، وما هو المنتظر منّي لأريحها؟.

أسئلة لا يمكن لأحد أن يجيبني عليها سوى الحاخام.

في الصّباح إتّفقت مع «دييغو» على الهروب من الجيش، محاولا مناقشة الموضوع معه بعقلانيّة، بعيداً عن عواطف أمّه، التي تريد إخفائه في الخزانة.

صغر مساحة إسرائيل، واعتماد الدّولة على قواعد البيانات العامّة في كلّ شيء سيصعّب الأمر، نحن الآن في سنة 2024 ولسنا في الثّمانينيّات، كما أنّ فكرة خالتي في إخفائه عن الأعين عند الأقارب؛ فكرة غير واقعيّة البتّة، أملتها عليها غريزتها الأموميّة، والمغادرة من المطار أو من الميناء صعب جدّا، بل يستحيل في مثل هذه الظّروف الإستثنائيّة، إلاّ إذا...

– سألقي بنفسي أمام سيّارة مسرعة، ششش، إنّه سرّ بيني وبينك، لا تخبر ماما.

قالها محذّرا وهو يهمّ بالتهام شطيرة عملاقة، وضع داخلها بطاطا وبيضاً مقليّين مع بعض المايونيز والخردل، كان جالساً إلى طاولة متوسّطة في غرفة المعيشة، لا يبدو عليه القلق أو التّوتّر، كأنّه حزم أمره.

– ستُقتل أيّها الصّبيّ، «ماما».

قلتها متهّكما من استهتاره بالمسألة مثل طفل صغير يجهل خطر السّيّارات.

– ماذا أفعل؟، أكره الجيش، إنّه يقيّدون حريّتي الشّخصيّة، على الأقلّ سأخرج بإصابات بسيطة تمنعهم من تجنيدي، إجلس، كل معي.

ومرّر لي شطيرة هامبورغر لم تعجبه، كان قد طلبها البارحة من أحد المطاعم عبر خدمة التّوصيل.

– ستخرج من الدّنيا عوض ذلك، «إصابات بسيطة».

وانصرفت للشّارع مباشرة كي أبدّد عصبيّتي.

خرجت حتّى لا أصفع هذا المدلّل عقل العصفور، الذي ما زال رغم اسوداد شاربه يقول «ماما»، لا دراسة، لا عمل، لا تكوين، لا مستقبل، لا أسرة، وما زال ينتظر من أمّه أن تخدمه بشكل كامل، غير أنّه أوحى لي بفكرة جيّدة، ظلّت مسيطرة على ذهني، طوال الوقت الذي استغرقته في المشي، فكرة لو نجحت لبدأت صفحة جديدة، بل خلاصا وحياة أجود، كالمولود الذي يطرق باب الوجود الحقيقيّ قبل الفجر بساعات.

في المساء عدت للمنزل بعد مغادرة بعض المعزّين، ورحت أقلّب في دفتر وجدته أمامي على الطّاولة؛ تذكّرت الورقة التي أعطانيها الضّابط، كانت في جيبي الأيمن هنا في الأعلى عند الصّدر، وآخر مرّة رأيتها فيها كانت في «غزّة» لمّا دسّها في يدي، ثمّ وفي خضمّ انشغالي نسيتها تماما، والآن لا أعرف مكان وضعها، ولا أعرف ماذا يوجد بها، لكن وجدت رقم هاتف آخر في الجيب الثّاني، أعطته لي «باولا»، للإتّصال بها عندما تكون في الجيش، فقدّرت أنّه رقم غير مصرّح به، تفادياً لكلّ تصنّت.

(23)

جلست على الأريكة، وأدخلت الرّقم في هاتفي في تروّ واتّصلت، ردّ عليّ صوت امرأة دون تأخير:

– نعم.

– مساء الخير، آسف على إزعاجك، لقد قدّمت لي «باولا» هذا الرّقم لأتّصل بها عند الضّرورة، هل أنتِ رفيقتها في الجيش؟.

– آه أنت...

وذكرت إسمي كاملا فتفائلت:

– هل نلتقي؟، لديّ ما أحكيه لك.

– حسنا، الآن؟، أين أجدك؟.

– أنا في «القدس»، لا أستطيع مغادرة المدينة.

– لماذا؟.

– حين ستأتي ستعرف كلّ شيء.

– حسنا، أين المكان تحديدا؟.

– حين تكون هنا اتّصل بي، وسأدعوك لأحد المطاعم.

– غدا، هل يناسبك الموعد؟.

– لا أستطيع، دعه في اليوم الذي يليه.

– حسنا، سأتّصل بك مباشرة السّاعة والمكان.

وأغلقت الخطّ بسرعة، تاركة في نفسي انطباعا يصعب تجاهله.

بعد ثمانٍ وأربعين ساعة كنت في «القدس»، جالساً ألبّي دعوة غداء فاخرة، لسمراء ذات عينين بنّيتين واسعتين وشعرٍ أسود، زيّنت بشرتها البرونزيّة خانة صغيرة تتوسّط جبهتها العريضة، قالت أنّ اسمها غير مهمّ، لكن يمكنني أن أناديها «جيروشا»، وهو الإسم الذي اشتهرت به في «الهند».

طلبت طبق «كاري» بلحم الدّجاج، في حين اقتصرت هي على قليل من الأرز وشيئاً من الحساء، مع قطعة تونة، حفاظاً على رشاقتها.

هالني مذاق طبقي الحارّ اللاّذع، فقلت وأنا أحاول التّظاهر بتحمّله:

– أريد أن أفهم ما يحدث؟.

ضحكت مشيرة لي في حركة سريعة أن أعطيها هاتفي، الذي وضعته مع هاتفها داخل إحدى العلب مشيرة للنّادل أن يأخذهما بعيدا وأكملت:

– ماذا يحدث في ماذا؟، هل أطلب لك قليلا من الحليب تخفّف به المذاق اللاّذع؟.

– لا، أنا معتاد على ذلك.

ضحكت مرّة أخرى كأنّها اكتشفت تلاعبي بالعبارات، وشرعت تأكل وتتحدّث، بينما أنا أتظاهر بالتّركيز في كلامها بعد تناولي ملاعق قليلة من هذا الذي أقحمت نفسي في طلبه.

– حتّى لا يتجسّس أحد علينا، هذا هو سبب إعطائي الهاتفين للنّادل.

أحسست بحاجباي يرتفعان من هذه الخطوة الأمنيّة التي لم أفكّر بها وأنا الضّابط في القوّات الخاصّة.

تعتبر «جيروشا» صديقة «باولا» الحميمة، لا تخفي إحداهما شيئاً عن الأخرى، لقد أخبرتها منذ يومين أنّ «نيتاي» انتحل شخصيّة يهوديّة مغربيّة، ويخطّط للهرب في غضون أسابيع، بعد أن قام باستصدار جواز سفر مزوّر.

لم تشأ أن تسهب في الحديث عن نفسها كما توقّعت، بل راحت تشرح لي القصّة من أوّلها.

تفاصيل أعرفها وأخرى جديدة علي، مثل إرسال الضّابط «حنانيا» في مهمّة سرّية لإفريقيا، للتّحضير لانقلاب عسكريّ هناك، ومضت تسرد لي كيف كانت منشغلة البارحة بمراقبة «نيتاي»، الذي يتردّد على بعض المطاعم هنا في «القدس»، ودرست مع صديقتها «باولا» منذ حوالي أسبوع مسألة طعنه في إحدى زوايا شارع من عادته السّير فيه، مستغلّة منطقة تقع في ظلّ الكاميرا، طولها خمس وعشرون مترا، ومن المؤكّد هنا أنّ العمليّة ستنسب لأحد المقاومين، خاصّة وأنّ عمليّات طعن الجنود بالسّكاكين منتشرة هذه الأيّام، ولن يفكّر «الشّاباك» في الدّافع الحقيقيّ، قبل أن يفرّ القذر بجلده، ولا نستطيع تتبّعه.

أعجبتني خطّة الفاتنة الأرجنتينيّة، واقتنعت تماماً أنّها ستنجح، لأنّ «باولا» هي من وضعتها، و«باولا» خطيرة جدّا، حين تخطّط انتقاماً لمن أرادته زوجاً لها.

– والنّشر على «هآريتس»؟.

– إنسَ الموضوع، الكلّ خائف من مجرّد الإشارة له، لا توجد ديمقراطيّة في إسرائيل، لا يجب أن نكذب على أنفسنا أكثر من هذا، إسرائيل غابة.

وتناولت آخر ملعقة من الحساء كانت تؤرّق صحنها، ثمّ طلبت شاياً دون سكّر، وطلبت أنا قهوة إيطاليّة مركّزة.

– لم لا تجرّب القهوة التّركيّة؟، إنّهم يبدعون فيها هنا.

– هل تُزرع القهوة في تركيا؟.

– لا، طريقة تحضير فريدة من نوعها، أم تفضّل القهوة اللّبنانيّة؟.

– دعيني أجرّب الثّانية.

وأشارت بيدها للنّادل الذي قدم مسرعاً، ثمّ ذهب آخذاً معه أطباقها الفارغة، وصحني الذي لم أستطع إكماله، كانت أنفاسي الصّارخة تفضحني، ليعود بعد دقائق حاملاً صينيّة عليها كأس شاي من النّوع الفاخر، وفنجان قهوتي مع كأس كبيرة من الماء.

– لكنّ السيّدة «ليزا» مصرّة على فضح كلّ شيء، حتّى أنّها وثّقت عدّة شهادات حيّة...

قاطعتني وهي تضع كأسها بعدما رشفت منه رشفة واحدة:

– ليس الأمر بيدها، ولا بيد الشّرطة، هل وجدوا «غابرييل بوتون»؟.

وهزّت رأسها تحثّني على أهميّة التّركيز في هذه النّقطة، ثمّ راحت تعزّز رأيها:

– رغم كلّ ما تبدو عليه الصّحيفة من حريّة في النّشر، إلاّ أنّ هناك خطوطاً حمراء لا يجوز الإقتراب منها، ما تنشره الصّحافة لا يتجاوز مساحة التّأمين لهذه الخطوط، هذا نظام يحكم إسرائيل، ثمّ أين هي المستندات؟، في غيابها لا تنتظر أن تمطر السّماء.

قالت كلماتها الأخيرة متنهّدة، وهمست في إصرار وهي تحدّق في وجهي بتحدّ:

– لا يوجد قانون، أقولها لك من الآن، وعليه ستنتقم «باولا» بيديها، وسأساعدها، لأنّي أرى ذلك من واجبي نحوها كصديقة، وحتّى الحاخامات هنا في إسرائيل هم أقرب للصّهيونيّة منهم لليهوديّة، إشرب قهوتك قبل أن تبرد.

وأشارت للنّادل مجدّدا، فأتى يحمل هاتفينا وفاتورة الحساب، وفهمت أنّ عليّ تجنّب الحديث في أيّ شيء حول مسألة «باولا» والسّيّدة «ليزا»، وتذكّرت هنا بحثي عن حاخام ليجيب عن تساؤلاتي حول أمّي.

إرتشفت رشفة من القهوة اللّبنانيّة التي فهمت أنّها أفضل من القهوة الإيطاليّة المضغوطة، وقفزت لذهني صورة «دينا» التي تأخّرت في مجيئها من «أمريكا».

في الطّريق رحت أسترجع ما قالته لي «جيروشا»، مقارنا ما لمسته من مفارقات في الجيش، كانت الحكومة قد أغلقت مكتب قناة «الجزيرة» منذ أشهر بذريعة التّرويج للمخرّبين وأفكارهم، في بلد زعموا منذ قيامه؛ أنّه يقوم على الدّيمقراطيّة.

نحن كلّنا تقريبا عشر مليون إسرائيليّ، يأخذ أغلبنا الحقيقة من هذه الفضائيّة، أمّا قنواتنا التي تشبّهها خالتي بقنوات الصّرف الصّحّيّ، فهي تقول ما يمليه عليها الجيش، حفاظاً على الرّوح المعنويّة كما يدّعون، ممّا تسبّب في إخفاء الكثير من الحقائق، بل وتزييف الواقع أبشع تزييف، يقولون أنّ أوّل قتيل لنا في «رفح» كان «إيرا يائير غيسبان»، من سلاح المدرّعات؛ من يصدّق ذلك؟، لقد رأيت مرّة أصدقائي ممّن يفهمون اللّغة العربيّة جيّدا يستمعون سرّا للجنرال «فايز الدّويري»، في تحليلاته العسكريّة على قناة «الجزيرة»، بعدما فقدوا الثّقة في كلّ قياداتنا، في كلامهم الذي لا يُغني ولا يُسمن من جوع، حتّى أنّ أحدهم قال لي مرّة حين قُتل «أيمن زعرب»، وهو قيادي في الكتائب المسؤولة عن الدّفاع عن «رفح»، يوم الخامس من ماي الماضي:

– هناك ألف «أيمن» آخر سيظهر، إنّهم يتعبون أنفسهم ويتعبوننا معهم، لا مفرّ من إجراء صفقة تبادل لينتهي الأمر على خير، ماذا يعني تولّي قائد جديد لجهاز الإستخبارات العسكريّة؟، ذهب كلب وجاء كلب آخر، كلّ الكلاب تجيد لغة النّباح، أين الجديد في هذا؟، ستبقى «القسّام» تقصفنا من «غزّة» ومن جنوب «لبنان»، وربما من كلّ دول النّطاق مستقبلا، من يدرِ ما الذي يمكن أن يحدث بعد شهر أو شهرين من الآن؟.

حين يصل الوضع في أرض اللّبن والعسل إلى دفع تعويضات ماليّة لعائلات الجنود القتلى مقابل التّكتّم عن مقتل عزيز لهم؛ فإنّ ذلك لا يعدّ تستّراً على ما من شأنه خفض الرّوح المعنويّة للجنود، بل استهتاراً بحياة من وثقوا في «تلّ أبيب»، وقدّموا أغلى ما يملكون للدّفاع عن بيت، كلّ من فيه هم في الأصل عناكب، وهل يستطيع العنكبوت الدّفاع عن شيء في بيته؟.

لقد فهم كبار الضّبّاط ما يدور هنا، لهذا سارعوا منذ إعلان الحرب في أكتوبر الماضي لإنقاذ أبنائهم من الجيش الذي لا يُهزم، دفعوا رشاوى ضخمة وتبادلوا خدمات مشبوهة، لقد مارسوا حقّهم الطّبيعيّ والمنطقيّ في رفض أن يموت أبناؤهم لأجل لا شيء، بملفّات طبيّة مزيّفة، كافية لإنقاذ أرواحهم من المثلّث الأحمر، في حين يتمّ استدراج جنود مرتزقة من أمريكا الجنوبيّة، و«أوروبّا»، ومن الدّول المعدمة، مقابل أموال طائلة، ووعود بالجنسيّة، في برنامج وقح لوزارة الدّفاع أسموه «الجنديّ الوحيد».

كان الأجدر بهم أن يسمّوه «الكلب المتشرّد».

هؤلاء المغرّر بهم لا يُحسبون ضمن القتلى، ولا يتحدّث أحد عنهم إطلاقا، وليست لهم عائلات هنا لتغلق الطّرق وتشتبك مع الشّرطة، وتوثّق فيديوهات تحمّلها على وسائل التّواصل الإجتماعيّ.

هنا إسرائيل، هنا الورم السّرطانيّ المزروع بين الدّول العربيّة.

(24)

نهضت صباحاً متهلّل الوجه تغمرني سعادة عارمة، فاليوم هو موعد قدوم «دينا» من «أمريكا»، بعد تأخّرها ثلاثة أيّام بسبب بعض الإنشغالات، في زيارة تعزية وتفقّد لا تتجاوز ثمانٍ وأربعين ساعة.

كنت متعجّبا من إصرارها على القدوم في هذا الوقت الحسّاس من السّنة، فترة الإختبارات الحاسمة، وليس سهلا أن تغيب عن فصلك هكذا دون سبب وجيه.

قلت ذلك في نفسي وأنا أفتّش في جيوبي، لتلمس أصابعي الورقة التي أعطانيها الضّابط، موضوعة في جيبي الأعلى الأيمن الذي لم أجدها فيه المرّة الماضية حين كنت أبحث عنها.

كمن يبحث عن مفتاح كنز قرأتها بشغف، كنت أحسّ أنّ فيها شيئا هامّا لم يشأ الضّابط إخباري به أمام الآخرين، ثمّ... تبّا لي، لقد كانت إجازة سبعة أيّام لظرف عائليّ طارئ، تمثّل في وفاة أحد الأصول، واليوم هو اليوم الأخير، وأنا الذي من شدّة اضطرابي اعتقدت أنّه شيء يتعلّق بصديقي «دافيد»، أو بالسيّدة «ليزا».

بدأت تنتابني حالات نسيان وشرود منذ وفاة أمّي، لقد أصبح منزلنا يضيق باستمرار، ووجدت نفسي وحيداً فيه، بعدما كنّا أربعتنا في خفّة الفراشة نملؤه نشاطاً وحيويّة، فأخي الكبير الملازم في سلاح الهندسة القتاليّة قد لقى حتفه، وأخي الآخر أسير لدى «حماس»، وبقيت أنا، تزورني خالتي وأزورها بين الفينة والأخرى، وحين أكون في الجبهة تأتي هي لتتفقّد المكان.

هناك لصوص منازل يجوبون المنطقة، يبحثون عن أيّة فرصة سطو، في ظلّ انشغال الشّرطة بالأولويّات.

لقد ذهب مجد أسرتنا منذ أن ذهبت شمسنا لتشرق في العالم الآخر.

– يجب أن نستقبلها في المطار، ستصل متعبة بعد رحلة أكثر من تسعة آلاف كيلومترا، ويجب أن تكون أنت أوّل من تراك، وأنت من تقدّم لها باقة ورد، عيب أن تغيب عن هكذا موعد، ماذا ستقول عنّا؟.

هكذا ببساطة، واجهتني خالتي عند مدخل الصّالون، دون مقدّمات، وأنا أراقب باندهاش حركة شفتيها السّريعة، وهي تتكلّم دون توقّف، دون أن تفكّر في موقفي المحرج الذي ستضعني فيه.

– يجب أن تصالحها، هذه فرصتك، أنت المخطئ، على الأقلّ دعها تتذكّرك بشوق حين تعود للجبهة بعد انقضاء إجازتك، ولا تنسَ أنّ زيارتها تدوم يومين فقط، بسبب دراستها في الجامعة، لقد ضحّت من أجلك، هذه فترة تحضير مكثّف لامتحانات نهاية السّنة، هذه تضحية، أليس كذلك؟.

هززت رأسي موافقاً لأتخلّص من كلامها الذي لا ينتهي، فأكملت:

– ستصل هذا المساء حوالي الخامسة مساء إذا لم يحدث قصف، أنت تعلم أنّ...

قاطعتها:

– «Ok»، بشرط واحد، أنا من أقود السّيّارة أثناء عودتنا، وليس...

وأشرت برأسي للعلّية.

– بالطّبع، «ديكابريو؟»، إبني حبيبي، لا تقلق لن يذهب، ربما يتعرّفون عليه هناك ويعتقلونه.

– ماذا تقولين؟، ما زال يومان على بدء سريان تاريخ استدعائه، وسينتظرونه خمسة أيّام، لماذا لا تضعيه في الخزانة؟، على الأقلّ سيكون المفتاح لديك، وستضمنين وجوده داخلها.

– أتتهكّم؟، هو ابني وأنا حرّة في المكان الذي سأخفيه فيه، أعد علاقتك مع «دينا»، وتزوّجا في هذا الأسبوع كي أرتاح منك، لن أقضي حياتي بين ذهاب وإياب، تزوّجا وانهيا المسألة، سترتاح نفسيّا حين تكون لك زوجة تنتظرك في المنزل، على الأقلّ تحضّر لك فنجان قهوتك الصّباحيّ.

في ذلك المساء، وصلنا متأخّرين بسبب عطل في السّيّارة، كنت أبدو كمن سيستقبل أحد الوزراء بباقة ورد عملاقة أحملها بين ذراعي، أصرّت خالتي على شرائها من متجر زهور قريب تعرف صاحبته.

أنتظر متلملما في ردهة المطار، متخيّلا أنّها ستصفعني حين تراني، وخالتي تقف إلى جانبي في صمت، ثمّ انطلقت تحدّثني عن فوائد الزّواج، وأنّ الرّبّ يبارك المتزوّجين وأبنائهما، وإذا وُلد لي طفل أو طفلة يجب أن أسمّيه إسما على الموضة، حتّى ظهرت «دينا» بمعطفها الأسود، وشعرها الذّهبيّ المنساب على كتفيها النّحيلين، معطف لائم قامتها المتوسّطة المشدودة.

حيّتنا من بعيد، ثمّ أقبلت بابتسامة عريضة، وبعناق حارّ، وأنا في قمّة الخجل والإحراج.

– يا لئيم، ما زلت أتذكّر فعلتك معي في المطعم، المرأة تسامح ولا تنسى.

ضحكت خالتي وهي تساعدني في دفع عربة أمتعتها للخارج، ثمّ نكزت «دينا» للجلوس بجانبي في السّيّارة، وقبعت هي في الخلف، كمن يترصّد في كمين، فنشأ في خلدي أنّ كلّ شيء كان مبرمجا من قبل:

– لو كان لكما طفل أو بنت لوضعته الآن في حجري.

نظرت لا شعوريّا تجاه «دينا»، لأجد وجهها حبّة طماطم أنضجتها شمس أغسطس المتأخّرة.

لا أعرف من أين أتت خالتي بكلّ هذه الجرأة، وسدّت جملتها سبل الكلام بيننا، رغم محاولاتها الحثيثة في الأخذ بزمام المبادرة، بينما كنت متوجّسا من أيّة قبلة تلقيها بيننا، مثلما ألقت قبلتها الأولى.

وتنفّست الصّعداء حين ركنت السيّارة أمام المترل:

– «Very good»، كلّ شيء على ما يُرام.

لكنّي وأنا أفتح الصّندوق الخلفيّ لأنزل الأمتعة؛ رمت قنبلتها الثّانية وهي تنظر لها:

– هذه المرّة سأبيت معكما، لكن في المرّة القادمة سأكون منشغلة، تزوّجا بسرعة وتدبّرا أمركما، لستما صغيرين، أنتِ طالبة في الجامعة وهو ضابط، لن أنتظركما العمر كلّه.

ثمّ تمادت أكثر:

– أعرف ابن أختي، إنّه يحبّك، وسيرعاكِ بشكل جيّد، يجب أن يذوب الجليد الذي بينكما الآن، أمامي.

لقد وضعتنا أمام الأمر الواقع، جاهلة أو متجاهلة أنّ الزّواج ليس سهلاً كما كان في زمنها، وأنّ عليّ الآن أن أدرس الموضوع جيّدا، بكافة أبعاده، ومن كلّ زواياه، وبأدقّ تفاصيله.

كادت خالتي أن ترقص فرحاً في تلك الأمسية وهي ترى المياه تعود لمجاريها، كانت تتعمّد تركنا لوحدنا كي نناقش أمورنا بأريحيّة تامّة، وتنشغل هي بتحضير القهوة والشّاي، ثمّ أصرّت من فرحتها أن تذيقها بيدها كلّ أصناف الحلوى التي صنعتها.

في تلك الأمسية تصافى قلبينا واتّفقنا على كلّ شيء، في جلسة دامت حتّى السّاعة العاشرة ليلاً بصعوبة.

في تلك الأمسية ذاب الجليد الآيديولوجيّ الذي دام سنوات.

كانت خالتي تريد أن تطيل السّهرة، غير أنّي اقترحت على الجميع الخلود للرّاحة، فهي ما زالت تعاني من آثار السّفر، وأنا على موعد عودتي للجيش، ويجب أن أنام باكراً وجيّدا، ورأيت عيناها تتلألآن إعجاباً كما كانتا تتلألآن في أوّل لقاء رسميّ لنا، لمّا أخبرتها بالخطوة التي نويت الإقدام عليها، لمغادرة إسرائيل نهائيّا.

وبدت «دينا» بديعة وهي تنظر إليّ باسمة الثّغر، جميلة كأنّها ما زالت في الخامسة عشرة من عمرها، تلك الفتاة الشّقراء التي أحببتها من أوّل نظرة، لمّا جاءت لزيارتنا ذات جمعة ربيعيّة لا يمكن نسيانها بسهولة، رفقة والديها في «تلّ أبيب»:

– الآن... أنت زوجي وحبيبي.

(25)

- لا تخشي شيئا، سأعود مثلما وعدتك.

- تذكّر، لقد أقسمت لي أنّك لن تقتل أحدا.

كان هذا آخر حوار مقتضب جمعنا عند مدخل المترل قبل مغادرتي عائداً للجيش.

في ذلك الصّباح الذي أشرقت شمسه باكراً فتفائلت، غير أنّه سرعان ما أصابني غمّ شديد، تذكّرت أنّه قد تلقّينا أمراً في السّادس عشر من ماي الماضي بالدّخول إلى «رفح»، لنلتحق بلواء «جفعاتي»، واللّواء 401 المدرّع، بعدما كنّا في «خان يونس».

كان الضّابط الذي اتّصلت به خالتي ومنحني إجازة «الشفعاه» هو أوّل من التقيت به عند رجوعي للخدمة، بدا مهموماً ويائساً من كثرة الإصابات الموجعة التي تلقّاها لواؤنا، لواء «عوز 89»، بوحداته الثّلاث، «إيغوز» و«ماجلان» و«دوفدوفان»، منذ السّابع من أكتوبر، إذ تمّ إحضار ثلاث من مقاتليه لخيمة الإسعاف الخاصّة باللّواء 401 اضطرارا، أمام تزايد الضّغوط على الجنود، الذين وجدوا صعوبة بالغة في سحب جثث زملائهم القتلى، رغم أنّهم من قوّات النّخبة، ويتلقون تدريبات عالية المستوى، أكثر من باقي الألوية الأخرى.

كان الضّابط خائفا من توثيق العمليّات ونشرها على وسائل التّواصل الإجتماعيّ، ممّا يزيد من معاناة أسر الجنود بشكل عامّ، ولا سيما إذا بثته قناة «الجزيرة»، التي تتابعها خالتي وآلاف الإسرائيليّين، كما منعت القيادة جميع الهواتف الذّكيّة، كي لا يوثّق أيّ أحد أيّ شيء يتيح للطّرف الآخر الإطّلاع على معلومات حسّاسة، أو توثيق إصابات رفقائهم.

عكس «ريتانا»، التي نجحت في الإحتفاظ بهاتفها، وتصوير ما استطاعت تصويره من آلام، إذ كلّما استقبلت الجرحى، كلّما زاد حقدها على الفلسطينيّين.

بيدين ملطّختين بالدّماء، ووجه مضطرب انكبّت تقدّم إسعافاً أوّليّا لأحدهم، الذي كان جرح بطنه يترف بشدّة:

- ضع يدك هنا.

صرخت بي في عصبيّة.

كان الجنديّ يرتجف بعد إصابته بطلقة في الصّدر، وشظيّة قنبلة في البطن، وثانية ما زالت لم تنزع من فخذه، وضعت يدي ضاغطا، وحاولت «ريتانا» إنقاذه، رغم ما خسره من دماء، رأيتها تنظف جرحه وحبّات عرق ناصعة تتناثر على جبهتها، دون أن تنظر لوجهه الذي كان يفقد لونه مع مرور الثّواني، ثمّ ارتخى جسده منتقلاً في صمت للعالم الآخر.

– إنتهى الأمر «ريتانا»، لا تتعبي نفسك.

رفعت رأسها لترى وجهه، واغرورقت عيناها بالدّموع، ثمّ بصقت على الأرض ثائرة:

– إلى متى هذا العناء؟، هذا الجندي التّاسع الذي يموت بين يدي، تبّا لهذه الحرب، تبّا لك يا «سنوار»، تبّا لكم أيّها المخرّبون، تبّا لإسرائيل، تبّا لهم جميعا، كم أكرههم... كم أكرههم.

وانخرطت في بكاء شديد وهي تضع يديها المضرّجتين بالدّم على وجهها، غير عابئة بما حولها، وسط صراخ أحدهم الذي كانت قصبة ساقه اليسرى متشظّية بادية للعيان، إثر إصابته بقذيفة «ياسين».

وارتجفت يدي وهي تمسك بالسّلاح، متذكّرا قسمي، ووعدي الذي قطعته لزوجتي «دينا»، لن أقتل أيّ فلسطينيّ، سأتظاهر بالقتال كي أتجنّب المشاكل، منفّذا خطّتي التي أوحي لي بها المدلّل «دييغو»، في الوقت المناسب.

لم ينقطع بكاء «ريتانا» في هذه الأثناء، بل جثت على الأرض، منهارة تماما وهي تسبّ وتشتمّ، إقتربت منها كي أساعدها على النّهوض، فتخلّصت من يدي في حركة عنيفة، ونظرت لي متفرّسة:

– عدني أن تنتقم لكلّ الذين قُتلوا.

كان الشّرر يتطاير من عينيها، أمام دهشتي من الموقف الذي وجدت نفسي أمامه في أقلّ من خمس ثوانٍ:

– عدني الآن، أنا أختك، أليس كذلك؟... عدني الآن.

ونهضت في قوّة غريبة وهي تمسك بسترتي المضادّة للرّصاص:

– سنحاربهم وسنحارب «حزب الله» في «لبنان»، وسنتوسّع كما توسّعنا في 82، سنذبحهم ذبح الخرفان مثلما ذبحنا ألف شخص في «صبرا وشتيلا»، أليس كذلك؟، وسننشئ دولتنا، من النّهر إلى النّهر، من النّهر إلى النّهر، صحيح؟، صحيح؟، عدني ألاّ تموت قبل أن تساهم في هذا المشروع، عدني الآن.

إنعقد لساني وزاد الموقف توتّرا، حتّى جاءني أحد الجنود يطلبني لاجتماع عاجل للضبّاط، وما زالت متشبّثة بي، تطلب منّي وعداً، وسرت مع الجنديّ بعدما تخلّصت من أصابعها العنيدة، وأنا ما زلت أسمع توسّلاتها ونحيبها ورائي.

في الإجتماع؛ وجدت الرّائد يغلي من الغضب، خاصّة وأنّه تلقّى توبيخا رسميّا من القيادة، بعد إخفاقاته المتكرّرة في الوصول إلى «السّنوار»، مثلما يريد «نتنياهو» الوصول إلى شيء يبقيه على رأس الحكومة، بعد انهيار علاقاته مع بعض الوزراء وقادة الجيش.

– أقتلوا الصّحفيّين والمسعفين، أرسلوا كلّ من تجدوه أمامكم للدّار الآخرة، لا تخشوا شيئا، سنحميكم من المحاكمات، يجب أن نقضي على «رفح» في أقرب وقت، كي نتفرّغ للجبهة الشّماليّة، ليس لدينا وقت نضيعه، أريد شيئا ملموسا، إنتهى الإجتماع.

كنت أريد طرح مشكلة غياب استراتيجيا واضحة لتوسعة العمليّات، أخبرني أصدقائي وجنودي أنّهم عانوا الأمرّين في غيابي، ليست لديهم حتّى الذخيرة الكافية للبنادق، ممّا أجبرهم على اختيار وضعيّة الطّلقة بدل وضعيّة الرّشّاش، الشّيء الذي قلّص من قوّة نيرانهم، وأدّى لإصابة العديد منهم، كما أطلعوني على الحادثة التي وقعت قبل يومين، حيث طرد أحد الضبّاط جنديّا من «السّفرديم» وآخر من «الفلاشا»، خارج المدرّعة لمّا أتاهم الأمر بالإخلاء، وتركهم يلقون حتفهم في انفجار لغم أرضي، بل لم يتوقّف حتّى لجمع الأشلاء التي تناثرت هنا وهناك، وهذا ما جعل الجنود ينتفضون، ورفض أربعة منهم العودة مجدّدا للقتال.

والبارحة فقط حيث فرض أحد «الأشكيناز» عبر اللاّسلكي المبيت على مجموعة من الجنود وضابط في شقّة، رغم رصد عناصر من «القسّام» حولهم، واليوم تأكّد أنّها كانت خطّة لاصطياد مقاتلي المقاومة، بوضع طعم بشريّ من جنودنا لهم، حتّى إذا اشتبكوا معهم؛ يتمّ قصف الجميع دون استثناء.

هل إلى هذا المستوى وصل الجيش الذي لا يُهزم؟.

هنا إسرائيل، هنا البنت غير الشّرعيّة التي يريدون إقناع النّاس ببرائتها الطّفوليّة.

في السّادس والعشرين ماي 2024، أعلن المتحدث العسكريّ باسم «كتائب القسّام» أنّه تمّ اختطاف جنود إسرائيليّين.

المضحك في المسألة أنّ المختطفين هم من قوّة النّجدة المرسلة لإنقاذ جنود وقعوا في كمين، والمضحك أكثر من هذا؛ أنّ الحكومة تكذّب الخبر، ولولا الفيديو الذي نُشر لما كُشفت الفضيحة.

لقد عاد إلينا هاجس الإختطاف من جديد، حتّى أصبحنا لا ننام ليلا؛ ما يدرينا؟؛ ربما تكون الأنفاق ممتدّة الآن تحتنا، تحت أرجلنا، تحت مقاعدنا، تحت أسرّتنا، ماذا سيكون وضعي أمام خالتي وأمام «دينا»؟، وأنا الذي أحضّر للعرس، تاركا هذا المستنقع للضّفادع القذرة القابعة في «تلّ أبيب».

في تلك اللّيلة أمرنا الرّائد بالتوغّل في «رفح»، في مهمّة مستحيلة التّنفيذ، عنوانها «السّنوار»، الذي يختبئ في شبكة من الأنفاق، متّخذا من أسرانا دروعا بشريّة، وهذه المرّة كان يثور في وجوهنا أكثر من المرّة السّابقة، بسبب قصف «القسّام» مدينة «تلّ أبيب» من «رفح»، من منطقة تبعد عن تمركز قوّاتنا ثمانمائة متر فقط، الشّيء الذي اعتبره إهانة له، شخصيّا، ويجب ردّ الإعتبار لشخصه الكريم، طبعا ولجيش إسرائيل الذي لا يُهزم.

بعد الإجتماع، وجدت «ريتانا» واقفة تنتظرني على بعد أمتار:

- لا تراوغ.

حذّرتني بنظراتها المريعة أكثر من جملتها، ثمّ أكملت بعد أن صمتت لبرهة تستكشف ردّ فعلي:

- لماذا لم تعدني بالإنتقام؟، هل أفهم أنّك خنت إسرائيل؟، خنت إسرائيل؟، أنت صهيونيّ وستموت صهيونيّا.

كرّرت جملتها الأخيرة بصوت عال حادّ، ممّا لفت أنظار بعض الضبّاط والجنود الذين كانوا بالقرب منّا.

- نحن جنود «ريتانا»، مهنتنا القتل، فلمَ أعدكِ بشيء من عادتنا جميعا ممارسته؟، لقد أمرونا بالبحث عن «السّنوار»، الآن فقط في الإجتماع، وسنغادر بعد قليل.

بهذه العبارة حاولت التهرّب منها، التخلّص من إلحاحها، كانت عيناها الخضراوتان حريصتان على سبر أغواري، مثل مسبار فضائيّ يرصد كلّ شيء في «المرّيخ»، كحرص الرّائد على قتل «السّنوار».

لقد زاد حقد هذه المراهقة على الفلسطينيّين، لمّا صادقت منذ أسبوع «سارة»، مجنّدة وصلت حديثا، هي أخت أحد الجنود من وحدة عسكريّة تسمّى «القوّة 100»، المسؤولة عن حراسة معتقل «سدي تيمان» في «النّقب»، قُتل أباها في هجوم السّابع من أكتوبر، فزُرع فيها كلّ غلّ وتجسّد، ووجد أخوها ضالّته في تصنيفهم الرّسميّ الذي يشبه مشجب معاداة السّامية، «مقاتلين غير شرعيّين»؛ أي لا توجد قواعد وحدود حمراء للإستجوابات، كأنّ هؤلاء هم قتلة أبيه.

في هذا المعتقل، يُترك بعض الأسرى مقيّدين، في وضعيّة تسبّب ضغطاً شديداً على العمود الفقريّ، بأعين لا تنزع عنها العصابة أبدا، وإذا تحدّث أحدهم مع أيّ أحد أمامه يُضرب بقسوة لا مثيل لها، مع الحرص على إبقاء البعض الآخر في أقفاص حديديّة، يواجهون الجوع والعطش لأيّام، كما يُجبر آخرون على الوقوف لساعات طوال، يتناوب على حراستهم جنود مدجّجون بالهراوات، ومرفقين بالكلاب الشّرسة، وآخرون يتمّ حشرهم في أماكن ضيّقة جدّا، وفي أوضاع مرهقة للأعصاب، وهناك من تقطع أطرافه عمدا، حين تبرد، لانحسار الدّورة الدّمويّة فيها، بسبب التّقييد بالأربطة البلاستيكيّة، مع حالات الصّعق بالكهرباء، والإيهام بالغرق، والحرمان من النّوم، والكي بالنّار، والتّبريد الشّديد، حسب نقطة ضعف الأسير.

أمّا استخدام دورة المياه؛ فيكون لدقيقة واحدة فقط يوميّا، والإستحمام لدقيقة واحدة أيضا في الأسبوع.

أيّة إنسانيّة هذه التي نتشدّق بها، وهذا المعتقل هو في الأصل «أوشفيتز» آخر بنكهة إسرائيليّة، في منطقة قفر، معزولة هناك في الصّحراء، يستحيل الهرب منه، بعيد عن «غزّة» بحوالي ثلاثين كيلومترا، ومحروس جيّدا بعشرات الدّبّابات، وحتّى بالجنود المنتشرين بين كثبان الرّمال، خوفا من تكرار سيناريو الهجوم السّابق، وإذا خشينا أن يصل العالم إليهم، وزّعنا هؤلاء المساكين على بعض السّجون لتشتيت الإنتباه، فيصعب الوصول إلى أيّ أحد منهم لتوثيق شهادته، ضدّ الجيش الذي لا يُهزم.

- ما بك؟، لقد تغيّرت، لم تعد مثلما عرفتك؟، هل هناك شيء؟.

- أفكّر في «السّنوار»، لا تقنعني فكرة احتبائه في الأنفاق، هل يُعقل أنّ قياديّا مثله لا يخرج من تحت الأرض؟.

- ستذهب بعد قليل وتقتله لأجلي، أليس كذلك؟.

- إذا تعفّنت الجذور، فكيف للشّجرة أن تثمر «ريتانا»؟.

وما زالت تنظر في وجهي متفرّسة، تحاول فكّ اللّغز.

لقد ألقيت لها خيط حقيقة، خيط أمل، بوصلة ترشدها للنّجاة، لعلّها تتمسّك به يوما ما.

ثمّ غيّرت الموضوع لأصرفها عن التّفكير الزّائد، فانفرجت أسارير وجهها شيئا فشيئا، وهي تحكي عن محقّق قتاليّ من وحدتي، لم تشأ إخباري باسمه، قالت إنّه مشروع جادّ، وتذكّرت «دافيد» الذي كانت أمّه تحضّر لزفافه.

كم من مشاريع زواج هنا في إسرائيل باءت جميعها بالفشل؟.

- إذا لم توضع عليّ إشارة المثلّث الأحمر.

قالتها وقد نزل عليها إحباط صاعق، كأنّها تذكّرت شيئا من الماضي، قلب مزاجها رأسا على عقب.

- لا تقولي هذا ثانية؛ أنتِ تستعدّين لبناء أسرة؛ أنتِ هي الحياة يا «ريتانا»، أنتِ هي إسرائيل.

قلتها، وأعلم جيّدا أنّي أكذب، لكن ما باليد حيلة، نحن نعيش مسلسلا طويلا بُني على الكذب، بدأ منذ عام 1948، ولا أحد يعرف متى ستُبثّ حلقته الأخيرة، نكذب ونكذب ليستمرّ عرض المسلسل.

ولإرضاء غرور أختي الصّغيرة.

(26)

وأُجّل أمر التوّغل لمدّة عشر ساعات.

في صباح اليوم الموالي، سمعت ضابطين يتحدّثان عن قصف وشيك لخيام النّازحين في «رفح»، قال أحدهما -وهو ملازم من اللّواء 401 مدرّعات- لرفيقه، إنّ هذه الضّربات مفيدة لنا، كي ننتقم من الشّعب الفلسطينيّ، ثمّ نأتي بأيّة ذريعة:

- يجب أن نتركهم مرتبكين دائما، وخائفين من المستقبل، كي يتركوا لنا الأرض.

في حين اعتبر الثّاني -وهو نقيب في لواء «جفعاتي»-، أنّ هذا كلّه غير كافٍ بتاتا، بل يجب قصف مراكز اللاّجئين، التي أقنعناهم أنّها آمنة؛ ثمّ نقول للعالم أنّنا رصدنا مخرّبي «حماس» بينهم، وسيصدّقوننا لا محالة، لأنّه سبب وجيه جدّا للتّدخّل الجراحيّ.

وانطلقت ضحكاتهما تمزّق أنسام الصّباح.

أيقنت الآن سبب ترصّد «ميري سيناي» بمراسلي قناة «الجزيرة»، وسبب تلقّينا أمراً مباشراً صريحا من الرّائد بقتلهم.

أنقاض في أنقاض، هذا ما وجدته في «رفح».

أو قل -إن شئت الدّقّة- هذا ما أوجدناه نحن في «رفح».

وهنا يختبئ «السّنوار».

في الواقع لا أحد رآه، إنّما هي فرضيّات تضعها الإستخبارات، بناء على معلومات من وحدات الإستطلاع التي لا ترى شيئا، أو بالأحرى تتوهّم كلّ شيء.

كنت أسير رفقة مجموعة مؤلّفة من خمسة جنود تحت إمرتي، متوغّلين في أحد الشّوارع، تتقدّمنا ثلاث دبّابات «ميركافا 4»، وأنا أدعو الرّبّ ألاّ أضطرّ لمواجهة «كتائب القسّام».

سرنا نحو مائة متر، ثمّ أخبرونا باللاّسلكي أنّ هناك مجموعة من الجنود تسير في اتّجاهنا في الشّارع المتفرّع على اليمين، وسرعان ما انضمّ لنا ضابط يعلوني رتبة، رفقة عشر جنود، منهم ملازمان، كان برفقتهم أسيران

يسيران حافيي القدمين من أهالي المنطقة، أحدهما «سليمان» في الثّلاثينيّات من العمر، قصير القامة، ممتلئ الجسم، أشيب الشّعر، يرتدي سروالاً أسود بالياً زاده الغبار سوءا، مع قميص رماديّ اللّون.

والثّاني «لؤي»، معصوب العينين، شابّ لم يتجاوز الثّلاث والعشرين سنة من عمره، رفيع الجسم أصلبه، متوسّط الطّول.

كان الأسيران درعين بشريّين، حتّى نمنع فصائل المقاومة من إطلاق النّار علينا، سواء بالأسلحة الرشّاشة أو بقذائف «الياسين» المضادّة للدّروع، أو بتشغيل كمائن القنابل الرّعديّة والقفّازة، خاصّة بعد الأثر الكبير الذي تركته عمليّة السّبت الثّامن عشر من ماي المنصرم، حيث تمّ القضاء على خمسة عشر جنديّا، دفعة واحدة بعبوة رعديّة، كانوا متحصّنين في أحد المنازل في حيّ «التنّور»، والإجهاز على من تبقّى منهم بالرّشاشات والقنابل اليدويّة.

فجأة، سمعنا انفجاراً قويّا أمامنا ارتجّت الأرض منه، على بعد خمسمائة متر، كان كميناً وقعت فيه دبّابتين، تمزّقت إحداها بعبوة «شواظ»، ما أدّى إلى مقتل جميع طاقمها، كما قتلت أحد المشاة المرافقين، وجرحت تسعة آخرين.

نظر النّقيب إلى الأسير الثّلاثينيّ صارخا بالعربيّة:

– أين؟، أين؟.

– لا أعرف، أخبرتكم أنّي خرجت للبحث عن طعام لأسرتي، وتركت طفلتي الصّغيرة تحتضن دميتها باكية من الجوع.

ضاع تركيزي على ما يحيط بي وأنا أفكّر في إيجاد وقت مناسب لتنفيذ خطّتي، لم أنتبه إلاّ حين رأيت رأسه ينفجر بطلقة مسدّس أطلقها عليه النّقيب، وضاعت قيمنا الإنسانيّة حين تركناه هناك مكملين سيرنا بين الأنقاض، وكأنّ شيئا لم يكن.

كان الصّمت الحذر يغرق المكان، وكلّما زادت مسافة سيرنا زاد الصّمت، إلاّ من وشوشات اللاّسلكي، ومواء بعيد للقطط، ورائحة الجثث المتعفّنة مقرونة برائحة قنوات الصّرف الصّحيّ.

هنا الدّمار هو كلّ المشهد.

في أحد الشّوارع الجانبيّة، بعيدا عن النّاصية بأقلّ من عشرين مترا، يتسلّل لآذاننا بكاء طفلة صغيرة، أرهفت سمعي لأتأكّد، فأيقنت أنّها ابنة الأسير المقتول، الأسير الذي خرج للبحث عن طعام لزوجته وطفلته، وقتله الجيش الإسرائيليّ الذي لا يُهزم.

كانت مسيّرة إستطلاعيّة من نوع «كوادكوبتر» تمشّط المنطقة فوقنا، يتحكّم بها جنديّ إلى جانبي، نظر إلى شاشته ثمّ أشار للنّقيب أن لا شيء حولها يستدعي القلق، ونظرت نحو صوت البكاء الذي كان يقترب شيئا فشيئا، ورأيت المشهد المحزن.

أمّها جثّة هامدة، تجلس متّكئة على حائط منزل على الجهة اليسرى للشّارع، وقد أسال جرح غائر في رقبتها كلّ دمها، بعينين مفتوحتين نحو السّماء، تريد أن تتحدّى الموت الذي سيبعدها عن فلذة كبدها، تلك الطّفلة التي لم تتجاوز الثّلاثة أعوام، تجلس أمامها باكية تعانق دميتها في وسط الشّارع تماما، لا تدري ما العمل.

كم كان الموقف حرجا وحسّاسا، وأنا عاجز عن أيّ تصرّف في وجود من يعلوني رتبة، كم تمّنيت لحظتها أن تطلق رصاصة قنّاص على هذا القذر لأتخلّص من وجوده، فأحتضن الطّفلة البريئة التي تسبّب جيش إسرائيل الذي لا يُهزم في يتمها، كم تمّنيت أن يظهر مقاتل من «كتائب القسّام»، على الأقلّ كي يراها، كي لا يتركوها هنا عرضة للكلاب الضالّة، كم تمّنيت وتمّنيت وتمّنيت.

تبّا لهذا النّقيب، وتبّا للحرب التي تلتهم الضّعفاء.

لم يهتمّ ذو الوجه العابس لبكائها، بل انتزع دميتها وألقاها في نار متأجّجة على مرمى حجر منّا، وأوعز لنا بمتابعة السّير، ثمّ أشار لي بأخذ خمس جنود والأسير المعصوب العينين؛ والتوغّل نحو أحد الأبنية التي اشتبه أنّ فيها نفقاً خرج منه من نفّذ الكمين، بينما بقي المتحكّم في المسيّرة معه، وهنا عزمت على تنفيذ خطّتي، لأترك هذا المستنقع نهائيّا لضفادع «تلّ أبيب».

كلّ أصدقائي يموتون أمام الأنظار في شمال «غزّة» وجنوبها؛ «إلياهو أمسالام»؛ «إسرائيل يودكين»، «شاشوع»؛ «كوهين نفتالي»؛ «سحر سوداي»، وغيرهم الكثير والكثير، وحتّى رموز اللّواء 401 المدرّع لم يسلموا من القتل، مثل «سيباستيان أيون» قائد العمليّات، «يائير زلوف»؛ «نيريا زيسك»؛ «دافيد شكوري»؛ «يتسحاق بلانكو».

هل أنتظر حتّى تقتلني «كتائب القسّام» ثمّ يبثّون صوري يزيّنها مثلّث أحمر؟.

أم أنتظر أن أُختطف، فألحق بأخي الذي لا أحد يعلم مصيره إلى حدّ الآن؟.

ما دمت هنا في أرضهم، فأنا شخص غير مرحّب به، لأنّي صهيونيّ.

سأطلق النّار على نفسي، ثمّ سأتظاهر بالإصابة بحالة ما بعد الصّدمة، وتحت ضغط الجرحى وامتلاء المستشفيات؛ سيسرّحونني من الجيش، لا محالة.

هذا ما أوحى لي به ابن خالتي «دييغو»، ولن يشكّ أحد في الموضوع، لأنّنا في معركة؛ ومن لديه الوقت حتّى ليطرح التّساؤل؟.

قد تبدو هذه الفكرة مجنونة، لكن لا مناص من ذلك، لقد وصلت لمرحلة متقدّمة من اليأس، عزمت فيها على اتّخاذ خطوة للأمام، لا رجعة فيها على الإطلاق.

هناك فرق شاسع بين ما يشاهد في الأفلام والواقع، فخطر الأعيرة الناريّة خطران، خطر الزّخم الحركيّ للرّصاصة، ثمّ يأتي بعدها مسارها، فهي جسم معدني قاتل إذا أصاب منطقة حسّاسة، إذ يكفي أن تعلم أنّ سرعتها الإبتدائيّة تصل إلى أكثر من ألف كيلومتر في السّاعة، إذا انطلقت من مسدّس من عيار تسعة

ميليمترات، ثمّ تتناقص تدريجيّا تحت مقاومة الهواء، كلّما ابتعدت عن الفوهة، هذا الإنطلاق السّريع سيجعل الجسم يمتصّ قدراً هائلاً من زخم حركتها، وهو ما سيدمّر الأنسجة بتوسعتها المفاجئة.

بقيت الآن نقطة تحديد الموضع الذي يجب إصابته بالضّبط، بحيث لا يشكّل أيّ خطر عليّ.

من السّلامة هنا أن أصيب العضلة فقط دون أن أترك العيار الناريّ يستقرّ فيها، مبتعداً قدر المستطاع عن الشّريان الرّئيس وفروعه، كي لا يحدث نزيف، واخترت عضلة الفخذ، لأنّها أسهل من عضلة الذّراع، وإصابتها يعني أنّك لن تستطيع المشي، ممّا سيرغمهم على نقلك بعيداً عن أرض القتال.

نزعت العصابة عن عيني الأسير، الذي نظر إليّ ببرود وسار أمامنا شامخ الرّأس، كنت خلفه بعد جنديّين، ولأنفّذ خطّتي، يتوجّب عليّ صرف الجنود الخمسة بأيّة طريقة، ولا يهمّ إن رآني هو، فلن يسألوه على أيّة حال.

كان المبنى الذي أُمرت بتفتيشه عمارة أغلبها منهار، فأمَرت ثلاثة منهم بالتوغّل في الطّابق الأوّل، الذي كان يبدو سليما نوعا ما، مباشرة قبل أن أنفرد مع من معي بالطّابق الأرضيّ، الذي شككت في وجود نفق فيه، كنت أدعو الرّبّ دائما ألاّ يخرج منها أحد فيضعني أمام موقف صعب، كنّا جميعا في حالة توتّر شديدة، ننظر لبعضنا خائفين، إلاّ صاحب الأرض الذي بدا سيّد اللّحظة والمكان.

أشرت للجنديين بالتّقدّم لمحاصرة عين النّفق من اليمين والشّمال، خطوة غير منطقيّة، لكن يجب فعلها لجعلهم يضعون كلّ تركيزهم هناك، فأوجد الفرصة المناسبة لتنفيذ خطّتي، ولما تقدّم أحد الجنديّين واضعاً الأسير درعا بشريّا أمامه، إنسللت للخلف في هدوء مخرجا مسدّسي الشّخصيّ.

لحظات فقط تفصلني الآن عن نهاية المسلسل.

فجأة طلب النّقيب معلومات عبر اللاّسلكي الذي كان معي، ممّا شوّش عليّ الموقف، فاضطررت لإطلاق النّار تجاه النّفق بمسدّسي، مع علمي أن لا أحد فيه، بل قد يكون مفخّخا، وبحركة آلية، شرع الجنديّان في إطلاق النّار عشوائيّا نحوه، دون أن يلتفتا لي، والأسير واقف لا يتزعزع، كانت رسالة واضحة للنّقيب، وهنا صدمت الحائط برأسي، في محاولة للتّخلص من الكاميرا المثبّتة فوق الخوذة، وأمسكت بالعضلة الخارجيّة لفخذي الأيسر بسرعة قبل أن ينتبه أيّ أحد، وأطلقت النّار عليها محاولاً تجنّب الشّرايين، فأحدثت رجّة في رجلي كلّها، مع ثقب سال منه دم أحسست به ينساب إلى أسفل، وصحت من شدّة الألم، الذي كان يشبه حرقا داخليّا، وحرارة تتصاعد عبر كلّ خليّة.

أقبل نحوي أحد الجنود لتقديم الإسعافات الأوّليّة، بينما واصل الثّاني إطلاق النّار نحو النّفق، وجاء الثّلاثة الآخرون للإسناد.

لقد نجحت خطّتي، ثمّ توقّف الجميع حين لم يجدوا ردّا ناريّا، وتكلّم الجنديّ الأوّل عبر اللاّسلكي، لينقلوني للمستشفى عبر مروحيّة على وجه السّرعة، لكن جاءه الرّدّ أنّ المكان الذي نتواجد فيه خطير، ويجب إخراجي منه بواسطة «ميركافا».

عائق لم أضعه في الحسبان، ولا أدري كيف سهوت عن ذلك رغم حرصي الشّديد على دراسة كافّة المعوقات، فقد تطلق علينا «كتائب القسّام» قذيفة «ياسين 105»، كالتي أطلقوها على دبّابة «دافيد»، ونهلك جميعاً، بعد أن يضعوا مثلّثا أحمر علينا، لنشكّل مادّة إعلاميّة دسمة.

بدأ الألم يخفّ تدريجيّا بعد إسعافي، وزال الطّنين الذي كان في أذني، تاركا مكانه لبعض الدّوار المصحوب بالغثيان، ثمّ بدأ الظّلام ينتشر حولي.

لا أعرف بعدها ما الذي حدث بالضّبط، ولا كيف وجدت نفسي في المستشفى.

(27)

– ما الذي حدث معكم؟.

قالها بمكر جاذبا كرسيّا خشبيّا جلس عليه متأفّفا أمام سريري.

– آسف، لم أعرّفك على نفسي، أنا الملازم «سوسنوف» من جهاز «أمان»، نهضت صباحاً أبحث عن صديق أتحدّث معه، فتذكّرتك، خدمت معي سابقا في «تلّ هاشومير»، لا تتذكّر؟، طبعا هذه أعوام مرّت، أوووف، نحن نكبر بسرعة، آه يا زمن.

شخُص بصري من وقاحته، فأنا لا أعرف صديقا بهذا الإسم، ثمّ أضاف:

– إسمع... لا شيء رسميّ، حتّى أنّه يمكنك مناداتي «ميمي بايولا»، نحن في نفس العمر تقريبا، كما تلاحظ؛ ليس لديّ قلم أو أوراق، نحن هنا لندردش، ندردش فقط، أنظر حولك نحن وحدنا.

كانت الغرفة التي أرقد فيها خالية من الجنود على غير المعتاد، أرادوا أن يوحوا لي أنّ إصاباتنا قليلة جدّا، بدليل أنّهم يخصّصون لكلّ مصاب غرفة مستقلّة.

– كيف أصبت؟، هل كان «السّنوار» هو من أطلق عليك النّار؟، نحن نعرف أنّه هناك في «رفح»، لكن لا نستطيع إمساكه.

– لقد أصابوني في رجلي حين حاصرناهم في نفق بإحدى الشّقق.

– أرأيت؟، لا شيء أجمل من الدّردشة بين الأصدقاء، أتعلم شيئا؟، مشكلة النّاس غياب جسور تواصل بينهم، وهذا الغياب يصنع التّطرّف.

ثمّ قال مشيرا إلى ذبابة حطّت على طرف الأريكة:

– أنظر، هذه الحشرة، من المفروض أن تكون معها ذبابة أخرى.

وراح يدور برأسه في أرجاء الغرفة، إلاّ أنّه عاد منتبها لملاحظته الغريبة:

– كم كانوا؟، هل كان «السّنوار» معهم؟، هل رأيته بعينيك؟، ماذا كان يرتدي؟، كيف هرب الأسير الذي كان معكم؟.

وأخبرته بكلّ شيء حدث معي بالتّفصيل، محاولا ألاّ أُحدث تناقضا أكشف من خلاله خطّتي، غير أنّه بعد ساعة ونصف بدا لي غير مقتنع، ساعة ونصف وهو يحاول جاهدا قراءة أفكاري، محلّلا ما بين السّطور:

– قال أحد الجنود أنّه لم ير أيّ شخص في النّفق، وأنّهم أطلقوا النّار اقتداء بك، ثمّ أُصبت برصاصة مجهولة المصدر، بعد اصطدامك بالحائط، ووجدنا أنّ الكاميرا المثبّتة على خوذتك مكسورة، رغم أنّها مصمّمة ضدّ الصّدمات، ألا يبدو لك هذا غريباً بعض الشّيء؟، ضع نفسك مكاني، هل هذا يقنعك؟، دعني أساعد على التّذكّر، هل ضربك الأسير مثلا؟.

– لا أعرف، قلت كلّ شيء يا سيّدي، وليس لي ما أضيفه.

– إمم... حسنا، إذا تذكّرت أيّ شيء فأنا في خدمتك، لا تنسَ إسمي، «ميمي بايولا»، رقمي في هاتفك.

ثمّ هزّ رأسه كأنّه يعرف أشياء أخفيها عنه، وغادر متمنّيا لي الشّفاء العاجل.

تحسّست فخذي، فوجدتها قد رُبطت بشاش أبيض حتّى الرّكبة، وحقنة تغذية وريديّة تلسع ظاهر يدي، ووجدت أمامي عكّازين إلى جانب كرسيّ متحرّك، وعلى يميني طاولة صغيرة عليها هاتفي الذي يبدو أنّهم عبثوا بمحتوياته، وبعض متعلّقاتي الشّخصيّة.

بعد نصف ساعة جاءت خالتي باكية تحمل باقة ورد لزيارتي، فطمأنتها أنّ كلّ شيء على ما يرام، وأنّها إصابة لا تشكّل أيّ خطر، فأنا عسكريّ ويجب أن أصاب، وضحكت متعمّدا أمامها لتطمئنّ.

كانت الغرفة التي وضعوني فيها بيضاء واسعة، يتوسّط حائطها الذي يقابلني تلفزيون متوسّط الحجم، وبجانبي أريكة سوداء اللّون لشخصين، إضافة إلى كرسي خشبيّ، وعلى يساري باب الحمّام، ورحت أتساءل في قرارتي إن كانت كلّ الغرف على هذه الشّاكلة، أم أنّهم ميّزوني عن غيري؟، فأنا ضابط من القوّات الخاصّة، لديّ الآن ما يقارب الخمس عشرة سنة في الخدمة.

ثمّ ما يعنيه هذا التّمييز، هل انطلت عليهم حيلتي أم أنّهم تفطّنوا للأمر؟.

وتذكّرت هذا الضّابط الطّويل، «ميمي بايولا»، الغريب الذي يصرّ على التّقرّب منّي، واتّخاذي صديقا، رغم أنّي لا أعرفه ولم أسمع به من قبل، ثمّ من يدريني أنّه لا يعمل مع «غارسيّا»؟، وأنّهم قد عرفوا كلّ شيء؟، وهم الآن يسعون للتخلّص منّي، كما تخلّصوا من قبل من «دافيد» و«بابلو» و«إيتان عسيفا» و«ديميتري» و«آيزنكوف»؟.

وأنا في لجج أفكاري المتناقضة، دخلت ممرّضة قالت أنّ اسمها «شاني»، لتخبرني أنّي في مستشفى «سوروكا»، ولتقدّم لي وجبة الغداء، نازعة حقنة التّغذية الوريديّة التي تورّم ظاهر يدي بسببها، كانت السّاعة

قد اقتربت من منتصف النّهار، وأمعائي تلقي لي بأوّل إنذار، لم آكل منذ يومين، تاريخ إصابتي، ثمّ اهتزّ هاتفي واشيا باتّصال من «دينا».

بعد ثمانٍ وأربعين ساعة، كان «ميمي بايولا» واقفا أمام سريري من جديد، بقامته الطّويلة، يحاول مستفزّا نزع أيّةٍ معلومة جديدة عن الحادثة، فاستمسكت بروايتي السّابقة، بكلّ تفاصيلها الدّقيقة، لكنّه عاد وطرح السّؤال ذاته:

– يقولون عنّي في الجيش أنّي غبيّ لا أفهم بسرعة، لا بأس سايرني على بساطة تفكيري، هل تصدّق أنّي إلى الآن لم أفهم كيف أصبت برصاصة من نفق لا يوجد فيه أيّ شخص؟، من أطلق عليك النّار إذن؟، هل هو الأسير الذي سرق مسدّسك وفرّ، بعدما قتل به جنديّا وأصابك أنت مع اثنين آخرين؟، أخبرني بأشياء منطقيّة وأنا مستعدّ لتصديقك يا رجل.

نظرت إليه واجما، إذن هرب الأسير بمسدّسي، كيف؟، لا أتذكّر أيّ شيء من هذه التّفاصيل.

خمّنت أن الجنديّ المقتول بلا شكّ ليس هو من كان يقدّم لي الإسعافات الأوّليّة، لأنّي تذكّرت أنّي سمعت طلقة ناريّة بعيدة عنّي بأمتار، قبل أن يغمى عليّ، ثمّ تذكّرت أنّ مسدّسي لم يكن في يدي حين بدأ الألم يشتدّ في رجلي.

– هل كنت تعرف أنّ هذا الأسير من «كتائب القسّام»؟.

أثار وصفه حسّي الأمنيّ، لماذا لا يستعمل مصطلحات تقليديّة لوصف العدوّ؟، «الإرهابيّون»، أو «المخرّبون»، أو حتّى «دواعش حماس»، هذا ما يدور في الدّوائر الرّسميّة.

– لا، مطلقا، لقد كانا أسيران، أحدهما في الثّلاثينيّات من العمر وقد قتله النّقيب مباشرة.

– جميل، وبقي الآخر، «لؤي»، كيف عرفت أنّ اسمه «لؤي»؟.

– من أحد الجنود.

– هل رأيته من قبل؟، هل لديك علاقة ما معه؟، هل هو اسمه الحقيقيّ؟.

– أبدا سيّدي، أنا لا أصادق العدوّ، فكيف أعرف اسمه الحقيقيّ من المزوّر؟.

– لا تصادق العدوّ، حسنا... دعنا من ذلك، ما رأيك في إسرائيل؟.

– إسرائيل وطني.

– لو عرضت عليك الهجرة إلى «أمريكا»، هل تذهب؟.

– مطلقا، إذا ذهبت وذهب كلّ الإسرائيليّين فمن سيقاتل المخرّبين؟.

أطلق ضحكة عالية ناظراً للسّماء، وغادر محاولا تمالك نفسه:

– تستطيع التّجوّل في الحديقة إذا أردت، لا داعي لتذكيرك أنّك هنا في المستشفى ولست في السّجن.

بعد تفكير قارب نصف ساعة، أيقنت سبب اطمئنان الأسير وهو أمام عين النّفق، كيف لا يطمئنّ وهو يقف في أرضه؟، يعرف جيّدا ما فوقها وما يوجد تحتها.

هل جرّب أحدكم شعور الوقوف أمام مقاتل من «كتائب القسّام»؟، بشحمه ولحمه، وشموخه وأنفته؟.

أو بالأحرى أنا من وقفت بين يدي السّيّد صاحب الأرض، الذي رفض أن يجهز عليّ بعد أن تفطّن لخطّتي.

(28)

مكثت في المستشفى أكثر من أسبوع، بدأت صحّتي تتحسّن فيه بشكل تدريجيّ ملحوظ، ما جعلني أخشى إعادتي للجبهة فور تماثلي للشّفاء التامّ، خاصّة وأنّ «دينا» تهاتفني من حين لآخر، مع حرصها على عدم ذكر أيّ شيء يمكن أن يكشف اللّعبة، إلاّ أني لست مطمئنّا لما يحدث في ظلّ نقص الجنود، ما ترتّب عنه تقليص الإجازات، بل وحتّى التّأخّر في تسريح المنتهية خدماتهم.

أسبوع وأكثر لم يزرني فيه أحد سوى خالتي، هل يتحفّظون عليّ هنا بدل مكان آخر؟.

كان التّلفزيون أنيسي الوحيد، ثمّ فجأة تغيّرت الممرّضة، وأتوا بمصاب آخر لغرفتي، ما ساعدني على الإرتياح قليلا، لولا زيارة «ميمي بايولا» المفاجئة ذات صباح صيفيّ:

– رائع، تبدو لي أفضل بكثير من الأسبوع الماضي.

– حمدا للرّبّ على نعمه.

– أنظر، أحضرت لك التّوراة، أعرف أنّك تعاني الوحدة، فقلت لهم أن يضعوا معك أحد المصابين.

وأخرج كيسا ورقيّا من كيس بلاستيكيّ يحمله، واضعا الكتاب المقدّس على الطّاولة، ثمّ نظر إلى المصاب الذي كان نائما:

– مسكين، أربع رصاصات أهدوها له في «رفح»، هو أفضل حالاً الآن ممّا كان عليه حين أحضروه بالهليكوبتر.

تأوّه ببطء ثمّ جلس على الأريكة:

– آآآآآآه، ربما ننقلك لأعلى حيث الشّمس، أنت الآن تحت الأرض بسبب القصف، طبعا لدينا من الأسباب التي تجعلنا حريصين على سلامتك الجسديّة والنّفسيّة الكثير.

كان يتحدّث طوال الوقت الذي جاوز السّاعة، تارة بعبارات مقتضبة، وتارة أخرى بعبارات طويلة منمّقة، تكلّم عن «السّنوار» والكتائب التي زعم أنّهم فكّكوها، والهجرة العكسيّة من إسرائيل، وأنا أصغي في سكون القنّاص، ألوذ بالصّمت مترصّدا مكره.

يريد اللّئيم سقطة منّي، كلمة أو عبارة، أو اسم أحدهم تكون دليلا ضدّي، هذا تماما ما يريده «سوسنوف».

وما زال يراوغ كالثّعلب حتّى سمعنا جلبة في الرّواق، سرعان ما توسّعت.

إعتقدت بادئ الأمر أنّه إحضار قتلى ومصابين، مثلما هي العادة هنا، وأنّ مصدر الجلبة عائلاتهم، التي لا تتقبّل مصائر أبنائها، ثمّ أتت «كارلا»، والفرحة في عينيها، قائلة لنا أنّه تمّ إنقاذ أربعة أسرى كانوا لدى «القسّام».

تفاجأت لهذا الخبر، لأنّه يحدث لأوّل مرّة، حتّى أنّي شككت في العمليّة، بينما كان «ميمي بايولا» جذلانا ينظر إليّ بنشوة النّصر المبين، كأنّه هو من حرّرهم.

وواصلت الممرّضة كلامها مع الضّابط الثّقيل الظّلّ بفرنسيّة عرجاء، غير أنّي فهمت من سياق حديثها أنّه في تمام السّاعة الحادية عشرة من صباح يوم السّبت الماضي، الثّامن جوان 2024، تنكّر بعض الجنود من وحدة «اليمّام» –وهي الشّرطة الخاصّة بمكافحة العمليّات التّخريبيّة–، في صورة نازحين يحملون أمتعة في إحدى المركبات، وبسرعة البرق اعتلوا سطح البناية، في وسط قطاع «غزّة»، مشتبكين مع «كتائب القسّام»، ثمّ بدأ قصف عنيف مساند، كاد يودّي بحياة بعض الجنود.

أسفرت هذه العمليّة التي أسموها «عمليّة أرنون» عن تحرير أربعة أسرى، من الذين اختُطفوا يوم السّابع من أكتوبر الماضي، وهم «نوعا أرغماني»؛ «ألموغ مائير»؛ «أندرييه كوزلوف»؛ «شلومي زيف»، بينما قُتل أحد ضبّاط الوحدة، «أرنون زامورا»، رغم مساعدة «الشّاباك» والفرقة 98، مع إسناد القوّات الجويّة والبحريّة، وبمساعدة إستخباراتيّة من «أمريكا» و«بريطانيا» و«كندا» من قاعدة «أوريم»، التي رصدت بصمات أصوات الأسرى منذ أيّام، جرّاء ارتكاب خطأ من طرف الحرّاس.

معنى ذلك أنّ المختطفين لم يكونوا في الأنفاق، ولولا ذلك لما التقطوا لهم أيّة إشارة، بل كادت العمليّة أن تفشل برمّتها حين تعطّلت السّيارة التي تقلّهم وسط «النّصيرات».

جوّ في غاية التّوتّر، والدّخان منتشر بكثافة، والدّمار سيّد المشهد.

قد يخرج أحدهم من أيّ نفق ويقصف السيّارة بقذيفة «ياسين»، فتمخّض الجبل ليلد فأرا.

ثمّ جاءت ممرّضة أخرى قائلة أنّه قد تمّ إحضار الأسرى إلى هنا عبر طائرة هليكوبتر، ليتلقّوا فحوصات شاملة، وراحت ترينا نشرة إحدى القنوات التّلفزيونيّة.

لم ينتظر أحد ضبّاط «الشّاباك» إجابتنا لمّا سأل عن المكان الذي يمكن أن يجد فيه «ميمي بايولا»، حتّى راح يقصّ علينا بطولاته الشّخصيّة، وأنّ اسمه سيدخل التّاريخ، باعتباره أحد المشاركين البارزين في العمليّة، التي قُتل بسببها أكثر من مائتي فلسطينيّ.

وسرعان ما انصرف الجميع حين انتهى كلّ هذيانهم.

كانت السّاعة تشير إلى السّادسة مساء:

– لا تقلقي أنا في صحّة جيّدة، لكن أعاني بعض الأعراض النّفسيّة الغريبة.

كنت أعرف أنّ «الشّاباك» يراقب جميع المكالمات، ولا سيما الواردة من الخارج، فخشيت أن أكشف ما رتّبته، لذا قرّرت أن أظهر لزوجتي سقمي النّفسيّ، ما دامت إصابة رجلي ستُشفى لا محالة، وما أمامي الآن سوى اللّعب على الجانب البسيكولوجيّ.

بعد ثلاثة أيّام تفاجأت بزيارة «ريتانا» في المستشفى لأوّل مرّة، بعد أن كانت خالتي هي من تزورني فقط، بدت في وضع نفسيّ صعب بعدما تبيّن أنّ أخاها غير الشّقيق أُصيب بجرح بليغ، إثر قصف «حزب الله» ثكنة «زرعيت» بالمدفعيّة، في التّاسع من جوان المنصرم، ونُقل على جناح السّرعة إلى مستشفى في «القدس»، بعد توصية ملحّة عليه.

– لا تقلقي، سيُشفى، ماذا عن مشروعك الآخر؟.

قلتها وأنا أبتسم محاولا جرّها لموضوع مبهج، بعيدا عن ألمها، غير أنّي ضاعفت مصابها دون قصد.

– إختفى دون أثر، فرّ من إسرائيل، بعدما استولى على كمّيّة كبيرة من الأموال والذّهب، لقد شكّل عصابة مع رفقائه، ثمّ اقتسموا كلّ ما غنموه من «غزّة» وتفرّقوا، تخلّى عنّي بكلّ سهولة كأنّي لم أكن أمثّل له شيئا، وأنا التي وثقت به وبوعوده، النّذل، جذر متعفّن.

ورنّت كلماتها الأخيرة في أذني، وأسقطت ثقتها على ثقتنا نحن من قبل في «شارون».

إنحدرت دمعتان بطيئتان على وجنتيها:

– الكاذب المخادع، وعدني بمسكن واسع في «نتساريم»، أمام الممرّ، ونحن الآن نتمركز في محور «فيلاديلفيا»، كم أنا غبيّة؛ لقد وعدني بشيء يستحيل تحقيقه.

ثمّ جلست على الأريكة مطرقة برأسها:

– لديّ خبر مؤسف لك... ولو أنّه غير مؤكّد؛ يبدو أنّ أخاك الأسير قد قُتل في عمليّة التّحرير الأخيرة.

أحسست أنّ السّماء وقعت على رأسي، بمساحتها الهائلة ووزنها الضّخم.

– حدثت بعض الأخطاء في العمليّة، والجيش يتكتّم عليها.

كنت أعرف من قبل أنّ تحرير الأسرى بالقوّة، عمل غير مجدٍ مهما زيّنوه للرّأي العامّ، ومهما وضعوا فوقه من مساحيق التّجميل.

ما معنى أن يتمّ تسخير إمكانيّات ضخمة لتحرير عدد قليل وقتل ضعفه؟.

سيستغلّ «نتنياهو» العمليّة في تعزيز مركزه، معتبراً يوم تحريرهم يوم حظّه، وليذهب الآخرون مهما كانت صفتهم إلى الجحيم.

– عالجت إصابات فظيعة لجنودنا؛ لكن الرّقابة العسكريّة تفرض قيودا صارمة، إنّها الحقيقة المرّة، لكن يجب أن تقال؛ نحن نقاتل أشباحاً من العالم الآخر لا يأبهون لشيء، لا توجد طريقة منطقيّة لإيقاف أشخاص مستعدّين للموت من أجل قضيّتهم، هل تفهم كلامي؟، بماذا نخيفهم؟، بحتفهم؟، هم يسعون خلفه بشكل لم نألفه من قبل، لذلك ننتقم منهم في ذويهم؛ كلّ مقاتل منهم في أحشاء الأرض له عائلة فوق الأرض، ونحن الآن في حاجة ماسّة للجنود، ونعاني نقصاً فظيعاً لم نصل إليه من قبل، و«الحريديم» يرفضون التّجنيد.

إلتقطت إشارتها دون أن تنتبه؛ لقد سمعت هنا أنّهم أعادوا كثيرا ممّن تعافوا من إصاباتهم، بل أعادوا بعض الذين شفوا مع إعاقة دائمة، تمجيدا للبروباغاندا «الجيش الذي لا يُهزم»:

– إذا كنتِ ساخطة على الأوضاع، فلماذا لا تهاجرين وتخفظي رأسك من هذا الصّداع؟، ما الذي يجبرك على السّباحة في الماء الآسن؟.

نظرت إليّ بغرابة، ثمّ طأطأت رأسها قليلا:

– أصارحك؟، فكّرت في «جورجيا»، لم أتّخذ قراري بعد، لكن يبدو أنّني سأصل إلى وجوب اتّخاذ قرار مهما كان صعبا، قال لي أحد الضّبّاط أنّنا حين ننتهي من «رفح»، سنحارب في الشّمال، ضدّ «حزب الله»، سنُهزم شرّ هزيمة؛ أنا متأكّدة، إنّهم يعرفون أين يضربون هذه المرّة، نحن في 2024 ولسنا في 2006، لقد أرسلوا مسيّرة للتّجسّس، طارت فوق «حيفا» ولم يكتشفها أحد، ثم عادت بصور منصّات إطلاق الصّواريخ، ومخازن الذّخيرة، والميناء، كلّ شيء، شيء فظيع سيحدث، يقولون لنا أنّنا نعلم جيّدا نقاط ضعفكم فاحذروا منّا، أيّها الرّبّ الرّحيم.

– «ريتانا» يا أختي الصّغيرة، فكّري بمنطقيّة؛ ينجح التدّمير مع أناس عاديّين أو جبناء، أناس لا يريدون ترك الدّنيا، لا يريدون الموت؛ هذا هو الجوهر ولبّ الفكرة، أمّا غير ذلك فهو عبث وخبط عشواء، لقد أنشأنا الدّولة على أرض مغتصبة من أصحابها، ونطمع أن نتوسّع أكثر، معتمدين على اغتصاب مزيد من الأرض، ثمّ نريد السّلام وحلّ الدّولتين؟، أيّ مخبول يقبل بهذا؟، ما فائدة احتلال «غزّة» ثمّ تركها بعد سنوات؟، ألم تسمعي عن الإشتباك المسلّح مع الجنود المصريّين في معبر «رفح» في السّابع والعشرين من ماي الماضي؟، لا تناقضي نفسك «ريتانا»، يجب أن تفكّري في حلّ نهائيّ، ما الذي استفادت منه صديقتك «ميشال روكوفيسين»؟، شظيّة قنبلة يدويّة كانت كافية جدّا في السّابع من أكتوبر لتشوّه وجهها الجميل وتصيبها بشلل تامّ؟، أنتِ مراهقة، ويجب أن تتحكّمي في مشاعرك، لا تسمحي لهم باقتيادكِ نحو مصير مجهول، هذه حياتكِ «ريتانا»، حياتك، هل تعين كلامي؟.

طأطأت رأسها أكثر، كالتي تخجل من شناعة عظيم اقترفته.

– صديقي «دافيد» حلم كأيّ مراهق وشابّ إسرائيليّ، لكن حين حوّل حلمه لمشروع عمل مات، لن تستطيع أيّة قوّة في العالم هزيمة الحقّ.

ودّعتني بأسى وخرجت تجرّ رجليها.

هل كنت فضّا معها؟

ممكن لكن يجب أخذ حقنة من حين لآخر.

كانت صامتة، تصغي لعباراتي بكتفين منحنيين لأسفل، لكن ما باليد حيلة، يجب أن أدفعها لمواجهة الواقع الذي تريد الحكومة والجيش دمجنا داخله عنوة.

وعدت لهواجسي اللاّمنتهية، عدت لأخي القتيل وهذا المصاب الجلل الذي أنا فيه، بسبب «ميمي بايولا»، العقبة الكأداء، يأتي من اللاّشيء، ليقلق راحتي باستجواباته المقنّعة، ليتعبني نفسيّا أكثر ممّا أنا فيه، وحسب الظّاهر، فإنّي سأطيل المكوث هنا لأجَل لا يعلمه إلاّ الرّبّ، لأنّي أخضع للتّحقيق، دون إعلان صريح بذلك.

(29)

في مطلع شهر جويلية، ولج باب غرفتي صديقي القديم الذي لم أره منذ فترة طويلة، «يعقوب غوتنبورغ»، سلّم عليّ بحرارة معتذراً عن تأخّره في زيارتي، لعلمه المتأخّر بالحادث الذي تعرّضت له في الجبهة.

جاء ومشاعر الإرتياح تعلو محيّاه، وأخرج من كيس أسود صغير نسخة من التّوراة، ملفوفة بعناية في ورق تغليف لامع رفيع:

– هذه هديّتك.

– شكرا «يعقوب».

كنت مستغرقاً في متابعة التّلفزيون، دون أن أرفع صوته، حرصا على تجنّب إزعاج الجريح الذي يقضي وقته كلّه في النّوم.

وبوجهه البشوش المبتسم هذه المرّة، راح يسرد لي –وهو يجلس قبالتي على الأريكة–، كيف رزقه الرّبّ بمولود قويّ البنية، أسماه «موشيه»، وأنّه رفقة زوجته ينعمان بموفور الصّحّة والعافية، لكن ما حكمت به المحكمة العليا الإسرائيليّة مؤخّرا، يؤرّقهما قليلا:

– يجب على الشّعب أن يثور ضدّ هؤلاء الذين أضرّوا بمصلحة اليهود، «بن غفير» وعصابته، إنّهم يجبروننا على ضرب العرب، ثمّ يغرقوننا في مستنقع ردود أفعال ليست له نهاية، ولا يستطيع أحد التحكّم بها.

– ما الأمر؟.

– ألم تسمع بالخبر؟، سيجمّدون ميزانيّة مدارسنا، لأننّا رفضنا التّجنيد ونرفضه، لسنا هنا من أجل سدّ النّقص في الجنود، والمال مال الرّبّ وليس مال «بن غفير» أو «نتنياهو».

كان متّكئا على الأريكة ثمّ اعتدل متأوّها:

– آآآآه، هل سمعت بتصريح «سموتريش»؟؛ قال إنّه غير مستعدّ للإنتحار من أجل الرّهائن.

– لا أتوقّع من هذا الخسيس شيئا طيّبا على الإطلاق؛ «غانتس» استقال قبل أن يغرقوه معهم، على كلّ حال انتقل أخي للدّار الآخرة.

قلتها متألّما وأنا أهمّ بالنّهوض إلى الكرسيّ المتحرّك.

– ماذا؟، فليرحمه الرّبّ، سأذكره في صلاتي.

قالها وهو يحاول مساعدتي مردفا:

– دعني أخمّن، في قصف الجيش، لأنّ «حماس» لا يقتلون الأسرى.

– بالتّأكيد، هل خطفوهم ليقتلوهم؟.

– حين أحسّوا بغرق السّفينة؛ قلت لك من البداية أنّ دولة إسرائيل ستزول، لقد أغضبنا الرّبّ بإقامة هذه الدّولة، ونحن الآن ندفع الثّمن باهظا جدّا فوق المتوقع، ها هم الآن يعترفون أنّ «حماس» فكرة راسخة متجذّرة، لا يمكن القضاء عليها أبدا، لأنّها فكرة صحيحة، بل وامتدّت بذور المقاومة إلى «يهودا» و«السّامرة»، في أرض اعتقدوا أنّهم ملكوها تماما، ويريدون الآن بالذّات حربا مع «حزب الله»؛ أليسوا أغبياء حمقى، بل مجانين.

– هل تتكرّم بدفعي للحديقة، أحسّ بالإختناق.

– طبعا.

ومضى يدفعني ببطء عبر الرّواق مكملا حديثه معي:

– وحقّ ربّ «موشيه»؛ لو ملكنا كلّ شبر من هذه الأرض، سيأتي اليوم الذي نترك فيه كلّ شيء، ستنتهي الحرب يوما ما، ثمّ ماذا؟، لا شيء، كلّ هذا عبث أطفال، فإلى متى سنترك الأطفال يسيّرون هذه الدّولة؟!، والمشكلة أنّهم يتكلّمون باسمنا.

كان ذكره لمسألة الرّهائن قد فتحت جرحي النّفسيّ القديم، فبقيت صامتا لا أقوَ على الإتيان ببنت شفة، حتّى لمحت خالتي باكية قادمة نحوي في الرّواق، فأدركت أنّ الخبر مؤكّد، على كلّ حال كنت متيقّنا منه من البداية، جرس داخليّ كان ينبّهني لتهيئتي من أجل تقبّل الواقع الجديد.

إنسحب «يعقوب» لمّا رأى خالتي على تلك الحالة، فيما وقفت هي أمامي ودموعها جارية تديم النّظر في وجهي، كلّ شيء واضح من البداية، لا داعي لاستعمال الكلمات، وما الفائدة منها أصلا إذا كان الصّمت أبلغ تعبير، غير أنّها كسرت صمتها بعبارة من الصّعب أن ننساها نحن اليهود:

– إنّ الرّبّ ينتقم منّا بقسوة؛ إنّ انتقامه عنيف، فظيع لا يرحم.

– أخجلتنا «حماس» بتعاملها مع أسرانا رغم أنّنا أعداء، ما شاهدته في قنواتنا لا يوحي أنّهم كانوا أسرى على الإطلاق؛ خاصّة «نوعا أرغماني»، كانت تعيش بينهم كأميرة أرستقراطيّة.

– إنّهم يعاملون أسرانا حقّا بما يملي عليهم دينهم، ونحن نعامل أسراهم بما تملي علينا صهيونيّتنا، هل هناك عار أكبر من ذلك؟، هل هناك وجه للمقارنة؟.

وامتزجت مشاعرنا نحن الإثنين بين اليأس والحزن والإمتعاظ.

– رغم مقتل أخيك؛ إلاّ أنّي لن أتوقّف عن المشاركة في المظاهرات، أوصتني أمّك قبل موتها ألاّ أتوقّف أبدا، على الأقلّ لتكفّر عمّا فعلته في حقّ الفلسطينيّين، بما تستطيع، لقد أغوتها النّزعة الصّهيونيّة بشعاراتها البرّاقة المزيّفة كما أغوت آلافاً غيرها، وفي أيّامها الأخيرة كان النّدم يأكل قلبها أكلا؛ إنّها أختي، وأعرف ما تشعر به ولو لم تتكلّم.

لقد أفسد خبر مقتل أخي سائر يومي، فآثرت الرّجوع للغرفة، عازماً على طلب إعطائي مهدّئا من الممرّضة، فيما راحت خالتي تدفع كرسيّي ببطء عبر الرّواق، متجنّبة المارّين بصعوبة، وشيئا فشيئا، بدأت عينيّ تمتلئ بالدّموع، لتنهمر على وجهي.

هذا ما يجب أن نتوقّعه منذ زمن، لقد خنّا البريطانيّين في عام 48؛ كما خنّا العرب من قبل، لمّا استغلّينا تسامحهم الدّينيّ وأسّسنا دولة على جماجمهم؛ والآن ندفع ثمن الخيانة، وسنبقى ندفع الثّمن إن لم نتدارك الوضع.

نمت تلك اللّيلة بعمق، بسبب المهدّئ القويّ الذي حقنته لي الممرّضة، نمت معوّضا كلّ الأيّام التي لم تنمها أمّي من قبل.

– صباح الخير، هل سمعت باعتقال منتحل صفة الطّبيب؟.

ألقتها وهي تدخل عليّ بباقة ورد أبيض، ثمّ انتبهت للخطأ الذي ارتكبته:

– عفوا، لم أسألك عن صحّتك؛ أرجوك اغفر لي تسرّعي.

– لا بأس «باولا»، أعرف مدى حرصك على الإنتقام، وما يعنيه قلقك.

قلتها هامسا، في حين نظرت هي نحو الجانب الآخر وحيّت الجريحين الآخرين، قبل أن تنتبه أنّ الجريح الثّاني كان نائما كعادته، في حين ردّ الجريح الثّالث القادم منذ أقلّ من شهر تحيّتها مبتسماً ابتسامة مُرّة.

– إنّهم هم أنا متأكدة؛ يجب أن أتحرّك في أقرب فرصة؛ لن أعود للجيش مهما كلّفني الأمر، إلتقيت مع «ليزا» وأخبرتها بما أنوي فعله، وقلت أنا مصرّة مهما كانت التحدّيات، ويجب كإعلاميّة أن تكشفي الحقيقة، وليس شرطا أن تكون للحقيقة أدلّة واضحة، لدينا التّخمين، لدينا الإستنتاج، لدينا الإستخلاص، هذا عملها، أأخطأت؟.

في السّادس والعشرين جوان 2024، بثت قناة «إسرائيل 24» خبرا غريبا، نشرته على موقعها على الإنترنت، مفاده أنّ هناك تحقيقا جادّا للشّرطة العسكريّة في قضيّة منتحل صفة طبيب في الجيش، دخل إلى «غزّة» مع إحدى كتائب لواء «ناحال»، أيّاما قبل أن يثير شكوك الجنود، ولا أعرف ما الذي حدث لي حتّى طاف بذهني «نيتاي» و«غارسيّا»، وتجارتهما في الأعضاء البشريّة.

– هذا الطّبيب واحد من عصابة «غارسيّا»، أنا متأكّدة من كلامي، إحساسي لا يخيب.

قالتها وهي ترفع سبّابتها نحوي، وعيناها تقدحان شررا.

كادت «باولا» أن تتشاجر مع السيّدة «ليزا»، بسبب تأخّر هذه الأخيرة في نشر التّحقيق، معتبرة أنّ واجبها المقدّس هو البحث عن الحقيقة أينما كانت، ولمّا فقدت الأمل في ذلك؛ أعطت جلّ اهتمامها لمسألة قتل «نيتاي».

سيكون القتل سببا وجيها لتفجير القضيّة من جديد، وغصباً عن الكلّ، لا سيما بعد أن تكشّفت لها معلومات هامّة، تخصّ تنظيم «فتية التّلال»، الذي يصنّف كحركة إرهابيّة في إسرائيل، ممّا يحتم عليه تمويل نفسه بطرق غير شرعيّة، وهو ما أدّى إلى لقاء «نيتاي» بأحد ممثّليهم من الشّباب، لتنسيق عمليّة تهريب شحنة هامّة من السّلاح والذّخيرة.

– تكلّمي كما تشائين؛ لا يبدو أنّه سيعيش طويلا؛ إصابته مميتة.

قلتها قاصداً الجريح الثّالث حين نظرت إليه بريبة.

– نحن الآن في الشّهر التّاسع من الحرب، وجنودنا منهكون جدّا؛ والجيش يدمّر نفسه بيديه غير شاعر بما يفعل، والأخرق الذي يسمّى «نتنياهو» يجهّز خطاباً يعلن فيه مقتل «الضّيف»، كأنّ هذا الأخير هو مفتاح لغز «غزّة»؛ هو كلمة سرّ القضيّة، نقتله بزرّ فنجهض المقاومة، ويتوقّف كلّ شيء، هل رأيت بلاهة في حياتك بهذا الحجم؟.

– هل سيُعاد تجنيدي؟.

قلتها يائسا مغيّرا الموضوع، أبحث عن إجابة سلبيّة تعيد لي مشاعر التّفاؤل والإرتياح.

– ممكن جدّا، سمعت من أحد الضّباط أنّ الجيش والحكومة يريدون إفشال أيّة صفقة جديدة للأسرى، بالمناسبة؛ هل من جديد عن أخيك؟.

– قتله الجيش «باولا» حين أنقذ أربع رهائن، نحن أقرب للمليشيا من جيش نظاميّ، أنتِ عسكريّة وتدركين معنى كلامي، جيّدا.

قلتها بنبرة أتقصّى منها تفريغ شحنة الغضب التي بدأت تتولّد.

– إذن هناك قتلى، من غير الممكن أن يكون كلّ شيء على ما يرام... تعازيّ الخالصة لكم.

وأعادت «باولا» شريط ذكرياتي، الذي كلّما حاولت تجنّب التّفكير فيه؛ عاد بزخم أقوى من السّابق.

(30)

لم أفكّر مطلقا بتعزية مسلم في يوم من الأيّام، كما فكّرت أن أعزّي عائلة «هنيّة».

ما عرفته عن هذا العملاق الفلسطينيّ، جعلني أتمنّى حضور جنازته، ولو متخفّيا.

نزيه السّريرة، نظيف اليد، يبذل كلّ شيء لأجل الرّبّ وشعبه، مؤثرا الآخر عن نفسه، لدرجة أنّه ترك عائلته داخل «غزّة»، التي يستطيع إخراجها منها بألف طريقة، قبل أن يُقتلوا مع أحفاده بقصف الطّائرات، وقبل أن يقول كلمته التي سجّلها له التّاريخ «الله يسهّل عليهم»، في عبارة صريحة إلى المساواة بينهم وبين بقيّة الشّعب الفلسطينيّ، وأنّ عائلات القادة هم في النّهاية من طينة الشّعب.

أنا الآن على بعد أقلّ من عشرين بالمائة من الشّفاء التامّ لإصابتي، ويجب عليّ التّصرّف بسرعة كي لا يستدعوني للجبهة مجدّدا، فما كان أمامي إلاّ تصنّع إصابة ما بعد الصّدمة.

أنهض ليلاً لأصرخ في الغرفة، حتّى أنّي كثيرا ما ألجأ إلى وضع قطرات من الماء على جبهتي ووجهي في انتظار ممرّضة الدّوام اللّيليّ، كي يبدو المشهد طبيعيّا ومقنعاً لأقصى درجة، فما تجود يداها سوى بحقنة تهدّؤني، وتريحها من مشوار انتقالها لغرفتي.

ولكن مع كلّ هذا؛ هل أستطيع أن أخدع كابوسا آخر يترصّدني؟؛ كابوس يسمّى «ميمي بايولا».

كنت قد نهضت للتوّ من فراشي الذي سئمته، بعد ليلة استسلمت فيها للحقنة التي أصبحت أخشى إدمانها، مضطرّ أنا لذلك، من أجل الحفاظ على ما أريد إقناع الآخرين به.

وبينما أهمّ بالنّهوض مستخدما العكّازين لدخول دورة المياه؛ إنتبهت لوجود طرد على طاولتي، طرد لا يزيد حجمه عن كتاب من ثمانين أو مائة وعشرين صفحة على أقصى تقدير، عبر شركة «حافوظ» لخدمات البريد السّريع.

– وصلك هذا باكرا عبر البريد، كنت نائماً فلم أشأ إيقاظك.

– ممنون لحِسّك المهنيّ، أنتِ ممرّضة جديدة؟.

– نعم، أنا «كارلا»، «كارلا غوتمان»، متربّصة في شهري الثّاني، أخذت مكان الممرّضة السّابقة اليوم، إشتكى منها الكثير من الجرحى وعائلاتهم، آسفة؛ ربما أكون قد أزعجتك، لكن يجب إعطاء الحقنة الصّباحيّة للجريح.

وانصرفت عنّي مخرجة حقنة من جيب مئزرها، حقنتها في ذراع الجريح الثّالث مباشرة:

– يجب حقنها بسرعة في الذّراع وإلاّ سيتلاشى مفعول الدّواء.

– حسنا، والجريح الثّاني أين هو؟.

– لقد غيّروا غرفته، هذا ما قيل لي اليوم صباحا.

– أعذريني.

وانسللت للحمّام.

بعد عشر دقائق كنت جالسا على الأريكة أفتح الكنز الذي وصلني من مجهول.

ويا لسعادتي!.

إنّها المستندات السّريّة التي نجح «بابلو» في الوصول إليها في قاعدة «شيزافون»، وفقد بسببها صديقي «دافيد» حياته، المستندات التي يبحث عنها الجميع، وعن «غابي»، الشّخص الوحيد الذي كانت عنده.

وأنا في خضمّ بهجتي وصدمتي في آن واحد، تسلّل صوت أقدام سريعة في الرّواق، فأرهفت السّمع، خشيت أن يكون «ميمي بايولا»، المغرور الذي يحشر أنفه في كلّ شيء.

كم تمنّيت أن يُشجّ رأسه من ضربة عادلة لعارضة الباب العلويّة!.

أخفيت كلّ شيء بسرعة بين طيّات فراشي وأنا أحشر نفسي فيه.

كان وجها رأيته سابقا يجول بين الغرف، وهو يوزّع الموز بابتسامة ملئت ثلثي وجهه، ثمّ حدث نوع من الصّدام الخفيف مع «كارلا»، التي رفضت ما يقدّمه لبعض الجرحى بسبب حالتهم، غير أنّه لم يكن آبها بها، وواصل في تقديم هداياه للجميع، بصوت أجشّ مميّز، ثمّ دخل غرفتي ليجدني جالسا في الفراش، أنتظر فطور الصّباح الذي ستأتي به الممرّضة، بعد إنهاء جولتها الإستشفائيّة.

– إنتظر.

قالها وهو يقدّم لي موزة، ثمّ أخرج علبة بلاستيكيّة بيضاء من كيس برتقاليّ اللّون كان معه:

– أنت خصوصا... لك هذا.

وربّت على كتفي بحنوّ، الشّيء الذي دفعني للإعتقاد أنّه على معرفة سابقة بي، كان رياضيّ القوام لا تبدو عليه آثار التّقدّم في العمر، سوى بعض الشّيب الذي كسى جزءاً يسيرا من شعر رأسه الأسود القصير، ثمّ

انتشرت رائحة عطر فاخر في زوايا الغرفة، وغادر بسرعة ليكمل جولته في باقي الأقسام، كأنّه في سباق ضدّ السّاعة.

يبدو أنّ اليوم يوم الطّرود والهدايا.

فتحت العلبة البلاستيكيّة يغمرني الشّوق لما بداخلها، فإذا بي أجد نوعاً من الحلوى التّقليديّة المشهورة في «مصر»، أتذكّر أنّي أكلتها لمّا كنت في منزل صديقي «دافيد».

تفاجأت به يعود إليّ مبتسما:

– تخلّصنا من «هنيّة» إلى الأبد؛ مشكل وأزحناه من طريقنا.

وحين رآني أحاول تذكّره، قال مبادرا:

– ألست الذي جئت تسأل مرّة عن والد «دافيد»؟.

– آه... تذكّرت، أنت جارهم السيّد «ريكاردو مزراحي».

– أرجوك دون تكلّف، واعذرني على استقبالي السّيّء لك في المرّة الماضية.

ومدّ يده مصافحا.

حاولت تقديم نفسي فقاطعني:

– أعرفك جيّدا، أنت صديق «دافيد».

ثمّ أتبع بسرعة منعتني من أخذ زمام الحديث:

– بقي «السّنوار»، هو الشّخصيّة الأخطر علينا، بعدما أزحنا «محمّد الضّيف» قبل أسبوعين؛ ثمّ أردف وهو يضحك:

– إنّهم يسقطون مثل أحجار الدّومينو، لا فرق لدينا بين عسكريّ وسياسيّ، الكلّ سواء حبيبي.

والتقط في سرعة جهاز التّحكّم عن بعد الذي كان على الفراش وهمّ بتشغيل التّلفزيون، وهو يلومني على جهلي بما حدث، بعدما أكّد لي في عبارة جارحة أنّي من سكّان القمر.

– قتلناه البارحة عند السّاعة الثّانية صباحا؛ أرسلناه إلى الدّار الآخرة، تذكّر هذا اليوم حبيبي، يوم الأربعاء الحادي والثّلاثين من شهر يوليو 2024، سيبقى خالدا في ذاكرة إسرائيل إلى الأبد، حبيبي.

– سيؤثّر سلبا على المفاوضات، هناك أسرى يجب استعادتهم.

رمقني بنظرة مفاجئة قاسية، كأنّي قتلت شخصا عزيزا عليه:

– هل أنت ضدّ الدّولة؟، مع الإنقلابيّين؟.

ثمّ تابع مستطرداً لما رأى استغرابي:

– آسف أنا متوتّر ولا أدري ما أقول، لا عليك حبيبي؛ المهمّ أنّنا تخلّصنا منه للأبد، وداخل «إيران»؛ ولترينا ما تستطيع فعله.

– سيعيّنون آخر، وربما سيكون أكثر خطراً من «هنيّة».

– سيعيّنون «خالد مشعل» أو «أسامة حمدان»؛ أنا متأكّد، ليس لديهم بديل آخر.

– و«السّنوار»؟.

– دعك من الخرافات، جبان لم يرَ الشّمس منذ أن وضعناه على القائمة السّوداء، لا شكّ أنّه يعاني من زيادة الوزن، وعوز في الفيتامين «د».

تضايقت من وصفه أكثر من الضّحكة الوقحة التي أطلقها، فأردت أن أغيّر مجرى الحديث سريعا:

– هل صحيح أنّ «أردوغان» يهدّد بالتّدخّل العسكريّ ضدّنا علنا؟.

فاختطف الكلمة الأخيرة قائلا في غطرسة:

– يهدّد؟، سنجرّ المنطقة بل العالم كلّه للحرب إذا اتّحدوا ضدّنا، نحن مستعدّون لجميع الإحتمالات، كلّ من يهاجمنا سيدفع الثّمن باهظا، «أمريكا» معنا، ومن كانت معه «أمريكا»، لا يسأل عن صاحب المحراث.

ثمّ حدّق في عيني اليسرى بحقد:

– سنبتلع «يهودا» و«السّامرة» ولا أحد سيتكلّم؛ صدّقني حبيبي، هذا ما قاله لي ابني «أنطونيو»، الرّائد في لواء «جفعاتي»، وأنا أصدّق كلّ ما يقوله لي.

لم أستطع إكمال الحديث معه؛ بدا مبرمجا على قالب فكريّ لا يقبل الخروج عنه قيد أنملة.

هذا هو «ريكاردو مزراحي»، صهيونيّ من صهاينة القرن العشرين، تعيس كتعساء الحظّ أمثاله، الذين ما زالوا يعيشون في الأحلام الورديّة، أحلام «بن غوريون» و«غولدا مائير» و«ميناحيم بيغن»، منذ حرب «الإستغلال».

وغادر على مضض حين رأى الطّبيب، الذي أتى مع «كارلا»، وهي تدفع عربة الفطور الصّباحيّ أمامها بهمّة ونشاط.

الآن، بعد حصولي على المستندات؛ يجب إيقاف خطّة «باولا»، والتّركيز على النّشر في «هآريتس».

يجب أن أرسل المستندات للسّيّدة «ليزا».

بحثت في هاتفي عن رقمها، ثمّ توقّفت حين تذكّرت أنّ هاتفها مراقب، لكن ما باليد حيلة، يجب أن أوصل لها المستندات قبل فوات الأوان:

– «جيروشا»، هي المسلك الوحيد الآمن الذي سيوصلني إليها.

ما كدت أتمّ عبارتي بيني وبين نفسي، وأنا في قمّة انشغالي بالتّفكير وتوتّري؛ حتى إرتسم خياله عند باب الغرفة:

– ما زالوا يقولون عنّي أنّي غبيّ لا أفهم بسرعة، لا بأس، ساعدني في استيعاب الأمر أرجوك، كيف تصاب باضطراب ما بعد الصّدمة وأنت من قوّات المغاوير؟، لقد صرفنا أموالاً طائلة على تدريبكم يا رجل، جسميّا ونفسيّا وعقليّا، هل العيب فيك أم في مناهجنا؟.

واتّسعت عيناه مردفا:

– تذكّر أنّنا ندردش فقط كصديقين ولا شيء رسمي، أنظر، أنا لا أحمل أيّة ورقة أو قلم، نحن ندردش فقط، مثلما يدردش الأصدقاء.

– طبعا طبعا نحن أصدقاء، كلّ من في الجيش أصدقاء بعض.

وثب نحوي:

– جيّد، إذا كنت تفكّر بهده الطّريقة فأنت إسرائيليّ، قلبا وقالبا.

ثمّ أكمل بخبث:

– أنا متعاطف معك، أعلم أنّك ترى كوابيس في نومك، وأنّك دائم القلق والتّوتّر، وتعاني من ذكريات الماضي اللّصيقة، لكن الشّيء الذي استعصى عليّ فهمه هو شهيّتك المفتوحة للأكل، حتّى أنّ وزنك زاد، ألا تلاحظ معي؟.

– للأسف، لم أر نفسي في المرآة.

قلتها بتأفّف كي يغادر، غير أنّه جلس قبالتي على الأريكة متجاهلا تأفّفي:

– لا علينا؛ بمناسبة الأكل، هل تعرف أنّ «كتائب القسّام» يسرقون المساعدات الغذائيّة؟.

– لا أعرف، هل بلغت بهم الجرأة والوقاحة لفعل ذلك؟.

قلتها وأنا أقلّد خبثه.

– أكيد، كانوا يهرّبون السّلع الإستهلاكيّة عبر الأنفاق، ويسرقون أموال النّاس الضّعفاء المساكين، بل ويشغّلون العمّال في أعمال حفر الأنفاق دون أن يدفعوا للمساكين أجورهم، هل هذا هو الإسلام؟.

ضحكت في سرّي على هذا الأحمق وما يريد إقناعي به، من يسرقون المساعدات الغذائيّة ليسوا «كتائب القسّام»، بل هم عصابات مموّلة من «الشّاباك»، هدفها إحداث بلبلة داخل المجتمع الفلسطينيّ، بخلق أزمة ثقة وفتح فجوة ارتياب، لتعميق المجاعة بين السّكّان، هذا ما وصلني من «ريتانا» والسيّدة «ليزا» و«باولا»، ثلاثة مصادر لا يرقى إليها الشكّ، بل إن عناصر «الشّاباك» يبحثون دائما عن أقذر الأشخاص ممّن تجري الخيانة في دمائهم، ليحلّوا محلّ «حماس» في حكم القطاع.

– هل تعرف أنّ «السّنوار» مختبئ تحت الأرض، يبكي الآن كما تبكي النّساء؟، أتدري أنّه جبان لا يجرؤ على مواجهتنا؟، سلني أنا، أعرفه أكثر من أيّ شخص آخر.

هنا، بدأ الغضب يستولي عليّ، لكنّي تريّثت لّما شككت أنّه استدراج ليرى ردّ فعلي، فقد أصبح هذا المقاوم رمزاً بين الجنود من مختلف الألوية والوحدات، ثمّ نهض من مكانه مقترباً منّي، هامسا لي بما يراه سرّا خطيرا:

– دعنا من سيرته المشؤومة الآن، أشعر بالغثيان، لقد اتّصلت بزوجتك «دينا»، من أجل زيارتك، عيب أن تتركك وحيدا بعد وفاة أمّك وأنت في هذه الحالة، ألا توافقني الرّأي؟.

– لا يمكن، لديها اختبارات آخر السّنة.

– ليست مشكلة، أحاول مساعدتك، ستحتاجني يا رجل، نحن أصدقاء، أترك الأمر لي، سأتصرّف، أصارحك؟، أنا أيضا أريد مغادرة إسرائيل، سئمت قذارتهم، آن الأوان لألتفت لمستقبلي، هل تصدّق أنّي لست متزوّجا لغاية هذه اللّحظة التي أكلّمك فيها؟.

تصنّعت التّعجّب، فأكمل حديثه:

– سنتكفّل بمصاريفها كاملة، سأقول لهم أنّ هذا من أجل إسرائيل، ثمّ أنسّق مع والدها هناك ليخرجنا من هذا المرحاض، إتفقنا؟.

وضمّ سبّابته وإبهامه حول أنفه ورجع ليجلس على الأريكة.

كانت عيناه ونبرة صوته تكشفان خبثه، تظاهرت بانخفاض ضغطي مستدعيا «كارلا» كي يخفي وجهه القبيح عنّي، فجاءت مسرعة، بيد أنّه بقي جالساً في مكانه يتفرّج عليها، حتّى أخرجته بديبلوماسيّتها.

حاولت على الفور الإتّصال بصديقة «باولا» الحميمة، «جيروشا» التي التقيت بها سابقا في «القدس»، غير أنّ هاتفها مغلق، الشّيء الذي زاد من حيرتي، فقرّرت المغامرة والإتّصال بالسيّدة «ليزا»، لأنّه يجب أن أتحرّك بما في يدي.

من أرسل لي المستندات؟، هذا ما كان يشغلني ليل نهار، كلّما فكّرت أكثر تهت أكثر.

هل هو «غابي» المختفي منذ أشهر؟، وإذا كان هو فلماذا لم يظهر حتّى الآن؟، هل هو خائف من شيء ما؟، وأين هي الشّرطة؟، لماذا لم تستطع الوصول إليه؟، هل هو «بابلو»؟، لكن «بابلو» مات، وُجد جثّة هامدة والنّار تأكل جسده في السيّارة؟، هل هو شخص آخر لا نعرفه؟، كيف وصل إلى المستندات ومن هو أصلا؟، أو كيف وصلت المستندات إليه؟.

– تعالي أحتاجك لشراء دواء لي.

وأغلقت الخطّ قبل أن تسأل.

بعد أقلّ من نصف ساعة كانت في الغرفة جالسة أمامي على الأريكة تنظر إليّ مستفهمة.

– ششش.

قلتها مخافة أن يكون «ميمي بايولا» قد وضع جهاز تصنّت في غفلة منّي، خاصّة وأنّ عيناه كانت تجولان في كلّ زاوية من الغرفة، وحتّى لا أضطرّ لشرح شيء أنا نفسي لا أملك تفسيرا له، مقدّما لها الأوراق بسرعة، ثمّ أشرت لها بالرّحيل فورا قبل أن يعود.

بعد شفائي التامّ من إصابتي، أخبرتني «كارلا» أنّهم سينقلوني لقسم الرّعاية النّفسيّة، مباشرة بعد توفر أسرّة شاغرة، وبعد المرور على لجنة طبيّة للأمراض النّفسيّة والعقليّة.

أدركت أنّي سأكون أمام خبراء لهم باع طويل في علم النّفس، فيجب تقمّص الدّور جيّدا، كي لا أطرد نهائيّا إلى الجبهة، وأجد نفسي مجدّدا في صراع لا يجب أن أكون طرفا فيه.

بعد أيّام جاءت إحدى الطّبيبات لتخبرني أنّهم سينقلونني إلى مزرعة قرب «تلّ أبيب»، تتوفّر على كلّ ما من شأنه غرس شعور حميم بين الذين يعانون من اضطراب ما بعد الصّدمة، وسيعالجون بتقنيّة خطّ العين، كالتي حاولوا علاج أمّي بها سابقا دون جدوى.

(31)

– أغرب عن وجهي، وقح، ألهذا المستوى بلغت بكم الجرأة والنّذالة؟.

فما كان منه إلاّ أن انصرف مسرعاً بعد أن تعمّد دقّ جرس الباب قرب موعد الغداء، حتّى يتأكّد من وجود صهري في المترل، وبعد أن سئم عبارة كبير الخدم النّموذجيّة «سيّدي غير موجود».

لسوء حظه هذه المرّة، وجده هناك في ثورته العصبيّة المعتادة، فلم ينتظر حتّى يشرح له سبب مجيئه، بل طرده مباشرة بعد إتمام جملته الأخيرة التي عرّف بها عن نفسه.

كنّا جميعا متحلّقين حول المائدة المستديرة، أنا وصهري وأخوه «جون» وزوجتيهما، و«دينا» وشقيقتيها «إيفلين» و«شارلوت»، وأزواجهما «أوليفر» و«ألبرت» على التّرتيب، بينما الأولاد والبنات الصّغار يلعبون في الحديقة الواسعة، التي لا تفصلنا عنها إلاّ أمتار قليلة، وحائط زجاجيّ سميك.

سارعت نسيبتي لتهدئته، وتذكيره بمرض الضّغط الذي يعاني منه منذ سنوات، ففي الأخير ما هو سوى جامع تبرّعات لصالح إحدى الجمعيّات الأمريكيّة الصّهيونيّة، ولا يجب أن يضعه في الحسبان، وساندها جميع الحاضرين، ولو أنّه بدا هادئاً لبرهة، إلاّ أنّ نار الغضب لا تخمد بسرعة في صهري الذي أعرفه أكثر من أيّ شخص آخر، باستثناء زوجته طبعا.

– هؤلاء الحمقى يطاردون النّاس أينما كانوا، تارة يقولون أنّهم يجمعون التبرّعات لكبار السّنّ في إسرائيل، وتارة أخرى يقولون أنّ المال من أجل الطّفولة المسعفة هناك، والرّبّ وحده يعلم إلى أين يذهبون بالمال.

وتناول قرص الدّواء الذي أعطته له نسيبتي متبوعا بكأس كبير من الماء.

– للجيش.

قالها «أوليفر» وهو يمضغ قطعة صغيرة من اللّحم.

تفحّصته «إيفلين» متعجّبة، وواصلت كلامها ناظرة نحو «شارلوت» التي هزّت رأسها إيجابا.

– وصلني البارحة عرض استثماريّ في إسرائيل.

كان هذا «ألبرت» الذي أتمّ صحنه، ورشف رشفتين من فنجان قهوة أحضرها الخادم للتوّ.

نظر إليه صهري مبتسما:

– طبعا تخفيضات ضريبيّة.

– بل إلغاء لكلّ أنواع الضّرائب لمدّة خمس سنوات.

أرسل صهري ضحكة عالية في الفضاء وهو يضرب على الطّاولة بيديه الإثنتين، فاطمأننت أنّ غضبه قد انزاح.

إتّسعت عينا نسيبتي مستفهمة:

– أخبروني ما الذي يجري هنا؟.

– لا شيء، إنّه مكر بني إسرائيل.

قالها صهري وهو ما زال يعالج بقايا ضحكه، لينفجر الجميع ضاحكين حتّى الخدم:

– يريدون جلب الأموال لمزبلتهم هناك في «فلسطين»، من أجل المشروع الصّهيونيّ، إنّهم يعرفون رأيي منذ سنوات، لكن مع هذا يرسلون كلّ مرّة شابّا أو فتاة تحت أيّة تغطية، وها هو الآن «ألبرت» أمام عرض يغري أيّ رجل أعمال.

– وهل أنا مجنون لأقبل؟، إسرائيل تعيش على الإنعاش منذ أن ولدت، لا وجود لأيّ بحبوحة إقتصاديّة هناك كما يروّجون، كلّها أكاذيب في أكاذيب، الصّهيونيّة أساسا نزعة غريبة، صنعها «هرتزل» وتبعه حثالى اليهود، ثمّ المغرّر بنواياهم، الباحثون عن الإستقرار بأيّ ثمن، فأصبحوا جميعا تروسا في آلة ضخمة.

في السّابع عشر من سبتمبر 2024، فجّر الكيان الإسرائيليّ أجهزة المناداة «البيجر» التي يستعملها أعضاء «حزب الله»، فأصابوا ثلاثة آلاف عنصر، ثمّ اغتالوا الأمين العام للحزب «حسن نصر الله»، في غارة جوّيّة دقيقة، تمهيدا لغزو «لبنان»، مثلما حدث سابقا.

وبعدها بما يقارب شهرا واحدا، تخلّصوا من «السّنوار»، الذي كانوا يروّجون عنه مئات الأكاذيب، لقد أزاحوا عن طريقهم عظيما من عظماء «فلسطين»، في مشهد بطوليّ من النّادر أن ترى مثله، حتّى في الأفلام أو المسلسلات، شخص لم يكن لديه الوقت حتّى ليتزوّج، بعدما قضى في السّجن أربع وعشرين سنة، وحتّى الثّلاث عشرة سنة التي كانت بعد زواجه؛ لم يعش فيها سوى أيّاما مع زوجته، بسبب انشغاله بالتّدريب وتحضير المقاتلين.

– لقد بثّوا الفيديو الذي يدحض أكاذيبهم في قناة «الجزيرة»، التي أغلقوها في «رام الله» بأمر عسكريّ، في سبتمبر الماضي فقط، لأنّها كشفت ألاعيب «نتنياهو»، والصّورة المزيّفة للنّصر الذي يحاول تسويقه، لا سيما بعد قصف «إيران» لإسرائيل، بما يقارب المئتين والخمسين صاروخا باليستيّا عبر كلّ الكيان، بضعف حجم

الهجوم السّابق، ولم تستطع الدّفاعات الجوّية التّصدّي إلاّ للقليل منها، كيف لمن بيته من زجاج أن يقذف النّاس بالحجارة؟.

كانت هذه «جنيفر» زوجته، بملامح تستغرب جهل زوجها بالحوادث التي تملأ وسائل الإعلام، زوجها المهووس بهوايته التي أدمن عليها بعد تقاعده، فقد أصبح يقضي كلّ وقته في قارب للصّيد في البحيرة المجاورة:

– ومنذ متى وأنت تعرف ما يدور حولك؟.

لم يجبها، بل أشاح بوجهه في حركة تدلّ على تبرّمه، ولمّا نظر إلى صهري بادره هذا الأخير بقوله:

– من المستحيل أن يكون اليابانيّون مخطئين حين وصفوه بكونه آخر السّاموراي، فليس من عادة هذا الشّعب أن يطلق أوصافا جزافيّة على كلّ من هبّ ودبّ، إذا لم يلمس منه برهانا صادقا، ودليلا دامغا، يدحض أيّ شكّ وارتياب.

– هل يمكن إستمالة قلب زاهد عن زخارف الدّنيا؟، عاش فقيرا يمتلك قميصين فقط، ويوم عرسه استعار سترة من صديقه، رغم أنّه يستطيع شراء أيّ شيء باعتباره قائدا، وله الحقّ في امتلاك أشياء لا يستطيع الآخرون امتلاكها.

قالتها «دينا» ناظرة لي كأنّها ترجوني للتدخّل:

– «السّنوار» شخصيّة كاريزماتيّة محترمة حتّى بين أعدائه، في وحدتي كانوا يلقّبونه «الجنرال»، متواضع، لكنّه صارم في نفس الوقت، يستطيع الجمع بين القوّة واللّطف، وهذا نادر عند القادة.

– ماذا؟، أهذا رأيك فيه؟!، أليس هو الذي أطلق عليك النّار حين كان في النّفق؟!.

تعجّب «أوليفر» و«ألبرت»، فأكّدت لهما مواصلا وأنا أصارع ضحكي:

– أنا من أطلقت النّار على نفسي، لأتخلّص من الضّغوط التي واجهتني، كانت مغامرة يجب أن أخوضها مهما كلّفتني.

ضحكت «دينا» وهي تمسك بيدي بحنانها الذي لا يقاوم:

– نجوت بصعوبة من الثّرثار «ميمي بايولا»، المهووس بالأمن، يشكّ حتّى في الذّبابة إذا رآها في الغرفة، إنّه يثير شفقتي، يتصرّف تماما كالذي يمتلك المكان.

تذكّرت ما كان يقوله لي، تذكّرت غروره واعتداده بنفسه، ثمّ تراءى لي «لؤي»، ونظرت تجاه «دينا»:

– «لؤي»، هو الوحيد الذي تفطّن لي، إلتقط مسدّسي وقتل الجنديّ الذي اكتشف اللّعبة، وانسحب من منطقتنا في لمح البصر، ذاب تحت الأرض.

– و«السّنوار»؟.

تساءل «ألبرت» بحرص وتركيز شديدين.

– حاول «الشّاباك» تجنيده فتلاعب بهم تلاعب «رونالدو» بالكرة، رجل درس التّفكير الصّهيونيّ جيّدا لأكثر من عشرين سنة، قضاها في السّجن محكوما عليه بأربعة مؤبّدات، ويعرف رموزه الفكريّة أكثر ممّا يعرف زوجته، بل ويتقن اللّغة العبريّة إلى جانب العربيّة لغته الأمّ، يترجم عنها ما شاء، وله رواية يسرد فيها آلام شعبه ومعاناته، كتبها وهرّبها من سجنه، وحاصل على شهادة ليسانس من الجامعة الإسلاميّة في «غزّة»، هل يمكن طيّه هكذا ببساطة ووضعه في كيس؟!.

– إذن لم يكن مختبئاً بين الأسرى؟، يأكل الدّجاج المشويّ ويشرب ماء «زمزم»؟.

نطق بها «أوليفر» وهو ينظر تجاه صهري الذي زاد فوق حديثي:

– طبعا لا، كلّها أراجيف الدّعاية الصّهيونيّة لتشويه سمعة الرّجل، تخيّل رجلا مهشّم السّاعد الأيمن بعد إصابته بقذيفة، يربط أعلى مرفقه بسلك كهربائيّ يقيه خطر النّزيف، يلقي بعصا كان يستند عليها، على طائرة استطلاع مسيّرة دخلت المترل الذي اشتبك فيه مع دوريّة من الجيش، في شمال غرب «رفح»، ملثّم الوجه بكوفيّة فلسطينيّة تخفي معالم وجهه، مثل النّينجا، أيّ إصرار وثبات هذا؟.

– لا يبدو أنّه يشبه «هاغاري» قنّاص اللّقطات.

أطلقتها «جنيفر» دفعة واحدة، في مقارنة ظالمة، فانفجر «جون» ضاحكا، ليتبعه الجميع مقهقهين.

(32)

بدأ كلّ شيء في التّاسع عشر من أكتوبر سنة 1962 في «خان يونس»، وبدأت بعض الأشياء في السّادس من أغسطس 2024، حين تمّ تعيينه خلفا لرئيس المكتب السّياسيّ المغتال في «إيران»، «إسماعيل هنيّة».

خطوة لم يتوقّعها أحد، فما كانت إسرائيل تخشاه، أضحى واقعا يُلمس.

مخطّط هجوم السّابع من أكتوبر «يحيى السّنوار»، التّعويذة التي أضحت على ألسنة الجميع هنا في إسرائيل، هو الآن الزّعيم السياسيّ لأكبر حركة مقاومة أرّقت صنّاع القرار في «تلّ أبيب»، فإذا تفاوضوا؛ سيجدون أنفسهم مجبرين أن يتحدّثوا مع صاحب اللّعبة ذي النّفَس الطّويل، طوعا أو كرها.

هم الآن يتناقشون مع بعضهم البعض، في مربّع مختزل ضيّق، لا يخرج عمّاذا فعلوا بنا وماذا سنفعل بهم، روضة أطفال.

خرجنا للإستراحة، وتركنا الخدم يرفعون أطباق الطّعام، كانت مساحة خضراء واسعة أمامنا مع بعض الأشجار الباسقة، جلست «دينا» قبالتي تتناول فنجاناً من القهوة الخضراء المخفّفة، لتحافظ على رشاقتها كما تقول، وأنا أضحك في سرّي، على فكرتها الغريبة وقد برز بطنها، بينما استأذن «جون» وزوجته «جنيفر»، مستقلّين سيّارة «ليموزين» مع ولديهما، يقودها سائق بقفّازات بيضاء تعكس نور شمس الرّبيع.

– أليس هذا «السّنوار» هو المفرج عنه في قضيّة «شاليط»؟.

تساءلت نسيبتي وهي ترشف قهوتها ببطء شديد.

– نعم، كان أحد المفرج عنهم ضمن صفقة تبادل لأكثر من ألف أسير فلسطينيّ، تمّت منذ ثلاث عشرة سنة، ومنذ ذلك التّاريخ وهو يخطّط لإسترجاع أرضه، إنّه مهندس هجوم السّابع من أكتوبر من العام الماضي، سيكون أيقونة عالميّة مثل «تشي غيفارا»، لا شكّ في ذلك، تذكّري هذا التّاريخ جيّدا «ماغدا»، الأربعاء السّادس عشر من أكتوبر 2024.

أجابها صهري بفخر وهو يتناول عصير برتقال، قد خلطته الخادمة مع بعض الجزر النّيء وقطرات اللّيمون:

– من عينيه البرّاقتين، ستشعرين أنّك أمام شخص لا يشبه الآخرين، هذا ما بدا لي حين رأيته على التّلفزيون للمرّة الأولى، نحيف الوجه، خفيف شعر اللّحية والرّأس، كثير الشّيب، يا ربّ «موشيه»، هيبة ووقار لم أره على أحد من قبل.

وشرب العصير كلّه دفعة واحدة، كأنّه يشرب نخب انتصار «السّنوار» على قاتليه.

أنا الآن في «أمريكا»، مع خالتي، لكن دون «دييغو».

(33)

في منتصف شهر أغسطس من سنة 2024، أي بعد أكثر من ثلاثمائة يوم من الحرب، أخبرتني «كارلا» أنّها سمعت إسمي يتردّد على لسان إحدى الطّبيبات العضوات في لجنة الأطبّاء النّفسيّين والعقليّين، ممّا يدلّ على أنّي سأعرض عليهم خلال يومين لا أكثر، بعد انتظار طويل بسبب آلاف الإصابات الحقيقيّة والمزيّفة.

لقد قرّروا الإحتفاظ بي مؤقتا.

لم يقنعهم اضطراب ما بعد الصّدمة الذي أعاني منه، كغيري من الجنود المتذمّرين ممّا يحدث.

الآن وقبل أسابيع؛ أصبحت قيادة الجيش التي بلغت خسائره البشريّة حوالي خمسة عشر ألف قتيل في هذا الشّهر؛ تستدعي حتّى الجنود الذين يعانون فعليّا من آثار ما بعد الصّدمة، ناهيك عن ثلاثة آلاف استدعاء لطائفة «الحريديم»، وهذا كلّه من أجل تغطية العجز، وملء الفراغ الذي تركه القتلى، والفارّين بجلدهم من المستنقع.

والكثيرون تلقّوا استدعاءات للمحاكمة العسكريّة، حين رفضوا الإلتحاق بوحداتهم، والبعض تمّ اعتقالهم مباشرة من منازلهم، وفي أماكن عملهم، وفي الحواجز المقامة على الطّرق، وهو ما اعتبرته وقتا ملائما جدّا لتنفيذ خطّتي التي إتّفقت مع خالتي مسبقا عليها.

الهروب من المستشفى، الذي بدأ يشهد فوضى غير مسبوقة من عائلات القتلى.

وحان وقت التّنفيذ، بعد أربع وعشرين ساعة من الفيديو الذي أرتني إيّاه «باولا»، الفيديو الذي صوّرته صديقتها المقرّبة «جيروشا»، واعتبرناه جميعاً انتصار عدالة المنطق، في غياب منطقيّة العدالة.

في زيارتها الرّوتينيّة؛ أحضرت لي خالتي ملابس مدنيّة، متعمّدة اختيار ألوان باهتة، كي لا تلفت الأنظار بين حشود الزّائرين، وتسلّلت خارجاً بشكل عادي، كزائر لأحد المصابين مواسيا لها، بينما تظاهرت هي بالبكاء أمام النّاس والحرّاس، وتظاهرت أنا بدوري بإسنادها، كما ساعد مرور إحدى العائلات المكلومة على فلذة الكبد أمامنا، على تكوين مشهد دراميّ لا يرقى إليه الشّكّ أبدا.

فجأة لمحت «ميمي بايولا» من بعيد، بقامته الهيفاء، واقفاً مع إحدى الطّبيبات، بدا لي مشغولاً بشيء ما، لدرجة أنّه لم يلقِ طرفاً لأيّ مارّ أمامه، بعدما كان يدقّق حتّى في شكل الذّبابة المحلّقة في الجوّ، ونوع النّملة السّائرة على أرضيّة الغرفة.

كدت أكشف نفسي ضاحكاً لّما سمعته –وأنا مارّ بجانبه–، يستفسر متلهّفا عن ابن أخته الذي أحضروه قبل ساعات، بعدما نال ورفقائه من سخاء «كتائب القسّام» الكثير، قذيفة من أجود ما صنع الذّراع العسكريّ لحركة «حماس»:

– أرجوكِ دكتورة، يقول رؤسائي أنّي بطيء الفهم والإستيعاب، كيف تصيب القذيفة ابن أختي إصابات حرجة، بينما تلقّى رفقاؤه بعض الشّظايا القليلة؟، هذا من جهة...

فقاطعته بغضب وهي تحاول إنهاء الحديث معه:

– أكّدت لك مرارا أنّ ابن أختك المعتوه لم يكن يرتدي سترته المضادة للرّصاص، لقد خالف الأوامر ونزعها، هذا من جهة، من جهة ثانية؛ كان قريباً جدّا من مكان انفجار القذيفة، عكس رفقائه الذين كانوا في غرفة أخرى، لقد أعدت لك هذا الكلام أكثر من خمس مرّات، وفي كلّ مرّة تعيد نفس السّؤال، دعني أسألك شيئا.

– يسعدني تعاطفك، يمكنك مناداتي «ميمي بايولا» فقط دون ألقاب رسميّة، لاحظي جيّدا أنّنا نتحدّث كأصدقاء.

– أنا لا أتعاطف معك سيّد «بايولا» ولا يهمّني من تكون.

زمجرت في وجهه، ودون أن تترك له فرصة استيعاب ما يجري أمامه، أطلقت عليه رصاصة الرّحمة:

– كيف أدخلوك الإستخبارات العسكريّة وأنت تتمتّع بكلّ هذا الذّكاء الحادّ؟.

ولمحت وجهه المحمرّ لّما التفتّ، وهو يحاول مداراة غبائه متلعثما، فبدا كبارون جُرّد من لقبه.

لكن، قبل ذلك بيوم واحد؛ وبابتسامة النّصر دخلت غرفتي حاملة باقة ورد أصفر على غير عادتها، ثمّ أعطتني هاتفها بطريقة الواثقة من نفسها:

– دعني أريك شيئا ستسرّ به أيّما سرور.

لم تلتفت لأيّ مصاب في الغرفة، كان معي ثلاثة جرحى، أُخرجوا البارحة من غرفة العمليّات، بعدما أضافوا سريراً جديداً على حساب الأريكة، لم أتبيّن المحتوى الذي أرتني إيّاه، بسبب التّشويش المنطلق من الرّواق لعائلات تنتحب، إلاّ بعد إعادته مرّتين، وتركيزي بصعوبة على شخص يسير في الشّارع، ثمّ يرتسم عليه مثلّث أحمر، وتقترب منه امرأة من «الحريديم» بعد الزّاوية مباشرة، فتطعنه ثلاث طعنات، إثنتان في البطن وواحدة في الصّدر، على مستوى الكبد، والمعدة، والقلب.

– غير معقول، هل وصلت إليه «كتائب القسّام»؟.

– بل أنا من وصلت إليه.

– هل تقصدين أنّكِ أنتِ المرأة التي...

وهزّت رأسها موافقة دون أن تتركني أتمّ جملتي.

مع اهتزاز رأسها اهتزّ قلبي، وأنا أعاين الآن انتقام النّساء.

(34)

– كنت أتابع تحرّكاته بمساعدة إحدى المجنّدات في الشّرطة، حتّى إنّه تفاجأ بي، لم يخطر على باله مطلقا أن يحدث له ذلك، خاصّة وأنّه كان في منطقة آمنة بعد أن أجرى لقاء مع أحد أعضاء تنظيم «فتية التّلال» في مطعم مجاور، رصدناه في «القدس»، حين أراد ممثّل عن هذا التّنظيم رؤيته بصفة عاجلة، فقدّرت أنّهم أرادوا وساطة منه للتدخّل في قضيّة «لميس الجعّار»، التي اعتدى عليها أفراد منهم، بعد أن تاهت رفقة شقيقتيها وابنتها، ووجدن أنفسهنّ وجهاً لوجه مع شباب من مستوطنة «جفعات رونين»، في التّاسع من أغسطس المنصرم، هل تتذكّر؟.

وانتظرت بعض الثّواني لتكمل:

– أحرقوا سيّارتهنّ، ورشّوا الغاز في وجه طفلتها المسكينة البالغة ثلاثين شهرا، إعتقلت الشّرطة أربعة منهم، ووصلت القضيّة إلى رئيس الدّولة، الذي اتّصل بالفتاة معتذراً للتّعمية، هذا التّنظيم يشبه التّشكيلات الفوضويّة إلى حدّ بعيد؛ يضمّ بين صفوفه المشرّدين، وأصحاب السّوابق، والمتسرّبين من المدارس، أيّ باختصار؛ أدنى طبقات المجتمع الإسرائيليّ، حيث يسود الجهل والأميّة بينهم، ممّا يغري أيّ سياسيّ باستغلالهم، ثمّ التّخلّص منهم بسهولة، مثلما فعل «أرييل شارون»، ويفعل الآن «بن غفير»، باسطاً ذراعيه لهم بالتّرحيب، وملمّعا صورهم، وهو يعي جيّدا ما حقيقتهم، أداة قذرة بين يدي قذر.

– أنت خطيرة يا «باولا»؛ لكن... سيقبضون عليك.

قلتها متأسّفا على حالها، غير أنّها أرسلت ضحكة خفيفة، ومضت في كلامها بنبرة رزينة:

– مستحيل؛ لا يوجد شهود، وفي ظلّ الكاميرا، ودبّرت خروجي من هنا للأبد؛ لديّ جواز سفر كنديّ، هل تعرف؟.

– كيف وأمر استدعائكِ للمحاكمة؟؛ أنتِ في نظر القانون فارّة من أداء الخدمة العسكريّة دون سبب وجيه، ولا تنسي أنّ هناك مراقبة مشدّدة على المطارات.

– من صوّرت الفيديو لديها شقيق يعمل في شرطة الحدود، ولقد رتّبنا كلّ شيء منذ الدّقائق الأولى، بعيدا عن المطارات والموانئ، المهمّ أنّي انتقمت على طريقتي، بعيدا عن قوانينهم التي تسري على الضّعفاء.

– من صوّرته؟.

– «جيروشا»، من شرفة منزل قريب، وهي من وضعت المثلّث الأحمر، هل تعلم؟، تماماً مثل المقاومة، هل أخبرك؟، لقد خلّف الجيش حفرة كبيرة في «خان يونس» بعد انسحابه.

قالتها واضعة سبّابتها اليمنى على صدغها الأيمن، كإشارة لوجوب التّفكير العميق والتّأمّل، مضيفة في برود:

– من يضحك أخيرا سيضحك كثيرا.

وأتى إلى ذهني أنّ العصابة استغلّت الوضع العامّ في البحث عن الأنفاق لتبحث عن المذكّرات، وفوراً ارتبطت في مخيّلتي ضرورة لقاء «غارسيّا»، مع حتميّة وجود «نيتاي» في «القدس»، في مكتب من مكاتب «الموساد» السّرّيّة.

وازداد تعجّبي من جرأة وذكاء هذه الفاتنة الأرجنتينيّة، فقلت وأنا أتوقّع هجوم «ميمي بايولا» في أيّة لحظة:

– و«غارسيّا»؟.

– إختفى عن الأنظار، لكن أظنّ أنّه في مهمّة إستخباراتيّة، وحين يعود سيجد شيئا سارّا ينتظره في المنزل.

وهزّت رأسها إيجاباً في حركة بطيئة، وعيونها تلمع:

– إنّها العدالة؛ إنّه مثلّث الحقّ.

ودون أن أسألها شيئا –معتبراً نفسي شريكها غير المباشر في الإنتقام–، راحت العبارة تتردّد في سمعي، وما زالت تتردّد، حتّى ودّعتني، بعدما سمعت صوت الممرّضة في الرّواق المزدحم بالعائلات.

وسط استمرار ذهولي من شجاعتها؛ قمت من فراشي أراقبها من باب الغرفة، داعيا الرّبّ ألاّ تلتقي المدعو «ميمي بايولا».

(35)

أمام الأعين الكبيرة للشّرطة، وعبر مطار «بن غوريون» مررنا مثل الدّيبلوماسيّين، ولا أحد تجرّأ على تفتيشنا.

ومن ذا الذي يتجاسر على تفتيش أناس أوصت عليهم جهة نافذة من وراء المحيط؟.

بدت خالتي عليلة وهي تردّ على الجمل الرّوتينيّة للضّبّاط، السّائلين عن صحّتها، وهي الثّكلى التي نأى الفرح عن قلبها منذ أيّام، مثلنا نتأى الآن عن المستنقع، نأيا يعكس بوضوح تامّ مدى النّفوذ الذي نتمتّع به نحن «الأشكيناز».

نعم، إستطعت الخروج من إسرائيل، والنّجاة من السّفينة المهدّدة بالغرق، بفضل صهري وشبكة معارفه الواسعة، وخطوط هاتفه الطّويلة، ودعوات أمّي الصّالحة التي كلّما تذكّرتها خالتي؛ بكت عليها مثل طفلة صغيرة، سُلبت منها دميتها، فأمضت ذلك اليوم بلا طعام ولا شراب.

خالتي التي شاركت بكلّ قوّتها في كلّ الإعتصامات، من أجل الأسرى، رغم مضايقات شرطة «نتنياهو» و«بن غفير» لا غفر الرّبّ له، حتّى سقطت مغشيّا عليها ذات ليلة من ليالي السّبت، لتتّضح إصابتها بداء السّكّريّ، نتيجة الضّغوط المتراكمة، والتوتّر الشّديد الذي لزمها طول مدّة الحرب، واعتقال «دييغو»، إبنها المدلّل، ثمّ جاء خبر مقتله كالصّاعقة بعد يومين من عودته، ليزيد من حالتها سوءا، وتنهار كلّيّة في المستشفى لأكثر من عشرة أيّام، كنت خائفا خلالها أن تلقى نفس مصير أمّي، وتختفي رائحة أسرتنا بين روائح هذا المستنقع القذر.

أمّا «دييغو» الذي ظلّ مختفيا متنقّلا من مكان لآخر، فقد أعادوه غصباً للجيش، بعد وشاية حقيرة من جارتها، التي انتقمت منه بعد رفض خالتي زواجه من ابنتها البلهاء، ثمّ خيّروه بين وحدته العسكريّة، أو السّجن خمسة أعوام كاملة.

وحين قُتل؛ أتى لمنزلها بكلّ جسارة ووقاحة من يطالبها بالتّكتّم على الخبر، مقابل عشرين ألف شيكل، كأنّ الذي قُتل كلب ضالّ متشرّد من كلاب الشّوارع، فقرّرت الهجرة العكسيّة، بعد أكثر من عام على إعلان الحرب على أصحاب الأرض الحقيقيّين.

رحلة مرهقة دامت ساعات، أعلن قائد الطّائرة في دقائقها الأخيرة وصولنا لمطار «نيويورك»، ولم تتنفّس خالتي الصّعداء، إلاّ حين رأت «دينا» بباقة ورد تحملها بين يديها، و«شارلوت» رفقة زوجها «ألبرت» في استقبالنا.

ما أشبه اليوم بالبارحة.

«دينا» التي فرّقتني الصّهيونيّة عنها منذ سنوات، ها هي اليوم تراني أرفع شيء لديها في الوجود، بعد مغامرتي الفاشلة مع نزعة ستُسحق طال الزّمن أم قصر، وستُداس تحت أقدام مسلمين صدّيقين من طراز فريد، أمثال «تيسير أبي طعمة»، الذي لقى ربّه ساجداً بإصابة خطيرة في العمود الفقريّ، و«عاهد أبي ستّة»، والمقاتل الأنيق «هشام حمزة عامر»، و«عبادة أبي هين»، و«أيمن شويدح»، والشّيخ «حسن نصر الله»، الذي كان ضحيّة قنبلة بوزن أكثر من تسعمائة كيلوغرام، في حين أيقن أغلب اليهود مصيدقم، التي ما فتئت رائحة طعومها تجذب نحوها أصحاب الأطماع الطّائشة، والنّوايا الطيّبة على حدّ سواء.

لقد كان «دافيد» يهوديّا أبّا عن جدّ، من عائلة يهوديّة عريقة في «المغرب»، مثل «باولا»، و«أتارا»، و«ليزا»، و«ديميتري»، وأختي الصّغيرة «ريتانا»، مثل «أغام» صديقتها المقرّبة، التي قُتلت في السّابع عشر من سبتمبر 2024 في «رفح»، وأنفقت عليها أمّها كلّ ما لديها من دموع، مثل «ميشال روكوفيسين»، أيقونة الجمال التي خرجت من هذه الحرب بفراغ بشع، مكان عينها اليسرى، مع تشوّهات فظيعة في الرّأس.

مثلي أنا و«دينا» زوجتي، سنبقى يهوديّان، ولتذهب الصّهيونيّة للجحيم.

نحن الآن ننتظر مولودا على أحرّ من الجمر، لا نريده أن ينشأ صهيونيّا، أو أن يُغسل دماغه بشعارات برّاقة غبيّة زائفة، ثمّ يُقتل مثل كلب ضالّ، سأخبره، وتخبره زوجتي، وخالتي، وصهري ونسيبتي وشقيقات «دينا» كلّهنّ، كما سأخبر أحفادي عن قناعة، ألاّ يثقوا أبدا في كلّ زعيم يحاول قيادتنا إلى المجهول، نحو الخراب الأبديّ، وأن يحذروا من أيّ أفّاق، حلو اللّسان معسول الكلمات؛ يرمي المجد على حساب المستضعفين من أبناء شعبنا.

شكرا «لؤي»، ممتنّ أنا لك بكلّ أشكال الإمتنان، لأنّك تستّرت عليّ بعدما تفطّنت لخطّتي، بل شكرا لأنّك قتلت من رآني أطلق النّار على رجلي، شكرا أيّها البطل، شكرا لك جزيل الشّكر، وشكرا لكلّ رفقائك في المقاومة، على اختلاف فصائلهم.

نحن شعب الشّتات وسنبقى شعب الشّتات، لأنّنا عصينا الرّبّ، فحكم علينا بالتّيه في العالم، يجب أن نعترف بهذا، بل يجب أن نكون شجعانا في قضيّة الإعتراف.

أمّا المثلّث الأحمر، فما زال علامة مميّزة لقتل كلّ ذي نزعة متطرّفة مغتصبة للأرض، كما يصلح جدّا أن يكون رمزاً سرمديّا للقضاء على كلّ شيء فاسد، لا يجب أن يعيش مطلقا، في أيّة منطقة من هذا العالم، وبأيّ حال من الأحوال.

تمّت الرّواية، شكرا على كرم صبرك، مع تحيّات المؤلّف

عبد الرزاق بن عمر (عبد الرزاق أنفو)

▼ من مواليد 1978 في «الجزائر» العاصمة، متزوّج وأب لـــ 3 أطفال، باحث مختصّ في الفكر الإنشاديّ الحديث منذ سنة 2002، كاتب وروائي، مكوّن نظري ومدرّب تطبيقي، مصمّم أغلفة وضابط فيزيولوجي للكتب الرّقميّة، خرّيج جامعة «البليدة» بشهادة ليسانس في علم الإجتماع التّربويّ، عن مذكّرة «دور الأنشودة الإسلاميّة في تربية المراهق».

مؤسّس عدّة نواد وفرق إنشاديّة، ومصحّح أصوات للمنشدين والمؤذّنين ومرتّلي القرآن الكريم، وفق أحدث الطّرق العلميّة، ومبتكر عدّة مناهج واختبارات وبرامج تدريب، «التّقليد الصّوتيّ للدّيوان الموسيقيّ»، كشف الفحص العامّ للقدرة الصّوتيّة المعروف اختصارا (SV 5)، كشف الفحص العام للقدرة الإستيعابيّة الصّوتيّة (SV 6)، كشوف المساحة الصّوتيّة بنسخها الثّلاثة، (SVS 1.1)، (SVS 1.2)، (SVS 1.3)، إضافة إلى برنامج التّدريب الصّوتي القرآني «أفق 1» و«أفق 2».

أتشرّف باستقبال ملاحظاتكم وآرائكم على البريد الإلكترونيّ :

Abderezak.info@yahoo.com

كما أُسعد كثيرا إذا تابعتم باستمرار ما أنشره على المنصّات الآتية :

www.vk.com/nadikondos | www.twitter.com/nadikondos

www.instagram.com/nadikondos | www.facebook.com/nadikondos